

تَهْدِيَةُ النَّفْسِ
وَتَجَرِيدُ التَّائِبِ
مِمَّا أُحْتَبِ مِنْ الْبَاطِلِ وَرَدِيءِ الْأَفَاوِيلِ

عَبْدُ الْقَادِرِ شَيْبَةُ الْحَمْدِ

عُضُوهُنَّةُ التَّدْرِيسِ بِقِسْمِ الدِّرَاسَاتِ الْعُلْيَا
بِالْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ سَابِقاً
وَالْمُدَرِّسُ بِالْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ

الجزء الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

يُوزَعُ مَجَانًّا وَلِإِيتَاعِ

③ عبد القادر شيبه الحمد، ١٤٣٢هـ
فهرسة مكتبة فهد الوطنية أثناء النشر
شيبه الحمد، عبد القادر
تهذيب التفسير وتجريد التأويل مما ألحق به الأباطيل وردىء
الأقاويل./عبد القادر شيبه الحمد-ط 2..- الرياض، 1432هـ
٦ مج.

ردمك ٢-٧٧٥٠-٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
٩-٧٧٥١-٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج ١)

١- القرآن - التفسير الحديث أ. العنوان
ديوي ٢٢٧/٦ ١٤٣٢/٦٠٨٣

رقم الإيداع: ١٤٣٢/٦٠٨٣
ردمك ٢-٧٧٥٠-٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
٩-٧٧٥١-٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج ١)

حُقوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ لِلْمُؤَلِّفِ
الطبعة الثانية
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

مؤسسة علوم القرآن

موبايل: ٠٠٩٦٦٥٠٥٦٥٣٩٩٠ بيروت تليفاكس: ٠٠٩٦١١/٦٤٢٨٣٢

دمشق هاتف: ٠٠٩٦١١/٦٤٢٨٣٢ فاكس: ١٣٢٧٧

E-mail: uloom.alquraan@gmail.com

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً * قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً * ما كثين فيه أبداً * وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً * ما لهم به من علم ولا لأبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم، إن يقولون إلا كذباً * والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على خاتم النبيين وسيد المرسلين محمد خير خلق الله أجمعين وعلى آله الطيبين وأصحابه الغر الميامين ومن سلك سبيلهم وترسم خطاهم ونهج منهجهم إلى يوم الدين، أما بعد : فهذا تفسير سهل يسير جمعت فيه أصح طرق التفسير بالرواية وأدق مسالك التأويل بالدراية وتجنب ما تسرب إلى كتب التفسير من أقوال رديئة، وروايات موضوعة أو ضعيفة، وقد سميت «تهذيب التفسير وتجريد التأويل» مما ألحق به من الأباطيل وردىء الأفاويل» وأسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، إنه رءوف رحيم.

عبد القادر بن شيبه الحمد

عضو هيئة التدريس بقسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية
بالمدينة المنورة سابقاً والمدرس بالمسجد النبوي الشريف

بِسْمِ اللَّهِ الْحَمْدُ الْحَمْدُ الْحَمْدُ

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين * إياك نعبد وإياك نستعين * اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾

أبتدئ باسم الله الرحمن الرحيم ، وهذه السورة المباركة تسمى سورة الفاتحة ، وأم القرآن والحمد وأم الكتاب ، والسبع المثاني ، والقرآن العظيم ، قال البخاري في صحيحه : حدثنا مُسَدَّدٌ حدثنا يحيى عن شُعْبَةَ قال : حدثني حُبَيْبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ حَفْصِ بْنِ عَاصِمٍ عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمَعْلَى قَالَ : كُنْتُ أَصِلِي فِي الْمَسْجِدِ ، فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَلَمْ أَجِبْهُ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أَصِلِي ، فَقَالَ : أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ ؟ ثُمَّ قَالَ لِي : لِأَعْلَمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّورِ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ . ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي ، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ قُلْتُ لَهُ : أَلَمْ تَقُلْ : لِأَعْلَمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ ؟ قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي ، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ . وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ هَذَا الْحَدِيثَ أَيْضاً فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْحَجَرِ فَقَالَ : بَابُ قَوْلِهِ تَعَالَى : «وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ» حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ حُبَيْبِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، عَنْ حَفْصِ بْنِ عَاصِمٍ ، عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمَعْلَى قَالَ : مَرَّ بِي النَّبِيُّ ﷺ وَأَنَا أَصِلِي ، فَدَعَانِي فَلَمْ آتِهِ حَتَّى صَلَيْتُ ، ثُمَّ أَتَيْتُ ، فَقَالَ : مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَ ؟ فَقُلْتُ : كُنْتُ أَصِلِي ، فَقَالَ : أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ» ثُمَّ قَالَ : أَلَا أَعْلَمُكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ

في القرآن قبل أن أخرج من المسجد ؟ فذهب النبي ﷺ ليخرج ، فَذَكَرَتْهُ ، فقال : « الحمد لله رب العالمين » هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أُوتِيَتْهُ . حدثنا آدم حدثنا ابنُ أبي ذؤيب حدثنا سعيد المقبريُّ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم . وقال مسلم في صحيحه : حدثنا حسن بن الربيع وأحمد بن جَوَّاس الحنفي قالا حدثنا أبوالأحوص عن عمار بن رزيق عن عبد الله بن عيسى عن سعيد بن جُبَيْر عن ابن عباس قال : بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سَمِعَ نَقِيضاً من فوقه ، فرفع رأسه ، فقال : هذا بابٌ من السماء فتح اليوم ، لم يُفْتَح قطُّ إلا اليوم ، فنزل منه مَلَكٌ ، فقال : هذا مَلَكٌ نزل إلى الأرض لم يَنْزَل قط إلا اليوم ، فَسَلَّمَ وقال : أَبَشِّرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيَتْهُمَا لم يُؤْتِهُمَا نبيُّ قبلك ، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منهما إلا أُعْطِيَتْهُ . وقد أخبر رسول الله ﷺ أن فاتحة الكتاب رُقِيَةٌ فقد روى البخاري في صحيحه من طريق أبي بشر عن أبي المتوكل عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ أَتَوْا على حيٍّ من أحياء العرب فلم يَقْرُوهُمْ ، فبينما هم كذلك إذ لُدَغَ سَيِّدٌ أولئك ، فقالوا : هل معكم من دَوَاءٍ أو رَاقٍ ؟ فقالوا : إنكم لم تَقْرُؤْنا ، ولا نفعل حتى تجعلوا لنا جُعْلاً ، فجعلوا لهم قطيعاً من الشاء ، فجعل يقرأ بأَم القرآن ويجمع بُزَاقَه وَيَتَفَل ، فَبَرَأ ، فَأَتَوْا بالشاء ، فقالوا ، : لا نأخذه حتى نسأل النبي ﷺ ، فسألوه فضحك وقال : وما أدراك أنها رُقِيَةٌ ؟ خذوه واضربوا لي بسهم . وأخرج مسلم من طريق أبي بشر عن أبي المتوكل عن أبي سعيد الخدري أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا في سفر ، فَمَرُّوا بحي من أحياء العرب ، فاستضافوهم ، فلم يُضيفوهم ، فقالوا لهم : هل فيكم رَاقٍ فإن سيد الحي لَدِيغٌ أو مُصَابٌ ؟ فقال رجل منهم : نَعَمْ ، فَأَتَاه فَرَقَاهُ بفاتحة الكتاب ، فَبَرَأ الرجل ، فَأُعْطِيَ قطيعاً من

غنم، فأبى أن يقبلها وقال: حتى أذكر ذلك للنبي ﷺ فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال: يا رسول الله ما رَقِيتُ إلا بفاتحة الكتاب، فتبسم، وقال: وما أدراك أنها رُقِيَتْ؟ ثم قال: خُذُوا مِنْهُمْ واضربوا لي بسهم معكم. وفي لفظ لمسلم من طريق محمد بن سيرين عن أخيه مَعْبُد بن سيرين عن أبي سعيد الخدري قال: نَزَلْنَا مَنْزِلًا، فَأَتَتْنَا امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: إِنَّ سَيِّدَ الْحَيِّ سَلِيمٌ لُدِغٌ، فَهَلْ فِيكُمْ مَنْ رَاقٍ؟ فَقَامَ مَعَهَا رَجُلٌ مَنَا مَا كُنَّا نَظُنُّهُ يُحْسِنُ رُقِيَّةً، فَرَقَاهُ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ، فَبَرَأَ، فَأَعْطَوْهُ غَنَمًا، وَسَقَوْنَا لَبَنًا، فَقُلْنَا: أَكُنْتَ تَحْسِنُ رُقِيَّةً؟ فَقَالَ: مَا رَقِيتُهُ إِلَّا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ قَالَ: فَقُلْتُ: لَا تُحَرِّكُوهَا حَتَّى نَأْتِيَ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ، فَذَكَّرْنَا ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: مَا كَانَ يُدْرِيه أَنَّهَا رُقِيَّةٌ، أَقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ مَعَكُمْ. كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مَرُّوا بِمَاءٍ، فِيهِمْ لَدِغٌ أَوْ سَلِيمٌ فَعَرَّضَ لَهُمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَاءِ، فَقَالَ: هَلْ فِيكُمْ مَنْ رَاقٍ؟ إِنْ فِي الْمَاءِ رَجُلًا لَدِغًا أَوْ سَلِيمًا، فَاَنْطَلِقْ رَجُلٌ مِنْهُمْ، فَقَرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ عَلَى شَاءٍ، فَبَرَأَ، فَجَاءَ بِالشَّاءِ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَكَرِهُوا ذَلِكَ، وَقَالُوا: أَخَذْتَ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ أَجْرًا؟ حَتَّى قَدِمُوا الْمَدِينَةَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخَذَ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ أَجْرًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنْ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللَّهِ. وَقَدْ أَطْبَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ فِي الصَّلَاةِ، وَأَخْبَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ طَرِيقِ الزَّهْرِيِّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الرَّبِيعِ عَنْ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ. وَلِذَلِكَ أَطْلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اسْمَ الصَّلَاةِ عَلَى فَاتِحَةِ الْكِتَابِ فَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ طَرِيقِ سَفْيَانَ بْنِ عَيْنَةَ عَنِ الْعَلَاءِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأَمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ ثَلَاثًا غَيْرُ تَمَامٍ. فَقِيلَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: إِنَّا نَكُونُ وَرَاءَ الْإِمَامِ؟ فَقَالَ: اقْرَأْ بِهَا

في نفسك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله تعالى : قَسَمْتُ الصَّلَاةَ
 بيني وبين عبدي نصفين ولعبي ما سأل ، فإذا قال العبد : الحمد لله رب
 العالمين * قال الله تعالى : حَسَنَ عِبْدِي ، وإذا قال : الرحمن الرحيم * قال الله
 تعالى : أَتْنَى عَلَيَّ عَبْدِي ، وإذا قال : مالك يوم الدين * قال : مَجَّدَنِي عَبْدِي ،
 وقال مرةً : فَوَضَّ إِلَيَّ عَبْدِي ، فإذا قال : إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * قال : هذا
 بيني وبين عبدي ولعبي ما سأل ، فإذا قال : اهدنا الصراط المستقيم صراط
 الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين * قال : هذا لعبدي
 ولعبي ما سأل . قال سفيان : حدثني به العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب
 دخلت عليه وهو مريض في بيته فَسَأَلْتُهُ أَنَا عَنْهُ اهـ وقوله تعالى : الحمد لله
 رب العالمين أي مجامع الحمد والثناء والشكر والمدح والرضا إنما يَسْتَحِقُّهَا الله
 المعبود بالحق وحده سيد كل شيء وخالقه ومالكه ومصلحه ومريه لا إله
 غيره ولا ربَّ سواه . والحمد هو الثناء على الله رب العالمين بالجميل على ما
 أسدى من النعم ، وعلى ما اتصف به من الأسماء الحسنى والصفات العُلى ،
 والرضا بقضائه وقدره فهو المحمود قبل حمد الحامدين وشكر الشاكرين ،
 والشكر هو الاعتراف والإقرار بالمنعم بنعمته ، وضده الكفر ، والمدح نقيض
 الذم ، والرضا ضد السُّخْط ، وكلُّ من الشكر والمدح والرضا داخل في حقيقة
 الحمد ، فَحَمْدُ الله عز وجل يقتضي من العبد الثناء على الله ، والإقرار بآلائه
 ونِعَمِهِ التي لا تُعَد ولا تحصى ، ووصفَ الله عز وجل بجميع صفات الكمال
 التي وصف بها نفسه أو وَصَفَهُ بها رسوله ﷺ وتَنَزَّيَهُ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ ،
 وخُضُوعِ القلب والجوارح واللسان لله عز وجل ، لأن جميع ما يصدر عن الله
 عز وجل يستحق الحمد عليه سواء كان مما يَعُدُّه العبد ضراً أو نفعاً كالعافية
 والبلوى ، والغنى والفقر ، والصحة والمرض ، والحياة والموت ، وغير ذلك ،
 فالله عز وجل محمود على كل حال ، لما أسبغ من نعم ظاهرة وغير ظاهرة وقد

وهم من زعم أن الحمد هو الثناء باللسان وحده، وأن الشكر يكون باللسان وبالقلب وبالجوارح مستندلاً بقول الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجّباً

فإن الحمد يشمل الشكر والمدح والرضا، وسائر الكائنات في الوجود تسبح بحمد الله بلسان الحال أو المقال على حد قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبَحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾. ولعظيم منزلة الحمد افتتح الله تبارك وتعالى به فاتحة الكتاب وأربع سُور من القرآن العظيم وهي سورة الأنعام وسورة الكهف وسورة سبأ وسورة فاطر، وفي حَيْز الحمد من هذه السُّور يلفت الله انتباه الخلق إلى موجبات حمده وشكره ومدحه والرضا بما يصدر عنه ففي سورة الفاتحة لفت الانتباه إلى أنه رب العالمين، الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين، وأنه وحده هو المستحق للعبادة فلا يجوز أن يُصَرَفَ شيء منها لغيره، وأنه وحده المستعان، وأنه الهادي إلى الصراط المستقيم، وفي سورة الأنعام لفت الانتباه إلى أنه وحده هو خالق السموات والأرض وجاعل الظلمات والنور، وفي سورة الكهف يلفت الانتباه إلى نعمته العظمى وحبته البالغة حيث أنزل القرآن العظيم والذكر الحكيم على خير خلقه وأفضل رسله وخاتم أنبيائه عبده محمد ﷺ ليرسم للإنسانية طريق سعادتها ومنهج رشدتها وعزها. وفي سورة سبأ يلفت الانتباه إلى أن جميع ما في السموات وما في الأرض لله عز وجل ملكاً ومُلكاً فهو المستحق للحمد في الدنيا والآخرة، وفي سورة فاطر يلفت الانتباه إلى أنه وحده هو الذي فطر السموات والأرض، وجعل الملائكة رسلًا وأنه على كل شيء قدير ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسكُ فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم﴾. كما نبّه الله تبارك وتعالى عباده إلى حمده في الصباح والمساء

والظهر والعشي حيث يقول في سورة الروم: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ * وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تُظهِرُونَ ﴿كَمَا نَبَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى افْتِتَاحِ الْخُطْبِ بِحَمْدِهِ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. كَمَا اخْتَتَمَ السَّلَامُ عَلَى الْمُرْسَلِينَ بِحَمْدِهِ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿كَمَا لَفَتَ انْتِبَاهُ عِبَادِهِ إِلَى حَمْدِ رَبِّهِمْ وَاسْتِغْفَارِهِ عِنْدَ تَمَامِ نِعْمَةٍ عَلَيْهِمْ لِيَحْفَظَهَا لَهُمْ حَيْثُ يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ الْقَصَصِ: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. وَيَقُولُ فِي سُورَةِ لُقْمَانَ: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ * اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾، وَيَقُولُ فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّكُ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وَقَالَ عَنْ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ وَقَالَ عَنْ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ: ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَقَالَ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ «وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا» وَنَبَهَ عِبَادَهُ إِلَى أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَخْتَمُونَ أَذْكَارَهُمْ بِحَمْدِ اللَّهِ حَيْثُ يَقُولُ فِي سُورَةِ يُونُسَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ * دَعَاوُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعَاوِهِمْ أَنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿وَأَشَارَ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى تَسْبِيحِ مَلَائِكَتِهِ بِحَمْدِهِ حَيْثُ يَقُولُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ عَنْ الْمَلَائِكَةِ: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ وَيَقُولُ فِي خَوَاتِيمِ الْمَسْكَ مِنْ سُورَةِ الزُّمَرِ عَنْ أَهْلِ

الجنة والملائكة : ﴿ وقالوا الحمد لله الذي صدّقنا وعده وأورثنا الأرض نتبأ من
 الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ﴾ وترى الملائكة حافّين من حول العرش
 يسبحون بحمد ربهم وقُضِيَ بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ﴿ كما
 قال عن أهل الجنة أنهم يقولون : ﴿ الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا
 لغفور شكور ﴾ الذي أحلّنا دار المقامة من فضله لا يَمَسُّنا فيها نَصَبٌ ولا
 يَمَسُّنا فيها لُغُوبٌ ﴾ وقد بيّن رسول الله ﷺ أن الله يحب أن يحمّده العبدُ
 ويشكره ويُثني عليه عند طعامه وشرابه وعند حصوله على ثوب جديد أو
 نعل جديدة وعند حدوث أية نعمة له فقد روى مسلم في صحيحه من
 حديث أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليرضى عن
 العبد أن يأكل الأكلة فيحمّده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها » كما
 روى أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن عن أبي سعيد الخدري رضي الله
 عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استجدّ ثوباً سمّاه باسمه —
 عمامة أو قميصاً أو رداءً — يقول : اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه أسألك
 خيره وخير ما صنّع له وأعوذ بك من شره وشر ما صنّع له . كما روى البخاري
 في صحيحه من حديث أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا رفع
 مائدته قال : الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه غير مكفٍ ولا مُستغنى عنه
 ربُّنا . كما روى أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن عن معاذ بن أنس
 رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من أكل طعاماً فقال : الحمد لله
 الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حولٍ مني ولا قوة غُفِرَ له ما تقدم من
 ذنبه . كما كان رسول الله ﷺ إذا استيقظ من نومه حمد الله فقد روى البخاري
 عن حذيفة وأبي ذر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان إذا استيقظ قال
 الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور . كما كان رسول الله ﷺ
 يستفتح التهجد بعد تكبيرة الإحرام بحمد الله فقد روى البخاري ومسلم

واللفظ للبخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال : اللهم لك الحمد أنت قَيِّمُ السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد لَكَ مُلْكُ السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت مَلِكُ السموات والأرض ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق ولقاؤك حق وقولك حق والجنة حق والنار حق والنيبون حق ومحمد حق والساعة حق . الحديث . كما كان من دعاء استفتاحه للصلاة ﷺ أن يقول : سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدُّك ولا إله غيرك . وقد صار حمد الله عز وجل في كثير من شعائر الإسلام كقوله في الرفع من الركوع سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد . وفي الركوع والسجود : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي . وفي التلبية في الحج أو العمرة : لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك . وبين رسول الله ﷺ أن من قال مائة مرة في يوم سبحان الله وبحمده حُطَّتْ خطاياه . فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حُطَّتْ خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر . كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ، كما روى مسلم من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيْمَانِ ، والحمد لله تَمْلَأُ المِيزَانَ وسبحان الله والحمد لله تَمْلَأُنِ أو تَمْلَأُ ما بين السموات والأرض ، وقد أمر رسول الله ﷺ من عَطِسَ أن يَحْمَدَ الله ، فقد روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : إذا عَطِسَ أحدكم فليقل : الحمد لله ، وليقل له أخوه أو صاحبه : يرحمك الله ، فإذا قال له يرحمك الله

فليقل له : يَهْدِيكُمُ اللهُ وَيُصْلِحُ بِالْكَمِّ ، كما روى مسلم من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول إذا عَطِسَ أَحَدُكُمْ فَحَمِدَ فَشَمَّتُوهُ فَإِنْ لَمْ يَحْمَدِ اللهُ فَلَا تُشَمَّتُوهُ . كما روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال : عَطَسَ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَشَمَّتَ أَحَدُهُمَا وَلَمْ يُشَمِّتِ الْآخَرَ فَقَالَ الَّذِي لَمْ يُشَمِّتْهُ : عَطَسَ فَلَانِ فَشَمَّتَهُ وَعَطِسْتُ فَلَمْ تَشَمِّتْنِي فَقَالَ : هَذَا حَمْدُ اللهِ وَإِنَّكَ لَمْ تَحْمَدِ اللهُ .

وقد وصف رسول الله ﷺ قوله تبارك تعالی : ﴿الرحمن الرحيم﴾ بأنه ثناء على الله عز وجل حيث قال في حديث أبي هريرة عند مسلم : وإذا قال الرحمن الرحيم . قال الله تعالی : أَتْنِي عَلَى عَبْدِي . وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن العبد مهما كَمَلَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُحْصِيَ الثَّنَاءَ عَلَى اللهِ عز وجل حيث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم في صحيحه من حديث الصديقة بنت الصديق عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ . والرحمن الرحيم من أسماء الله الحسنى . وأهل السنة يُثَبِّتُونَ اللهُ عز وجل مَا أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ أَوْ أَثْبَتَهُ لَهُ رَسُولُهُ ﷺ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَالصِّفَاتِ الْعُلَى مِنْ غَيْرِ تَأْوِيلٍ وَلَا تَعْطِيلٍ ، وَلَا تَكْيِيفٍ وَلَا تَحْرِيفٍ ، وَلَا تَشْبِيهِ وَلَا تَمْثِيلٍ ، وَمَهْمَا خَطَرَ بِبَالِكَ فَإِنَّ رَحْمَةَ اللهِ فَوْقَ ذَلِكَ ، وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِسَبِيٍّ فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَسْعَى إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَالْزَقَتْهُ بِبَطْنِهَا فَأَرْضَعَتْهُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ ؟ قُلْنَا : لَا وَاللَّهِ ، فَقَالَ : اللهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلَدِهَا . كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ . إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي ، وَفِي رِوَايَةٍ : غَلَبَتْ غَضَبِي . وَفِي رِوَايَةٍ :

سبقت غضبي . كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : جَعَلَ الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين ، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً ، فَمِنْ ذلك الجزء يتراحم الخلائق حتى تَرْفَع الدابة حافرهما عن ولدها خشية أن تصيبه . وفي رواية : إن الله تعالى مائة رحمة ، أنزل منها رحمةً واحدةً بين الجن والإنس والبهائم والهوام ، فَبِهَا يتعاطفون ، وبها يتراحمون ، وبها تَغْطِفُ الوحشُ على ولدها ، وأُخِرَ الله تعالى تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة . ورواه مسلم من حديث سلمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن الله تعالى مائة رحمة فمِنها رحمة يتراحم بها الخلقُ بينهم . وتسعة وتسعون ليوم القيامة . كما روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طَمَعَ بجنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قَنَطَ من جنته أحد . وقد وصف الله عز وجل نفسه بأنه أرحم الراحمين . وأن رحمته وسعت كل شيء كما قال عز وجل : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسَّعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ . وقد جعل الله عز وجل اليأس من رحمة الله علامة الكفر حيث يقول عز وجل : ﴿ وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ وقال عز وجل : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذَّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ والله دَرُّ القائل :

فؤادي من ذنوبي في لهيب	توهَّجَ حَرٌّ مِسْرَى أو أيبب
ولست بقانط أبداً لأنني	رأيت الله أرحمَ من أبي بي

وقد وصف الله عباده الصالحين بأنهم يرجون رحمة الله ويخافون عذابه حيث يقول عز وجل : ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ نَبِيُّ عِبَادِي أَنِي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ * وأن

عذابي هو العذاب الأليم ﴿١﴾ . وقوله عز وجل : ﴿مالك يوم الدين﴾ هو تمجيد لله تبارك وتعالى كما جاء في حديث أبي هريرة عند مسلم : وإذا قال : مالك يوم الدين قال : مجّدني عبدي . وقد قرأ عاصم والكسائي ويعقوب ﴿مالك يوم الدين﴾ وقرأ الباقر ﴿ملك يوم الدين﴾ وهي قراءة أهل الحرمين . فكلتا القراءتين سبعة متواترة ، والمَلِكُ بفتح الميم وكسر اللام من له المُلْكُ بضم الميم وسكون اللام أي من له السلطان القاهر ، والاستيلاء الباهر والغلبة التامة ، والحُكْمُ في جميع شؤون الخلائق ، فمعنى ملك يوم الدين أي المتصرف في شؤون خلقه وحده يوم القيامة ، فكُلُّ ذي سلطان في الدنيا قد انقطع سلطانه ، وقد أشار الله عز وجل إلى ذلك في كتابه الكريم حيث يقول عن مشهد من مشاهد يوم القيامة : ﴿لن المَلِكُ اليومَ اللهُ الواحدُ القهارُ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿المَلِكُ يومئذُ الحقُّ للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾ . والله تبارك وتعالى هو الملك الحق دائماً وأبداً وكما قال الحق تبارك وتعالى : ﴿قوله الحق وله الملك يوم يُنفَخُ في الصور﴾ . والمالك مَنْ له المَلِكُ بكسر الميم وسكون اللام وهو من يملك الرقبة . والله تبارك وتعالى هو مالك الرقاب ومَلِكُهَا ، فهو المهيمن على جميع خلقه ، ونواصي كل العالمين بيده يحكم فيها بما يشاء ويقضي ما يريد ، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ، والدين الجزاء والحساب ومنه قوله تعالى : ﴿أئنا لمدينون﴾ أي لمحاسِبُونَ ومجزيون بأعمالنا ، ومنه قوله تعالى : ﴿يومئذ يوفيهُم اللهُ دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾ قال البخاري في صحيحه : والدين الجزاء في الخير والشر ، كما تدين تدان ، وقال مجاهد : بالدين : بالحساب ، مدينين محاسبين اهـ وقال لييد :

يُدَانُ الفتى يوماً كما هو دائن

حَصَادُكَ يوماً ما زَرَعْتَ وإنها

وعلى حد قول الشاعر :

ولم يبق سوى العُذْوَان دِنَّا هُمْ كَمَا دَانُوا
وتخصيصه تعالى بأنه المَلِكُ المَالِكُ ليوم الدين — وإن كان هو الملك
المالك لجميع الدنيا والآخرة — لأنه إذا جاء يومُ القيامة لا يدعي أحد فيه
مُلْكًا وَلَا مِلْكًا عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَأْتُ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمَنْهُمْ
شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ وكقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ
إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾. وكقوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ
لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾. وكقوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ
وَقَدْ خَابَ مِنْ حَمَلِ ظُلْمٍ﴾. وقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال
ابن كثير رحمه الله في تفسيره: أي لا نعبد إلا إياك . ولا نتوكل إلا عليك .
وهذا هو كمال الطاعة، والدين كله يرجع إلى هذين المعنيين، وهذا كما قال
بعض السلف: الفاتحة سرُّ القرآن، وسِرُّها هذه الكلمة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ﴾ فالأول تَبَرُّؤُ من الشرك، والثاني تَبَرُّؤُ من الحول والقوة، والتَّقْوِيضُ
إلى الله عز وجل، وهذا المعنى في غير آية من القرآن، كما قال تعالى:
﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا
بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾، ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ اهـ .
والعبادة هي بذل أقصى غاية الحب مع أقصى غاية الذل للمعبود ولها
مراسيم قد حددتها شريعة الإسلام من توحيد الله عز وجل والصلاة والزكاة
والصيام والحج وجميع ما يتقرب به إلى الله عز وجل وحده لا شريك له،
ومنها الرغبة والرغبة وخوف السر والرجاء والإنابة والقنوت والإحبات، وهذه
الحقيقة هي التي من أجلها خلق الله الإنس والجن، وأقام السموات
والأرض، وينصب يوم القيامة سوق الجنة والنار، حيث يقول عز وجل:
﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ
يُطْعَمُوا * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ ولتحقيق التوحيد أرسل الرسل

وأنزل الكتب ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة، فالسعيد من عبد الله وحده واستعان به، وإذا حقق العبد معنى ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ انطبق عليه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل في حديث أبي هريرة عند مسلم: فإذا قال: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدني ما سأل. ولا شك أن من عبد الله وحده وتوكل عليه واستعان به كفاه الله ما أهمه من أمور الدنيا والآخرة، وجعل له من كل ضيق فرجاً ومن كل كرب وشدة مخرجاً، وإلى ذلك يشير الله عز وجل حيث يقول: ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً. والله در القائل:

إذا كان عون الله للعبد مُسْعِفاً تأتي له من كل شيء مرادُهُ
وإن لم يكن عونٌ من الله للفتى فأول ما يقضي عليه اجتهاده
وما أحسن ما أنشد ابن دقيق العيد:

وقائلة مات الكرام فمن لنا إذا عَضَّنَا الدهر الشديد بنابه
فقلت لها من كان غاية همه سؤالاً لمخلوق فليس بنابه
لئن مات من يُرجى فمعطيهم الذي يرجونه باق فلو ذوابابه
وما أجمل قول القائل:

يا من ألوذ به فيما أومله ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره ولا يبيضون عظماً أنت جابره
وتحقيق ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ يعصم المسلم من مذهب الجبرية والمعتزلة القدرية.

وقوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ أي دُلَّنَا وأرشدنا ووفقنا وأهملنا طريقك المعتدل الذي لا اعوجاج فيه المؤصل إلى مرضاتك وجنات النعيم

بمتابعة رسولك والعمل بكتابك والوقوف عند حدودك والثبات على ذلك ، فإنه من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادي له ، هذا وفي تقديم : الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين * إياك نعبد وإياك نستعين بين يدي قوله : اهدنا الصراط المستقيم . الخ السورة لفت انتباه المسلمين إلى استحباب التوسل إلى الله عز وجل قبل الدعاء بأسمائه الحسنی وصفاته العلی وحمده والثناء عليه وتمجيده والإقرار بأنه لا معبود بحق سواه وأنه لا يستعان إلا به لأن ذلك أرجى للإجابة ، وقد أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ حيث لفت انتباه المسلمين إلى أن الإنسان المسلم إذا دعا الله تعالى بعد أن يذكر أرضى عمل تقرب به إلى الله عز وجل ، وعمله لوجهه الكريم حري أن يستجاب له ، حيث ذكر قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار ، فانطبقت عليهم الصخرة ، فتضرع كل واحد منهم إلى الله تعالى وذكر عملاً صالحاً وقال : اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفجرت عنهم الصخرة وخرجوا يمشون وقد رواه البخاري ومسلم مُطَوَّلًا من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ، وقوله تعالى ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ الخ . عطف بيان أو بدل كل من كل من قوله : الصراط المستقيم ، وهو تفسير للصراط المستقيم ، وأن سالكيه هم المنعم عليهم ، وقد بين الله تبارك وتعالى المنعم عليهم حيث يقول في سورة النساء : ﴿ ومن يطع الله ورسوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ﴾ وفيه إيحاء إلى الثناء على أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم فإن هؤلاء رأس المنعم عليهم بعد رسول الله ﷺ من أمة محمد ﷺ فقد وصف رسول الله ﷺ أبا بكر بالصدیق وعمر وعثمان بالشهيدین كما أنه لا شك في أن علياً رضي الله عنه قد مات شهيداً ، ولم يوصف بالصدیقیة من أمة محمد ﷺ أحد غير أبي بكر رضي الله عنه فهو أفضل الخلق بعد النبيين عليهم السلام ، فقد روى البخاري من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ صعد أهدأ وأبو

بكر وعمر وعثمان فَرَجَفَ بهم فقال : اثْبُتْ أَحَدُ فَإِنَّا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصَدِيقٌ وَشَهِيدَانِ ، وَفِي لَفْظٍ لِلْبَخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أَحَدٍ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ فَرَجَفَ بِهِمْ فَضْرَبَهُ بِرِجْلِهِ وَقَالَ : اثْبُتْ أَحَدٌ فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صَدِيقٌ أَوْ شَهِيدَانِ . كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ عَلَى حَرَاءٍ هُوَ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ فَتَحَرَّكَتِ الصَّخْرَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : اهْدَأْ فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صَدِيقٌ أَوْ شَهِيدٌ . أَمَّا الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمُ وَالضَّالُّونَ فَهُمْ كُلٌّ مِنْ كُفَرٍ بِاللَّهِ وَكَذِبِ الْمُرْسَلِينَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمُنَافِقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَسَائِرِ الْمَلَاحِدَةِ وَالِدَهْرِيِّينَ ، أَصْحَابِ الصِّرَاطِ الْمَعْوَجِ الْمُنْحَرِفِينَ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ مَنْ غَضِبَ عَلَيْهِمْ رَبُّ الْعِزَّةِ جَلَّ جَلَالُهُ وَتَاهَا عَنْ طَرِيقِ الرَّاشِدِينَ . وَقَدْ أَخْبَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عِنْدَ مُسْلِمٍ أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا قَالَ : اهْدُنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ . قَالَ : «يَعْنِي اللَّهُ» هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ . هَذَا وَيَسْتَحِبُّ لِمَنْ قَرَأَ الْفَاتِحَةَ أَنْ يَقُولَ بَعْدَهَا : آمِينَ وَمَعْنَاهُ اللَّهُمَّ اسْتَجِبْ . فَقَدْ رَوَى أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَنُهُ مِنْ حَدِيثِ وَائِلِ بْنِ حُجْرٍ قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فَقَالَ : آمِينَ مَدَّ بِهَا صَوْتَهُ . كَمَا رَوَى الْبَخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : إِذَا أَمَّنَ الْإِمَامُ فَأَمَّنُوا فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينَهُ تَأْمِينَ الْمَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ ، كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى مَرْفُوعاً : وَإِذَا قَالَ — يَعْنِي الْإِمَامُ ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فَقُولُوا : آمِينَ يَجِبُكُمْ اللَّهُ . وَفِي لَفْظِ الْبَخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : إِذَا قَالَ الْإِمَامُ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ فَقُولُوا : آمِينَ ، فَمَنْ وَافَقَ قَوْلَهُ قَوْلَ الْمَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ .

تفسير

سورة البقرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ
وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ
هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

هذه سورة البقرة، وإنما سميت سورة البقرة لأن الله تعالى ذكر فيها قصة
بقرة بني إسرائيل، المنبئة عن تعنت بني إسرائيل وتنطعهم في دين الله — ولن
يشادّ الدين أحد إلا غلبه — المقررة لإثبات رسالة الرسل، وقدرة الله تعالى
على إحياء الموتى، وبعض مظاهر آيات الله عز وجل وعلامات قدرته ليعقل
الناس ويسلكوا صراط الله المستقيم، وقد روى مسلم في صحيحه من
حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ﴿لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ
مَقَابِرَ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفَرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ﴾ كما روى
مسلم من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله
ﷺ يقول: اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرأوا
الزَّهْرَاوَيْنِ البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو
كأنهما غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صوافٍ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقرأوا
سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة. كما روى
مسلم في صحيحه من حديث النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْكِلَابِيِّ رضي الله عنه
قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين
كانوا يعملون به تَقْدُومُهُ سورة البقرة وآل عمران. وضرب لهما رسول الله ﷺ

ثلاثة أمثال ما نَسِيَتْهُنَّ بعدُ، قال: كأنهما غَمَامَتَانِ أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ أَوْ كَأَنَّهُمَا حِرْزَقَانِ مِنْ طَيْرِ صَوَافٍ تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبَيْهِمَا . اهـ ومعنى الزهراوين أي المضيئتين فالزهراوان تشية الزهراء والزهراء تأنيث الأزهر وهو المضيء الشديد الضوء، وقد وصفت البقرة وآل عمران بهذا الوصف لما اشتملتا عليه من أنوار الأحكام الشرعية، والأخلاق العَلِيَّةِ، وأسماء الله الحسنى وصفاته العُلَى، وقوله: كأنهما غمّامتان أي سحابتان تَظْلَانِ صاحبهما عن حَرِّ الموقف عند دُنُوِّ الشمس من رؤوس الخلائق يوم القيامة . وقوله: أو كأنهما غيايتان أي كأنهما ظلتان فالغياية كل شيء أظل الإنسان من فوق رأسه كالسحابة وغيرها . . وقوله: كأنهما فرقان أو كأنهما حِرْزَقَانِ هما بمعنى واحد ومعناها قطيعان وجماعتان، وقوله صَوَافٍ هي جمع صَافَةٍ وهي الطير التي تبسط أجنحتها في الهواء، وقوله: تُحَاجَّانِ عن أصحابهما أي تدافعان النار والزبانية عن وجوه أصحابهما يوم القيامة وَتَشْفَعَانِ لِقُرَائِهِمَا بقوة وقوله: سوداوان أي كثيفتان لَا يَتَسَرَّبُ منهما شيء من حر الموقف، وقوله: بينهما شَرْقٌ هو بسكون الراء ويجوز فتحها ومعناه الضَّوْءُ . ولا خلاف عند أهل العلم أن سورة البقرة كُلُّهَا مدنية نزلت على رسول الله ﷺ بعد هجرته إلى المدينة المنورة وقد افْتُتِحَتْ سورة البقرة بقوله عز وجل ﴿الْمَ﴾ وقد افتتح الله تبارك وتعالى تسعا وعشرين سورة بالحروف المفرقة فافتتح بقوله عز وجل ﴿الْمَ﴾ سورة البقرة وآل عمران والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة وبقوله عز وجل ﴿الْمَصَّ﴾ الأعراف وبقوله عز وجل ﴿الرَّ﴾ سُورَةُ يُونُسَ وهود ويوسف وإبراهيم والحجر وبقوله عز وجل: ﴿الْمَرْ﴾ الرعد وبقوله عز وجل: ﴿كَهَيَّعَصَ﴾ مريم وبقوله عز وجل ﴿طَهَ﴾ سورة طه وبقوله عز وجل ﴿طَسَمَ﴾ الشعراء والقصص وبقوله عز وجل ﴿طَسَ﴾ النمل وبقوله عز وجل ﴿يَسَ﴾ سورة يس وبقوله عز وجل ﴿صَ﴾ سورة ص وبقوله عز

وجل ﴿حَمْ﴾ سُورَ غافر وفصلت والزخرف والدخان والجناثية والأحقاف
وبقوله عز وجل ﴿حَمْ. عَسَق﴾ الشورى، وبقوله عز وجل ﴿ق﴾ سورة ق
وبقوله عز وجل ﴿ن﴾ سورة القلم ومجموع الحروف المفرقة المذكورة في أوائل
السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً وهي ال م ص ر ك ه ي ع ط س
ح ق ن يجمعها قولك: نَصَّ حكيم قاطعٌ له سرٌّ، وهي نصف حروف الهجاء
عدداً وقد اشتملت على أصناف أجناس الحروف من المهموسة والمجهورة
ومن الرخوة والشديدة، ومن المُطَبَّقة والمفتوحة، ومن المستعلية والمنخفضة،
ومن حروف القلقة، وقد عُلِمَ قطعاً أن رسول الله ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا
يكتب على حد قوله تعالى: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه
بيمينك﴾ وقوله تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم
آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال
مبين﴾ فمجيء هذه الحروف في افتتاحيات هذه السور بهذه الصفة معجزة
ظاهرة لرسول الله ﷺ وبرهان قطعي على أنه من عند الله، ولذلك ذهب
جماعة من محققي العلماء إلى أن المقصود من هذه الحروف هو الإعجاز
والتحدي للعرب والعجم والإنس والجن كما أن مجيئها على حرف واحد كقوله
ص ن ق وعلى حرفين كقوله: حم وعلى ثلاثة أحرف كقوله الم وعلى أربعة
أحرف كقوله المر والمص وعلى خمسة أحرف كقوله كهيعص وحم. عسق
يلفت انتباه ذوي العلم الذين يعلمون أن الكلام إنما يجيء على حرف أو
حرفين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة لا غير بأن هذا القرآن من عند الله لأنه
مركب من نفس الحروف التي يتركب منها كلامهم وعلى الأساليب التي
يعبرون بها، ومع ذلك فقد تحداهم أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو
بسورة من مثله، وبين الله عز وجل عجزهم حيث يقول: ﴿قل لئن
اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان

بعضهم لبعض ظهيرا ﴿ وعلى مدى ثلاث وعشرين سنة التي نزل فيها القرآن وإلى اليوم لم يظهر على وجه الأرض مَنْ يدَّعي أنه يقدر على أن يعارض هذا التحدي مهما ارتفعت معارفهم وتقدمت مدارسهم ، ومما يؤيد أن المقصود من ذكر هذه الحروف المفرقة في أوائل السور هو الإعجاز والتحدي وإثبات أنه من عند الله تبارك وتعالى أن الله يذكر عَقَبَ هذه الحروف في افتتاحيات السور القرآن صراحةً أو ضمناً ثم يذكر اختلاف الناس بين مؤمن به أو مُكذِّبٍ له وأن المؤمنين يحصل لهم عز الدنيا وسعادة الآخرة وأن المكذبين يرجعون بخزي الدنيا وعذاب الآخرة ، ثم يختم السورة بمثل ما بدأها به من مدح القرآن والمؤمنين به وذم المكذبين وبيان سوء عاقبتهم . كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ * الله لا إله إلا هو الحي القيوم * نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل * من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام ﴾ وقال : ﴿ المص * كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين ﴾ وقال : ﴿ الر * تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ وقال عز وجل : ﴿ الر * كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ الخ هذه الافتتاحيات الكريمة . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ذلك الكتاب ﴾ أي هذا الكتاب العالي المنزلة الرفيع الدرجة الكامل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فالإشارة بقوله ﴿ ذلك ﴾ لعلو منزلته ورفيع درجته وأل في ﴿ الكتاب ﴾ للكمال كما تقول : زيد الرجل أي الكامل في الرجولية ، و﴿ الكتاب ﴾ هو القرآن ، والقرآن هو كلام الله تعالى المنزل على رسوله محمد ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام المنقول إلينا تواترا المعجز بأقصر سورة منه المتعبد بتلاوته . وهو حجة الله البالغة ومعجزته الباقية لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد ، كلما

تكرر زادت حلاوته ، أنزله الله تبارك وتعالى تبياناً لكل شيء ، من حكم به عدل ، ومن استمسك به فقد هُدي إلى الصراط المستقيم . وقوله تعالى : ﴿ لا ريب فيه ﴾ أي لا شك فيه ، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولا يتطرق الرِّيبُ إلى معانيه أو مبانيه ، أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، وبعض القراء يقف على قوله : ﴿ لا ريب ﴾ ويتدبّر بعد الوقف بقوله : فيه هدى للمتقين . وبعض القراء يقف على قوله : ﴿ فيه ﴾ ثم يتدبّر بقوله : ﴿ هدى للمتقين ﴾ والقاعدة عند القراء هنا أن من وقف على أحدهما لا يجوز له الوقف على الآخر والوقف على قوله : ﴿ لا ريب فيه ﴾ أولى لقوله عز وجل في أول سورة السجدة : ﴿ ألم تنزل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ ولا شك أن كون القرآن هدىً أولى من كونه فيه هدى ، والهدى النور والإرشاد والبيان والدلالة والدعوة والتنبيه والاهتداء ونقيض الضلال ، كما يطلق الهدى على توفيق الله تعالى للعبد وتأييده وتسديده وعونه ، واستعماله في طاعته ، وحفظه من الشيطان ، ودفع الشر عنه ، حتى يصل به إلى جنات النعيم ، والهدى الذي بهذا المعنى من التوفيق والتأييد تفرّد الله عز وجل به فلا يقدر عليه ملكٌ مقرب ولا نبي مرسل ، وفي ذلك يقول الله عز وجل لخاتم الأنبياء وسيد المرسلين محمد ﷺ : ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ﴾ ويقول رسول الله ﷺ في خطبته في حديث ضهاد الذي أخرجه مسلم في صحيحه : من يهده الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له ، والله تعالى يهدي من يشاء فضلاً ويضل من يشاء عدلاً وله الحكمة التامة والحجة البالغة ، أما الهدى الذي معناه البيان والدلالة والإرشاد والدعوة والتنبيه إلى الخير فهو وظيفة الرسل والدعاة إلى الله على بصيرة من أتباع المرسلين وفي هذا يقول الله عز وجل : ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ ويقول عز وجل : ﴿ ولكل قوم هاد ﴾ ومنه قوله

عز وجل : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ أي بينا لهم طريق الخير ليسلكوه وطريق الضلالة والكفر ليجتنبوه فاختاروا طريق الكفر وتركوا طريق الإيمان . والمراد بالمتقين في قوله عز وجل : ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ هم الذين يخافون عذاب الله ويرجون رحمته ويحرصون على طاعته . وقد وصفهم الله تبارك وتعالى في هذا المقام بقوله عز وجل : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون﴾ وأصل التقوى في اللغة العربية التَّوْقِي مما يكره مأخوذة من الوقاية قال النابغة :

سَقَطَ النَّصِيفُ وَلَمْ تُرْذِ إِسْقَاطُهُ فَتَنَّاوَلَّتْهُ وَاتَّقَتْنَا بِأَلْيَدٍ

وإنما خصَّ الله تبارك وتعالى المتقين بهدى القرآن لأنهم هم الذين يحرصون على الانتفاع به ، والوقوف عند حدوده وتحليل حلاله وتحريم حرامه ، وفي ذلك يقول الله عز وجل : ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ وكما قال عز وجل : ﴿وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شَفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ وكما قال عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَن هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَابُ﴾ . وقد قَسَمَ الله تبارك وتعالى الناس في هذا المقام إلى ثلاثة أقسام ، القسم الأول هم المتقون ، والقسم الثاني هم الكافرون والقسم الثالث هم المنافقون . والواقع أن جميع الناس الذين بلغوا حدَّ التكليف لا يخرجون عن هذه الأقسام الثلاثة ، وقد تحدث عن المتقين في ثلاث آيات من الآية الثالثة إلى الآية الخامسة وتحدث عن الكافرين المصرحين بكفرهم في آيتين من الآية

السادسة إلى الآية السابعة وتحدث عن المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر في ثلاث عشرة آية من الآية الثامنة إلى الآية العشرين . وقد وصف الله تبارك وتعالى المتقين هنا مع وصف التقوى بخمس صفات ثم حكم بأنهم على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون وقد بدأ الله عز وجل هذه الصفات الخمس بأنهم يؤمنون بالغيب ، ولا شك أن الإيمان بالغيب هو أهم صفات المؤمنين المتقين ، كما أن الكفر بالغيب هو أبرز صفات الكافرين ولا سيما الملاحدة والدهريين ، ولذلك كان من أخص صفات الشيوعيين ؛ أنهم لا يؤمنون إلا بالمادة ، ففي صدر تعاليمهم الشَّرِّيرة : لا إله والكون مادة . والمراد بالغيب الذي يسعد المؤمنون به هو الإيمان بالله وملائكته والقَدَرِ خيره وشره ، حُلُوهُ ومُمرُّه من الله عز وجل وجميع ما أخبر الله عز وجل به أو أخبر به رسوله ﷺ من أسماء الله الحسنى وصفاته العلى ، وسائر ما جاء عن الله أو صح عن رسوله ﷺ من أمور الغيب التي لا يشاهدونها عندما يجيئهم الخبر بها عن الله عز وجل أو عن رسوله ﷺ . أما الصفة الثانية من صفات المتقين فهي إقامة الصلاة أي الإتيان بها بمجودة بشروطها وأركانها في أوقاتها ابتغاء وجه الله عز وجل ، والصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام ، وهي أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة فقد روى الترمذي بسند حسن من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن أول ما يُحاسبُ به العبد يوم القيامة من عمله صلاتُهُ فإن صلحت فقد أفلح وأنجح ، وإن فَسَدَتْ فقد خاب وخسر ، فإن انتقصَ من فريضته شيء قال الربُّ عز وجل : انظروا هل لعبدي من تطوع فَيَكْمُلُ بها ما انتقصَ من الفريضة ، ثم تكون سائر أعماله على هذا كما روى مسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة . كما روى الترمذي بسند حسن صحيح عن النبي ﷺ قال : العهد

الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر. أما الصفة الثالثة من صفات المتقين فهي أنهم يؤدون زكاة أموالهم وما يلزمهم من النفقات ، أما الصفة الرابعة من صفات المتقين فهي الإيمان بما أنزل الله من كتاب سواء عَلِمَ لهم كالقرآن والتوراة والإنجيل والزبور أو لم يعلم لهم ، وهذا يقتضي الإيمان برسول الله ، والإيمان بكتب الله ورسوله من أركان الإيمان . أما الصفة الخامسة من صفات المتقين فهي الإيمان بالآخرة ، يعني التصديق بيوم القيامة وإنما سميت الآخرة لأنها بعد الأولى أي الدنيا وهو يقتضي الإيمان بالبعث بعد الموت وبالحساب والعرض على الله عز وجل والميزان والصراط ، والجنة للسعداء والنار للأشقياء ، وهذا كله وإن كان داخلاً في الإيمان بالغيب إلا أنه يُعَدُّ ركناً مستقلاً من أركان الإيمان ، وقد كفر به المشركون أشد الكفر وعارضوه أشد المعارضة ولذلك كانت السور المكية تدور في فلك حقائق ثلاث وهي الإيمان بالله والإيمان بالرسالة والإيمان بالبعث بعد الموت ، تقيم على ذلك الحجج وتسوق البراهين ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيٍّ عن بينة . وقوله عز وجل : ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي هؤلاء العظماء المتصفون بهذه الصفات الخمس على هدى أي على نور وبيان وبصيرة وبرهان من الله عز وجل وأولئك هم الفائزون الناجون الناجحون في الدنيا والآخرة ، والإشارة بأولئك لعلو منزلتهم ورفيع درجاتهم عند الله عز وجل ، والتعبير بَعْلَى في قوله عز وجل : على هدى من ربهم للدلالة على تمكنهم في الهدى وبُعْدِهِمْ عن كل ضلالة وانحراف ، إذ سلك الله بهم صراطه المستقيم ، وهداهم إلى الدين القويم . والحمد لله رب العالمين .

قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .

بعد أن وصف الله تعالى القسم الأول من أقسام المكلفين وهم المتقون بخمس صفات ذكر هنا في هاتين الآيتين الكريمتين حال القسم الثاني من الناس وهم الكافرون المصرّحون بكفرهم من المشركين واليهود والنصارى والملاحدة والدهريين وسائر من أنكر ما علّم من دين الإسلام بالضرورة ، وهاتان الآيتان الكريمتان ، في صنف خاص من الكفار وهم من علّم الله عز وجل أنهم يموتون على الكفر وأنهم لن تتسرب أنوار الإيمان إلى قلوبهم ، ولن يصل إليها شعاع من الهدى ، بسبب انسياقهم وراء الشيطان ، وقد أراد الله عز وجل أن يريخ رسول الله ﷺ مما كان يعانيه بسبب شدة حرصه ﷺ على هداية الناس حتى كاد يبيع نفسه كما قال عز وجل في سورة الكهف : ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾ . وكما قال في سورة الشعراء : ﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾ فبين الله عز وجل له أن من كتب الله عليه الشقاوة فلا يُسعده أحد ومن أضله الله بسبب انحرافه وزيغته فلن يهديه أحد ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، ولا تحزن بسبب استمرارهم على الكفر والعناد فلإنما عليك البلاغ كما قال عز وجل : ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ . وكما قال عز وجل في سورة الغاشية : ﴿لست عليهم بمُصيطر * إلا من تولى وكفر * فيعذبه الله العذاب الأكبر﴾ . وكما قال عز وجل في سورة الشورى : ﴿فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ﴾ ومعنى قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ . أي إن من علم الله أنه

يموت على الكفر وكتب ذلك عليه يستوي عنده إنذارك وعدم إنذارك فلن يصل إلى قلوبهم نور الهداية ؛ لأن عليها أقفالها . ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ﴾ أي طبع الله على قلوبهم فلا يدخلها الإيمان وطبع على سمعهم فلا يستمعون إلى الحق ولا يتفكرون بما يسمعون من الإنذار ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ أي وعلى عيونهم غطاءً يُغْطِيهَا عن مشاهدة آيات الله الكونية المنصوبة في الآفاق وفي الأنفس ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ . أي وللكافرين عذاب مُهين مؤلم كبير خطير لا يدور في الخيال ولا يخطر على البال وأصل الكفر الجحود والإنكار ومعاندة الحق فمن أنكر الله ولم يعترف به فهو كافر ، ومن عرف الله بقلبه لكنه بارز الله بالعداوة وجحد حقه فهو كافر كإبليس واليهود فهم عرفوا الحق وكفروا به كما قال تعالى : ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾ . وكفر العناد هو أن يعرف الله بقلبه ويعترف بلسانه لكنه لا يدين بدين الإسلام كأبي طالب حيث يقول :

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية ديناً
لولا الملامة أو حَذَارِي سُبَّةٌ لوجدتني سمحاً بذاك مُبِيناً

والإنذار إعلام مع تخويف وتحذير ، والقلب في الأصل هو قطعة اللحم الصنوبرية الشكل الموضوعة في تجويف الصدر مع ميل قليل إلى اليسار غالباً ، كما يطلق القلب على اللطيفة الربانية التي تقوم بالقلب اللحمي الصنوبري الشكل فيها يحصل منه الإدراك وترتسم فيه العلوم والمعارف ، وإذا أطلق القلب في لسان الشرع فالمراد به اللطيفة الربانية وهي محل القوة العاقلة من الفؤاد وهي كالحرارة القائمة بالفحم عند اشتعال النار فيه ؛ لأن القلب اللحمي موجود في البهائم الأليفة والوحشية ، فإذا استعمل الله تعالى العبد في طاعته استنارت بصيرة قلبه ، وإذا خذله عميت بصيرته كما قال عز وجل :

﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ . وقد أشار الله عز وجل إلى سبب الطبع والختم على قلوب الكافرين حيث يقول : ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ . كما أشار رسول الله ﷺ إلى سبب الختم على القلوب بأن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها حتى يختم عليها فقد روى مسلم في صحيحه من حديث حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً فأَيُّ قلب أُشْرِبَهَا نُكِثَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ وَأَيُّ قلب أنكرها نُكِثَ فِيهِ نُكْتَةٌ بِيضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضٍ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فَتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْآخِرُ أَسْوَدُ مُرَبَّادًا كَالْكُوزِ مُجْحِيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يَنْكُرُ مَنْكَرًا إِلَّا مَا أَشْرَبَ مِنْ هَوَاهُ . كما روى الترمذي بسند صحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَعْتَبَ صُقِلَ قَلْبُهُ وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُو قَلْبَهُ ، فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ . وَالسَّمْعُ يَطْلُقُ وَيَرَادُ بِهِ الْأُذُنُ كَمَا يَرَادُ بِهِ مَا أَوْدَعَهُ اللَّهُ فِي الْأُذُنِ مِنْ لَطِيفَةٍ تَفْرُقُ بَهَا بَيْنَ مَا تَسْمَعُهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ وَهُوَ الْمَرَادُ هُنَا إِذَا خَتَمَ اللَّهُ عَلَى الْقَلْبِ لَا يَفْقَهُ وَلَا يَعْقِلُ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ وَإِذَا خَتَمَ عَلَى السَّمْعِ فَإِنَّهُ لَا يَصِلُهُ صَوْتُ الْحَقِّ ، وَالْأَبْصَارُ جَمْعُ بَصَرٍ وَهُوَ حِسُّ الْعَيْنِ وَالْمَرَادُ هُنَا مَا أَوْدَعَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْعَيْنِ مِنْ لَطِيفَةٍ تَفْرُقُ بَهَا بَيْنَ مَشَاهِدِ الْحَقِّ وَمَشَاهِدِ الْبَاطِلِ ، وَتَكَرِيرِ كَلِمَةِ ﴿عَلَى﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ خَتَمَ الْقَلْبِ غَيْرُ خَتَمِ السَّمْعِ ، وَإِنْ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْقَلْبِ وَالسَّمْعِ خَتْمٌ عَلَى حِدَةٍ . وَالْمَرَادُ بِالْغِشَاوَةِ غَطَاءُ التَّعَامِي عَنْ آيَاتِ اللَّهِ الْكُونِيَةِ الْمَبْثُوثَةِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَإِنَّمَا جَمَعَ الْقُلُوبَ وَالْأَبْصَارَ وَوَحَّدَ السَّمْعَ ؛ لِأَنَّ الْقُلُوبَ وَالْأَبْصَارَ تَدْرِكُ أَشْيَاءَ

متعددة بخلاف المسموع فهو شيء واحد وهو الصوت ، هذا وفي قوله تبارك
 وتعالى : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ﴾ إشعار ظاهر بفساد مذهب
 المعتزلة القائلين بأن العبد يخلق أفعال نفسه ، وهو مذهب فاسد كاسد ؛ لأن
 الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم
 الفاسقين ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به
 أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ ولو شاء ربك
 ما فعلوه فذرهم وما يفترون ﴾ في آيات كثيرة تؤكد أن الله يهدي من يشاء
 فضلاً ويضل من يشاء عدلاً . وكما قال رسول الله ﷺ في الحديث الذي
 أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :
 المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص
 على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني
 فعلت لكان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل
 الشيطان . فالله تبارك وتعالى ختم على قلوب الكفار وسمعهم وغطى
 أبصارهم جزاء وفاقاً لما اقترفوه وليس ذلك جبراً كما يقول الجبرية الجهمية بل
 بطريق الترتيب على ما اقترفوه من القبائح ، ولا يظلم ربك أحداً ، ولذلك
 قال في سورة الجاثية : ﴿ أفرايت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم
 على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا
 تذكرون ﴾ . وقال في سورة النحل : ﴿ ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على
 الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم
 وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون ﴿ وقد خص الله تبارك وتعالى هذه
 الأعضاء الثلاثة أعني القلب والسمع والبصر لأنها طرق المعرفة والعلم
 فالقلب محل العلم ، وطريقه إما سماع الأذن أو رؤية العين . ولذلك وصّى
 الله تبارك وتعالى بالمحافظة على السمع والبصر والفؤاد مُنبِّهاً عباده إلى أنهم

مستولون عنها حيث يقول عز وجل في سورة الإسراء : ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا﴾ وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أهم أسباب صيانة القلب واستنارة بصيرته وهو الحرص على الطعام الطيب والابتعاد عن تناول المحرمات حيث يقول فيما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الحلال بيّنٌ ، وإن الحرام بيّنٌ وبينهما مشبهاتٌ لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب» اهـ . وفي هاتين الآيتين الكريمتين صورة من صور الإعجاز القرآني بالتنبيه على خصائص بعض الجوارح ، وما رُكِّب فيها من الآيات الباهرات الشاهدة على أنه تنزيل من حكيم حميد .

قال تعالى : ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون * في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون * وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون * ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون * وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون﴾

بعد أن بيّن الله تبارك وتعالى حَال المؤمنين المصدقين بالإسلام باطناً، المنقادين له ظاهراً، المتفقة سريرتهم مع علانيتهم، وحال الكافرين المكذبين بالقرآن سراً وَعَلَناً شرع يشرح أحوال المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، ولما كانوا أشد خطراً على الإسلام والمسلمين، وأقدر على بث الفرقة بينهم، لاندساسهم في صفوف المسلمين، ومعرفة مخارجهم ومدخلهم لذلك تحدث الله تبارك وتعالى عنهم هنا في ثلاث عشرة آية فضح فيها نواياهم، ونبه المسلمين إلى معرفة أحوالهم وأقوالهم، حتى يحترزوا منهم ولا يغتروا بهم، فقال عز وجل : ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾ أي وبعض الناس يتلفظ بدعوى الإيمان والتصديق بالله جل جلاله وبالإقرار بالبعث بعد الموت وواقع حال قلوبهم يناقض ذلك فهم لم يصل نور الإيمان إلى قلوبهم، وإنما قالوا ذلك نفاقاً، ورغبة في المشاركة فيما يصيب المسلمين من عز ورهبة من سيوف المسلمين لا سيما بعد غزوة بدر الكبرى وإعزاز الله لدينه وأوليائه، وأصل النفاق في لغة العرب يعود إلى الرّواج من قولهم : نَفَقَ البيع نفاقاً أي راج والنفاق فعل المنافق، ولذلك قيل لإحدى جِحَرَةِ اليربوع نفاقاً لأنه يكتمها ويظهر غيرها فإذا أتى من جهة القاصعاء ضَرَبَ النفاقاء برأسه فانتفق وخرج، والقاصعاء هي جُحَر اليربوع

الذي يدخله ، ولم يكن بين المهاجرين منافق قط لأنهم لم يُكْرَهُوا على الهجرة بل تركوا أموالهم وأرضهم وأهلهم فراراً إلى الله بدينهم ، وكان عبدالله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين قد رأى أنه لا قبل له بحرب الإسلام علانية فأظهر الدخول في الإسلام وأبطن الكفر وانضم له طوائف من المشركين وأهل الكتاب في المدينة ومن حولها من الأعراب ، وقد ذكر الله تبارك وتعالى أحوال المنافقين في مواضع كثيرة من القرآن الكريم فذكرهم في سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والتوبة والعنكبوت والأحزاب والفتح والحديد والمجادلة والحشر والمنافقين بل عامة السُّور المدنية لا تكاد تخلو من بيان أحوالهم ليحذرهم المؤمنون ، وقد حكم الله عز وجل عليهم بأن يكونوا في الدرك الأسفل من النار حيث يقول في سورة النساء : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرِكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَهُمْ نَصِيرًا﴾ وفي كل مقام من مقامات التحذير من المنافقين يبين الله عز وجل بعض صفاتهم ، ففي هذا المقام من سورة البقرة بين أحوالهم الظاهرة والباطنة وما هم عليه من الكذب والخداع ومرض قلوبهم وحرصهم على الفساد في الأرض مع دعوى الإصلاح الكاذبة ، وجهلهم وسفاهتهم ، وانقيادهم لشياطين الإنس والجن ، والاستهزاء وأنهم اشتروا الضلالة بالهدى ثم ضرب لهم مثلاً نارياً ومثلاً مائياً يقرران تَحَبُّطَ المنافقين وَتَنَاقُضَهُمْ ، وقوله عز وجل : ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ في هذه الآية الكريمة بيان جَلِيٍّ لما عليه المنافقون من جهلهم بالله عز وجل وعدم معرفتهم بأسمائه الحسنی وصفاته العلی إذ يظنون بالله ظن السوء ويحسبون أنه تجوز عليه حيلهم وأنه تخفى عليه سرائرهم فهم لذلك يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر ويظنون أن الله لا يعلم ذلك وأنهم ينجون من عذابه إذا نطقوا بالشهادتين وإن خالف ذلك سريرتهم وطَوَيْتَهُمْ وأنهم يحسبون أنه يَرْجُحُ على الله كما قد يروج على بعض

المؤمنين والواقع أن خداعهم إنما يرجع وَبِأَلِه عليهم وحدهم وأن الله تعالى يدفع عن المؤمنين مكربهم وشربهم ، ويدراً في نحورهم ، ولذلك قال عز وجل في سورة النساء : ﴿ إِن الْمُنَافِقِينَ يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ وقد أشار الله عز وجل إلى أن المنافقين يظنون يوم القيامة أنهم يخدعون الله عز وجل بالآيمان الكاذبة الفاجرة كما كانوا يفعلون ذلك مع المؤمنين في الدنيا حيث كانوا يجيئون إلى رسول الله ﷺ ويحلفون أنهم مصدقون بالإسلام وأنهم يشهدون أن محمداً رسول الله واتخذوا آيائهم جُنَّةً وفي ذلك يقول الله عز وجل : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ والخذاع أن يوهم الإنسان صاحبه خلاف ما يريد به من المكروه ليوثقه فيه من حيث لا يشعر، أو يُؤهمه المساعدة على ما يريد هو به ليغتر بذلك ، وفي قوله عز وجل : ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي وما يَغُرُّون بخداعهم هذا إلا أنفسهم ولا يعود وَبِأَلِ ذلك إلا عليهم وحدهم دون المؤمنين وهم مع ذلك لا يشعرون ولا يدرون أن سوء صنيعهم لا يعود إلا عليهم ، والآية مُسْتَأْنَفَةٌ استئنافاً بيانياً حيث وقعت في جواب سؤال مُقَدَّر نشأ عن الآية السابقة كأن سائلاً سأل : لماذا قالوا آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، فكان الجواب : يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى مشهد من مشاهد القيامة يُنبئ فيه المؤمنون المنافقين على ما خادعوا به المؤمنين حيث يقول عز وجل في سورة الحديد : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِبْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرٌ مِنْ قَبْلِهِ الْعَذَابُ * ينادونهم ألم نكن معكم ؟ قالوا : بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرركم الأمانى حتى جاء أمر الله وعرَّكم بالله الغرور * فالיום لا يؤخذ منكم فدية ولا من

الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير ﴿١﴾ وقوله عز وجل : ﴿٢﴾ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴿٣﴾ أي في قلوب المنافقين شك وَرَيْبٌ وَرَجْسٌ فَخَذَّهْمُ اللهُ عز وجل فامتلات قلوبهم مرضا وشكاً وَرَيْباً وَرَجْساً وقد أعدَّ لهم عذاب أليم مُوجِعٌ بسبب تكذيبهم بالدين وكذبهم في دعواهم أنهم مؤمنون وما هم بمؤمنين ، وأصل المرض هو ما يعرض للبدن فيخرجه عن حد الاعتدال ويصيبه بالخلل قال في القاموس المحيط : المرض إظلام الطبيعة واضطرابها بعد صفائها واعتدالها اهـ وقال ابن منظور في لسان العرب : والمرض : السُّقْمُ نقيض الصحة . ثم قال : والمرض في القلب يَصْلُحُ لكل ما خرج به الإنسان عن الصحة في الدين ، ويقال : قلب مريض من العداوة وهو النفاق اهـ وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن المؤمنين يزدادون إيماناً بسماع القرآن ، وأن المنافقين يزدادون رجساً بسماعه حيث يقول عز وجل في خواتيم المسك من سورة التوبة : ﴿٤﴾ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول : أيكم زادته هذه إيماناً ؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴿٥﴾ . وقوله عز وجل : ﴿٦﴾ وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون * ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴿٧﴾ أي وإذا نصح هؤلاء المنافقين ناصح بأن يتركوا ما هم عليه من الأخلاق الشريرة والأفعال الرذيلة والكيد للمسلمين ، وبث الفرقة والصد عن سبيل الله وموالاته أعداء الله ، وغير ذلك من أنواع الفساد في الأرض أجابوا الناصحين بأننا مصلحون ، فهم يرون أن الكفر بالله والصد عن سبيله ، وتكذيب المرسلين ، وموالاته أعداء الله وبث الفرقة بين المسلمين ، وإشاعة الرذيلة يحسبون أن ذلك إصلاح في الأرض لا إفساد فيها حيث انقلبت عليهم الموازين واعتقدوا الحق باطلاً والباطل حقاً ، بل حصروا

الصلاح في أعمالهم الفاسدة وسلوكهم المَعْوَجَ فردَّ الله تبارك وتعالى عليهم بأن عملهم هو الفساد في الأرض وأنهم محصورون في دائرة هذا الفساد لأن من عَمِلَ على نقض موازين العدل التي تستقيم بها البلاد والعباد، كان غارقاً في بحار الفساد وقد سُمهم الله عز وجل مرةً أخرى بأنهم لا يدرون ولا يشعرون أنهم تائهون في مهامه الضلال فقد زَيَّن لهم الشيطان أعمالهم فهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً على حد قوله عز وجل: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ وعلى حد قول الشاعر:

يُقْضَى على المرء في أيام محتته حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن
فالقبيح عند المنافقين حسن والحسن عندهم قبيح بسبب انقلاب
فطرتهم، وانحراف قلوبهم عن صراط الله المستقيم، ومنهجه القويم، فهذه
صورة من صور قبائح المنافقين، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم آمَنُوا كَمَا آمَنَ
الناس قالوا: أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون﴾
وهذه صورة أخرى من صور قبائح المنافقين، وبيان لما هُم عليه من انقلاب
الفطرة وفساد السلوك، والتكبر في الأرض بغير الحق، فكانوا إذا دعاهم داع
إلى الإيمان بالله ورسوله وقال لهم: صَدَّقُوا بِمُحَمَّدٍ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وشرعه كما
صَدَّقَ به المهاجرون والأنصار قالوا: أنصدق بما صَدَّقَ به أهل الجهل الذين
لا عقول لهم ولا أفهام، ولفظ الناس هنا عام أريد به الخصوص على مثل
قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾،
والسفيه هو الجاهل الضعيفُ الرأي القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار،
ولا شك أن المنافقين قالوا هذه المقالة فيما بينهم فأعلم الله تعالى رسوله ﷺ
بمقالتهم، إذ لو قالوها مجاهرة أمام المؤمنين لخرجوا عن حيز النفاق وانضموا
إلى الكفار المصريحين بكفرهم، وقد تولى الله تبارك وتعالى جوابهم فقال: ﴿أَلَا
إِنَّهُمْ هُمُ السَّفَهَاءُ﴾ فأكد حصر السفاهة في المنافقين، وبين سبب وصفهم

للمؤمنين بهذا الوصف وهو أن المنافقين لا يعلمون ، فَهُمْ من تمام جهلهم لا يعلمون بحال أنفسهم في الضلالة والجهل ، وما غُلِّقَتْ به قلوبهم من العمى والبعدِ عن الهدى ، ومناسبةُ هذه الآية لما قبلها هي أن المؤمنين لما نصحوا المنافقين بترك الإفساد في الأرض وهو عبارة عن التخلي عن الرذائل أمروهم بالإيمان وهو عبارة عن التحلي بالفضائل ، والتخلية مُقَدِّمَةٌ على التحلية .

قال تعالى : ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا : إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمْدَهُم فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾

وهذه صورة أخرى من صور أفعال المنافقين القبيحة وهي أنهم يلقون المؤمنين بوجه ويلقون شياطينهم بوجه آخر، فهم إذا كانوا بحضرة المؤمنين أظهروا الإسلام وادعوا الإيمان وإذا انفردوا بشياطينهم قالوا : إنا على مذهبكم في الكفر بمحمد ودينه ، وما تَلَفَّظْنَا به من دعوى الإيمان بمحمد ودينه هو استهزاء وسخرية من محمد وأصحابه ، وكانوا بهذا شرَّ الناس ، فقد أخبر الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى حبيبُ الله ورسوله وسيد خلقه محمدٌ ﷺ أن شر الناس ذو الوجهين الذي يلقي هؤلاء بوجه ويلقى هؤلاء بوجه فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : تَجِدُونَ شرَّ الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه وقوله عز وجل ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ أي انفردوا معهم يقال : خلوتُ إلى فلان أي انفردت معه وقد يستعمل بالباء فيقال خلوتُ به ، واللفظ القرآني هو أفصح اللغة وأعلاها ، والشياطين جمع شيطان وهو المتمرد من الإنس والجن والدواب ولذلك أثر أن عمر رضي الله عنه ركب على برذون فتبختر به فقال : لقد حملتموني على شيطان حتى أنكرت نفسي ، وقد ذكر الله عز وجل أن في الإنس شياطين وفي الجن شياطين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً حيث يقول في سورة الأنعام : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ *﴾

ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ولىرضوه وليقتربوا ما هم
مقترفون ﴿ واشتقاق الشيطان من شَطَنَ إذا بَعُدَ ؛ لأن الشيطان بعيد عن كل
خير كما تدور مادة الشيطان على الخبث .

قال الشاعر:

نأت بسعاد عنك نَوَى شَطُونُ فبانَتْ والفؤاد بها رهين
أي بعدت بها طريق بعيدة . ويقال : بثر شَطُونُ إذا كانت بعيدة القعر ، قال
في القاموس المحيط : وَنِيَّةُ شَطُونُ أي بعيدة ، والشاطن الخبيث والشيطان م
وكل عات متمرِد من إنس أو جن أو دابة اهـ وقيل : بل اشتقاق الشيطان
من شاط بمعنى احترق لأن مصيره إلى النار وقد أنكر ذلك سيبويه وقال :
العرب تقول تشيطن فلان إذا فَعَلَ فَعَلَ الشياطين ولو كان من شاط لقالوا :
تَشَيَّطَ اهـ وقد روى مسلم من طريق عبد الله بن الصامت عن أبي ذر رضي
الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إذا قام أحدكم يصلي فإنه يستره إذا كان بين يديه
مِثْلُ آخِرَةِ الرَّحْلِ ، فإنه يقطع صلاته الحمارُ والمرأة والكلب الأسود . قلت : يا
أبا ذر ما بال الكلب الأسود من الكلب الأحمر من الكلب الأصفر ؟ قال : يا
ابن أخي سألتُ رسول الله ﷺ كما سألتني فقال : الكلبُ الأسود شيطان اهـ
ومعنى قوله : ﴿ قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ﴾ أي قالوا لشياطينهم
ومن يتعاونون معهم على حرب دين الله ورسوله ﷺ : إنا معكم على دينكم ،
وظَهَرَاؤُكُمْ على من خالفكم ، وأولياؤكم ضد محمد ودينه ، إنما ما نتلفظ به
عند محمد وصحبه هو استهزاء بالله وبكتابه ورسوله وأصحابه وسخرية منهم
أما قوله عز وجل : ﴿ الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون ﴾ أي
الله يجازيهم بعذاب يُحْسُون به أنه من جنس عملهم فكما ضحكوا من المؤمنين
وكانوا إذا مروا بهم يتغامزون سخرية واستهزاء فإن الله عز وجل يجعل المؤمنين
يوم القيامة يضحكون من الكفار والمنافقين كما قال عز وجل : ﴿ إن الذين

أُجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون * وإذا مروا بهم يتغامزون * وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين * وإذا رأوهم قالوا: إن هؤلاء لضالون * وما أُرسلوا عليهم حافظين * فالיום الذين آمنوا من الكفار يضحكون، على الأرائك ينظرون * هل تُوبَ الكفار ما كانوا يفعلون ﴿ فقد جازاهم الله من جنس عملهم قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : وأما الاستهزاء والمكر بأن يظهر الإنسان الخير والمراد شر فهذا إذا كان على وجه جحد الحق وظلم الخلق فهو ذنب محرم ، وأما إذا كان جزاء على من فعل ذلك بمثل فعله كان عدلاً حسناً ، قال الله تعالى : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا : إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزئ بهم ﴾ فإن الجزاء من جنس العمل اهـ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وَيُمْدُدْهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أي يزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم في عُتُوِّهِمْ وَتَمَرُّدِهِمْ كما فعل بنظرائهم في قوله عز وجل : ﴿ وَنَقَلَبْ أَفئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَئِكَ وَنَذَرْنَاهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يعني نذرهم ونتركهم فيه ونملئ لهم ليزدادوا إثماً إلى إثمهم وضلالاً فوق ضلالهم وعُتُوّاً على عُتُوِّهِمْ . والطغيان مجاوزة الحد والغلو في الكفر والإسراف في المعاصي والظلم . ومعنى ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ أي يتيهون في الضلالة ويتحIRON ويترددون ولا يهتدون سبيلاً . قال في القاموس المحيط : العَمَّةُ محركة التردد في الضلال والتَّحِيرُ في منازعة أو طريق أو أن لا يعرف الحُجَّةَ اهـ وقال الجوهري في الصحاح : العَمَّةُ التحير والتردد وقد عَمَّ بالكسر فهو عَمَّةٌ وعَامَّةٌ والجمع عُمَّةٌ قال رؤبة :
وَمَهْمَهُ أَطْرَافُهُ فِي مَهْمِهِ أَعْمَى الْهُدَى بِالْجَاهِلِينَ الْعَمَّةُ
وأرض عَمَّهَاءُ : لا أعلام بها ، وذهبت إبلُ العُمَّةِ إذا لم يدر أين ذهبت اهـ وقال ابن منظور في لسان العرب : قال ابن الأثير : العَمَّةُ في البصيرة كالعَمَى في البصر اهـ وقوله عز وجل : ﴿ أولئك الذين اشتروا

الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴿الإشارة بقوله : ﴿أولئك﴾ للمنافقين الذين عدد صفاتهم القبيحة وأخلاقهم الشريرة الذين وصفهم الله عز وجل بإظهار الكذب بالسنتهم بدعواهم التصديق بالإسلام وبما جاء به رسول الله ﷺ خداعاً لله ولرسوله وللمؤمنين عند أنفسهم ، والاستهزاء بالمؤمنين . ومعنى ﴿اشترؤا الضلالة بالهدى﴾ قال ابن جرير في تفسيره : أخذوا الضلالة وتركوا الهدى ، وذلك أن كل كافر بالله فإنه مستبدل بالإيمان كفراً باكتسابه الكفر الذي وجد منه بدلاً من الإيمان الذي أمر به ، أو ما تسمع الله جل ثناؤه يقول فيمن اكتسب كفراً به مكان الإيمان به وبرسوله . ﴿ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل﴾ وذلك هو معنى الشراء ، لأن كل مُشْتَرٍ شيئاً فإما أن يستبدل مكان الذي يؤخذ منه من البَدَل آخر بدلاً منه ، فكذلك المنافق والكافر استبدلا بالهدى الضلالة والنفاق ، فأضلها الله ، وسلبها نور الهدى فترك جميعهم في ظلمات لا يبصرون وقوله تعالى : ﴿فما ربحت تجارتهم﴾ قال ابن جرير : وتأويل ذلك أن المنافقين بشرائهم الضلالة بالهدى خسروا ولم يربحوا ، لأن الرابح من التجار المُسْتَبْدِلُ من سلعته المملوكة عليه بدلاً هو أنفُسُ من سلعته أو أفضل من ثمنها الذي يتاعها به ، فأما المستبدلُ من سلعته بدلاً دُونَهَا ودون الثمن الذي يتاعها به فهو الخاسر في تجارته لا شك ، فكذلك الكافرُ والمنافقُ لأنهما اختاروا الحَيْرَةَ والْعَمَى على الرشاد والهدى ، والخوفَ والرُّعْبَ على الحفظ والأمن ، فاستبدلا في العاجل بالرشاد الحَيْرَةَ ، وبالهدى الضلالة ، وبالحفظ الخوفَ ، وبالأمن الرُّعْبَ ، مع ما قد أُعِدَّ لهما في الآجل من أليم العقاب وشديد العذاب ، فخابا وخسرا ، ذلك هو الخسران المبين . اهـ ولما كان الرابح أو الخاسر هو الشخص لا التجارة كان أصل الكلام : فما ربحوا في تجارتهم لا فيما اشترؤوا ولا فيما باعوا ، لكن العرب قد استعملوا هذا الأسلوب الفصيح

حيث قالوا: ربح بيعه، ونام ليله، وخسر سعيه ولذلك جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً وكان أحب أمواله إليه بيرحاء وكانت مستقبلة المسجد، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس: فلما نزلت ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾ قال أبو طلحة: يا رسول الله إن الله يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالي إليَّ بيرحاء وإنما صدقة لله أرجو برّها وذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال النبي ﷺ: بخ بـخ ذاك مال رابح ذاك مال رابح الحديث وقال ربيعة بن العجاج:

حَارِثٌ قَدْ فَرَجَّتْ عَنِّي هَمِّي فَنَامَ لَيْلِي وَتَجَلَّى غَمِّي

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا مَهْتَدِينَ﴾ أي وما كانوا راشدين في اختيارهم الضلالة على الهدى والكفر بدّل الإيمان، ولا شك أن التجارة الرباحة هي المنجية من العذاب الأليم الجالبة لسعادة الدنيا والآخرة وقد بينها الله عز وجل في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تَأْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تَحِبُّونَهَا نَصْرَ اللَّهِ وَفَتْحَ قَرِيبٍ وَبِشْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وكما أخرج مسلم من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايَعُ نَفْسَهُ فَمُعْتَقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا».

قال تعالى : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون ﴾ صم بكم عمي فهم لا يرجعون .
أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين ﴾ يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير ﴾ .

بعد أن وصف الله تبارك وتعالى المنافقين في هذا المقام من سورة البقرة بما تقدم من صفات ، وحكم عليهم بأنهم ما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ضرب لهم مثلاً نارياً ومثلاً مائياً لتقرير كشف أحوالهم وبيان مواقفهم والتشنيع عليهم وما هم فيه من الخيرة والحسرة والتردد والتذبذب ، وما يصيبهم من المخاوف وما يتتابهم من الرعب والهلع والفرع ، وما يسلبه الله عز وجل عليهم من البلايا التي تحيط بهم من كل جانب حتى صاروا يحسبون كل صيحة عليهم . والواقع أن المنافقين لم يكونوا على وتيرة واحدة . فبعضهم لاحت لهم أنوار الإسلام فآمنوا ثم ذهب الله بنورهم فكفروا فطبع الله على قلوبهم ، وفي هذا الصنف من المنافقين يقول الله عز وجل في سورة ﴿ المنافقون ﴾ : ﴿ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ وبعض المنافقين لحقارة نفوسهم كانوا يحرصون على التظاهر بالإسلام لمجرد الحصول على بعض الصدقات فإن أعطوا منها فرحوا ومالوا نحو الإسلام وإذا لم يُعْطَوْا امتلأت قلوبهم غلاً وحقدًا وسخَطًا وفي هذا الصنف من المنافقين يقول الله عز وجل : ﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يُعْطَوْا منها إذا هم يسخطون ﴾ وبعض المنافقين عندما أعلن إسلامه لم يكن موقنا به بل كان مُتردداً شاكاً ، قد يرى بصيصاً

من نور يتسرب إلى قلبه لا يلبث أن يذهب عنه ويزول ويُغْلَفُ قَلْبُهُ الظلامُ الدامسُ ، وقد ضرب الله تبارك وتعالى في هذا المقام من سورة البقرة مثلين للمنافقين أحدهما ناري والآخر مائي يقرران صفة المنافقين على أكمل وجه وأوضحه فقال في المثل الناري : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون ﴾ صم بكم عمي فهم لا يرجعون ﴿ والمثل بفتح الميم والشاء يطلق على معنى الصفة كأنه قال : صفة المنافقين كصفة الذي استوقد نارا الخ ، كما يطلق المثل على القول السائر الذي يُشَبَّهُ مَضْرِبُهُ بِمَوْرِدِهِ ، والأمثال لا تُغَيَّرُ ، وقد أكثر الله تبارك وتعالى من ضرب الأمثال في كتابه الكريم وفي ذلك يقول في سورة العنكبوت : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ وقد شبه الله تبارك وتعالى في هذا المثل الناري المنافقين الذين آمنوا ثم كفروا في صيورتهم بعد البصيرة إلى العمي حيث اشترؤا الضلالة بالهدى يقوم مسافرين جنَّ عليهم الليل واشتد الظلام وانطمست أمامهم المعالم وصاروا لا يدركون شيئا مما حولهم فلم يهتدوا إلى الطريق فأوقدوا نارا ليستضيئوا بنورها ، فلما أضاءت لهم النار ما حوَّهم وبدؤا في الانتفاع بها أطفأ الله نارهم ، وذهب بنورهم ، وتركهم في ظلمات لا يبصرون ، ثم وصفهم وهم في هذه الحال المزعجة بما يزيدهم ضلالاً على ضلالهم ، حيث وصفهم بأن الله عز وجل سلب منهم حاسة السمع فَأَصَمَّهُمْ وحاسة الكلام فأخرس ألسنتهم ، وحاسة الرؤية فأعمى أبصارهم فصاروا في ظلمات بعضها فوق بعض وقوله تعالى : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ﴾ أي صفتهم كصفة الذين استوقدوا نارا فلما أضاءت ما حولهم . والتعبير بالذي الموضوع في الأصل للواحد على وتيرة قوله عز وجل : ﴿ والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ﴾ وقول الأشهب بن رميلة :

وإن الذي حانت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد
وقوله تعالى: ﴿ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار
خالدين فيها﴾ وقوله عز وجل ﴿ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم
خالدين فيها أبداً﴾ فهذا أسلوب من أعلى أساليب البلاغة، ومعنى استوقد
أوقد، ومعنى ﴿ذهب الله بنورهم﴾ أي أطفأ نارهم فلم يبق لهم نور، قال
بعض أهل العلم: إن الضوء أبلغ من النور ولذلك قال الله عز وجل: ﴿هو
الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً﴾ فلو قيل: ذهب الله بضوئهم ربما
خطر ببال أحد أنه لم يزل لديهم نور فلما قال عز وجل: ﴿ذهب الله بنورهم﴾
عُلِمَ أنه لم يبق لهم ضوء من باب أولى، وفي قوله عز وجل: ﴿وتركهم في
ظلمات لا يبصرون﴾ إشارة إلى خذلان الله لأعدائه من المنافقين والكافرين،
ومن خذله الله فلن تجد له نصيراً ولا هادياً. أما المثل الثاني وهو المثل المائي
فهو قوله عز وجل: ﴿أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون
أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين﴾ * يكاد
البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو
شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير﴾ وقوله: ﴿أو
كصيب من السماء﴾ أي أو كمطر نازل من السحاب وقوله تعالى: ﴿فيه
ظلمات ورعد وبرق﴾ أي في السحاب ظلمات لشدة كثافة السحاب حتى
صار الجو مظلماً فما بالك إذا كان الوقت ليلاً وفيه رعد وبرق، والرعد هو
الصوت الذي يسمع من السحاب كأن أجرام السحاب تضطرب وتنتفض
وترتعد، والبرق هو الذي يلمع من السحاب عند حدوث الرعد، ولا شك
أنه إذا اجتمعت الظلمة الداجية والرعد القاصف والبرق الخاطف وتخللتها
الصواعق وهي شدة صوت الرعد وقد يصحبها نار تسقط من السماء فإن
الإنسان الذي يحدث له هذا يحس أن الموت قريب منه ولذلك وصفهم الله

عز وجل بأنهم يجعلون أصابعهم يعني أطرافها في آذانهم خوف الموت حيث يقول عز وجل : ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ ثم بين الله عز وجل أن من كفر به لا يفلت من عقابه ، حيث قال : ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ فلا سبيل لهم إلى الفرار من عقابه لأن قدرته تامة وعلمه محيط بكل شيء . وقوله عز وجل ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ أي إن هذا البرق لشدة قوته يَقْرُبُ من اختلاس أبصارهم واختطافها بسرعة فهم لا يكادون يستفيدون من ضوئه لشدة وقوته ولا سيما إذا كان في ظلمات غير أنهم لشدة حاجتهم إلى السير يغتنمون فرصة البرق ليتحركوا من مكانهم غير أنه لا يلبث أن يزول فيقفوا في أماكنهم جامدين لا يتحركون من شدة الظلام ولا سيما بعد البرق فإن العيون تتأثر في هذا الحال وتعجز عن الإبصار وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ أي ولو أراد الله تعالى وسبقت مشيئته أن يُصِمَّهُمْ وَيُعَمِّيَ أَبْصَارَهُم الظاهرة كما عميت أسماعهم وأبصارهم الباطنة لفعل ذلك لأنه لا يعجزه شيء ولهذا ذُكِّلَ ذلك بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذا المثل المائي قد ضربه الله عز وجل للمنافقين الذين لم يؤمنوا عندما أعلنوا أنهم دخلوا في دين الإسلام ، لكنهم كانوا مترددين شاكّين ، قد يرى الواحد منهم بصيصاً من نور يتسرب إلى قلبه لكنَّ هذا النور سرعان ما يزول ويذهب عنه وَيُغْلَفُ قلبه الظلامُ الدامسُ ، ولا شك أن المقصود من ضرب الأمثال هو تأثيرها العظيم في القلوب ، وأنها أبلغ في تقريب الحقائق وإيضاحها من الوصف وحده ، والنفس تحرص على معرفة ما احتواه المثل وينتقش فيها ؛ لأن الغرض من المثل هو تشبيه الخفي بالجلي والغائب بالشاهد فيتأكد الوقوف على ماهيته ، ويصير الحس مطابقاً للعقل ، وذلك أبلغ في الإيضاح فالترغيب في الإيمان مُجَرِّداً عن ضرب مثل له بالنور لا يعمل في النفس الإنسانية كما يعمل المثل الذي ضربه الله عز وجل في قوله تبارك

وتعالى : ﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة ، الزجاج كإنها كوكب دري يُوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم﴾ ولو رُئِبَ من الكفر بمجرد الذكر من غير ضرب مثَل له بالظلمة لم يتأكد قُبْحُهُ في العقول كما يتأكد بتشبيهه بالظلمات والضياء في مثل قوله عز وجل : ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب﴾ * أو كظلمات في بحر جُحِّي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور﴾ ولو أراد واعظ أن ينبه إلى أن التعلق بغير الله لا يجدي صاحبه شيئاً فإن ذلك لا يقع في النفس الإنسانية مؤثراً فيها كما يؤثر ضربٌ مثل لذلك بنسج العنكبوت في قوله تعالى : ﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾ * إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم * وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ وكما قال عز وجل : ﴿يا أيها الناس ضُربَ مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذبابُ شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾ * ولهذا أكثر الله تبارك وتعالى في القرآن العظيم من ضرب الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . كما أن رسول الله ﷺ كان يكثر من ضرب الأمثال لتتنقش مدلولاتها في النفوس كقوله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : مثُلُ ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ

وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمَسَكَ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا وَأَصَابَ طَائِفَةٌ مِنْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تَنْبِتُ كَلًّا فَذَلِكَ مَثَلٌ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ وَمَثَلٌ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أَرْسَلْتُ بِهِ .

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ * الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناءً وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾

بعد أن قَسَمَ الله تبارك وتعالى المكلفين من بني آدم إلى ثلاثة أقسام وأوضح صفات كل قسم وبيّن مآله ، من فلاح المؤمنين وخيبة الكافرين والمنافقين وجّه الخطاب لجميع المكلفين من بني آدم ، وأمرهم أن يُفَرِّدُوا الله تبارك وتعالى بالعبادة ويخصوه بالتوحيد الذي من أجله خلقوا ، وقد لفت انتباههم إلى أمرٍ يكادون يطبقون على الإقرار به ، فجميع الأمم على مرّ العصور واختلاف الأجناس وتباين الألسنة واللغات معترفون بالخالق العظيم ، قد ورثوا ذلك من عهد آدم وتتابععت اعترافاتهم به إلى أمة محمد ﷺ ولذلك كَثُرَ في القرآن العظيم توجيّه الأسئلة للمشرّكين بأنهم ما داموا مقرّين بأن الله هو وحده خالق السموات والأرض وما فيها فلما ذا يشركون به ويعبدون معه غيره؟ حيث يقول عز وجل : ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ * سيقولون لله قل أفلا تذكرون * قل من رب السموات السبع وربّ العرش العظيم * سيقولون لله قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوت كلّ شيء وهو يحير ولا يحار عليه إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سيقولون لله قل فَأَنِّي تُسْحَرُونَ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿وَلْتَنَسَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ وقال عز وجل : ﴿وَلْتَنَسَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنِّي يُؤَفِّكُنَّ﴾ وحتى فرعون كان مقرّاً برب السموات والأرض في قرارة نفسه وإن جحد ذلك كما أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك في قوله عز وجل : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْتَلْ بِنِيِّ إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾ * قال : لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا ربُّ

السموات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبورا ﴿١﴾ ففي قول موسى عليه السلام لفرعون: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا ربُّ السموات والأرض﴾ دليل جلي على أن فرعون وقومه كانوا مقرين بخالق السموات والأرض كسائر الأمم التي تُقرُّ به رباً وتعبد معه غيره أو تجعل العبادة لغيره . وكما قال عز وجل : ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون﴾ ﴿٢﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون﴾ * الله ييسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم * ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون ﴿٣﴾ وهؤلاء مع إقرارهم بخالقهم وخالق السموات والأرض واعترافهم بربوبيته قد عبدوا غيره معه زاعمين أنهم إنما عبدوا هؤلاء مع الله ليكونوا شفعاء لهم عنده وليقربوهم إلى الله زلفى كما قال عز وجل : ﴿ألا الله الدين الخالص، والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار﴾ فالإقرار بربوبية الله مركوز في النفوس وإن كانت تحجبه أحياناً سُحِبَ الزندقة والإلحاد، فقد أثر أن بعض الزنادقة أنكر الخالق عند جعفر الصادق رحمه الله فقال له جعفر: هل ركبت البحر؟ قال: نعم، قال: هل رأيت أهواله؟ قال: بلى: هاجت يوماً رياح هائلة فكسرت السفن وغرقت الملاحين، فتعلقت أنا ببعض ألواحها ثم ذهب عني ذلك اللوح فإذا أنا مدفوع في تلاطم الأمواج حتى دُفِعْتُ إلى الساحل، فقال جعفر: كان اعتمادك من قبل على السفينة والملاح ثم على اللوح حتى تنجيك. فلما ذهبت هذه الأشياء عنك هل أسلمت نفسك للهلاك أم كنت ترجو السلامة بعد؟

قال : بل رجوت السلامة ، قال : ممن كنت ترجوها فسكت الرجل ، فقال جعفر : إن الصانع هو الذي كنت ترجوه في ذلك الوقت ، وهو الذي أنجاك من الغرق ، فأسلم الرجل على يده . كما أثر أن بعض الدهرية كانوا ينتهزون الفرصة لقتل أبي حنيفة رحمه الله فبينما هو يوما قاعد في مسجده إذ هجم عليه جماعة بسيف مسلولة وهموا بقتله فقال لهم : أجيئوني عن مسألة ثم افعلوا ما شئتم ، فقالوا له : هات ، فقال : ما تقولون في رجل يقول لكم : إني رأيت سفينة مشحونة بالأحمال . مملوءة بالأنقال ، قد اختوشها في لجة البحر أمواج متلاطمة ، ورياح مختلفة وهي من بينها تجري مستوية ليس لها ملاح يُجريها ولا متعهد يدفعها ، هل يجوز ذلك في العقل ؟ فقالوا : لا ، هذا شيء لا يقبله العقل ، فقال أبو حنيفة : يا سبحان الله إذا لم يجوز في العقل سفينة تجري في البحر مستوية من غير متعهد فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وتغير أعمالها وسعة أطرافها وتباين أكنافها من غير صانع وحافظ ؟ فبكوا جميعاً وقالوا : صدقت وأغمدوا سيوفهم وتابوا . كما أثر أن بعض الزنادقة سألوا الشافعي رحمه الله : ما الدليل على وجود الله ؟ قال : ورقة الفِرْصاد (يعني التوت) طعمها ولونها وريحها وطبعها واحد عندكم ؟ قالوا : نعم . قال : فتأكلها دودة القز فيخرج منها الإبريسم (يعني الحرير) وتأكلها النحل فيخرج منها العسل ، وتأكلها الشاة فيخرج منها البعر . وتأكلها الطباء فينعقد في نوافجها المسك ، فمن الذي جعل هذه الأشياء كذلك مع أن الطبع واحد ؟ فاستحسنوا منه ذلك وأسلموا على يده وكانوا سبعة عشر رجلاً . وضرب أحمد بن حنبل رحمه الله مثلاً للدلالة على الحكيم الخبير بقلعة حصينة ملساء لا فُرجة فيها ، ظاهرها كالفضة المذابة وباطنها كالذهب الإبريز ، ثم انشقت الجدران وخرج من القلعة حيوان سميع بصير فهل خرج من غير فاعل ؟ وقد أراد رحمه الله بالقلعة الحصينة البيضة وبالحيوان الفرخ ،

ولا شك أن خروج الفرخ من البيضة آية عجيبة فقد ذكر أنه يختار موضعاً معيناً من البيضة كأنه باب لها فينقره بمنقاره الضعيف فتشق البيضة ويخرج ، كما أن ما تحمله الحوامل يستمر على وضع معين إلى قرب خروجه من بطن أمه فيتهيأ للخروج بطريقة هداه إليها الحكيم الخبير، وقد أثر أن مالكا رحمه الله استدل على الحكيم العليم باختلاف الأصوات وتردد النغمات وتفاوت اللغات ولا شك أن القرآن العظيم أعلن ذلك في قوله عز وجل : ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾ وقد سئل أعرابي : بم عرفت ربك ؟ قال : البعرة تدل على البعير والرزؤث على الحمير وآثار الأقدام على المسير، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج أما تدل على الصانع الحليم العليم القدير ؟ كما استدل أعرابي لما قيل له : بم عرفت ربك قال : عرفته بنحلة بأحد طرفيها تغسل وبالأخر تلسع والعسل مقلوب اللسع ، فالإقرار والاعتراف بربوبية الله مركوز في النفوس مُقرَّر عند جميع الأمم ، لكن من انحرفت فطرته ، عبد غير الله ، فأرسل الله الرسل وأنزل الكتب لتحقيق أنه لا إله إلا الله وأنه وحده المستحق لأن يُفرد بالعبادة ويُخصَّ بالتوحيد ولذلك كان أول أمر بالعبادة في كتاب الله هو الأمر هنا في هذا المقام من سورة البقرة بعبادة الله حيث يقول عز وجل : ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم﴾ وقد عبَّر بعنوان الربوبية التي يقرون بها لتكون دليلاً جلياً على وجوب إخلاص العبادة له وحده ، الذي ربَّى خلقه بنعمه وجوده وإحسانه حيث لا تُنمَّرُ طرفة عين في ليل أو نهار إلا والله على خلقه نِعَمٌ ظاهرة وباطنة ، فكأنه يقول لهم : مادمتم أقررتم بربوبيتي فلما ذا تشركون معي غيري في ألوهيتي ، ولذلك كانت مهمة المرسلين والأنبياء تقرير توحيد الألوهية ، وصار كل رسول يأتي قومه يبدؤهم بقوله : اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، وقد لفت الله عز وجل انتباه الناس في هذا المقام إلى دليلين

ظاهرين بارزين أمام الأعين يشهدان أنه لا إله إلا الله ، الأول : في الأنفس والثاني في الكون والآفاق ، وقد أكثر القرآن الكريم من لفت الانتباه إلى هذين الدليلين وهما النظر في الأنفس وفي الآفاق وفي ذلك يقول : ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ﴾ * وفي أنفسكم أفلا تبصرون * وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ . وكما قال عز وجل : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ وقد نبه الله عز وجل في هذا المقام إلى النظر في جعل الأرض فراشاً أي مهاداً ومستقراً وأودعها جميع ما يحتاجه الناس ، والنظر في جعل السماء بناء أي سقفاً محفوظاً ، وأنزل من السماء أي السحاب ماء فالسحاب تطلق بإطلاقين : الأول السماء المبنية المحفوظة التي جعلها الله سكناً للملائكته ، والثاني السماء بمعنى العلو والارتفاع فكل ما علاك من سقف أو سحاب أو غيره يسمى سماء لغة ، فقوله أنزل من السماء ماء أي أنزل من السحاب مطراً يسوقه إلى الأرض الجزر فيخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم ، ومع أن الماء واحد ينزل على الأرض الواحدة والقطع المتجاورة فيخرج ثمرات مختلفاً ألوانها ومنافعها من قوت وفاكهة ودواء وجميع ما يحتاجه الناس وإلى ذلك يشير الله عز وجل حيث يقول : ﴿ الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ﴾ * وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يُغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون * وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرْع ونخيلٍ صنواً وغيرِ صنواٍ يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ والله در أبي نواس حيث يقول :

تأمل في نبات الأرض وانظر
عيون من لجّين شاخصاتٌ
إلى آثار ما صنع المليك
وأزهارٌ كما الذهبُ السبيك
على قُصْب الزبرجد شاهداتٌ
بأن الله ليس له شريك
وما أحسن قولَ ابن المعتز:

فيا عجباً كيف يعصى الإله
وفي كل شيء له آية
هـ أم كيف يجحده الجاحدُ
تدل على أنه الواحدُ

وقد ذُيلَ الله تبارك وتعالى الآية الأولى بقوله : ﴿لعلكم تتقون﴾ أي عسى
أن تحجبوا عن وجوهكم النار إذا أخلصتم العبادة لله وحده وتبرأتم من جميع
ما عبد من دونه ، ولعلكم تفوزون بعز الدنيا وسعادة الآخرة . كما ذيل الله عز
وجل الآية الثانية بقوله : ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾ أي فلا تشركوا
بالله شيئاً ولا تتخذوا لله نداً ولا نظيراً ولا شبيهاً ولا شريكاً في جميع ألوان
العبادة فإنه هو وحده المستحق لأن يعبد وحده لا شريك له فالله تبارك وتعالى
لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم ، من توحيد وصلاة
وصيام وحج وزكاة ونذر وطواف وخوف السر وأكمل الحب ، وأقصى الذل ،
والتوكل والرجاء والرغبة والاستعاذة والاستغاثة وسائر مراسيم العبادة فإن الله
عز وجل لا يقبل العمل إلا بشرطين : أن يكون خالصاً لوجهه الكريم وأن
يكون على منهج محمد رسول الله ﷺ .

قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ
وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا
فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾

بعد أن قرر الله عز وجل دلائل ألوهيته على أكمل وجه وأوضحه وأدقه وأبرزه للخاصة والعامة والعرب والعجم شرع في تقرير نبوة ورسالة عبده ورسوله محمد ﷺ ، وقد كان من حكمة الله عز وجل أن يؤيد أنبياءه ورسله بمعجزات يؤمن على مثلها البشر، وقد كانت معجزات كل نبي تناسب أعلى ما وصل إليه قومه من العلم ليعرفوا أن هذه المعجزة تفوق كل ما وصلوا إليه وأنها ليست من قدرة البشر وإنما هي من مالك القوى والقُدَر، فقد علمنا أن قوم فرعون قد بلغوا في السحر شأوا لم يصل إليه من قبْلهم ولم يصل إليه من بعدهم فبعث الله عز وجل موسى عليه السلام بمعجزات تشبه ما برَعُوا فيه لكنهم يعلمون أنها ليست منه فأعطاه الله معجزة العصا واليد ومهَّد لذلك حينما ناداه من جانب الطور الأيمن من الشجرة المباركة بالوادي المقدس طوى : ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾ * قال : هي عصاي أتوكأُ عليها وأهشُّ بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى * قال : أَلْقِهَا يَا موسى * فألقاها فإذا هي حية تسعى * قال : خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى * واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آيةً أخرى * لنريك من آياتنا الكبرى * اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴿ فلما جاء موسى إلى فرعون ودعاه إلى الله عز وجل وأعلمه أنه رسول من رب العالمين ، قال له فرعون : ﴿ لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين . قال : أو لو جئتكم بشيء مبين ، قال : فأت به إن كنت من الصادقين ، فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين . قال للملأ حوله : إنَّ هذا لساحر عليم ،

يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون، قالوا: أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين، يأتوك بكل سحار عليهم، فُجِّع السحرة لميقات يوم معلوم. وقيل للناس: هل أنتم مجتمعون، لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين، فلما جاء السحرة قالوا لفرعون: أئنَّ لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين. قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين، قال لهم موسى ألقوا ما أنتم مُلقُونَ. فَأَلْقَوْا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون، فَأَلْقَى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون. فَأَلْقَى السحرة ساجدين، قالوا آمنا برب العالمين، رب موسى وهارون ﴿ وإنا كان السحرة هم أول المؤمنين لأنهم أعرف بضروب السحر وفنونه وأيقنوا أن ما جاء به موسى ليس في مقدور السحرة مهما أوتوا من علم السحر وأن ما جاء به موسى هو معجزة مؤيدة له من رب العالمين، كما علم أن من بُعث إليهم عيسى عليه السلام كانوا أبصر الناس في عصرهم بالطب فجعل الله عز وجل معجزة عيسى عليه السلام من جنس ما برعوا فيه فكانت معجزته أنه يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله وَيُصَوِّرُ من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله . ولما كانت قريش ومن حولهم من سكان الجزيرة العربية هم أعلى الناس بياناً وأعظمهم فصاحة وبلاغة، وكان من تمهيد الله تعالى لرسوله محمد ﷺ قبيل بعثته أن جعل العرب يهتمون بلسانهم أشد اهتمام، ويجعلون للكلام الفصيح من الشعر والنثر منابر في أسواق عكاظ ومجنة وذو المجاز يتحدث من فوقها الشعراء والخطباء، ويجلس لهم الحكام، لِيُقَدَّرُوا لهم ما يستحقون من التقدير حتى كانت تُعلَّق أشعارهم التي بلغت القمة في الفصاحة على الكعبة، فلذلك اختار الله تبارك وتعالى معجزة رسوله محمد ﷺ لتكون من جنس ما برَّع فيه العرب الذين يشهد لهم بالفصاحة العجم، فجعل معجزته الكبرى وآيته العظمى القرآن الكريم، وإن كان رسول الله ﷺ قد أعطاه الله وأيده

بمعجزات حسية كثيرة كالمعجزات الحسية التي أعطاها لإخوانه الأنبياء إلا أن المعجزات الحسية إنما ينتفع بها من يشاهدها غالباً، ولابقاءها ولا دوام لما علم أن رسالة كل رسول قبل محمد ﷺ كانت لقوم مخصوصين ولزمان مخصوص ولم تكن شريعتهم باقية إلى يوم القيامة، أما محمد ﷺ فبعثه الله عز وجل بالشرعة الشاملة الكاملة التامة الباقية ما بقى الليل والنهار والشمس والقمر، لا تنسخ حتى تقوم القيامة. لذلك جعل الله تبارك وتعالى معجزته الكبرى معجزة معنوية هي كلام الله وحجته البالغة ولذلك روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من الأنبياء نبي إلا أُعْطِيَ ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» وقد أشارت الكتب السماوية السابقة إلى أن الله تعالى يبعث محمداً ﷺ وتكون معجزته كلام الله ففي التوراة: سأقيم لبني إسرائيل من إخوتهم مثلك يا موسى، أنزل عليه توراَةً وأجعل كلامي على فيه، والمراد بالتوراة في اللغة الشريعة، فقد نص على أن معجزة هذا النبي هي كلام الله على فمه، ولم يأت نبي قط بعد موسى عليه السلام بدعوى أن معجزته كلام الله سوى محمد ﷺ، وقوله عز وجل: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ الخ أي وإن كنتم في شك من أن القرآن المنزل على عبدنا ورسولنا محمد ﷺ أنه من عند الله فأتوا بسورة من مثل ما جاء به إن زعمتم أنه من عند غير الله وعارضوه بمثل ما جاء به وقد بلغت في الفصاحة مبلغاً لم يصل إليه سواكم فأنتم أفصح الخلق وأعلمهم بالبلاغة والبيان فإني أتحداكم أن تأتوا بسورة من مثل هذا القرآن البليغ الفصيح الوجيز المحتوى على علوم الدنيا والآخرة المشتمل على الأخبار الصادقة من علوم الغيب الماضية والآتية، الآتي بأعدل الأحكام والسلوك والعقيدة الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد كان

تحداهم أن يأتوا بمثل القرآن كما قال عز وجل : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ فلما عجزوا تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله حيث يقول : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ فلما عجزوا عن الإتيان بعشر سور من مثله تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله حيث قال في هذا المقام من سورة البقرة : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صاقين ﴾ أي واستنصروا أعوانكم وشهداءكم الذين يشاهدونكم ويعاونونكم على تكذيبكم لله ورسوله ويظاهرونكم على كفركم ونفاقكم إن كنتم محقين في جحودكم أن ما جاء به محمد ﷺ اختلاق وافتراء فهاتوا سورة واحدة من مثل القرآن فإن عجزتم فكيف تظنون أن محمداً يأتي به وحده من عند نفسه . ثم قطع كل أمل عندهم في التفكير في الإتيان بمثل سورة واحدة منه حاضراً ومستقبلاً فقال : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ وقد كانت قريش تؤمن في قرارة قلوبها أن محمداً رسول الله وأن القرآن من عند الله لعلمهم أن محمداً أمي لم يقرأ ولم يكتب وأنهم كانوا يلقبونه قبل البعثة بالصادق الأمين فمن أين له أخبار الماضي والقادمين ، والدنيا والآخرة في نظام دقيق من الأحكام التي لم تعرف الإنسانية أعدل ولا أدق ولا أشمل ولا أحسن منها ، مع صلاحها لكل عصر ومصر وجيل وقبيل ، ولذلك يقول الله عز وجل : ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ أي فهم يعلمون علم اليقين أنك لست بشاعر ولا ساحر ولا كاهن ولا كذاب ، وإنما جحدوا ما علموا ظلمها وفساداً في الأرض كقوم فرعون لما جاءهم موسى بالبينات أيقنوا أنها من عند الله ولكنهم

مع ذلك جحدوا على حد قوله تبارك وتعالى : ﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين ﴾ * وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كانت عاقبة المفسدين ﴾ * ولم ينقل عن أحد من العرب أنه حاول معارضة القرآن وإذا كان قد علم قطعاً عجز العصر الأول من أرباب الفصاحة وأساطين البلاغة عن الإتيان ولو بسورة من مثله فإن عجز من يجيء من بعدهم إلى يوم القيامة من باب أولى ، وقد أثر أن عمرو بن العاص قد كان صديقاً لمسيلمة الكذاب ، فاجتمع به مرة وقال له : يا مسيلمة ماذا نزل عليك من القرآن ؟ فقال مسيلمة : يا ضفدع يا ضفدعين نقّي كم تنقين ، نصفك في الماء ونصفك في الطين ، لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكن قريشاً قوم يجهلون . فضحك عمرو بن العاص وقال له : والله إني أعلم أنك تعلم أنك كاذب . ولما ارتد بنو حنيفة بعد رسول الله ﷺ وانحازوا إلى مسيلمة الكذاب قال لهم الصحابي الجليل ثمامة بن أثال الحنفي رضي الله عنه : يا قوم أين عقولكم ؟ أما سمعتم قول مسيلمة : يا ضفدع يا ضفدعين نقّي كم تنقين نصفك في الماء ونصفك في الطين . أخرج هذا من إلّ يعني من إله أين هذا من قول الله عز وجل : ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ * وقد أثر أن الوليد بن المغيرة أرسلته قريش ليفاض رسول الله ﷺ في الكف عن دعوته وإعطائه ما يريد فجاء الوليد إلى رسول الله ﷺ وقال : يا ابن أخي ، إنك فرقت بين الابن وأبيه والرجل وزوجته فإن كان الذي يأتيك من الجن عالجناك وإن كنت تريد المال جمعنا لك المال حتى تصير أغنانا وإن كنت تريد الملك ملكناك علينا وإن كنت تريد الزواج زوجناك أجمل امرأة في قريش ، فلما انتهى من كلامه أثر أن رسول الله ﷺ قال له : انتهيت يا عم قال : نعم فقرأ رسول الله ﷺ ﴿ حم ﴾ * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون * بشيرا و نذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون * وقالوا : قلوبنا في

أكنة مما تدعوننا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون * قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنها إلّكم إلّ واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين * الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون * قل أننكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم * فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴿ فلما بلغ رسول الله ﷺ إلى هذا المقام في التلاوة وضع الوليد بن المغيرة يده على فمه وقال : ناشدتك الرحم أن تكف فلما سكّت رسول الله ﷺ رجع الوليد إلى قومه فلما أبصروه أيقنوا أنه جاءهم بوجه غير الوجه الذي ذهب به وقالوا له : ما وراءك قال : إني والله أعرف السحر والشعر والكهانة والله إن محمداً ليس بشاعر ولا ساحر ولا كاهن ، إن للكلام الذي سمعته منه لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولا يُعلَى عليه وإنه ليس من كلام البشر. فلم يتركوه حتى قال : دعوني أنظر وكان منه ما حكى الله عز وجل حيث قال : ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً * وجعلت له مالا ممدوداً * وبين شهوداً * ومهدت له تمهيداً * ثم يطمع أن أزيد * كلا إنه كان لآياتنا عنيداً * سأرهقه صعُوداً * إنه فكر وقَدّر * فقتل كيف قدّر * ثم قتل كيف قدر * ثم نظر * ثم عبس وبسر * ثم أدبر واستكبر * فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر * إن هذا إلا قولُ البشر * سأصليه سقر﴾ ومعنى قوله عز وجل ﴿وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾ . أي حطّبتها الكفار والحجارة التي عبدوها وغيرها . وقد هيئت النار لهؤلاء الجاحدين .

قال تعالى: ﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل، وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون﴾

في الآية السابقة حذر المعاندين المكذبين من أنهم إذا لم ينيبوا إلى الله ويؤمنوا بمحمد ﷺ وبالقرآن الذي أنزل عليه بعد أن تحداهم بعجزهم عن معارضة سورة واحدة من مثله أنهم يُعَرَّضُونَ أنفسهم لِنَارٍ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ قد رَصَدَهَا الله وأَعَدَّهَا لِأَعْدَائِهِ الكافرين الجاحدين، وفي هذه الآية الكريمة بدأها بأمر رسوله وحبيبه محمد ﷺ أن يبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار. وهذا الأسلوب القرآني في الترهيب والترغيب يأخذ بالنفس الإنسانية كُلَّ مأخذ ليحذّر أعداءه مما يوقعون أنفسهم فيه من العذاب والبلاء في العاجلة والآجلة وليبشر أوليائه بالسعادة في العاجلة والآجلة. والتبشير الإخبار بما يظهر أثره على البشرية — وهي ظاهر الجلد — حيث تنطلق الأسارير فرحا عند سماع الخبر الذي يسرها كما تنكمش عند سماع الخبر الذي يسوؤها. وفي الغالب أن تستعمل البشارة في السرور مقيداً بالخير المبشّر به وأن تستعمل مطلقة من غير قيد أما البشارة بالخبر الذي يسوء فإنها لا تستعمل إلا مُقَيِّدًا منصوباً على الشر المبشّر به كقوله عز وجل: ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ وإذا وردت النذارة والبشارة متعاطفتين كان الإنذار للتخويف والتحذير من الشر وكانت البشارة للخير كقوله تعالى: ﴿بشيراً ونذيراً﴾ وكقوله تعالى: ﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾ وقد أخرج البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: احتجت النار والجنة فقالت هذه: يدخلني الجبارون والمتكبرون، وقالت هذه: يدخلني الضعفاء والمساكين

فقال الله عز وجل لهذه : أنتِ عذابي أعذب بك من أشاء وقال لهذه : أنتِ رحمتي أرحم بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها . كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : قال الله تعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، واقراءوا إن شئتم : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها . كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ، ولقَابُ قَوْسٍ أحدكم في الجنة خير مما طلعت عليه الشمس أو غربت . كما روى البخاري في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : عَذْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَطْلَعَتْ إِلَى الْأَرْضِ لِأَضَاءَاتِ مَا بَيْنَهُمَا . وَلَمَلَاتِ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا ، وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا . كما روى البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن للمؤمن في الجنة لحَيْمَةً مِنْ لَوْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ عَرَضُهَا سِتُونَ مِيلًا فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ مَا يَرَوْنَ الْآخَرِينَ ، وَجَنَّاتٌ مِنْ فِضَّةٍ أُنِيتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا . وَجَنَّاتٌ مِنْ ذَهَبٍ أُنِيتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِءَاءَ الْكَبَرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةٍ عَذْنٍ . كما روى البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم كأشد كوكب دري في السماء إضاءة ، قلوبهم على قلب رجل واحد ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، لكل امرئ منهم زوجتان من الحور العين ، يُرَى مُنْحٌ سَوْفَهُمَا مِنْ وَرَاءِ الْعِظَمِ

واللحم من الحُسن، يسبحون الله بكرةً وعشياً، لا يسقَمون ولا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يتفلون، ولا يمتخطون، آتيتهم الذهب والفضة وأمشاطهم الذهب، وَوَقُودُ مجامرهم الأَلُوءُ، ورشحهم المسك، على خَلْق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعاً في السماء، وفي رواية لمسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفلون، ولا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يمتخطون قالوا: فما بَالُ الطعام؟ قال: جُشَاءٌ ورشح كرشح المسك، يُلْهَمُونَ التسبيح والتحميد كما تُلْهَمُونَ النَّفْسَ، كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المغرب أو المشرق لتفاضل ما بينهم قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، كما روى مسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن في الجنة لسوقاً يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم، فيزدادون حُسناً وجمالاً فيرجعون إلى أهلهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً فيقول لهم أهلهم: والله لقد ازددتم بعدنا حُسناً وجمالاً، فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حُسناً وجمالاً. وقوله عز وجل: ﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي وأخبر المؤمنين المصدقين بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر والقدر خيره وشره المؤدين شرائع الإسلام من الشهادتين والصلاة والصيام والزكاة والحج الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، أخبر هؤلاء خبراً يدخل السرور والبهجة على قلوبهم بأن الله تبارك وتعالى وعدهم من فضله جنات تجري من تحتها الأنهار. والجنات جمع جنة وهي في اللغة البستان من النخل والشجر المتكاثف المظلل بالتفاف

أغصانه، وقوله عز وجل: ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ قال ابن جرير في تفسيره: وإنما عني جل ذكره بذكر الجنة ما في الجنة من أشجارها وثمارها وغروبها دون أرضها فلذلك قال عز ذكره ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ لأنه معلوم أنه إنما أراد جل ثناؤه الخبر عن ماء أنهارها أنه جار تحت أشجارها وغروبها وثمارها لا أنه جار تحت أرضها لأن الماء إذا كان جارياً تحت الأرض فَلَا حَظَّ فيها لعيون مَنْ فَوْقَهَا إِلَّا بِكَشْفِ السَّاتِرِ بينها وبينه اهـ وقد وصف الله تبارك وتعالى أنهار الجنة بأنها أنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من عسل مصفى وأنهار من ماء غير آسن وأنهار من خمر لذة للشاربين حيث يقول عز وجل: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم﴾ وقال عز وجل: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أَكُلُّهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا﴾ وقد وصف الله تبارك وتعالى الجنة في سورة الرحمن حيث يقول: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴿ذواتا أفنان﴾ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴿فيهما عينان تجريان﴾ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴿فيهما من كل فاكهة زوجان﴾ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴿متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنى الجنتين دان﴾ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴿فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان﴾ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴿ومن دونها جنتان﴾ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴿مدهامتان﴾ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴿فيهما عينان نضاختان﴾ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴿فيهما فاكهة ونخل ورمان﴾ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴿فيهن خيرات حسان﴾ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴿حور مقصورات في الخيام﴾ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴿لم

يطمئنهم إنس قبلهم ولا جان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام * وقد أخبر رسول الله ﷺ أن في الجنة جناتٍ منها الفردوس الأعلى فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه أن أم حارثة بن سراقه أتت النبي ﷺ فقالت : يا نبي الله ألا تحدثني عن حارثة وكان قُتل يوم بدر أصابه سهم غَرِبَ — فإن كان في الجنة صبرت وإن كان في غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء قال : يا أم حارثة إنها جَنَانٌ في الجنة وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى ، كما روى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : إذا سألتُم الله الجنة فاسألوهُ الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ومنه تَفَجَّرَ أنهار الجنة وفوقه عرش الرحمن . وقوله عز وجل : ﴿كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأُتُوا به متشابهاً﴾ أي كلما أطلعوا من تلك الجنات من نوع من أنواع ثمارها التي لا تخطر على البال ولا تدور في الخيال ، ومن ألوان فواكهها التي ليس لها من فواكه الدنيا إلا الأسماء قالوا هذا الذي رُزِقنا وقُدِّم لنا في الجنة قبل ذلك ، وذلك من شدة الشبه بين فواكهها في الحسن والجمال ، ومعنى قوله تعالى : ﴿وأُتُوا به متشابهاً﴾ أي يشبه بعضه بعضاً في الحسن وإن كانت الطعوم مختلفة فكلما أكلوا من فاكهة تشبه الأخرى وجدوا طعمها كأنهم يطعمونه لأول مرة ، وقولهم هذا الذي رزقنا من قبل على وجه التعجب لما يرونه من حسن الثمرة وعِظَم خلقها ، وأنه ليس فيها شيء لا تشتهيه الأنفس ولا تَلذُّ منه الأعين بل كل فاكهة تقدم لهم فيها تشتهيها النفس وتلذُّ منها العين . وقوله تعالى ﴿ولهم فيها أزواج مطهرة﴾ أي ولهم في الجنة نساء من الحور الحين ومن نسائهم المؤمنات غير أنهن لا يحضن ولا يئُلْنَ ولا يتغوطن ولا يبصقن محفوظات من كل قدر وأذى وقوله تعالى : ﴿وهم فيها خالدون﴾ أي باقون دائمون لا يموتون ولا يهرمون ، وهذا من تمام

النعمة وكمال اللذة فإن الإنسان لو جلس في أفخم القصور وأجملها وسبق له من كل ما تشتهيه نفسه وتلذذ عينه ولكنه يعلم أن وراءه الموت ما تلذذ بها فيه إلا حين غفلته عن ذلك ، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة ينادي مناد : إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً .

قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ : ماذا أَرَادَ اللَّهُ بهذا مثلاً؟ يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين * الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

قد ذكرت في تفسير قوله تعالى : ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً﴾ عند الكلام على المثلين المضروبين للمنافقين أن المقصود من ضرب الأمثال هو تأثيرها العظيم في القلوب ، وأنها أبلغ في تقريب الحقائق وإيضاحها من الوصف وحده لحرص النفس على معرفة ما احتواه المثل ، وأنه ينتقش فيها لأن الغرض من المثل هو تشبيه الخفي بالجلي والمعنوي بالحسي فيتأكد الوقوف على ماهيته ويصير الحس مطابقاً للعقل . وقد بين الله عز وجل أن الأمثال التي يضربها للناس لا يعقلها إلا العالمون ، ولذلك كان بعض السلف يبكي إذا مرَّ به مثلٌ في كتاب الله ولم يفهمه ، غير أن الذين في قلوبهم مرض من المنافقين ومن طبع الله على قلوبهم من الكافرين كانوا إذا سمعوا مثلاً من أمثلة القرآن أخذوا يتساءلون : ماذا أَرَادَ اللَّهُ من هذا المثل ؟ ولا سيما إذا كان المثل المضروب لشيء حقير كالذباب مثلاً الوارد في قوله تبارك وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذَّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ مع أن هذا المثل يتطامن أمام بلاغته البلاء في بيان عجز معبوداتهم الباطلة وحقارتها ، وتماز قدرة الله عز وجل وكمالها الذي جعل هذه الذبابة الضعيفة الحقيرة تُعْجِزُ أصنامهم وتُسَلِّبُ آلهتهم وهم عاجزون حائرون أمامها فبين الله عز

وجل هنا أن ضَرْبَهُ المثلَّ بالعوضة فما فوقها حق يلفت انتباه ذوي العقول إلى عظيم قدرة الله في خلق هذه البعوضة التي يعجز كل بني آدم عن خلق مثلها وإعطائها هذه الطبيعة التي طبعت عليها . وقوله عز وجل : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا﴾ يبين أن الله عز وجل لا يستحي من الحق ، وقد أثبت رسول الله ﷺ صفة الحياء لله عز وجل فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد قال : فوقفا على رسول الله ﷺ فأما أحدهما فرأى فُرْجَةً في الحلقة فجلس فيها وأما الآخر فجلس خلفهم وأما الثالث فأدبر ذاهباً، فلما فَرَّغَ رسول الله ﷺ قال : ألا أخبركم عن النفر الثلاثة ؟ أمّا أحدهم فأوى إلى الله فأواه الله ، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه .

وقاعدة أهل السنة والجماعة أنهم يثبتون لله ما أثبتته لنفسه أو أثبتته له رسوله ﷺ من الأسماء الحسنى والصفات العُلى وينفون عن الله ما نفاه الله عز وجل عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ ويعتقدون أن ما ثبت لله من الأسماء والصفات لا يشاركه فيها أحد من خلقه فهي تليق بالله وحده ، وما ثبت للمخلوقين من الصفات والأسماء تليق بالمخلوقين ، فالله سَمِيَ نفسه حفيظاً عليماً ووصف عبده يوسف بأنه حفيظ عليم وشتان بين الرب الحفيظ العليم والعبد الحفيظ العليم ، كما سَمِيَ نفسه رؤوفاً رحيماً وسمى عبده ورسوله محمد ﷺ رؤوفاً رحيماً وشتان بين الرب الرؤوف الرحيم وبين عبده الرؤوف الرحيم ، ولذلك جاء في قصة الخضر وموسى الواردة في الصحيح : فركبا في السفينة قال : ووقع عصفور على حرف السفينة فغَمَسَ منقاره في البحر فقال الخضر لموسى : مَا عَلِمْتُكَ وعلمي وعِلْمُ الخلائق في علم الله إلا مقدار ما

غَمَسَ هذا العصفور منقاره . فالحياء الذي يوصف الله عز وجل به يليق بالله ولا يتصف به البشر، والحياء الذي يوصف به البشر لا يليق بالله ولا يتصف به تنزهه عن صفات المخلوقين، والحياء في البشر هو تَعَيُّرٌ وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يُعَابُ به ويُذَمُّ، وقد نفى الله تبارك وتعالى عن نفسه المقدسة أنه يستحي من الحق وقد سمع رسول الله ﷺ قولَ أمِّ سُليم رضي الله عنها: إن الله لا يستحي من الحق وأقرها رسول الله ﷺ على ذلك فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من طريق زينب بنت أم سلمة رضي الله عنها عن أم سلمة قالت: جاءت أمُّ سُليم إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن الله لا يستحي من الحق فهل على المرأة من غُسلٍ إذا احتلمت قال النبي ﷺ: إذا رأت الماء فَغَطَّتْ أمُّ سلمة تعني وجهها وقالت: يا رسول الله وتحتلم المرأة؟ قال: نعم، تَرَبَّتْ يَمِينُكَ، فَبِمَ يُشَبِّهُهَا وَلَدُهَا؟ وقوله عز وجل: ﴿مَثَلًا مَّا﴾ أيَّ مَثَلٍ كَانَ لأن كل مثل يضربه الله عز وجل يلفت انتباه الخلق إلى آية من آيات الله، يعي ذلك ذَوُو العقل والعلم وإن جهل المراد منه مرضى القلوب من المنافقين والكافرين . وقوله عز وجل: ﴿بِعَوْضَةٍ فَمَا فوقَهَا﴾ أي بعوضة فما زاد عليها في الجثة أو في الغرض المقصود من التمثيل كجناحها، والبعوضة واحدة البعوض وهو صغار البق، والبقُ يطلق على حيوان صغير شديد اللسع متن الرائحة ضعيف جداً قد يقتله مجرد اللَّمَسُ، ويكون بجدران بعض الدور وفي فُرُشِهَا، وإذا ضُغِطَ عليه بضاغط انفجر دما . كما يطلق البقُّ على الناموس وهو من عجيب خلق الله تعالى فإنه في غاية الصغر، وله ستة أرجل وأربعة أجنحة وذَنَبٌ وخرطومٌ مُجَوَّفٌ، وهو مع صغره يَغُوصُ خرطومه في جلد الفيل والجاموس والجمال فيبلغ منه الغاية حتى إن الجمل قد يموت من قرصته السَّامَةُ أحيانا وقوله عز وجل: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فيعلمون أنه الحق من ربهم﴾ أي فأما الذين صدَّقوا

الله ورسوله فيعرفون أن المثل الذي ضربه الله هو قَمِينٌ بأن تتبَّه له النفوس ،
وتَعِيَهُ القلوب ، وتَتَدَارَسُهُ لما اشتمل عليه من الحِكم الباهرة والآيات القاهرة ،
الشاهدة بأن الله هو الحق وأن قوله الحق وأن ما يضربه من الأمثال هو مَنَارٌ
على الطريق يهدي به الله من يشاء إلى صراط مستقيم ، وقوله عز وجل :
﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ أي وأما الذين كفروا
فَلِفَرَطٍ جهلهم ، وشدة عمى قلوبهم فإنهم يقولون : ما الفائدة من ضرب
هذا المثل ؟ كما قال الله تبارك وتعالى عنهم في سورة المدثر عن سقر : ﴿عليها
تسعة عشر﴾ فقال الذين في قلوبهم مرض والكافرون : ماذا أراد الله بهذا
مثلاً ، وظن بعض السفهاء أنهم بجمعهم يغلبون التسعة عشر خزنة النار
فقال عز وجل : ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكةً وما جعلنا عدتهم إلا
فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا
يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون
ماذا أراد الله بهذا مثلاً ، كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء ، وما
يعلم جنود ربك إلا هو ، وما هي إلا ذكرى للبشر﴾ وقوله عز وجل : ﴿يُضِلُّ
به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يُضِلُّ به إلا الفاسقين﴾ أي يفترق الناس في فهم
ما يَضْرِبُهُ الله عز وجل في القرآن من المثل فيخذل الله كثيراً من الناس فلا
يعقلون هذا المثل ، وَيُكَذِّبُونَ به وهم الكافرون والمنافقون ، ويؤيد وَيُسَدِّدُ
ويوفق كثيراً من الناس وهم المستجيبون لله ولرسوله فيعقلونه ويعلمون أنه
الحق من ربهم وأهل الهدى وإن كانوا قليلاً بالنسبة للناس فهم كثيرون في
أنفسهم وإضلال الله لمن يشاء يكون بخذلانهم وعدم إعانتهم ولا يظلم ربك
أحداً ، وهداية الله تعالى لمن يشاء تكون بتأييدهم وإعانتهم وتوفيقهم للحق
فضلاً منه وإحساناً ، وفي قوله عز وجل : ﴿وما يضلُّ به إلا الفاسقين .﴾ أي
ولا يخذل الله عز وجل إلا من استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ،

وانخرطوا في سلك جنده، وقد وصفهم الله تبارك وتعالى بالفسق وهو الخروج عن طاعة الله، وأصل الفسق في كلام العرب هو الخروج عن القصد قال في القاموس المحيط: (الْفُسْقُ) بالكسر التَّرك لأمر الله تعالى والعصيان والخروج عن طريق الحق أو الفُجُور كالْفُسُوق، فَسَقَ كَنَصَرَ وَضَرَبَ وَكَرَّمْ فُسْقاً وَفُسُوقاً، وإنه لِفُسْقُ خروج عن الحق، وَفَسَقَ جَارَ وَعَنْ أَمْرٍ رَبِّهِ خَرَجَ، وَالرُّطْبَةُ عَنْ قَشْرِهَا خَرَجَتْ كَأَنفَسَقَتْ قِيلَ: وَمِنْهُ الْفَاسِقُ لَانْسِلَاخِهِ عَنِ الْخَيْرِ، وَرَجُلٌ فُسَقَ كَصُرِدٍ وَسَكَّيْتُ دَائِمُ الْفِسْقِ، وَالْفُؤَيْسِقَةُ الْفَأْرَةُ لَخُرُوجِهَا مِنْ جُحْرِهَا عَلَى النَّاسِ، وَيَا فَسَاقٍ كَقَطَامٍ يَافَاسِقَةً، وَيَا فُسْقُ كَزَفَرٍ يَا أَيُّهَا الْفَاسِقُ، وليس في كلام جاهلي ولا شعرهم فاسق على أنه عربي والتفسيق ضد التعديل اهـ. وقد حكى القرطبي في تفسيره عن أبي بكر الأنباري في كتابه (الزاهر) أنه لما تكلم عن معنى الفسق أورد قول الشاعر:

يَذْهَبَنَّ فِي نَجْدٍ وَغَوْرًا غَائِرًا فَوَاسِقًا عَنْ قَصْدِهَا جَوَائِرًا

وقول الشاعر: وَغَوْرًا غَائِرًا أَيِ وَيَسْلُكُنَّ غَوْرًا. وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث الصديقة بنت الصديق عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: خَمْسٌ فَوَاسِقٌ يُقْتَلْنَ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ الْفَأْرَةُ وَالْعَقْرَبُ وَالْغَرَابُ وَالْحِدَاةُ وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ. ولفظ الفاسق يطلق على الكافر وعلى المسلم العاصي إلا أن المراد في هذا المقام هو المنافق والكافر بدليل قوله عز وجل بعد هذا الوصف مباشرة: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾. وقد وصف الله تبارك وتعالى أصحاب هذه الصفات بِالْعَمَى واللعة وسوء الدار حيث يقول في سورة الرعد: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ وبعد أن وصف الفريق السعيد قال في أهل الْعَمَى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ

يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار. ﴿ والعهد الذي ينقضه هؤلاء من بعد ميثاقه أي توكيده عليهم هو وصية الله عز وجل بالإيمان به وبرسله وبكتبه وباليوم الآخر ويشمل كذلك ما يعاهدون به غيرهم ويوثقون ذلك بالإيمان ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون إذ من أبرز صفات هؤلاء أنهم إذا عاهدوا غدروا ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ أي ويقطعون أرحامهم ، ولا يصلونها ، وهذا من أخبث أعمال الناس أن يقطعوا أرحامهم فإن من قطع رحمه كان لما سواها أقطع ولذلك تعهد الله عز وجل بقطع من قطع رحمه ووصل من وصلها ، كما جاء في حديث الصحيحين عن جُبَيْر بن مطعم رضي الله عنه أن رسول ﷺ قال : لا يدخل الجنة قاطع أي قاطع رحم . كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغَ منهم قامت الرحم فقالت : هذا مقام العائد بك من القطيعة قال : نعم أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ، قالت : بلى : قال : فذلك لك قال رسول الله ﷺ : اقرءوا إن شئتم : ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم . أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم . ﴾ . وقوله عز وجل : ﴿ ويفسدون في الأرض ﴾ أي يقفون في وجه شريعة الله ويحاربونها فيضيّعون على الناس أعدل المناهج ويصرفونهم إلى الجور والظلم . وقوله : ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ أي هؤلاء هم الذين ضيّعوا على أنفسهم أحسن الحظوظ وأوفر الأرباح . وقد أشار الله عز وجل إلى أن من يحارب دين رسول الله محمد ﷺ إنما يحارب رحمه وقربته حيث يقول عز وجل : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ﴾ أي لا أسألكم على تبليغ الرسالة إلا أن تودّوا أقاربكم وتحبّوهم ، وكما قال في الآية المشار إليها قريباً : ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾ .

قال تعالى : ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾ * هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم . ﴿

بعد أن وجَّه الله تبارك وتعالى عباده إلى دلائل التوحيد والنبوة والمعاد ، شرع يشرح لهم نعمه ، ويبين لهم آياته في أنفسهم وفي الآفاق ، وقد ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى : ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ * الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناءً وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون﴾ ذكرت في تفسيرها أن الله تبارك وتعالى لفت انتباه الناس في هذا المقام إلى دليلين ظاهرين بارزين أمام الأعين يشهدان أنه لا إله إلا الله ، الأول في الأنفس والثاني في الكون والآفاق ، وأن القرآن الكريم أكثر من لفت الانتباه إلى هذين الدليلين وهما النظر في الأنفس وفي الآفاق ، وقد بدأ هذا المقام هنا بقوله عز وجل : ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾ . ﴿والاستفهام للتوبيخ والإنكار والتبكيك والتعنيف ، أي كيف يقع منكم الكفر بالله وكيف تجحدون وجوده أو تعبدون معه غيره وقد أقام لكم الدلائل ، ونصب أمام أعينكم البراهين في أنفسكم وفي السموات والأرض الشاهدة على أن الله وحده هو رب كل شيء وسيده ومليكه وأنه لا إله غيره ولا رب سواه فكيف تغفلون عن التبصر في أنفسكم وفي السموات والأرض ؟ وقد قرر الله تبارك وتعالى هنا أن الناس كانوا أمواتا فأحياهم ثم يميتهم ويشير عز وجل بذلك إلى أن الإنسان كان في طور من أطواره جماداً كالموات لا أثر فيه للحياة حيث كان أغذية ثمَّ هضمها فتحولت إلى المنى ، الذي لو وضَعْتُهُ تحت (المجهر) ما

رأيت أيَّ أثر لصورة الإنسان فيه ، وقد أخرج الله تبارك وتعالى هذا المني من الإنسان ماء دافقاً يخرج من بين الصلب والترائب منذَفِعاً إلى قرار الرحم ثم يتحول بعد مدة معينة إلى علقة أي قطعة دم حمراء مستطيلة لا أثر للتخطيط للإنساني فيها ، ثم بعد مدة تتحول العلقة إلى قطعة لحم لا شكل فيها للإنسان ولا تخطيط فلا رأس ولا رقبة ولا أنف ولا أذنين ولا عيين ولا يدين ولا رجلين ثم بعد مدة معينة يجري فيها الرسم والتخطيط ويجعل المضغة عظاما ويكسو العظام لحما ، وهو في هذه الأطوار كلها كأنه ميت أو جماد ثم يَنْفُخُ فيه الروح فيتحرك ويصير خلقاً آخر ذا سمع وبصر وإدراك وحركة ، على أن هذا التخطيط يتم في ظلمات ثلاث وهي ظلمة البطن وظلمة المشيمة وظلمة الرحم ، ويطبعه الله عز وجل على صورة لم يخلق قبلها مثلها من كل وجه ولم يخلق بعدها مثلها من كل وجه فجميعُ صُور بني آدم تتفاوت ومهما تشابهت فإن الله عز وجل يجعل فيها علامة فارقة تميز بين الشخص وغيره ليتعارفوا ، ومع خلقه للإنسان على هذه الصورة التي ينفرد بها عن غيره من الناس فإن الله عز وجل يطبعه كذلك في بطن أمه على أخلاق من يشاء الله من آباء الجنين أو أمهاته ، وإلى ذلك يشير الله عز وجل حيث يقول : ﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ وكما قال : ﴿ يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تُصرفون ﴾ ولا يستطيع أحد أن يدعي أن الأب أو الأم أو غيرها يتمكن من فعل شيء من ذلك فكم من رجل قوي نشيط لا يولد له ، وكم من امرأة صحيحة نشيطة لا تلد . وكم من امرأة تتمنى بنتاً فلا تلد إلا الذكور وكم من إنسان يتمنى أن يولد له ذكر فلا يبيئه إلا الإناث كما قال عز وجل : ﴿ الله مُلْكُ السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور* أو يزوجهم ذكراً وإناثاً ويجعل

من يشاء عقيماً إنه عليم قدير ﴿ كما أن لون الإنسان لا يستطيع أحد أن يتحكم فيه لا الأب ولا الأم ولا الطبيب وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن اللون قد ينجذب لعرق من عروق آبائه الأولين فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجل من بني فزارة إلى النبي ﷺ فقال : إن امرأتي ولدت غلاماً أسود فقال النبي ﷺ : هل لك من إبل ؟ قال : نعم ، قال : فما ألوانها ؟ قال : حُمْرٌ ، قال : هل فيها من أورك ؟ قال : إن فيها لَوُرْقًا ، قال : فأنتى أتاها ذلك ؟ قال عسى أن يكون نزعه عرق ، قال : وهذا عسى أن يكون نزعه عرق . وإذا تأمل الإنسان قليلاً فيما احتواه الجسم الإنساني من دلائل وَجَدَ الآيات البينات والحجج الظاهرات ، فجميع البشر في مشارق الأرض ومغاربها مع اختلاف ألوانهم وتباعد بلادهم ولغاتهم وحاجاتهم وأطعمتهم تجد التركيب العضوي الواحد فلكل واحد منهم عيان ولسان وشفتان وأذنان وحُلُقُوم وأجهزة هضمية وأجهزة تنفسية وأجهزة دموية إلى غير ذلك مع اتحاد التركيب والتكوين للقلب والكبد والرئتين والأمعاء الغلاظ والأمعاء الدقيقة وأجهزة الإخراج ، وتشابه ما بين هذه الأجهزة في الإنسان والحيوان ، وهداية كل جهاز من هذه الأجهزة إلى أداء وظيفته دون تدخل من أحد إلا الله الذي لا إله إلا هو ولا معبود بحق سواه ، ولما كان الإنسان هو المكلف من بين الخلق بعمارة الأرض هداه سُبُل ذلك مع عجزه وُضعفه ، فإن الإنسان خلق ضعيفاً كما قال عز وجل : ﴿ وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ وهو الوحيد من بين المواليد الذي ينزل من بطن أمه بلا أسنان ، ولا يستطيع أن يتناول بيده شيئاً ولا يستطيع أن يرفع رأساً مدة طويلة بخلاف سائر مواليد الحيوانات فإنها بعد ولادتها بقليل تقوم وتمشي وتجري وتتبع أمها ، والفرخ عندما يخرج من البيضة ينطلق باحثاً عن طعامه ، وجميع هذه السمات للإنسان وللحيوان واحدة مع تباعد الديار واختلاف أحوال الأقطار ،

والأعصار. وفي قوله عز وجل : ﴿وكنتم أمواتاً فأحياكم﴾ يعني بنفخ الروح في الجنين وفي قوله : ﴿ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾ أي ثم يقضي عليكم بالموت بعد انقضاء أجلكم في الحياة الدنيا وقد قَهَرَ الله العبادَ بالموت ولم يجعل لأحد فيه سلطاناً فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، ثم يحيي الموتى بالبعث والنشور ويرجعون إلى الله ليضع لهم الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ولا يضيع من عملها شيء ، كما قال عز وجل : ﴿وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ والتعبير بالفاء في قوله عز وجل : ﴿فأحياكم﴾ للإشعار بأن إحياء الموتى لا يحتاج إلى زمن . والتعبير بـ﴿ثم﴾ للإشعار بالتراخي وهو الزمن الممتد بين نفخ الروح والموت الذي يحصل بعد الحياة الدنيا وانتهاء الآجال ، وكذلك التراخي في الزمن بين وقت الموت ومدة البرزخ إلى البعث والنشور، ثم إلى جنات النعيم أو عذاب الجحيم أعاذنا الله منه ، وفي قوله عز وجل : ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ أي أوجد لكم الأرض وما فيها من الخيرات والبركات والأقوات ، فكلها خلقت من أجل الإنسان وقد جعل فيها الطيب والخبيث ليمتحن بذلك عباده ، حيث أباح لهم الطيبات من المطاعم والمشارب والمراكب والملابس وسائر الشهوات والملذات المباحة ، وحرم عليهم الخبائث من المطاعم والمشارب والملابس والمراكب وسائر الشهوات والملذات المحرمة . وقوله عز وجل : ﴿ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم﴾ أي ثم قصد إلى السماء وقال الإمام البغوي في تفسير قوله تعالى : ﴿ثم استوى إلى السماء﴾ قال ابن عباس وأكثر مفسري السلف أي ارتفع إلى السماء وقال ابن كيسان والفراء وجماعة من النحويين أي أقبل على خلق السماء وقيل قصد لأنه خلق الأرض أولاً ثم عَمِدَ إلى خلق السماء اهـ وقوله عز وجل : ﴿فسواهن سبع سموات﴾ أي

خلقهن مستوياتٍ لا فُطُورَ فيها ولا صُدُوع . وقد فَصَّلَ الله تبارك وتعالى قوله
 هنا ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن
 سبع سموات﴾ في سورة فصلت حيث يقول : ﴿قل أأنتم لتكفرون بالذي
 خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين * وجعل فيها
 رواسي من فوقها وبارك فيها وقَدَّرَ فيها أقواتها في أربعة أيام سواءً للسائلين *
 ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا :
 آتينَا طائعين * فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها
 وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم﴾ ومعنى قوله
 تعالى : ﴿في أربعة أيام﴾ أي في يومين تُكْمَلان مع اليومين السابقين أربعة
 أيام ، فخلق الأرض بها فيها من جبال وجعلُ بركاتها فيها وتقديرُ أقواتها فيها
 تَمَّ في أربعة أيام ، وخلقُ السموات السبع تَمَّ في يومين فجميع أيام خلق
 السموات والأرض كان ستة أيام كما قال عز وجل ﴿إن ربكم الله الذي خلق
 السموات والأرض في ستة أيام﴾ وقال عز وجل : ﴿الله الذي خلق السموات
 والأرض وما بينهما في ستة أيام﴾ وقال عز وجل : ﴿ولقد خلقنا السموات
 والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب﴾ وفي قوله عز وجل :
 ﴿وما مسنا من لغوب﴾ أي من تعب بسبب خلق السموات والأرض ، فيه ردٌّ
 على اليهود قبحهم الله الذين حرفوا كلام الله وكتبوا في التوراة كَذِباً على الله في
 الإصحاح الثاني من سفر التكوين : فَأَكْمَلَتِ السموات والأرض وكلُّ جندها
 وَفَرَّغَ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل ، فاستراح في اليوم السابع من
 جميع عمله الذي عمل ، وبارك الله اليوم السابع وقَدَّسه لأنه فيه استراح من
 جميع عمله الذي عمل الله خالقاً . اهـ وهذا من أكذب مفتريات اليهود
 وتحريفهم للتوراة تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، هذا وقد ظن بعض الناس
 في قوله تعالى : ﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها﴾ رفع سَمَكها فسواها *

وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحاها ﴿ حسبوا أنه يدل على أن الأرض مخلوقة بعد السماء وهو فهم خاطئ لأن قوله عز وجل : ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ أي مع ذلك لأن قوله هنا : ﴿بعد ذلك﴾ أي مع ذلك ، فبعد تستعمل بمعان منها مع الذي هو المراد هنا وكأنه يقول : إن في خلق السموات آيةً بينةً كافيةً شافيةً في قدرة الله على كل شيء ومع ذلك فقد خلق الأرض فهي آية أخرى كافية شافية وقد استعمل القرآن كلمة بعد بمعنى مع في قوله عز وجل : ﴿عتل بعد ذلك زنيم﴾ أي غليظ جاف ومع ذلك هو زنيم أي دعيّ . ولا شك أن هذا الوصف بكونه زنياً عرف فيه قبل وصفه بالأوصاف السابقة إذ نسب إلى ذلك عندما جاءت به أمه لعنه الله ، وصريح القرآن ناطق بأن الله خلق الأرض قبل خلق السموات في أكثر من مقام في الذكر الحكيم . ومعنى قوله عز وجل : ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ أي وعلمه محيط بجميع الأشياء لا تخفي عليه خافية في الأرض ولا في السماء .

قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا :
أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ
قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

إن الله تبارك وتعالى بعد أن وَبَّخَ الكافرين على كفرهم بالله وجحودهم
لنعمه التي تتوالى عليهم من فضله وجوده وإحسانه مُقَبِّحاً إليهم سُوءَ
فِعَالِهِمْ ، واستمرارهم على ضلالهم ، وكان من نعمه التي عددها عليهم أنه
خلق لهم ما في الأرض جميعاً وسخر لهم ما في السموات من الشمس والقمر
والنجوم وغيرها وكأنه يقول لهم : اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم إذ
خلقتكم ولم تكونوا ، وأوجدتكم من العدم وخلقت لكم ما في الأرض جميعاً
وسويت لكم ما في السموات ، شرع هنا يُذَكِّرُهُمْ بتكريمه لأبيهم آدم ، وبنبه
عباده إلى حكمته التامة في إيجاد الإنسان على الأرض مع ما قد يوجد منه من
الشر والكفر؛ لأن إيجاد ما يغلب خيره على شره تقتضيه الحكمة التامة ، ولا
سيما أن الإنسان قد رُكِّبَ من تراب الأرض ، وركبت فيه الشهوات البهيمية ،
ومع ذلك لا يزال منهم من يذكر الله عز وجل ويسبح بحمده ويقدسه ،
فلله الحكمة البالغة . والملائكة جمع ملك ومعناه في اللغة مأخوذ من الملاك
وهي الرسالة ، تقول العرب : أَلَكْنِي إليه أي أرسلني إليه قال عدي بن زيد
العبادي :

أَبْلِغَ النِّعْمَانَ عَنِّي مَلَأْكَأً أَنَّهُ قَدْ طَالَ حَبْسِي وَانْتَظَارُ
والملائكة هم رسل الله بينه وبين أنبيائه وعباده وفي الاصطلاح : هم
أجسام نورانية لطيفة لها قدرة على التشكل بالأشكال الجميلة أولو أجنحة
مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء شأنهم الطاعة ومسكنهم
السموات لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون منهم جبريل الذي رآه

رسول الله ﷺ على صورته الحقيقية جالسا على كرسي بين السماء والأرض له
ستمائة جناح فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الله
ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح، كما
روى البخاري ومسلم في صحيحيهما واللفظ لمسلم من طريق مسروق قال :
قلت لعائشة : فأين قوله : ﴿ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى
إلى عبده ما أوحى﴾ قالت : إنما ذاك جبريل ﷺ كان يأتيه في صورة الرجال
وإنه أتاه في هذه المرة في صورته التي هي صورته ، فسَدَّ أَفَقَ السَّمَاءِ وقد ذكر
الله تبارك وتعالى خلقه للملائكة في مطلع سورة فاطر حيث حمد نفسه على
هذه النعمة العظيمة حيث قال : ﴿الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل
الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله
على كل شيء قدير﴾ والإقرار بالملائكة ركن من أركان الإيمان كما جاء في
حديث أبي هريرة عند البخاري أن النبي ﷺ كان بارزاً يوماً للناس فأتاه رجل
فقال : ما الإيمان قال الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن
بالبعث . الحديث وفي آخره : ثم أدبر فقال ردوه فلم يَرَوْا شيئا ، فقال : هذا
جبريل جاء يعلم الناس دينهم ، وقد رواه مسلم من حديث عمر بن
الخطاب رضي الله عنه قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع
علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثر السفر ،
ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع
كفيه على فخذيه وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام قال : الإسلام أن تشهد
أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتُقِيمَ الصلاة وتُؤتي الزكاة وتصوم
رمضان وتحجَّ البيت إن استطعت إليه سبيلا . قال : صدقت ، فعجبنا له
يسأله ويُصدِّقُه ، قال : فأخبرني عن الإيمان ، قال : أن تؤمن بالله وملائكته
وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت الحديث

وفي آخره : قال : ثم انطلق فلبث مَلِيًّا ثم قال لي : يا عمر أتدري من السائل ؟ قلتُ : الله ورسولُه أعلم ، قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم . وقد بين الكتاب والسنة كثيرا من أعمال الملائكة ووظائفهم كما بين رسول الله ﷺ أصل خلقهم ، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث الصديقة بنت الصديق حبيبة رسول الله ﷺ الحصان الرزان أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال خُلِقَتِ الملائكة من نور وخلق الجن من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم .

وقد جعل تبارك وتعالى الملائكة رسلا وجعلهم حفظة لعباده حيث يقول عز وجل : ﴿ لَهُ مَعْقِبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أي يحرسونه ويصونونه بسبب أمر الله لهم بذلك .

ومن وظائف الملائكة قبض أرواح الناس فملائكة الرحمة يقبضون أرواح المؤمنين وملائكة العذاب يقبضون أرواح الكافرين وفي ذلك يقول الله عز وجل : ﴿ قُلْ يَتُوفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ ويقول جَلَّ مِنْ قَائِلٍ ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ . ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ ومن وظائف الملائكة كتابة أعمال الناس ، مَلَكٌ عَنِ الْيَمِينِ وَمَلَكٌ عَنِ الشِّمَالِ كما قال عز وجل : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ * كَرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ وقد وصفهم الله عز وجل بصفات تشير إلى أعمالهم حيث يقول : ﴿ وَالصَّافَاتُ صَفَاءً ﴾ وكما قال : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾ وقال في وصف ملائكة الرحمة وملائكة العذاب الموكلين بقبض الأرواح : ﴿ وَالنَّازِعَاتُ غَرَقًا * وَالنَّاشِطَاتُ نَشْطًا ﴾

وقد ذكر رسول الله ﷺ أن الله ملائكة يسيحون في الطرقات يلتمسون مجالس الذكر فإذا رأوا مجلساً من مجالس الذكر تنادوا: هلموا إلى حاجتكم فيحفظونهم بأجنحة الرحمة إلى السماء الدنيا، في وظائف كثيرة، وقد سمي الله عز وجل من الملائكة جبريل وميكائيل ووصف الله عز وجل جبريل بأنه شديد القوى حيث يقول عز وجل: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴾ وقال عز وجل فيه أيضاً: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ وسماه الله عز وجل الرُّوحَ الأَمِينُ كما سماه رُوحَ الْقُدُسِ حيث يقول عز وجل: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ ويقول عز وجل: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ وقال في حق عيسى عليه السلام ﴿إِذْ أَيْدَتِكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ حيث كان جبريل عليه السلام هو رسول الله إلى جميع الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، وقد بين الله عز وجل أن الملائكة جنود الله وأنه لا يعلم عددهم وكيفياتهم إلا الله عز وجل حيث يقول: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ أي إني خالق في الأرض جنساً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل وقبلاً بعد قبيل كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا يَجْعَلُ اللَّهُ لَهُمْ أَسْمَاءَ يُسَبِّحُونَ بِهَا أَسْمَاءَ اللَّهِ يَغْثَى بِنِهَايِهَا وَقُلُوبُهُمْ يَتَذَكَّرُ أَلْفَ عَشْرٍ ﴾ وقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا يَجْعَلُ اللَّهُ لَهُمْ أَسْمَاءَ يُسَبِّحُونَ بِهَا أَسْمَاءَ اللَّهِ يَغْثَى بِنِهَايِهَا وَقُلُوبُهُمْ يَتَذَكَّرُ أَلْفَ عَشْرٍ ﴾ ولا شك أن قوله عز وجل: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ يدل على أن المراد ذرية آدم لا آدم نفسه وإن كان هو والد هؤلاء جميعاً والخليفة قد يطلق على معانٍ منها الإمام الأعظم كأبي بكر وعمر وعثمان

وعلى رضي الله عنهم وسائر من يُلقَّب بالخليفة من الحكام وليس هذا مراداً هنا ، ولكنه مراد في قوله عز وجل : ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾ أي جعلناك وصيرناك إماماً وحاكماً وليس المراد أنه خليفة الله ؛ لأن الله عز وجل لم يَغْبُ حتى يتخذ خليفة له ، وقد سُمِّيَ أبو بكر رضي الله عنه خليفة لأنه صار الحاكم بعد رسول الله ﷺ لما غاب بالموت ﷺ ، وكذلك كانت وظيفة هارون عليه السلام بعد ذهاب موسى لميقات ربه حيث قال هارون عليه السلام : ﴿اخلقني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ ولم يثبت في خبر صحيح عن رسول الله ﷺ تسمية الحاكم خليفة الله ولا تسمية ذرية آدم خلفاء الله في الأرض فإن الله مع عباده بعلمه أينما كانوا كما قال عز وجل : ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ ولو جاز إطلاق كلمة خليفة الله على أحد لكان أبو بكر الصديق وعمر الفاروق رضي الله عنهما أولى الناس بها ولم يثبت أن واحداً من أصحاب رسول ﷺ - وهم أعلم بالألفاظ الشرعية واللغوية - سُميَ أبا بكر أو عمر خليفة الله وإنما كانوا يقولون لأبي بكر رضي الله عنه يا خليفة رسول الله ويقولون لعمر رضي الله عنه يا خليفة خليفة رسول الله ﷺ حتى خشي عمر رضي الله عنه أن يطول الأمر فيقال للخليفة من بعده : يا خليفة خليفة خليفة رسول الله ﷺ فسمَّى نفسه أمير المؤمنين ، وليس قوله عز وجل عن الملائكة : ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟﴾ سؤال اعتراض وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك كأنهم قالوا : يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يسفك الدماء ويفسد في الأرض ونحن نسبح بحمدك ونصلي لك ولا يصدر منا شيء من سفك الدماء أو الفساد في الأرض ؟ فقال الله عز وجل : ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ أي إني أعلم في خلق هؤلاء من

المصالح الراجعة المُقَدَّمة على المفسد التي ذكرتموها فيهم فإني سأجعل فيهم
الأنبياء والمرسلين والصديقين والشهداء والصالحين ، المستجيبين لله ورسله
مع ما ركب فيهم من الشهوات ، ولذلك تسارع الملائكة بالشهادة بالخير
للمؤمنين والاستغفار لهم كما جاء في الصحيح : أن الملائكة الذين يتعاقبون
في المؤمنين ويجمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر حيث تمكث ملائكة
الليل من العصر إلى الفجر وملائكة النهار من الفجر إلى العصر فإذا صعدوا
إلى الرب سألهم وهو أعلم بهم كيف تركتم عبادي فيقولون : أتيناهم وهم
يصلون وتركناهم وهم يصلون فاغفر لهم يوم الدين . وكما قال عز وجل :
﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به
ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا
واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ﴾ ربنا وأدخلهم جنات عدن التي
وعدهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم *
وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم ﴿

قال تعالى : ﴿وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴾ قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾

إن الله تبارك وتعالى قد ذكر في الآية السابقة مشهداً من مشاهد الغيب التي جرت في الملأ الأعلى وأعلم الله تبارك وتعالى عباده بها ليعلموا أن الغيب لله وحده لا يعلمه ملك مُقَرَّبٌ ولا نبي مرسل إلا ما تقتضيه الحكمة من إعلامه للملائكة أو المرسلين أو الأنبياء ، وإذا كانت الملائكة لا يعلمون الغيب فمن باب أولى لا يعلمه الجن والكهنة والعرافون والدجالون الذين يدعون معرفة الغيب وأن الجن يأتونهم بأخبار ما كان وما يكون ، وقد نص الله تبارك وتعالى في محكم كتابه أن الجن لا يعلمون الغيب حيث قال : ﴿ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ﴾ يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور ﴾ فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين ﴾ وفي قوله تبارك وتعالى : ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ الخ الآيات الثلاث مشهدٌ آخر من مشاهد الغيب التي يقصها الله تبارك وتعالى فيما أنزله من القرآن على النبي الأمي الذي بعثه في الأميين لتعليم الناس الكتاب والحكمة وليزكيهم ، ولا شك أن قوله عز وجل : ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ كان بعد الأمر بسجود الملائكة لآدم ، وإنما قدّمه في الذكر هنا

لاتصاله بقوله عز وجل في ختام الآية السابقة : ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ ولتقرير ما قدمه في الآية السابقة مما يقتضي أن الغيب كله لله ، وهو وإن كان المقصود منه بيان شرف آدم وعُلُوّ منزلته فإنه تقرير لمن تَرَدَّدَ في الإيمان بالنبى الأمي الذي أعلمه الله عز وجل بأخبار الملائ الأعلى وأعلمه ما لم يكن يعلمه هو ولا قومه من قبل كما علّم أباه آدم الأسماء كلها فعَرَفَ ما لم تعرفه الملائكة منها ، والمراد بالأسماء كلها ما لا غنى لآدم عنه مما يحتاج لمعرفة ومنها أسماء الملائكة الذين يُعرفهم بأسمائهم . وهذا كقوله في ملكة سبأ : ﴿وأوتيت من كل شيء﴾ يعني مما لا غنى لمثلها عنه ، وكذلك قوله تعالى في ريح عاد : ﴿تدمر كل شيء بأمر ربها﴾ أي تدمر كل شيء أمرت بتدميره بدليل أنها لم تدمر السموات والكواكب وما خرج عن دائرة أرض عاد ، وقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا ؟ فيأتون آدم فيقولون : أنت أبو الناس ، خلقتك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شيء فاشفع لنا عند ربك حتى يُرِحَنَا من مكاننا هذا فيقول : لستُ هناكم . إلخ الحديث . فقوله في هذا الحديث المتفق عليه وعلمك أسماء كل شيء هو كما وصفتُ في معنى : ﴿وأوتيت من كل شيء﴾ وقوله : ﴿تدمر كل شيء بأمر ربها﴾ وآدم هو أبو البشر وأبو الناس كلهم قيل هو مأخوذ من أديم الأرض وهو وجهها ، ومنها خُلِقَ ، وقيل : هو مأخوذ من الأدمة وهي السُمرة وقد روى أحمد وأبو داود والترمذي وقال الترمذي : حسن صحيح من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك ، والسَّهْلُ والحَزْنُ وبين ذلك ، والخِيث والطيب وبين ذلك . ولا شك أن ما أورده القرآن الكريم من قصة آدم هذه

يقطع بكذب (داروين) ونظريته الإلحادية في «التطور والارتقاء». وقوله عز وجل: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ أي عرض المسميات التي علم آدم أسماءها على الملائكة والظاهر أن المسميات المعروضة كان منها لما يعقل ولما لا يعقل، وغلب العاقل تكريراً له فقال: «عرضهم» ولم يقل عَرَضَهَا، وقوله عز وجل: ﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي قال الله تبارك وتعالى للملائكة: أخبروني بأسماء هذه المسميات المعروضة عليكم إن علمتم أنكم تكونون صادقين في هذا الإعلام، فَسَارَعُوا إِلَى إِظْهَارِ عَجْزِهِمْ عَنْ مَعْرِفَةِ أَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ وَبَرَّءُوا أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ قَوْلًا بَلَا عِلْمَ، ونزهوا الله وسبحوه وَقَدَّسُوهُ بَيْنَ يَدَيْ جَوَابِهِمْ حَيْثُ قَالُوا: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ وهذا منهم اعتراف بعجزهم وقصورهم، وفيه إشعار بأن سؤاَلهم كان استفساراً وليس اعتراضاً، وهذه صورة أخرى من صور تقرير أن الغَيْبَ لله وحده وأنه تبارك وتعالى عنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، وأنه لن يصل إلى أحد شيء من علم الغيب إلا من الله وحده كما قال عز وجل: ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ * ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً ﴿ وفي هذا الذكر تقرير لليهود والمنافقين والكافرين الذين عَمُوا وَصَمُّوا عما جاء في هذه القصة من علوم الغيب التي قصها الله تبارك وتعالى في هذا المقام على رسوله النبي الأمي محمد ﷺ وإذا كانت الملائكة الكرام يقرون بأنهم لا يعلمون إلا ما علمهم الله عز وجل فهل يليق بعاقل أن يقول على الله بغير علم؟ وقوله عز وجل: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي عندما أعلن الملائكة أنهم لا يعرفون أسماء المسميات التي عرضها عليهم

لأنهم لا يعلمون شيئاً إلا ما علمهم الله عز وجل وأنهم لا يقولون على الله
 بغير علم قال الله تبارك وتعالى لأدم عليه السلام : أخبر الملائكة بأسماء هذه
 المعروضات ولا مانع من أن يكون من بين الأسماء التي يتحدث بها آدم
 للملائكة تعريفاً كل ملك باسمه ، فيقول آدم لكل مَلَك من الملائكة
 الحاضرين : اسمك كذا . وبعد أن أخبر آدم عليه السلام الملائكة بأسمائهم
 قال الله عز وجل : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا
 تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ أي قد أخبرتكم وقلت لكم إِنِّي أَعْلَمُ السِّرَّ فِي
 السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا تُخْفِي عَلَيَّ خَافِيَةً ، فالغائب والشاهد في علمي سواء ،
 وأَعْلَمُ مَا يَظْهَرُهُ الْعِبَادُ وَمَا يَكْتُمُونَهُ ، كما قال عز وجل : ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي
 صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى
 كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وكما قال عز وجل عن عيسى عليه السلام : ﴿ إِنْ كُنْتُ
 قُلْتُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ
 الْغُيُوبِ ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ قُلْ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمُ
 الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ وكما قال عز
 وجل : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا
 تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا
 فِي كِتَابٍ مَبِينٍ * وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ
 يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ
 تَعْمَلُونَ ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَكْتُمُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا
 حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾
 وكما قال عز وجل : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَسْرُونَ وَمَا تَعْلَنُونَ ﴾ وكما قال عز
 وجل : ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلَنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾
 وكما قال عز وجل : ﴿ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ وكما قال عز

وجل : ﴿ قل أنزله الذي يعلم السرّ في السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيا ن يبعثون ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ وإن ربك ليعلم ما تكنّ صدورهم وما يعلنون . وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ويوم يناديهم أين شركائي قالوا : آذناك ما منا من شهيد ﴾ ولذلك كان أنبياء الله ورسله يعلنون أنهم لا يعلمون الغيب وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى في حق حبيبه ونبيه ورسوله وسيد خلقه محمد ﷺ : ﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إليّ ، قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون ﴾ وقال في حق نوح عليه السلام : ﴿ ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما في أنفسهم إني إذا لمن الظالمين ﴾ وقد ختم الله تبارك وتعالى سورة هود عليه السلام بقوله : ﴿ والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبدوه وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ .

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ
وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ .

هذه صورة أخرى من صور تكريم آدم عليه السلام حيث أمر الله ملائكته بالسجود لآدم، وقد ذكر الله تبارك وتعالى قصة خلق آدم وأمر الملائكة بالسجود له في سبع سور من القرآن الكريم، فذكرها في سورة البقرة وفي الأعراف والحجر والإسراء والكهف وطه وص حيث قال في سورة البقرة هنا: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ وقال في سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ * قال: ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين * قال: فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين * قال: أنظرني إلى يوم يبعثون * قال إنك من المنظرين * قال فيما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم * ثم لا تينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين * قال اخرج منها مَذْمُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وقال في سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ * والجان خلقناه من قبل من نار السموم * وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين * قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين * قال لم أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ * قال فاخرج منها فإنك رجيم * وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين * قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون *

قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم * قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين ﴿١﴾ وقال تعالى في سورة الإسراء : ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا * قال : أرايتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً * قال اذهب فممن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا * واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا * إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً﴾ وقال تعالى في سورة الكهف : ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدوٌ بئس للظالمين بدلاً﴾ وقال عز وجل في سورة طه : ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى * فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى * إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى * وأنت لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾ وقال عز وجل في سورة ص : ﴿إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين * قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين * قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين * قال فاخرج منها فإنك رجيم * وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين * قال ربّ فأنظرني إلى يوم يبعثون * قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم * قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين﴾ وفي تكرير هذه القصة في هذه السُور، وفي تصريفها هذا التصريف البلاغي المعجز حجةٌ قاهرةٌ وآية باهرة شاهدة ناطقة بأن القرآن من

عند الله ، وفيه تنبيه أي تنبيه وتحذير أشد التحذير من إبليس عدو أبينا آدم وعدونا ، إذ المقصود من تصريح هذه القصة تأكيد العداوة بين إبليس وذرية آدم وأن كل فساد في الأرض إنما هو من عمل إبليس وجنوده ، وفي ذلك ذكر لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . وقد وصف الله تبارك وتعالى خلق آدم في هذه الصُّور المشرقة المبثوثة في كتاب الله في هذه المواضع السبعة بأنه خلقه من طين من صلصال من حمأ مسنون ، وذلك أن الله تبارك وتعالى قبض قبضة من تراب الأرض وبلَّها بالماء فصارت طينا ثم مرت عليها مدة حتى تحجرت فصارت صلصالاً والصلصال هو الطين المتحجر لأن الطين إذا طبخ بالنار سُمِّيَ فخَّاراً وإذا لم يطبخ بالنار لكنه تُرك حتى تحجر يسمى صلصالاً ، فقلوه تعالى : ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار ﴾ أي من طين تحجر حتى صار شبيهاً بالفخار وهو المطبوخ بالنار في تحجره وصلصلته إن قلنا : إنه من صلصل بمعنى صوت وإن قلنا : إنه من صَلَّ بمعنى تغير فإن الطين إذا مضت عليه مدة أَتَتْهُ وَاسْوَدَّ فيصير حمأً مسنوناً أي أسود متغيراً له رائحة خاصة فإذا بَيَسَ وتحجر صار كالفخار ، والطين اللازب هو اللاصق ويقال أيضاً : لَزِبَ الطين إذا صَلَّبَ . والسجود في قوله تعالى للملائكة : ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ قال القرطبي في تفسيره : واختلف الناس في كيفية سجود الملائكة لآدم بعد اتفاقهم على أنه لم يكن سجود عبادة فقال الجمهور : كان هذا أمراً للملائكة بوضع الجباه على الأرض كالسجود المعتاد في الصلاة لأنه الظاهر من السجود في العرف والشرع ، وعلى هذا قيل : كان ذلك السجود تكريماً لآدم وإظهاراً لفضله وطاعة لله تعالى وكان آدم كالقبلة لنا ومعنى لآدم : إلى آدم كما يقال : صلى للقبلة أي إلى القبلة . اهـ وأصل السجود في كلام العرب بمعنى التذلل والخضوع قال ابن فارس : سجد إذا تطامن ، وكل ما سَجَدَ فقد ذَلَّ . اهـ وقال في القاموس : سَجَدَ خضع وانتصب ضدَّ

اهـ وقال ابن منظور في لسان العرب : الساجدُ المنتصب في لغة طيء . اهـ
 وقوله تعالى : ﴿ فسجدوا إلا إبليس ﴾ أي فسارع الملائكة ممثلين أمر الله عز
 وجل إلا إبليس فإنه لم يسجد ، وإبليس قيل هو مشتق من الإبلّاس وهو
 اليأس من رحمة الله ومنه قوله عز وجل : ﴿ فلما نَسُوا ما ذكروا به فتحنا عليهم
 أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾ أي
 آيسون من رحمة الله وإنما مُنِعَ من الصرف تشبيها له بالأسماء الأعجمية لأنه لا
 نظير له في أسماء العرب ، وإبليس لم يكن من الملائكة وإنما كان من الجن ،
 وكان له ذرية وليس للملائكة ذرية فهم لا يتناسلون ، وقد نصّ القرآن
 الكريم على ذلك في قوله عز وجل في سورة الكهف : ﴿ وإذ قلنا للملائكة
 اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه
 وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ﴾ ولا شك أن
 العرب يستثنون من المتصل ومن المنقطع فيقولون : قام القوم إلا زيدا
 فَيَسْتَثْنُون من الجنس إذ أن زيدا من جنس القوم ، ويقولون قام القوم إلا حمارا
 فَيَسْتَثْنُون من غير الجنس وهو المعروف بالاستثناء المنقطع لأن الحمارة ليس من
 جنس القوم ، وهذا لا اختلاف فيه عند علماء العربية ، ولم يثبت -- والله
 الحمد -- خبر واحد عن رسول الله ﷺ أن إبليس كان من الملائكة . وقد
 وصف الله عز وجل الملائكة بأنهم : ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما
 يؤمرون ﴾ وقال عز وجل : ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾
 وقد أخبر رسول الله ﷺ أن الجن خلقوا من النار وأن الملائكة خلقوا من نور
 وقال الله تبارك وتعالى في شأن إبليس لعنه الله : ﴿ قال أنا خير منه خلقتني
 من نار وخلقته من طين ﴾ فهذه أدلة قطعية يقينية في أن إبليس لم يكن من
 الملائكة ، وشمول الأمر له بالسجود في قوله عز وجل : ﴿ وإذ قلنا للملائكة
 اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق من أمر ربه ﴾ وإن

كان متوجها في اللفظ للملائكة فإنه من غير الممتنع في العقل واللسان أن يأمر الأمر أجناساً مختلفة ممن يُعَقَّلُ توجُّهُ الأمر لهم ويكون اللفظ لأعلى هذه الأجناس قدراً، لأنه إذا أُمرَ الأعلى بالعمل فإن دخول الأدنى تحت هذا الأمر من باب أولى، كما يشمل المُساوي لو وُجِدَ كما قال رسول الله ﷺ للأنصار عندما أقبل سعد بن معاذ رضي الله عنه يوم قريظة: قوموا إلى سيدكم. والمقطوع به أن سعد بن معاذ رضي الله عنه كان سيد الأوس. كما كان سعد ابن عبادة سيد الخزرج رضي الله عنهم جميعاً. كما جاء في لفظ البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه يقول: نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ فأرسل النبي ﷺ إلى سعد فأتى على حمار فلما دنا من المسجد قال للأنصار: قوموا إلى سيدكم أو خيركم. الحديث. وقوله عز وجل: ﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي امتنع عن السجود لآدم واستعظم وقد سبق في علم الله أنه سيكفر ويصير شر خلقه، وفي هذا تنبيه وتحذير من خطر الكبر وشره ولذلك روى مسلم في صحيحه من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعلُهُ حسنةً؟ قال: إن الله جميل يحب الجمال، الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ. ومعنى بَطَرُ الْحَقِّ أَي دَفَعُهُ وَرَدُّهُ، ومعنى غمط الناس أي احتقارهم وقد جرَّ هذا الكبرُ على إبليس الخزي والحسرة في الدنيا والآخرة فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إذا قرأ ابن آدم السجدة فَسَجَدَ اعتزل الشيطان يبكي يقول: يَا وَيْلَهُ — وفي رواية: يَا وَيْلِي — أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بالسجود فسجد فله الجنة وأُمِرْتُ بالسجود فأبيتُ فلي النار. نعوذ بالله من إبليس ونفثه ونفخه وهمزه ولزه.

قال تعالى : ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ، وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ، وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ . فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ * قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿ .

إن الله تبارك وتعالى بعد أن حكى ما جرى بينه وبين الملائكة من أمرهم بالسجود لآدم تكريماً له وامتناع عدو الله إبليس عن السجود لآدم عليه السلام غروراً واستكباراً وما حكم الله عز وجل به على إبليس ، عطف على ذلك قصة أخرى من قصص تكريم آدم عليه السلام وحسد إبليس له لتكون ذرية آدم على أشد الحذر من عدو الله وعدوهم وعدو أبيهم آدم إبليس لعنه الله ، وفي هذه القصة إشارة إلى أول الأوامر والنواهي التي صدرت من الله عز وجل لآدم عليه السلام في أول تكليف كَلَّفَهُ اللهُ عز وجل به حيث قال عز وجل له : ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ * ولا شك أن هذا الأمر إنما صدر من الله عز وجل لآدم بعد أن خلق الله له زوجته حواء ، حيث خلقها من ضلع من أضلاع آدم عليه السلام ليسكن إليها كما قال عز وجل : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ * وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «استوصوا بالنساء خيراً ، فإن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل

أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيراً» والظاهر أن سجود الملائكة لآدم وتأيي إبليس لعنه الله عن السجود كان قبل خلق حواء وكان قبل أن يؤمر آدم وزوجه بأن يسكنا الجنة ، ولا شك أن إبليس بعد تأييه عن السجود طرد من رحمة الله ، فامتلاً حقداً وحسداً لآدم عليه السلام ، وقد أذن الله لآدم أن يسكن هو وزوجه الجنة وأباح لهما ما في الجنة يأكلان منه رغدا حيث شاءا ونهأهما عن الأكل من شجرة معينة وحذرهما من إبليس ، غير أن حكمة الله البالغة اقتضت أن ينسى آدم هذا التحذير ، وأن يعمل إبليس بما يستطيعه من وسوسة ومن أيان كاذبة بأنه ناصح لآدم ولزوجه حتى أكل آدم وزوجه من الشجرة عن غير قصد وإنما عن نسيان كما قال عز وجل : ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً ﴾ وليس في القرآن أو في السنة النبوية ما يدل على أن هذه الوسوسة كانت في الجنة ، وظاهر القرآن أن إبليس وسوس لآدم وحواء قبل دخول الجنة لمجيء ذكر الوسوسة بعد قوله : ﴿ اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ فآلها الشيطان عنها ﴿ وفي سورة الأعراف ﴿ فوسوس لهما الشيطان ليبيد لهما ما وُوريَ عنهما من سوءاتهما وقال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ وفي سورة طه : ﴿ فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾ وهذا يفسر قوله : ﴿ إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ أي ما نهاكما ربكما عن الأكل من هذه الشجرة إلا لئلا تكونا ملكين أو لئلا تكونا من الخالدين ، وأنكما لو أكلتما من هذه الشجرة صرتما ملكين أو صرتما من الخالدين . كما قال : هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى . والعرب تترك لا في كلامها أحيانا لدلالة السياق عليها كما قال عز وجل : ﴿ ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين

والمهاجرين في سبيل الله ﴿إذ المراد: أن لا يؤتوا أولى القربى الخ وكما قال عز وجل: ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ فقد قال بعض أهل العلم بالتفسير والتأويل: المراد: وعلى الذين لا يطيقونه فدية طعام مسكين. وكما قال عز وجل: ﴿قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف﴾ أي قالوا تالله لا تفتأ تذكر يوسف لأن فتى وبرح لا تستعمل إلا منفية كما هو مقرر عند علماء اللغة العربية، وقد قال الشاعر:

فقلت يمين الله أبرح قاعدا وإن قطعوا رأسي لديك وأوصالي
أي لا أبرح قاعدا. والمقصود أن الله تبارك وتعالى لحكمته البالغة مكن إبليس من الوسوسة لآدم ليعرف بنوه أن إبليس حريص على حرمانهم من كل خير لعداوته لأبيهم آدم ولهم، وأنه كما حرص على إخراج آدم من الجنة فهو كذلك حريص على حرمان أبناء آدم من دخول الجنة كما قال عز وجل: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ قال القرطبي رحمه الله: في قوله تعالى ﴿اسكن﴾ تنبيه على الخروج لأن السكنى لا تكون ملكا. اهـ. وقوله: ﴿وزوجك﴾ الزوج بغير هاء لأنثى هي لغة القرآن الكريم يقال لامرأة الرجل زوجته ويقال لرجل المرأة زوجها قال الأصمعي: ولا تكاد العرب تقول زوجة اهـ ولا شك أن كلمة زوجة وردت على لسان رسول الله ﷺ في الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان مع إحدى نسائه فمرَّ به رجل فدعاه فجاء فقال: يا فلان هذه زوجتي فلانة. الحديث. والرغد هو الواسع من العيش الهنيء الذي لا يتعب صاحبه في تحصيله وقوله: ﴿حيث شئتما﴾ أي في أي مكان من الجنة أردتما. وقوله: ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ أي لا تدنوا منها واجتنبوها، ولم يصح عن رسول الله ﷺ خبر

في تعيين الشجرة التي نهى الله آدم عن الأكل منها ، ولو كان في تعيينها خير
 لَعَيَّنَهَا الله عز وجل وبينها ، وما دام أن الله تبارك وتعالى لم يُبَيِّن نوع الشجرة ،
 ولم يُبَيِّنهُ رسول الله ﷺ فلا حاجة إلى تَكَلُّفٍ تعيينها ولا إلى معرفة نوعها ،
 وقوله عز وجل : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ﴾ أي فوسوس لهما الشيطان حتى
 نسيا نصيحة الله لهما وأكلا من الشجرة ، وقوله : ﴿ فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ أي
 تسبب في إخراجهما من العيش الهنيء الرغيد في الجنة ، وقد اقتضت حكمة
 الله أن يأكل آدم من الشجرة ، والله يعلم أنه أكل منها لا محالة لأنه لا بد وأن
 يُسْكِنَهُ الأرض وَيُعْمَرَهَا هو وذريته من بعده ويجعل فيهم خيراً كثيراً وعباداً
 صالحين وأنبياء ومرسلين ، والله قد أعلم الملائكة قبل خلق آدم أنه جاعل في
 الأرض خليفة ، وإن كان لا بد من الابتلاء والامتحان والاختبار في هذه
 الأرض ، وقد كانت الصورة الأولى للامتحان والابتلاء أن يَنْهَى الله آدم عن
 الأكل من الشجرة وينسى آدم ذلك النَّهْي ويأكل آدم منها ، ليعود إلى الأرض
 كما قال عز وجل : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً
 أُخْرَى ﴾ وأكثر السلف من هذه الأمة المحمدية على أن الجنة التي قال الله
 لآدم : ﴿ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ هي جنة المأوى لأن الصفات التي
 وصف الله عز وجل بها هذه الجنة في قوله : ﴿ إِنْ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا
 تَعْرَى ﴾ وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴿ تدل على أنها جنة النعيم كما أن
 الحديث الصحيح في قصة الشفاعة يوم القيامة أن آدم يقول للذين طلبوا منه
 الشفاعة : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم ؟ وقد ذهب بعض
 السلف إلى أنها جنة في مكان عال من الأرض ، والراجح عند أهل العلم أنها
 جنة المأوى لما وصفت . فلو قال قائل : إذا كانت هي جنة المأوى فكيف
 يخرج آدم منها ، ومن سكن جنة المأوى لا يخرج منها ؟ فالجواب هو أن من
 يسكن جنة المأوى ولا يخرج منها هو من يدخلها جزاء على عمله الصالح

بعد أن يقضي عمره في الدنيا إذا مات على دين الأنبياء والمرسلين وتفضل الله عليه بدخول الجنة فإنه لا يخرج منها ولا يتحول عنها ؛ لأنها دار جزاء المتقين . أما كون آدم يسكنها قبل أن يعمل شيئاً فهذا للامتحان والابتلاء والاختبار لتكون هذه الصورة ماثلة أمام أعين ذريته دائماً ليحذروا من طاعة الشيطان الذي أخرج أبويهم من الجنة . وقوله تعالى : ﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوٌ ولكم في الأرض مُستقر ومَتاع إلى حين﴾ أي وأمرنا آدم وحواء وإبليس بالهبوط إلى الأرض وسكنها حال كونهم متعادين يحمل إبليس وذريته العداوة لآدم وذريته كما قال عز وجل محذراً بني آدم من إبليس وذريته : ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً﴾ ومعنى : ﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ أي ولكم في الأرض منازل ومساكن تستقرون فيها وتستمتعون بما أخرجت لكم منها وما جعلت لكم فيها من المعاش والرياش والزينة والملاذ إلى انقضاء آجالكم في الحياة الدنيا ، وقوله : ﴿فتلقى آدم من ربه كلماتٍ فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾ أي فَأَلْهَمَ اللهُ عز وجل آدم كلمات يعتذر بها إلى الله فاعتذر هو وزوجه إلى الله عز وجل وقالوا : ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ، فتاب الله عليه واجتباه وهداه . وقوله عز وجل : ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي أمرنا آدم وحواء عليهما السلام بالهبوط إلى الأرض بما اشتهلا عليه من الذرية ، وأعلن الله عز وجل أنه سيرسل إلى بني آدم الرسل ويُنزل الكتب لتكون نبراساً للناس يهتدون بمنارها ، وأن من اتبع هدى الله عاش عزيزاً ومات سعيداً ورجع إلى الجنة لا يخرج منها ولا يتحول عنها ، ومن كفر بالله وكتبه ورسله وحارب هُدى الله الذي أرسلت به الرسل وأنزلت

به الكتب فهو من أهل النار الملازمين لها الذين لا يتحولون عنها ما داموا ماتوا على الكفر. والخوف غم يَلْحَقُ الإنسان من توقع أمر يؤذيه في المستقبل والحزن غم يلحقه من فوات أمر في الزمن الماضي. وقد ذكر الله تبارك وتعالى قصة أمره لآدم وزوجه بأن يسكنا الجنة ولا يأكلا من الشجرة المعينة وما كان من إبليس ومن آدم وزوجه وما أهبطهم الله بسببه إلى الأرض في مواضع من كتابه الكريم مُوجِزَةً ومطبئة ومُساوِيةً حسب مقتضيات الأحوال حيث يقول في سورة الأعراف: ﴿ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين * فوسوس لهما الشيطان ليبيدي لهما ما ووري عنهما من سواتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين * وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين * فذلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سواتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين * قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننَّ من الخاسرين * قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين * قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾ وقال في سورة طه: ﴿فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى * فأكلا منها فبدت لهما سواتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى * ثم اجتبه ربه فتاب عليه وهدى * قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فأما يأتينكم مني هدى فمن اتبَّع هُداي فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها. وفي هذا الحديث دليل صريح على أن آدم خلق خارج الجنة.

قال تعالى : ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون * وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون * ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون * وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين﴾

قد كان الكلام من قوله عز وجل : ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ إلى هذا المقام من القرآن الكريم في دعوة الناس عموماً إلى إخلاص العبادة لله وحده ، وبيان نعمه عليهم ، ومواقفهم من دعوة الله عز وجل ، وبيان خلق آدم وتكريمه ، وحسد إبليس له ، وما جرى بسبب ذلك شرع هنا في توجيه الخطاب لبني إسرائيل حيث دعاهم إلى ذكر نعمة الله عليهم ، وقد استمر الخطاب مع بني إسرائيل من هذه الآية الأربعين من سورة البقرة إلى الآية السابعة والأربعين بعد المائة من هذه السورة الكريمة حيث قال عز وجل : ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون * الحق من ربك فلا تكوننَّ من الممترين﴾ قال ابن جُزَيِّ الكلبي في تفسيره : لما قدَّم دعوة الناس عموماً وذكر مبدأهم دعا بني إسرائيل خصوصاً وهم اليهود ، وجَرى الكلام معهم من هنا إلى حزب : ﴿سيقول السفهاء﴾ فتارة دعاهم بالملاطفة وذكر الإنعام عليهم وعلى آبائهم ، وتارة بالتخويف ، وتارة بإقامة الحجة وتوبيخهم على سوء أعمالهم وذكر عقوباتهم التي عاقبهم بها ، فذكر من النعم عليهم عشرة أشياء وهي : إذ نَجَّيناكم من آل فرعون ، وإذ فَرَقْنَا بكم البحر ، وبَعَثْنَاكم من بعد موتكم ، وظَلَّلْنَا عليكم الغمام ، وأنزلنا عليكم المن والسلوى ، وعفونا عنكم ، ونغفر لكم خطاياكم ، وآتيناهم موسى الكتاب

والفرقان لعلكم تهتدون، وانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، وذكر من سوء أفعالهم عشرة أشياء: قولهم سمعنا وعصينا، واتخذتم العجل، وقولهم أرنا الله جهرة، وبدّل الذين ظلموا، ولن نصبر على طعام واحد، ويحرفون الكلم، وتوليتهم من بعد ذلك، وقست قلوبكم، وكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وذكر من عقوبتهم عشرة أشياء: ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وباءوا بغضب من الله، ويُعطوا الجزية، واقتلوا أنفسهم، وكونوا قردة، وأنزلنا عليهم رجزا من السماء، وأخذتكم الصاعقة، وجعلنا قلوبهم قاسية، وحرمنا عليهم طيبات أحلت لهم. وهذا كُلُّه جَزَى لآبائهم المتقدمين وخُوطِبَ به المعاصرون لمحمد ﷺ لأنهم مُتَّبِعُونَ لهم، راضون بأحوالهم، وقد وَبَّخَ الله المعاصرين لمحمد ﷺ بتوبييخات أُخَرَ وهي عشرة: كتمانهم أمر محمد ﷺ مع معرفتهم به، ويحرفون الكلم، ويقولون: هذا من عند الله، وتقتلون أنفسهم، وتُخرجون فريقا منكم من ديارهم، وحِرْصُهُم على الحياة، وعداوتهم لجبريل، وأتباعهم السحر، وقولهم نحن أبناء الله، وقولهم يد الله مغلولة. اهـ. وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام. ومعنى إسرائيل عبدالله قال ابن جرير الطبري وغيره: إيل هو الله وإسرا هو العبد. اهـ والتعبير بقوله: يا بني إسرائيل لحضهم على الطاعة والامتثال والمصارعة إلى الدخول في دين الله الذي بعث به عبده ورسوله محمدا ﷺ وكأنه يقول لهم: يا أبناء العبد الصالح والرسول الكريم يعقوب سارعوا إلى الإيمان بمحمد رسول الله ﷺ وكونوا مثل أبيكم يعقوب في متابعة الحق والإقرار بالإسلام الذي وصّى به يعقوب بنيه عند الموت كما وصّى به أبو الأنبياء خليل الرحمن بنيه كذلك كما قال الله عز وجل: ﴿ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون﴾ * أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من

بعدي قالوا : نعبك إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهنا واحدا ونحن له مسلمون ﴿١﴾ وقد أمر الله عز وجل بني إسرائيل هنا بثمانية أمور ونهاهم عن أربعة أمور، فقد أمرهم بأن يذكروا نعمة الله التي أنعم عليهم ، وأن يُوفُوا بعهد الله ، وأن يَرْهَبُوا الله وحده دون سواه وأن يؤمنوا بالقرآن الذي أنزله الله مصدقا لما يعلمونه من وصايا أنبيائهم ورسلكم ، وأن يتقوا الله وحده ليحفظوا أنفسهم من النار ، وأن يقيموا الصلاة وأن يؤتوا الزكاة وأن يركعوا لله عز وجل مع الراكعين أتباع محمد ﷺ وقد نهاهم أن يكونوا أول كافرٍ بالقرآن وأن يشتروا بآيات الله ثمنا قليلا وأن يلبسوا الحق بالباطل ، وأن يكتُموا الحق وهم يعلمون . وقوله عز وجل : ﴿٢﴾ اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ﴿٣﴾ أي لا تَنْسُوا نِعَمَ الله التي أنعم بها على آبائكم وامتدت آثارها إليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين ، وَخَلَّصَ بني إسرائيل من العذاب المهين من فرعون وقومه ، ومن التمكين لهم في الأرض وتفجير عيون الماء من الحَجَر ، وإطعامهم المَنَّ والسلوى ، وَقَوْلُهُ تعالى : ﴿٤﴾ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيْ أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ ﴿٥﴾ أي وأدُوا ما في ذمتكم من العهد ليثيبكم الله على ذلك بما وعدكم به في قوله تعالى : ﴿٦﴾ وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبَا وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِيْ وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ الله قَرْضَا حَسَنًا لَّا أَكْفِرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٧﴾ . فَمِنَ الْعَهْدِ الَّذِي أَخَذَهُ اللهُ عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنْ يَسَارِعُوا إِلَى الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَيُؤَيِّدُوهُ وَيَنْصُرُوهُ وَيَبْذُلُوا أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ نَشْرِ الْإِسْلَامِ ، وَقَوْلُهُ عز وجل : ﴿٨﴾ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٩﴾ يُشْعِرُ بِجَمَلَتَيْنِ كَأَنَّهُ قَالَ : إِيَّايَ ارْهَبُوا فَارْهَبُونِ أَيِ إِيَّايَ خَافُوا وَارْهَبُوا أَنْ تَحِلَّ بِكُمْ عَقُوبَةُ جَبَّارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالرَّهْبَةُ خَوْفٌ مَعَهُ تَحَرُّزٌ ، وَيَتَضَمَّنُ الْأَمْرَ بِهِ مَعْنَى

التهديد، وقوله عز وجل : ﴿وَأَمَنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أي وَصَدَّقُوا
 بالقرآن الذي أنزلت على محمد ﷺ المشتمل على الحق المصدق لما بين يديه من
 التوراة، ففي تصديقه تصديق للتوراة وفي تكذيبه تكذيب للتوراة إذ هو
 مطابق لها في القصص الحق والدعوة إلى توحيد الله والأمر بعبادته وحده لا
 شريك له، والعدل بين الناس والنهي عن المعاصي والفواحش، والإقرار
 برسالة الرسل وبالبعث بعد الموت وبالجنة والنار وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَلَا
 تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ﴾ يعني : وَلَا تَصِيرُوا أَسْرَعَ النَّاسِ إِلَىٰ تَكْذِيبِهِ فَإِنْ وَظِيفْتُمْ
 وَاللَّائِقُ بِكُمْ أَنْ تَكُونُوا أُولَٰ مَنْ آمَنَ بِهِ لَمَّا أَنْكُمْ تَعْرِفُونَهُ كَمَا تَعْرِفُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَقَدْ
 كُنْتُمْ تَسْتَفْتِحُونَ بِهِ عَلَى الْأَوْسِ وَالْخَزَرِجِ قَبْلَ مَجِيئِهِ وَتَبْشُرُونَ بِزَمَانِهِ وَتَعْدُونَ
 بِنَصْرَتِهِ، وليس المراد أنهم أُولَ الكفار على الإطلاق لَمَّا عَلِمَ بِالضَّرُورَةِ أَنْ كُفَّارَ
 قَرِيشٍ أَسْبَقَ مِنْهُمْ بِالْكَفْرِ لَكِنْهُمْ يَكُونُونَ أَسْبَقَ النَّاسِ إِلَى الْكَفْرِ بِالْكِتَابِ
 الَّذِي جَاءَ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ، وقوله عز وجل : ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا
 قَلِيلًا﴾ أي وَلَا تَعْتَاضُوا عَنِ الْإِيمَانِ بِآيَاتِي وَتَصَدِّقَ رَسُولِي بِالدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا
 مِنْ حُبِّ الرِّيَاسَةِ وَجَمْعِ الْحَطَامِ فَإِنَّ جَمِيعَ مَا فِي الدُّنْيَا مِنْ مَتَاعٍ لَا يَسَاوِي شَيْئًا
 مِنْ حُظُوظِ الْآخِرَةِ وَجَنَاتِ النِّعَمِ، وقوله عز وجل : ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُوا﴾ أي
 وَإِيَّايَ خَافُوا فَاحْذَرُوا أَنْ تَحُلَّ بِكُمْ عِقُوبَتِي وَلَا تَخْشَوْا أَحَدًا غَيْرِي فَإِنَّ
 حَيَاتَكُمْ وَمَوْتَكُمْ وَنَفْعَكُمْ وَضَرَكُمْ بِيَدِي وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ
 بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي وَلَا تَخْلُطُوا الْحَقَّ الْمُنْزَلَ مِنْ اللَّهِ
 بِالْبَاطِلِ الَّذِي تَفْتَرُونَهُ عَلَى اللَّهِ مِمَّا تَكْتُبُونَهُ بِأَيْدِيكُمْ وَتَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
 وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَلَا تَكْتُمُوا الْحَقَّ الَّذِي تَعْرِفُونَهُ مِنْ كِتَابِكُمْ غَيْرَ الْمَحْرُفَةِ
 فِي وَصْفِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ فِي قَرَارَةِ أَنْفُسِكُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَأَنَّ
 دِينَهُ هُوَ الدِّينُ الْحَقُّ. وقوله تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ
 الرَّاكِعِينَ﴾ أي وَسَارِعُوا إِلَى الْإِنضِمَامِ وَالدَّخُولِ تَحْتَ لَوَاءِ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

والالتزام بشريعته في الصلاة والزكاة واحرصوا على صلاة الجماعة فإن ذلك يجلب لكم خير الدنيا والآخرة، هذا وفي أمر بني إسرائيل بالركوع مع الراكعين لفت انتباه المسلمين إلى الحرص على الجماعة، وقد أكد رسول الله ﷺ ذلك فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة. كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: صلاة الرجل في جماعة تضعف على صلاته في بيته وفي سوقه خمساً وعشرين ضعفاً وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة وحطت عنه بها خطيئة فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه ما لم يحدث تقول: اللهم صل عليه، اللهم ارحمه، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة. كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: والذي نفسي بيده لقد هممت أن أمر بحطب فيخطب ثم أمر بالصلاة فيؤذن لها ثم أمر رجلاً فيؤم الناس ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم. كما روى أبو داود بإسناد حسن عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من ثلاثة في قرية ولا بدو ولا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية. كما روى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: من سره أن يلقي الله غدا مسلماً فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادي بهن فإن الله شرع لنيكمت سنن الهدى وإنهن من سنن الهدى ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين

الرجلين حتى يُقَامَ في الصف . بل قد أشار رسول الله ﷺ إلى أن اعتياد المساجد من أمانة الإيمان فقد روى الترمذي بسند حسن أن رسول الله ﷺ قال : إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ بل جعل رسول الله ﷺ كثرة الخطأ إلى المساجد بأنها رِبَاطٌ في سبيل الله وأن الله يرفع بها الدرجات ويمحو بها الخطايا فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ! قالوا : بلى يا رسول الله قال : إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط .

قال تعالى : ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ * واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين * الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون ﴿

قد وصف الله تبارك وتعالى هنا رؤساء بني إسرائيل المعاصرين لرسوله وحبيه محمد ﷺ بأنهم يأمرُونَ الناس بالبر وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ فلا يحملونها على البر حالة كونهم يقرءون التوراة ويعلمون عقوبة الله عز وجل لمن نهى عن المنكر وهو يفعله ، ويأمر بالمعروف وهو لا يفعله ، وهذا من أبرز الأدلة على أن صاحب هذه الصفة غير متصف بالعقل إذ لو كان له عقل ما حذّر الناس من الشر ووقع فيه ، والاستفهام في قوله عز وجل : ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ للتوبيخ والتقريع والإنكار ، ومدار التوبيخ والإنكار والتقريع هو ما تدل عليه الجملة الثانية من هذه الجمل الثلاث وهو نسيان أنفسهم من البر ، فالجملة الأولى من الجمل الثلاث وهي : أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ ليست محلّ توبيخ فإن أمر الناس بالبر من أحسن ما يتقرب به العبد إلى الله عز وجل ، والجملة الثالثة وهي قوله : ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ ليست محلّ تقريع وتوبيخ لذاتها فإن تلاوة كتاب الله عز وجل من أفضل ما يتقرب به العبد إلى الله عز وجل كذلك ، فالتقريع والتوبيخ والإنكار مُنْصَبٌّ على أن يَحْرِمَ الإنسان نفسه من البر في الوقت الذي يرشد فيه الناس إلى عمل البر وفي الوقت الذي يقرأ فيه كتاب الله وما فيه من الوعيد الشديد على أن يكون قولُ الإنسان مخالفاً لفعله إذ أن ذلك من أشد ما يمقت الله عز وجل الناس عليه كما قال تبارك وتعالى في كتابه الكريم : ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ والبر اسمٌ جامع لجميع أنواع الخير والطاعات وهو يشمل البر في طاعة الله وطاعة رسله كما

يشمل البرّ في معاملة الأقارب ، والبرّ في معاملة الأجانب ، وقد بيّن الله تبارك وتعالى أنواع البر في قوله عز وجل : ﴿ ليس البرّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدّقوا وأولئك هم المتقون ﴾ وكما ختم هذه الآية الكريمة بما يفيد أن ثمرة البر الصدق والتقوى حتى حصر البرّ في التقوى في قوله عز وجل : ﴿ ولكنّ البرّ من اتقى ﴾ وأشار رسول الله ﷺ إلى أن ملازمة الصدق تهدي إلى البر ، وأن البرّ يهدي إلى الجنة ، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، وإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا . ومن أبرز سمات البرّة أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر كما قال الله عز وجل : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ وتَنسَوْنَ أنفسكم ﴾ أي وتركوا أنفسكم فلا تحملونها على الخير ، ولا تسلكون بها سبيل السلام والنجاة ، حيث تأمرون الناس بما فيه مرضاة الله وطاعته وأنتم مقيمون على معصيته سادرون في غيكم وضلالكم وتكذيبكم لمحمد رسول الله ﷺ الذي تعلمون صفته من كتبكم وتعرفونه كما تعرفون أبناءكم ، وقد بيّن رسول الله ﷺ مآل من يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر وهو يفعله . فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أسامة بن زيد رضي الله

عنها قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : يُؤْتَى بالرجل يوم القيامة ، فيُلْقَى في النار فتندلق أقتابُ بطنه ، فيَدُورُ بها كما يَدُور الحمارُ في الرَّحَى ، فيجتمع إليه أهل النار، فيقولون : يا فلان ! مَا لَكَ ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بَلَى كُنْتُ أُمِرُّ بالمعروف ولا آتية ، وأنهى عن المنكر وآتية . وفي رواية لمسلم من حديث أسامة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : يُجَاءُ بالرجل يوم القيامة فيُلْقَى في النار، فتندلق أقتابه ، فيدور كما يدور الحمارُ برحاه ، فيَجْتَمِعُ أهل النار عليه ، فيقولون : يا فلان : ما شأنك ؟ أَلَيْسَ كُنْتُ تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : كُنْتُ أُمِرُّكم بالمعروف ولا آتية . وأنهاكم عن الشر وآتية ، ومعنى : تندلق أي تخرج سريعاً والأقتاب :

الأمعاء ، وما أَحْسَنَ قول أبي الأسود الدؤلي رحمه الله :

تصف الدواء لذي السقام وذي الضَّنَى كيما يصحَّ به وأنت سقيم
لا تنه عن خُلُقٍ وتأتي مثله عارٌّ عليك إذا فعلت عظيم
وابداً بنفسك فانهها عن غيِّها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يُقْبَلُ ما تقول ويهتدى بالقول منك وينفعُ التعليم
وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ أي وأنتم يا أحبار اليهود تقرأون التوراة وتعرفون أن محمداً رسول الله ، ولا تسارعون إلى الإيمان به وتأييده ، وهذا توبيخ وتقرير وتبكيث لمن عَلِمَ شيئاً من العلم ولم يعمل به وأن الجاهل الذي لم يَدْرُسْ ولم يَعْلَمْ خير منه ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي أَذْهَبَتْ عقولكم فلا تفقهون ولا تفهمون ؟ وهل ترضون أن تكونوا كالحوانات العجماوات والحُمير التي تحمل الأسفار والكتب ولا تعي ما تحمل ولا تدري عما فوق ظهرها ؟ وقد انطبق على هؤلاء قوله عز وجل : ﴿ مِثْلَ الَّذِينَ حَمَلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمِثْلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مِثْلَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ وَآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ والعقل في الأصل هو المنع

والإمساك ومنه العقال الذي يُشدُّ به وَظيفُ البعير إلى ذراعه لحبسه عن الحراك وفي الاصطلاح هو لطيفة ربانية أودعها الله عز وجل في قلب الإنسان لِيُمَيِّزَ بها بين الخير والشر والنافع والضار وبها يمتاز الإنسان عن سائر الحيوان، وسميت هذه اللطيفة عقلاً لأنها تَحْجُرُ الإنسان وتحبسه عن تعاطي ما يَقْبُحُ، وَتَعْقِلُهُ على ما يَحْسُنُ ومحلها القلبُ وَشُعَاعُهَا متصل بالدماغ كالنور المنعكس بالمرآة، وإذا فَقَدَ الإنسان عقله صار أَحَسَّ الحيوانات ولذلك حَرَّمَ الله على الإنسان كُلَّ ما يُنْقِصُ العقلَ أو يزيله، وقد وصف الله عز وجل الكفار بقوله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ وقال عز وجل: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ وقوله عز وجل: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ أي واطلبوا المعونة على أموركم ومنها الوفاء بعهدي الذي عاهدتكموني في كتابكم من طاعتي واتباع أمري والإيمان برسولي محمد ﷺ، وترك ما تحرصون عليه من الرياسة والشهوات التي تحول بينكم وبين الإسلام، والصبر في الأصل هو منع النفس عن شر محابِّها وكفها عن هواها، وبالصبر واليقين تُنَالُ الإمامة في الدين، ولذلك يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقْ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ والاستعانة بالصلاة من أعظم العَوْنِ على القيام بأمر الله والوفاء بعهد الله ولذلك أمر الله رسوله ﷺ بالصبر والصلاة للاستراحة من أذى المشركين حيث يقول عز وجل: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾.

وقد كَرَّرَ الله عز وجل أمر بني إسرائيل بالصلاة في هذا المقام حيث قال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ ثم قال: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أي وصلوا مع المصلين من أمة محمد ﷺ، وإنما عَبَّرَ عن الصلاة بالركوع لتنبية اليهود إلى

أن صلاتهم التي يصلونها لا قيمة لها لأنهم كانوا لا يركعون في صلاتهم ، فَبَيَّنَ لهم أن الصلاة المعتبرة النافعة هي صلاة المسلمين التي من أهم أركانها الركوع ، ثم قال هنا : ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ . وقوله عز وجل : ﴿وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾ أي وإن الصلاة لثقيلة إلا على الخاضعين لله عز وجل ، الخائفين سطوته ، المتواضعين المستكينين المتذللين لله عز وجل ، ولا شك أن الصلاة يفرح بها المؤمنون وهي عليهم سهلة يسيرة ، وَيَسْتَقِلُّهَا المنافقون ولا سيما صلاة الفجر وصلاة العشاء فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ليس صلاة أثقل على المنافقين من صلاة الفجر والعشاء ولو يعلمون ما فيها لَأَتَوْهُمَا ولو حَبْوًا . وقوله عز وجل : ﴿الذين يظنون أنهم مُلاقوا رَبِّهم وأنهم إليه راجعون﴾ هو وصف للخاشعين الذين يُحِبُّون الصلاة ويفرحون بها ويستريحون بأدائها أي الذين يعلمون أنهم محشورون إلى الله يوم القيامة وموقوفون بين يديه ومسئولون عن أعمالهم إذ أن من أيقن بالمعاد والجزاء سَهْلٌ عليه فِعْلُ الطاعات وترك المنكرات . فقوله ﴿يظنون﴾ أي يتوقعون لقاء الله وأن مصيرهم ورجوعهم إليه أو يتيقنون ذلك قال ابن جرير الطبري رحمه الله : إِنَّ الْعَرَبَ قَدْ تُسَمَّى الْيَقِينَ ظَنًا وَالشَّكَّ ظَنًا ، نظير تسميتهم الظُّلْمَةَ سُدْفَةً والضياء سُدْفَةً وَالْمَغِيثَ صَارِخًا ، وَالْمُسْتَغِيثَ صَارِخًا ، وما أشبه ذلك من الأسماء التي تُسَمَّى بها الشيء وضدّه ومما يدل على أنه يُسَمَّى به اليقين قولُ دُرَيْدِ بْنِ الصَّمَةِ :

فقلت لهم ظُنُّوا بِالْفَيِّ مُدَجَّجٌ سَرَاتُهُمُوا فِي الْفَارِسِيِّ الْمُسَرَّدِ

يعني بذلك تَيَقَّنُوا الْفَيِّ مُدَجَّجٌ تَأْتِيكُمْ ، وقولُ عُمَيْرَةَ بْنِ طَارِقٍ :

بَأَنْ يَعْتَزُّوا قَوْمِي وَأَقْعِدْ فَيَكْمُوا وَأَجْعَلْ مِنِّي الظَّنَّ غَيْبًا مُرَجَّمًا

يعني : وَأَجْعَلْ مِنِّي الْيَقِينَ غَيْبًا مُرَجَّمًا . والشواهد من أشعار العرب

وكلامها على أن الظنَّ في معنى اليقين أكثر من أن تُحصَى ، وفيما ذكرنا لمن
وُفِّقَ لفهمه كفاية ، ومنه قول الله جل ثناؤه : ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم
مُواقِعُوها ﴾ . اهـ وقد استشهد العلماء كذلك على أن الظن هنا على معنى
اليقين بقوله تبارك وتعالى : ﴿ إني ظننت أني ملاق حسابه ﴾ أي علمتُ ،
وقول ابن جرير : تسميتهم الظلمة سُدفة والضياء سُدفة قال الفيروزآبادي في
القاموس المحيط : (السُدْفَةُ) وَيُضَمُّ الظُّلْمَةُ تَمِيمَةٌ وَالضُّوْءُ قَيْسِيَّةٌ ضِدٌّ ثُمَّ
قال : وَالسَّدْفُ مُحَرَكَةٌ الصُّبْحُ وَإِقْبَالُهُ وَسَوَادُ اللَّيْلِ كَالسَّدْفَةِ اهـ ولا شك عند
أهل العلم أن من شكَّ في لقاء الله فهو كافر ، ولا ينفع في هذا الباب إلا
الإيمان واليقينُ ، فقد روى مسلم في صحيحه ، من حديث أبي هريرة رضي
الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ لَا يَلْقَى
اللهُ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ .

قال تعالى : ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني
فضلتكم على العالمين * واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل
منها شفاعه ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون ﴾ .

كرر الله تبارك وتعالى هنا نداءه لبني إسرائيل بقوله عز وجل : ﴿يا بني
إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ في الآية الأربعين من هذه السورة
وأردف هذا النداء هناك بقوله : ﴿وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي
فارهبون﴾ وأردف هذا النداء هنا بقوله عز وجل : ﴿وأني فضلتكم على
العالمين﴾ وكرر هذا بعينه في الآية الثانية والعشرين بعد المائة من هذه السورة
حيث قال : ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني
فضلتكم على العالمين﴾ وقد أردف الآية الأولى بالآية التي ذيلها بقوله :
﴿وإياي فاتقون﴾ وأردف الآية التي هنا بقوله عز وجل : ﴿واتقوا
يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعه ولا يؤخذ منها عدل
ولا هم ينصرون﴾ وأردف الآية الثانية والعشرين بعد المائة بنفس المعنى الذي
أردف به الآية التي هنا وإن تفاوتت العبارة حيث قال هناك : ﴿واتقوا يوما لا
تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعه ولا هم
ينصرون﴾ وهذا التكرير بهذه المثابة هو أحد معاني كون القرآن متشابها مثاني
حيث يقول الله عز وجل في وصفه : ﴿الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها
مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر
الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فماله من هاد﴾ إذ معنى
كونه متشابها أي يشبه بَعْضُهُ بعضا في البلاغة والفصاحة والصدق والإحكام
والإتقان واستتباع منافع الخلق في المعاش والمعاد، ومعنى كونه : ﴿مثاني﴾
أي يردد المعنى ويكرره في مقامات متباعدة دون أن يلحقه تناقض أو

اختلاف، بحسب مقامات الأحوال، مع اشتغاله على القصص الحق، والإيفاء بالقصد والتأكيد على المعاني التي تَرد في هذا التكرير، ولما كان بنو إسرائيل قبل مجيء الإسلام يعتبرهم العرب المشركون أفضل منهم لأنهم أهل كتاب وإن كانت قريش وغيرها من العرب والأوس والخزرج بخاصة كانوا يرون أن اليهود والنصارى مقصرون في القيام بشريعة أنبيائهم فكانوا يقسمون بالله جَهْد أيانهم لو جاءهم منذرٌ دون موسى ودون عيسى لسارعوا إلى الإيمان به وصاروا أسعد به من اليهود والنصارى، وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نَفُورًا * اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَجِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سَنَةَ الْأُولَيْنِ فَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ فهم كانوا يَتَمَنَّوْنَ نذيرا أي نذير فلما جاءهم شيخ المنذرين وسيد المرسلين محمد ﷺ ما زادهم مجيئه إلا نفورا، فبين الله عز وجل أن بني إسرائيل لم يعرفوا نعمة الله عليهم، إذ لو عرفوها لسارعوا إلى الإيمان بمحمد ﷺ. وتكرير ندائهم بقوله: ﴿يا بني إسرائيل﴾ للفت الانتباه إلى بلادة مشاعرهم وقصور أحاسيسهم، إذ لو كانوا ذوي فهم وعقل رشيد ما احتاجوا إلى هذا التكرير، أمّا مَا وَصَفَهُمُ الله عز وجل به من أنه فضلهم على العالمين فقد أشار الله عز وجل إلى المقصود منه في غير موضع من القرآن الكريم حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحَكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ فلم يُعْرَفْ شَعْبٌ من الشعوب ولا أمة من الأمم تكاثرت فيها الأنبياء والملوك كبني إسرائيل، فقد كانوا تسوسهم الأنبياء كلما مات نبيٌ بعث الله لهم نبيا آخر كما جاء في رواية البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبيٌ خلفه نبيٌ وإنه لا نبي

بعدي . الحديث . ولذلك ذكرهم موسى عليه السلام بهذه المزية التي فضّلوا بها على العالمين كما حكى الله عز وجل ذلك في قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ كما أنزل الله عليهم المنّ والسلوى ، ولا شك أن المراد بالعالمين في قوله : ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ هم عالمو زمان آبائهم قبل تحريفهم للكلم من بعد مواضعه والعالمون جمع عالمٍ والعالم جمع لا واحد له من لفظه كالأنام والرهط والجيش ، والعالم اسم لكل صنف من أصناف الأمم والمخلوقات ، فالإنس عالمٌ ، وكلُّ أهلٍ جيلٍ منهم عالمٌ ذلك الزمان ، والجن عالمٌ ، وكذلك سائر أجناس الخلق كل جنس منها عالمٌ ، كالطير وكلُّ نوعٍ منه عالمٌ ، وسائر الحيوانات كل نوعٍ منها عالمٌ ، وكذلك الحشرات كعالم النمل وعالم النحل وعالم الذباب وعالم البعوض وسائر أجناس وأصناف وأنواع المخلوقات ، فقوله عز وجل : ﴿ فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ لَفْظُهُ لَفْظُ العموم والمراد به الخصوص كالناس في قوله عز وجل : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ﴾ فالمراد به الخصوص وإن كان اللفظ للعموم ، ولا شك أن أمة محمد ﷺ أفضل من بني إسرائيل لقوله عز وجل : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ وخير أمة محمد ﷺ قَرْنُهُ ﷺ ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم . وقوله عز وجل : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا ﴾ أي واخشَوْا يومًا واستعدوا له والمراد به يوم القيامة كما قال عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي يَخْلُقُكُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَالدُّعَاءُ عَنْ وَالدِّينِ شَيْئًا إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ والمقصود من اتقاء اليوم هو الخوف من أهواله وعظائمه إذ هو يومٌ يجعل الولدان شيباً كما قال عز وجل : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ

ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴿ وقوله : وما هم بسكارى أي ما شربوا خمرًا ولا تعاطوا مسكرًا في هذا المقام ولكنها أهوال يوم الدين نسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يلطف بنا فيه وأن يعاملنا بفضله وإحسانه وجوده . وقد وصف الله تبارك وتعالى قوله ﴿يوما﴾ بأربع صفات في أربع جل : الأولى : ﴿ لا تجزي نفس عن نفس شيئا ﴾ والثانية قوله : ﴿ ولا يقبل منها شفاع ﴾ والثالثة قوله : ﴿ ولا يؤخذ منها عدل ﴾ والرابعة قوله : ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ ومعنى قوله : ﴿ لا تجزي نفس عن نفس شيئا ﴾ أي لا يغني فيه أحد عن أحد كما قال عز وجل : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ﴾ وقال : ﴿ لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ﴾ وإذا كان الوالد والولد لا يغني أحدهما عن الآخر يوم القيامة شيئا فما بالك بغيرهم؟ وكما قال عز وجل : ﴿ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ ولا يقبل منها شفاع ﴾ أصل الشفاع في اللغة يدور على معنى الازدواج والزيادة والإعانة فالشفع الزوج وهو ضد الوتر وتقول : شفّع ناظري إذا صار يرى الخط خطين والشخص شخصين ، ويقال : شفّع لي فلان إلى فلان أي طلب منه أن يقضي حاجتي ، فكأنه ضمّ صوته إلى صوت المشفوع له فصار بعد أن كان صوته واحدًا صار له صوتان صوته وصوت الشافع ، ومن المقرر في شريعة الإسلام أن الشفاعة قسمان : شفاعة مثبتة وشفاعة منفية ، فالشفاعة المثبتة النافعة يوم القيامة هي ما تحقق في شرطان : الأول إذن الله عز وجل للشافع في الشفاعة ، والثاني : رضا الله عز وجل عن المشفوع له ولا يرضى الله عز وجل عن الشفاعة إلا في المؤمنين وقد أكد الله تبارك وتعالى هذا المعنى في مواضع من كتابه الكريم حيث يقول عز وجل : ﴿ من ذا الذي

يشفع عنده إلا بإذنه ﴿١﴾ ويقول عز وجل : ﴿٢﴾ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴿٣﴾
 وكما قال عز وجل : ﴿٤﴾ وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا
 من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴿٥﴾ وكما قال عز وجل : ﴿٦﴾ يوم لا يغني
 مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون * إلا من رحم الله إنه هو العزيز
 الرحيم ﴿٧﴾ وقد ثبتت الشفاعة لرسول الله ﷺ وهي الشفاعة العظمى فقد روى
 البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله
 ﷺ في دعوة فرُفِعَ إليه الذراع فكانت تُعْجَبُ فَهَسَ منها نَهْسَةٌ وقال : أنا سيد
 الناس يوم القيامة هل تَدْرُونَ مِمَّ ذاك ؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد
 واحد فينظرهم الناظر ويسمعهم الداعي وتدنو منهم الشمس فيبلغ الناس
 من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناس : ألا ترون ما أنتم
 فيه إلى ما بلغكم ؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس
 لبعض : أبوكم آدم ، فيأتونه فيقولون : يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده
 ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة ، ألا تشفع
 لنا إلى ربك ؟ ألا ترى إلى ما نحن فيه وما بلغنا ؟ فقال : إن ربي غضب غضبا
 لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإنه نهاني عن الشجرة فعصيتُ ،
 نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح فيأتون نوحا فيقولون : يا
 نوح أنت أول الرسل إلى الأرض وقد سمَّاكَ الله عبدا شكورا ألا ترى إلى ما نحن
 فيه ؟ ألا ترى إلى ما بلغنا ؟ ألا تشفع لنا إلى ربك ؟ فيقول : إن ربي غضب
 اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وإنه قد كانت لي
 دعوة دعوت بها على قومي نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى
 إبراهيم فيأتون إبراهيم فيقولون : يا إبراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل
 الأرض اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه فيقول لهم : إن ربي قد
 غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإني كنت

كذبت ثلاث كذبات نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى موسى فيقولون يا موسى أنت رسول الله فضلك الله برسالاته وبكلامه على الناس اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ فيقول ؛ إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإني قتلت نفسا لم أؤمر بقتلها نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى عيسى فيأتون عيسى فيقولون : يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وكلمت الناس في المهد اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه فيقول عيسى : إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ولم يذكر ذنبا ، نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمد ﷺ — وفي رواية — فيأتوني فيقولون : يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجدا لرَّبِّي ثم يفتح الله عليَّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلي ثم يقال : يا محمد ارفع رأسك سَلِّ تُعْطَهُ واشفع تُشَفَّعْ . الحديث . وقول إبراهيم : ثلاث كذبات هي معاريض وليست من الكذب المحرم . كما روى البخاري من حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة . أما الشفاعة المنفية فهي الشفاعة للكفار لقوله تعالى : ﴿فما تنفعهم شفاعاة الشافعين﴾ ولقوله في الكفار : ﴿فما لنا من شافعين﴾ ولا صديق حميم ﴿وعليه يحمل قوله عز وجل : ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة﴾ ومعنى قوله : ﴿ولا يؤخذ منها عدل﴾ أي بدل وفدية ولو جاءت بمثل الأرض ذهباً ما تقبل منها . وقوله : ﴿ولا هم ينصرون﴾ أي ولا يجرؤ أحد أن يُنقذهم من عذاب الله .

قال تعالى : ﴿وَإِذْ نَجِينَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَدْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجِينَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾

شرح الله تبارك وتعالى هنا في تعداد نعمه على بني إسرائيل التي أجمعها في قوله عز وجل : ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ فعَدَّدَ لهم في هذا المقام عشر نعم أولها قوله عز وجل : ﴿وَإِذْ نَجِينَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ وتنتهي هذه النعم العشر المذكورة في هذا المقام من القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿وَإِذْ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَضِيبًا﴾ وقد كانت الحالة السائدة بمصر عند ميلاد موسى عليه السلام أن يوقع فرعون ببني إسرائيل أقصى أنواع الظلم وأشدَّ ألوان العذاب ، وقد بلغ بغْي فرعون وطغيانه على بني إسرائيل وفساده في الأرض أقصى حدود البغي والطغيان وقد علَّا فرعون في الأرض وجعل أهلها شيعا يقرب بعضهم ، ويستضعف طائفة منهم — وهم بنو إسرائيل — حيث بلغ الحال من البغي أن صار يُذَبِّحُ أبناءهم وَيَسْتَبْقِي نِسَاءَهُمْ وَيَسْتَعْمَلُ مَعَهُمْ صُنُوفَ الذَّلَّةِ وَأَنْوَاعَ الْهَوَانِ وَالْعَذَابِ ، وقد كان الحقد والبُغْضُ لبني إسرائيل قد اشتعل في قلب فرعون وهامان وجنودهما بسبب ما ألقى في روعهم من أن زوال ملكهم وتدميرهم سيكون على يد رجل من بني إسرائيل ، ومع أن فرعون أنزل ببني إسرائيل أقصى أنواع العذاب ، فإن الحذر لا ينجي من القدر ، ووُلِدَ موسى عليه السلام ، وشاء الله عز وجل أن ينشأ في بيت فرعون ، ولما بلغ أشده وأرسله الله عز وجل إلى فرعون ودعاه إلى الإيمان بالله وحده ، وتخليص بني إسرائيل من العذاب المهين ازداد فرعون في تعذيب بني إسرائيل وتقتيل أبنائهم واستحياء نسايتهم وقد

وصف الله تبارك وتعالى ما أصاب بني إسرائيل على يد فرعون وجنوده في مواضع من كتابه الكريم حيث يقول هنا : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ ويقول في سورة الأعراف : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذِرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُ الْأَهْلِيَّةَ قَالَ سَنَقْتُل أَبْنَاءَ هَٰؤُلَاءِ النَّاسِ وَيَسْتَغِيثُ النَّسَاءُ بِهَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ وقال عز وجل في سورة الأعراف أيضا : ﴿ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ وقال تعالى في سورة إبراهيم : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ وقال تعالى في سورة الدخان : ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ * مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ * أَيِّ وَادٍ ذُكِّرُوا يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ نَعْمَتُنَا عَلَيْكُمْ حِينَ أَنْجَيْنَاكُمْ أَيُّ أَنْجَيْنَا آبَاءَكُمْ إِذْ أَنْجَيْنَا الْآبَاءَ هِيَ تَنْجِيَةُ لِلْأَبْنَاءِ ، فَلَوْ هَلَكَ الْآبَاءُ تَحْتَ التَّعْذِيبِ مَا وَجَدَ هَؤُلَاءِ الْأَبْنَاءُ الْمُخَاطَبُونَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ ﴾ قال ابن جرير : كما يقول القائل لآخر : فعلنا بكم كذا ، وفعلنا بكم كذا ، وقتلناكم وسبيناكم ، والمُخْبِرُ إما أن يكون يعني قومه وعشيرته بذلك أو أهل بلده ووطنه ، كان المقول له ذلك أدرك ما فعل بهم من ذلك أو لم يدركه كما قال الأخطل يهاجي جرير بن عطية :

ولقد سمّا لكمُ الهدْيُ فَنَالَكُمْ بِإِرَابٍ حَيْثُ يُقَسَّمُ الْأَنْفَالَا
فِي فَيْلَقٍ يَدْعُو الْأَرَاقِمَ لَمْ تَكُنْ فَرَسَانُهُ عُرْلًا وَلَا أَكْفَالَا

ولم يلق جرير هديلاً ولا أدركه ولا أدرك إراب ولا شهده ولكنه لما كان يوماً من أيام قوم الأخطل على قوم جرير أضاف الخطاب إليه وإلى قومه . فكَذَلِكَ

خطاب الله عز وجل من خَاطَبَهُ بقوله : ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ لما كان فعله ما فعل من ذلك بقوم من خاطبه بالآية وآبائهم أضاف فعله ذلك الذي فعله بآبائهم إلى المخاطبين بالآية وقومهم اهـ والآل أصله الأهل أبدلت الهاء همزة بدليل تصغيره على أهيل . . واستعمله العرب مضافا إلى الأسماء المشهورة كقولك : آل النبي ﷺ وآل علي وآل العباس ، وآل سعود ولا يَسْتَحِبُّ العربُ استعمال كلمة آل مع المجاهيل وغير المشهورين ، وفرعون لقب للملوك مصر في الجاهلية من العمالقة وغيرهم كما أن كسرى لقب للملوك الفرس وقيصر لقب لمن ملك الروم ، وخاقان لقب لمن ملك الترك ، وَتَبَعَ لِمَنْ مَلَكَ الْيَمَنَ ، والنجاشي لمن ملك الحبشة ، والمراد بآل فرعون : فِرْعَوْنُ وأتباعه ، كما قال عز وجل عن فرعون : ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدَ الْمُرُودُ﴾ وقال في مؤمن آل فرعون : ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكُرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ ولا شك أن فرعون في مقدمة أهل النار هؤلاء ، ومعنى : ﴿نَجَّيْنَاكَ﴾ أي خلصناكم وأنقذناكم ورفعناكم يقال : نجاه وأنجاه إذا ألقاه على نجوة من الأرض أي مكان مرتفع ليسلم من الغرق والآفات ثم سمي كل فائز ناجيا وإن لم يُلْقَ على نجوة من الأرض . وقوله عز وجل : ﴿يَسْؤُمُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي يذيقونكم ويولونكم ويوردونكم أفطع العذاب وأشدّه يقال : سامه خطّة خَسَفَ إذا أولاه ذلك وأذاقه ومنه قول عمرو بن كلثوم :

إِذَا مَا الْمَلِكُ سَامَ النَّاسَ خَسَفًا أَبَيْنَا أَنْ نُفَرَّ الْخَسَفَ فِينَا

قال في القاموس المحيط : والخسف النقيصة ثم قال : والإذلال وأن يحمّل الإنسان ما تكره يقال : سامه خسفاً ويضمُّ إذا أولاه ذلًّا اهـ وقد قال عمرو بن سالم الخزاعي في وصف رسول الله ﷺ :

فانصر هداك الله نصرًا آيِّداً وَادْعُ عِبَادَ اللَّهِ يَأْتُوا مَدَدًا
 فيهم رسولُ الله قد تَجَرَّدَا أَيْضُ مثل البدر يَسْمُو صُعْدَا
 إن سيمَ خَسَفَا وَجْهُهُ تَرَبَّدَا في فيلق كالبحر يَجْرِي مُزْبِدَا
 وقوله عز وجل : ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ تفسير لقوله عز
 وجل : ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ وفي سورة إبراهيم ﴿يسومونكم سوء
 العذاب ويذبحون أبناءكم﴾ بالعطف بالواو للإشارة إلى أن فرعون وجنده
 كانوا يوقعون بني إسرائيل ألوانا من العذاب المهين وكان منها قتل أبنائهم
 واستحياء نسائهم ، فعطف بالواو في سورة إبراهيم لبيان أنهم كانوا يعذبونهم
 بالذبح وغيره ، إذ كانوا يُكَلِّفُونَ الذكور بالأعمال القذرة والشاقة من قطع
 الحجارة من الجبال وحملها ونقلها لبناء قصور آل فرعون ومن الحراثة والزراعة
 وحمل القاذورات ، والتعبير بالتذبيح لإفادة كثرة الذبح في بني إسرائيل
 والمبالغة في قطع رقابهم ، ومعنى ﴿ويستحيون نساءكم﴾ أي ويستبقون
 الإناث فلا يذبحونهنَّ لاستخدامهن في الأعمال غير الكريمة وفي خدمة نساء
 آل فرعون مبالغة في إذلال بني إسرائيل وشدة إيذائهم ، ولفظ النساء يطلق
 على الإناث صغيراتٍ أو كبيراتٍ ، وقوله عز وجل : ﴿وفي ذلِّكم بلاء من
 ربكم عظيم﴾ الإشارة فيه إلى ما ذكر من تضييع الأبناء واستحياء النساء ،
 والمراد بالبلاء المحنة والبلية ، وإنما كان استحياء النساء محنة وبلية لأن
 استبقاءهن كان لقصد استعمالهن في الأعمال غير الكريمة ، وفي الأعمال
 الشاقة زيادة في إهانة بني إسرائيل ، وفي قوله : ﴿بلاء من ربكم﴾ إشعار بأن
 كلَّ ما يصيب العباد من خير أو شر إنما هو من الله عز وجل لرفع درجات
 الطائعين ، وتكفير خطايا العصاة من المؤمنين ، وتنبيه الغافلين ، وإذا
 عصى الله من يعرفه سلَّط عليه من لا يعرفه ، وقوله عز وجل : ﴿وإذ فرقنا
 بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون﴾ بيان للنعمة الثانية

من النعم التي أنعم الله عز وجل بها على بني إسرائيل أي واذكروا إذ فلقنا بسببيكم البحر حتى صرتم تمشون في طريق ييس بين فرقين من الماء فصل أحدهما عن الآخر حتى صار كل فرق كالطود العظيم وشهد تم غرق فرعون وقومه . وقد كانت مهمة موسى عليه السلام ذات شقين : الشق الأول دعوة فرعون وقومه إلى إخلاص العبادة لله وحده والشق الثاني تخلص بني إسرائيل من العذاب المهين من فرعون . وإلى ذلك يشير الله عز وجل حيث يقول في سورة طه : ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَلَا تَعْذِبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَن اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴾ وكما قال في سورة الدخان : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُم قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَن أَدَّأَوْا إِلَآءَ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * وَأَن لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِن أَنَا أَنَا بَسْ لَئِذَا دَعَا إِلَى اللَّهِ وَتَأْوَىٰ إِلَآهَهُ يَخْلُدْ فِي عُرْسِهِ مُنْتَمِرًا * لَقَدْ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَلَآ كَذِبٌ ﴾

تبارك وتعالى أيد موسى وهارون عليهما السلام بالمعجزات وسلط على آل فرعون الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم في آيات بينات فإن فرعون رأى أنه لا بد من إعلان الحرب على موسى ومن معه من المؤمنين وأرسل فرعون في المدائن من يجمع العُدَّة والسلاح والرجال للقضاء على موسى وهارون ومن معهما من بني إسرائيل وقد أوحى الله عز وجل إلى موسى أن يخرج من مصر ليلا ببني إسرائيل مسرعين إلى سيناء وأعلمه أن فرعون وجنوده سَيَبْغُونَهُمْ فسارع موسى عليه السلام إلى امتثال أمر ربه ، وسرى ببني إسرائيل ، ولما اجتمع جند فرعون سارعوا إلى اللحاق بموسى عليه السلام يقودهم فرعون لعنه الله فأتبعوهم مشرقين أي وقت شروق الشمس ، وكان موسى عليه السلام ومن معه قد وصلوا إلى مكانٍ عسير فالبحر أمامهم والعدو خلفهم والجبال عن يمينهم وشمالهم ، فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى : إنا لمدركون أي سيكون هلاكنا على يد فرعون وجنده هنا ، فأجابهم موسى عليه السلام وقال لهم : كلا لن يدركونا ولن يصلوا إلينا لأن

الله وعدني بذلك يعني بذلك أنه لما قال عندما بعثه الله لفرعون : ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال : لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى ، لذلك قال موسى لما قال له أصحابه إنا لمدركون ، قال : كلا إن معي ربي سيهدين . فأوحى الله إلى موسى : أن اضرب بعصاك البحر فلما ضرب موسى البحر بعصاه انفلق فكان كل فرق كالطود العظيم أي كالجبل العظيم ، فجعل الله لهم طريقا في البحر يبسا فصار موسى ومن معه يمشون على أرض صلبة يابسة على كل جانب من جوانب طريقهم جدار من الماء كأنه صخر منحوت ، وجاوز الله ببني إسرائيل البحر ، فأتبعهم فرعون وجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم حتى إذا أدرك فرعون الغرق قال : آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ولم ينفعه إيمانه وأضل فرعون قومه وما هدى ، وكان ذلك في اليوم العاشر من المحرم يوم عاشوراء ، وفي ذلك يقول الله عز وجل هنا : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ وقال عز وجل في سورة الأعراف : ﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ وقال عز وجل في سورة يونس : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ الْغَوَا يَعْدُونَ ﴾ حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ﴿ وقال في سورة طه : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴾ فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى ﴿ . وقال عز وجل في سورة الشعراء : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ﴾ فأرسل فرعون في المدائن حاشرين * إن هؤلاء لشذمة قليلون * وإنهم لنا لغائظون * وإنا لجمع حاذرون * فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بني إسرائيل * فأتبعوهم مشرقين * فلما تراءى الجمعان قال

أصحاب موسى إنا لمدركون * قال كلا إن معي ربي سيهدين * فأوحينا إلى
موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم *
وأزلفنا ثمَّ الآخرين * وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين ﴿
كما ذكر الله عز وجل هذه النعمة في سورة الإسراء وفي سورة القصص وفي
سورة الزخرف .

قال تعالى : ﴿وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ . ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .

قد كان موسى عليه السلام عندما بعثه الله عز وجل إلى فرعون إنما بعثه بأصول الدين من التوحيد، وإقامة الصلاة لذكر الله، ووجوب الإيمان بالبعث بعد الموت ولم يكن قد أنزل عليه التوراة فلما انتهت مهمة موسى عليه السلام الخاصة بفرعون وملئه، وأغرق الله فرعون وجنده، فاستراح عليه السلام من متاعب فرعون وملائه وبدأت متاعب موسى وهارون من بني إسرائيل، فلما خلاص موسى إلى سيناء، وصار مختصا ببني إسرائيل وهم في حاجة ماسة إلى نظام يشمل حوائجهم في معاشهم ومعادهم ويفرق لهم بين الحق والباطل، ويبين لهم الحلال والحرام هيأ الله عز وجل موسى عليه السلام ليلقي عليه التوراة المشتملة على الأحكام التي تسلك بأهلها صراط الله المستقيم، وحالة موسى عليه السلام هذه تشبه حالة رسول الله ﷺ في حياته النبوية قبل الهجرة وبعدها فإن القرآن المكي كان ينزل لتقرير التوحيد والرسالة والإيمان بالبعث بعد الموت أما القرآن المدني فإنه زيادة على ذلك جاء بتقرير نظام الدولة الإسلامية والمجتمع السعيد وما يحتاجه كل فرد لصلاح معاشه ومعاده ولذلك ساق القرآن العظيم ما أوصى الله عز وجل به موسى عليه السلام عندما بعثه بالتوحيد والصلاة والإيمان بالبعث بعد الموت حيث يقول عز وجل في سورة طه : ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طَوًى ﴾ * وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى * إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني * وأقم الصلاة لذكري * إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى * فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها

واتبع هواه فتردى ﴿ وكما قال عز وجل في سورة النازعات : ﴿ هل أتاك
 حديث موسى * إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى * اذهب إلى فرعون إنه
 طغى * فقل هل لك إلى أن تزكى * وأهديك إلى ربك فتخشى . فأراه الآية
 الكبرى * فكذب وعصى * ثم أدبر يسعى ، فحشر فنادى * فقال أنا
 ربكم الأعلى * فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴿ ولما أغرق الله فرعون ونجى
 بني إسرائيل صار لموسى عليه السلام دولة في حاجة إلى النظام الشامل ،
 والنور الذي يسلكه موسى والمؤمنون ليهتدوا به إلى الصراط المستقيم ، وقد
 أمر الله عز وجل موسى عليه السلام بأن يستعد لتلقي الشريعة عند الطور
 وواعده ربه أربعين ليلة يتهيأ فيها موسى لتلقي الشريعة ، وعندما جاء
 الميقات قال موسى لأخيه هارون : أنت خليفتي على بني إسرائيل فأصلح
 أمورهم ولتكن سياستك لهم سياسةً رشيدة ، واحذر دعاة الضلالة المفسدين
 في الأرض ، وما أن انطلق موسى لتلقي الشريعة عند الطور حتى أضل
 السامري بني إسرائيل . فصنع لهم عجلاً من الذهب له خوارٌ أي صوتٌ
 يسمع وصلصلةٌ شبيهة بصوت الثور، وقال لهم : هذا إلهكم وإله موسى ، قد
 نسيه موسى هنا وذهب يطلب إلهه عند الطور، فعبده جملة من بني إسرائيل ،
 وحاول هارون عليه السلام صرفهم عن عبادة العجل . وكان اللين يغلب على
 هارون ﷺ ، وخشي إذا شدد عليهم أن يتفرقوا ، وقد بارزه عبّاد العجل
 العداوة وكادوا يقتلونه عندما كان يحذّرهم من عبادة العجل ولم يكن مأذوناً
 له في قتالهم ، فانتظر مجيء موسى عليه السلام بالشريعة من عند الله ، وكان
 موسى عليه السلام عند ما جاء لميقات ربه قد اختار من قومه سبعين رجلاً
 لهذا الميقات وقد سأله بعض المتنطعين المتعنتين من بني إسرائيل أن يريهم الله
 جهرة وأن يسأل ربه ذلك ، وبعد أن أعطى الله عز وجل موسى ﷺ التوراة
 أخبره أن قومه عبدوا عجلاً صنعه لهم السامريّ فرجع موسى عليه السلام

بالتوراة إلى قومه غضبان حزيناً على ما فعله قومه ، وأخذ يؤنبهم ويوبخهم
 على عبادة العجل ، وقال لهم بشئ ما خلفتوني من بعدي ألم يعدكم ربكم
 وعدا حسنا بإنزال التوراة نورا لكم؟ أفضالت غيبتى عليكم؟ أم أحببتم أن
 ينزل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم وعدكم إياي بالثبات على الإيمان
 وإخلاص العبادة لله وحده؟ فحاولوا الاعتذار بأنهم ما استطاعوا ردّ ضلال
 السامري فإنه سؤل لهم ما سؤل وغلب على عقولهم وزعم لهم أنه إله موسى
 فقال موسى لهارون عليه السلام : يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلّوا ألا
 تتبعني أفعصيت أمري بأن تقضي على سبيل المفسدين . وقد بلغ الغضب
 بموسى عليه السلام مبلغا فألقى ألواح التوراة وأخذ برأس أخيه هارون ولحيته
 يحرقه إليه فقال هارون : يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إن القوم
 استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم
 الظالمين ، وقد أخذ موسى هذا العجل وحرقه ونسفه في اليم نسفا . وقوله عز
 وجل : ﴿وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة﴾ أي واذكروا ما حدث من آبائكم
 وقت أن واعدنا موسى أربعين ليلة لإعطائه بعد تمامها التوراة ، وقوله :
 ﴿واعدنا موسى﴾ أي وعد الله عز وجل موسى عليه السلام الطور في وقت
 معين فاستجاب موسى عليه السلام لميعاد ربه ، فكان الوعد من الله عز
 وجل والاستجابة من موسى عليه السلام فالمواعدة على بابها وقيل : هذا من
 باب داويت العليل وعاقبت اللص ، والميعاد هو المواعدة والوقت والموضع ،
 وموسى هو ابن عمران من سبط لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم
 عليهم السلام قيل وسُمّي ﴿موسى﴾ أخذًا من كلمتين بالقبطية أو العبرية
 وهما ماءٌ وشجر فموسى هو الماء وشا هو الشجر واستعمله العرب بالسین بدل
 الشين فقالوا : موسى . وقد زعم مدّعو ذلك أنه سُمّي بذلك لأنه وجد في
 التابوت بين الماء والشجر عندما التقطه آل فرعون فأطلقوا عليه هذا الاسم ،

وقوله عز وجل : ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعَجَلُ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ أي ثم اتخذتم العجل الذي صاغه لكم السامري إلهاً من بعد ذهاب موسى ومضيه لميقات ربه وأنتم مرتكبون أفحش الظلم بعبادة غير الله لأن الشرك ظلم عظيم ، وأصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه . وقوله عز وجل : ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي ومع ارتكابكم هذه الجريمة البشعة وهذا الظلم العظيم لم نعاجلكم بالعقوبة لكي تشكروا الله عز وجل ، والمخاطب بقوله عز وجل : ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعَجَلُ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ ثم عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ هم بنو إسرائيل المعاصرون لرسول الله ﷺ المعادون له ، والمقصود إخبارهم بما فعل آبائهم من معصية الله ومخالفة المرسلين ، وبيان أن هؤلاء الأبناء من جنس هؤلاء الآباء ، والأولى بهم أن يسارعوا إلى الإيمان بمحمد ﷺ وأن يشكروا نعمة الله التي أنعم بها على الإنسانية كلها حيث لم يعاجل العاصين بالعقوبة . وقوله عز وجل : ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي واذكروا نعمة الله عليكم إذ أعطينا موسى عليه السلام الكتاب وهو التوراة وأعطيناه الفرقان وهو ما يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلالة ، والعطف في قوله عز وجل : ﴿ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ ﴾ هو عطف تفسير فكأنه وصف الكتاب بأنه الفرقان وقد سمي الله عز وجل ما آتاه موسى وهارون بأنه فرقانٌ وضياءٌ وذكر حيث يقول في سورة الأنبياء : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذَكَرًا لِلْمُتَّقِينَ ﴾ والعرب يعطفون عطف التفسير لتأكيد المعنى كما قال عدي بن زيد :

وَقَدَّتِ الْأَدِيمُ لِرَاهِشِيهِ وَأَلْفَى قَوْلَهَا كَذِبًا وَمِينَا
والمين هو الكذب وتقديد الأديم تقطيعه والأديم الجلد والراهشان عرقان في باطن الذراع . ومن العطف للتفسير أيضا قول عنتره :

حَيَّيتُ مَنْ طَلَلْتُ قَدَامَ عَهْدِهِ أَقْوَى وَأَقْفَرُ بَعْدَ أَمِّ الْهَيْثَمِ

وأقوى وأقفر بمعنى واحد . ومن ذلك أيضا قول الخطيئة :

ألا حبذا هندٌ وأرض بها هند وهند أتى من دونها النأي والبعد
فعطف البعد على النأي وهما بمعنى واحد . وقد ساق الله تبارك وتعالى
مواعده موسى عليه السلام لإعطائه التوراة وعبادة قومه العجل من بعد
ذهابه لميقات ربه ، وموقف هارون من ذلك ، ورجوع موسى إلى قومه غضبان
أسفا وما حدث بينه وبين هارون عليه السلام ، وما صنع موسى بعجل
السامري وذكر ذلك في مواضع من كتابه الكريم حيث قال في سورة البقرة
أيضا : ﴿ ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم
ظالمون ﴾ ويقول في سورة الأعراف : ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلةً وأتممناها
بعشر فتمّ ميقات ربه أربعين ليلةً وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي
وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ * ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب
أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف
تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال
سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين * قال يا موسى إني اصطفيتك على
الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين * وكتبنا له في
الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك
بأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين * سألهم عن آياتي الذين يتكبرون
في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشدا لا
يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا
وكانوا عنها غافلين * والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل
يجزون إلا ما كانوا يعملون * واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا
جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين *
ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا
لنكونن من الخاسرين * ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بشسما

خلقتهم من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره
 إليه قال: ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي
 الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين * قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في
 رحمتك وأنت أرحم الراحمين * إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من
 ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين * والذين عملوا السيئات
 ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم * ولما سكث عن
 موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدي ورحمة للذين هم لربهم
 يرهبون * وقال تعالى في سورة طه: ﴿يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم
 وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى * كلوا من
 طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه
 غضبي فقد هوى * وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى * وما
 أعجلك عن قومك يا موسى * قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب
 لترضى * قال فإنا قد فتننا قومك من بعدك وأضلهم السامري * فرجع موسى
 إلى قومه غضبان أسفا قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم
 العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي * قالوا ما
 أخلفنا موعداك بملكنا ولكننا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك
 ألقى السامري * فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله
 موسى فنسي أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا *
 ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني
 وأطيعوا أمري * قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى * قال يا
 هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا * ألا تتبعن أف عصيت أمري * قال يا ابن أم
 لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي * إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم
 ترقب قولي * الآيات إلى قوله: ﴿إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل
 شيء علما﴾ .

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

قد ذكر الله عز وجل في الآية الواحدة والخمسين والثانية والخمسين السابقتين ما يفيد أن بني إسرائيل اتخذوا العجل إلهاً بعد ذهاب موسى عليه السلام لمليقات ربه وأن الله عز وجل عفا عنهم من بعد ذلك لعلهم يشكرون ثم ذكر الله عز وجل في هذه الآية الثالثة والخمسين ما قضى به موسى عليه السلام بأمر من الله عز وجل على الذين عبدوا العجل وارتدوا عن الدين بأن يقتل بعضهم بعضاً تحقيقاً للتوبة من هذه الجريمة البشعة ، وهو يدل على أن شريعة موسى عليه السلام وشريعة محمد ﷺ متفقتان على أن من بدّل دينه يقتل فقد روى البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : من بدّل دينه فاقتلوه . ولا معارضة بين قوله تعالى في الآية الثانية والخمسين : ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وقوله عز وجل هنا : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ لأن قوله ﴿عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ لا يدل على أنه لا عقاب عليهم في الدنيا وذلك لجواز اجتماع العفو مع العقوبة الدنيوية . ولهذا فإن من قتل شخصاً عمداً بغير حق وعفا أولياء القتل أو أحدهم عن القاتل فإنه يُتَّقَلُّ من القصاص إلى الدية وفي هذا يقول الله عز وجل : ﴿فَمَنْ عَفَى لِه مِنْ أَخِيهِ شَيْءٍ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّاءَ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ وهذا يظهر الفرق بين العفو وبين المغفرة فإن العفو قد يجتمع مع العقوبة

بخلاف المغفرة فإنها لا تكون مع عقوبة، على أن العفو في قوله: ﴿عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ يشمل عُبَادَ الْعَجَل وغيرهم من بني إسرائيل الذين لم يُعَيَّرُوا هذه المعصية عند ظهورها، وسكتوا عليها، إذ المعروف أن المعصية التي لم يستتر أهلها تستجلب سَخَطَ اللَّهِ وعقوبته على مرتكبها وعلى من لم يغيرها ولم يَنه عنها على حد قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وقد تفضل الله تبارك وتعالى على من قُتِلَ من عُبَادِ الْعَجَل وتابوا إلى الله وندموا على ما فعلوا أن لا يجمع لهم بين عقوبة القتل في الدنيا وعذاب الله في الآخرة وقد أخبر النبي محمد ﷺ أن من ابتلى بشيء من هذه القاذورات وأخذ بها كان كفارةً له وإن تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وقد أخبر الله عز وجل أنه تاب على هؤلاء الذين قُتِلُوا من عُبَادِ الْعَجَل حيث يقول في هذه الآية المباركة: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. وعَبَّرَ بالماضي لتحقيق ذلك فله الحمد وله الشكر وله المنة، والقوم في قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَصِلُوا الْقَوْمَ فِي الْاِسْتِعْمَالِ الْعَرَبِيِّ يَطْلُقُ عَلَى جَمَاعَةِ الرِّجَالِ الَّذِينَ لَيْسَ فِيهِمْ امْرَأَةٌ وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ فَجَعَلَ الْقَوْمَ فِي مَقَابِلَةِ النِّسَاءِ. وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ زَهِيرٍ:

وما أدري وسوف إخال أدري أَقَوْمٌ أَلْ حِصْنِ أُمِّ نِسَاءٍ
ولا يجوز إطلاق لفظ القوم على النساء وحدهن ألبتة، وأما قوله تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ وقوله ﴿كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ﴾ وهو لا شك يشمل الرجال والنساء فإنما ذلك من باب التغليب. وقوله: ﴿فَتَوَبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ أي فارجعوا إلى الله واندموا على خطيئتهم واعزموا على أن لا تعودوا لمثلها أبداً. والبارئ هو الله عز وجل يقال بَرَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ أي خلقهم وأوجدهم من

العدم . وأصل مادة بَرَأ يدل على انفصال شيء عن شيء وتمييزه عنه يقال : برأ المريض من مرضه إذا زال عنه المرض وانفصل ، وبرأ المدين من دينه إذا زال عنه الدين وسقط عنه ، ومنه الباري في أوصاف الله عز وجل لأن مَعْنَاهُ الذي أخرج الخلق من العدم وفَصَلَهُم إلى الوجود ، ومنه البرية أي الخليقة لانفصالهم من العدم إلى الوجود ، وقوله : ﴿ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي فليقتل بعضكم بعضاً ، والأمر مُوجَّهٌ إلى من عَبَدَ العجل واتخذهُ إلهاً من دون الله . وقوله : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ ﴾ أي قَتْلُ أَنْفُسِكُمْ امتثالاً لأمر الله وتحقيقاً للتوبة أنفع لكم عند الله يوم القيامة فإنكم إن لم تتوبوا خسرتم الدنيا والآخرة لأنكم مفارقون للدنيا لا محالة ومرجعكم إلى الله فيذيقكم عذاب السعير لأن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، فلا مغفرة للمشرك إلا بتوبة نصوح . وقوله عز وجل : ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي قبل توبة التائبين الذين استجابوا لما أمرهم الله عز وجل به لتحقيق توبتهم وهذا لتذكير المخاطبين بما حصل من آبائهم وما أنعم الله عليهم به من قبول توبتهم ، وليس قتل المذنب نفسه شرطاً في تحقيق التوبة من الذنب عند جميع الديانات السماوية السابقة بل هذا الأمر خاص بهذه الحادثة حيث قضى الله به على عِبَادِ العجل من بني إسرائيل وقد جاءت الأخبار الصحيحة عن رسول الله ﷺ بما يدل على قبول توبة التائبين من بني إسرائيل من معاص كبار كالقتل ونحوه دون أن يؤمر المذنب بقتل نفسه فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال : كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً فسأل عن أعلم أهل الأرض فدلَّ على راهب فأتاه ، فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة ؟ فقال : لا . فقتله فكمل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدلَّ على رجل عالم فقال : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟

فقال : نَعَمْ وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ ، انطلق إلى أرض كذا وكذا فَإِنَّ بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم ، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرضُ سوء . فانطلقَ حتى إذا نَصَفَ الطريقَ أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مُقْبِلاً بقلبه إلى الله تعالى وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط ، فأتاها مَلَكٌ في صورة آدمي فجعلوه بينهم أي حَكَمًا فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فَهُوَ لَهُ ، ففاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة . كما روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ بيننا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ ، إذ رَأَتْهُ بَغِيٌّ من بغايا بني إسرائيل ، فَتَزَعَّتْ مُوقَهَا فَسَقَّتْهُ فَغُفِّرَ لها به ، وقوله : يطيف بركية أي يُدِيمُ المرور حول بشرٍ ليحاول الشرب منها ولا يتمكن من ذلك ، وقوله بَغِيٌّ أي امرأة تحترف الزنا والدعارة وقوله فَتَزَعَّتْ مُوقَهَا أي خلعت خُفَّها ، ففي هذين الحديثين الصحيحين دليل جَلِيٌّ على أن قبول التوبة في بني إسرائيل لم يكن يُشْتَرَطُ فيه أن يقتل التائب نفسه كما بينت ، وأن قتل التائب نفسه إنما جاء في توبة عُبَادِ العجل خاصة ، ولا معارضة بين قوله عز وجل هنا : ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ وبين قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ﴾ لأن القتل المأمور به هنا هو قتل عُبَادِ العجل تحقيقاً لتوبتهم من هذه الجريمة البشعة ، وأما القتل المنهي عنه الذي حرمه عليهم بقوله : ﴿ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ﴾ فهو القتل بغير حق . وقوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ أي إن الله هو الكثير الفضل على عباده بكثرة قبول توبة التائبين وهو أرحم الراحمين فله الحمد وله الشكر . وقوله عز وجل : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكَ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ . ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي واذكروا أيها

اليهود المعاصرون ما طلبتموه من كليم الله موسى عليه السلام أن يريكم الله عيانا وقد طلب موسى عليه السلام من ربه أن يتجلى له حتى يراه عندما كلمه ربه فأخبره الله أنه لو تجلى له لأحرقه وقال لموسى عليه السلام : انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه إذا تجلى الله له فإنك سوف تراني فلما تجلى الله تعالى للجبل جعله دكاً وأخذت الصاعقة موسى عليه السلام ومن معه وكانوا سبعين رجلا قد اختارهم موسى عليه السلام من بني إسرائيل ليشهدوا معه الميقات ، ثم بعثهم الله من صعقتهم وكان أول من أفاق منهم هو موسى عليه السلام وقد رآهم بعينه وهم صرعى فأخذ موسى عليه السلام يتضرع إلى الله ويقول : رب إن شئت أهلكتهم من قبل وإياي ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ وإنما كان هذا الخطاب في هذا المقام كغيره من الخطابات السابقة واللاحقة في هذا السياق لليهود المعاصرين للنبي ﷺ تذكيرا لهم بما فعل آبائهم وأسلافهم وهم منهم مع موسى عليه السلام ليلفت انتباههم إلى أن من لم يسارع من بني إسرائيل إلى الإيمان بمحمد ﷺ فإنه يكون قد سار على نهج السفهاء من آبائهم وأسلافهم ففيه تسلية لرسول الله ﷺ ومواساة له وتبكيث للمعاصرين من بني إسرائيل . وقد كان قول بعض سفهاء بني إسرائيل لموسى عليه السلام : أرنا الله جهرة قبيل ذهابه لميقات ربه ، وكان ذلك قبل عبادة بعضهم لعجل السامري وقد بين الله ذلك في سورة النساء في سياق تعداد بعض جرائم بني إسرائيل ومواساة رسوله وعبدته محمد ﷺ وحضه على الصبر على تعنتهم معه حيث طلبوا منه ﷺ أن يُنزل عليهم كتابا من السماء مختصا بهم موجها إليهم بأعيانهم من الله يخبرهم فيه أن محمدا رسول الله حيث يقول عز وجل : ﴿يسألك أهل الكتاب أن تُنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا : أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن

ذلك وآتيناه موسى سلطاناً مبيناً ﴿١﴾ وقوله : ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله
 جهرة﴾ أي قالوا لموسى عليه السلام : لن نصدق أنك رسول الله حتى نبصر
 الله بأعيننا عياناً وقوله عز وجل : ﴿فأخذتكم الصاعقة﴾ أي فأصابتكم
 الرجفة عندما اندك الجبل لما تجلى الله له ، وقوله : ﴿وأنتم تنظرون﴾ أي وقد
 أبصرتم ذلك عند وقوعه حيث كان الذي يفيق منهم قبل الآخر يشهد
 مصرعه . وقوله عز وجل : ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾ أي رددنا لكم
 الحياة من بعد ما أخذتكم الصاعقة . وهذا أول مقام من المقامات التي
 ذكرها الله عز وجل في سورة البقرة الشاهدة بقدرة الله على إحياء الموتى المنكرة
 على منكر البعث بعد الموت وكأنه يقول لهم : قد أحييت الموتى فعلاً ، وكلُّ ما
 وقع فعلاً فهو ممكن عقلاً فكيف ينكر عاقل البعث بعد الموت ؟ والمقام الثاني
 في قوله عز وجل في قصة البقرة وقتيل بني إسرائيل : ﴿فقلنا اضربوه ببعضها
 كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾ والمقام الثالث في قوله :
 ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله
 موتوا ثم أحياهم﴾ والمقام الرابع قصة الذي مر على قرية وهي خاوية على
 عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم
 لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام ، وأحيا أمامه حماره
 الذي كان قد مات معه . وقال له : انظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها
 لحماً . والمقام الخامس في قول إبراهيم عليه السلام : ﴿رب أرني كيف تحيي
 الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال : فخذ أربعة من الطير
 فصرهنَّ إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً
 واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ . هذا ولا شك عند علماء أهل السنة والجماعة أن
 المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وإن كانوا يعتقدون أن البشر لن يروا ربهم حتى
 يموتوا وإن كانت الرؤية ممكنة في الدنيا ، ولذلك سألها موسى عليه السلام

ولو كانت مستحيلة ما سألها، وقد أخبر الله عز وجل أن الكفار محجوبون عن رؤية الله يوم القيامة، وقد أشار الله عز وجل إلى أن رؤية المؤمنين ربهم في جنات النعيم هي أعظم لذات الجنة حيث يقول: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ فقد فسر رسول الله ﷺ الزيادة في الآية بأنها النظر إلى وجه الله الكريم وأنه ما أعطاهم شيئا هو أحب إليهم من النظر إليه كما رواه مسلم في صحيحه من حديث صهيب رضي الله عنه وكما قال عز وجل: ﴿وَجُوهُ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾. وقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن ناسا قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا. قال: هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا. قال: فإنكم ترونه كذلك» وبنحوه. من حديث أبي سعيد الخدري في الصحيحين أيضا كما روى البخاري ومسلم من حديث جرير بن عبد الله البجلي قال: كنا جلوسا عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة فقال: إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا لا تضامون في رؤيته. وقد حكم غير واحد من أهل العلم بأن أحاديث الرؤية متواترة وقد روى أحاديث الرؤية نحو ثلاثين صحابيا عن رسول الله ﷺ، وقد ادعى بعض أهل الأهواء المنحرفين عن سنة رسول الله ﷺ أن رؤية الله مستحيلة في الدنيا والآخرة مستدلا بقوله تعالى: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ على أن (لن) تقتضي النفي على التأييد، وهو خطأ في فهم اللسان العربي، ولذلك قال ابن مالك صاحب الألفية رحمه الله:

وَمَنْ رَأَى النَّفْسَ بِلَنْ مُؤَبَّدَا فَقَوْلُهُ ارْدُدْ وَسِوَاهُ فَاعْضُدَا
وقد أشار القرآن الكريم إلى أن لن لا تفيد النفي على التأييد حيث قال في اليهود: ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم ﴿وقد أكد هذا النفي بقوله: ﴿أَبَدًا﴾ ومعلوم قطعاً أن الكفار بما

فيهم اليهود يتمنون الموت وهم في جهنم حيث أشار الله إلى ذلك في قوله :
﴿وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ نسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته
العلی أن یمتعلنا بالنظر إلى وجهه الکریم فی جنات النعیم .

قال تعالى : ﴿ وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المنّ والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ * وإذا قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين ﴾ * فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون * وإذا استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ .

إن النعم التي عدّها الله تبارك وتعالى وتفضل بها على بني إسرائيل من قوله عز وجل : ﴿ وإذا نجيناكم من آل فرعون ﴾ إلى هذا المقام كان معظمها نعماً لدفع نقم حلّت ببني إسرائيل ، ومن هنا تعداد لنعم أسبغها الله عز وجل على بني إسرائيل ، وقوله عز وجل : ﴿ وظللنا عليكم الغمام ﴾ أي وجعلنا الغمام فوق رؤوسكم كالظلة يقيكم حر الشمس وأنتم في الصحراء ، والمقصود آبائهم الذين شهدوا هذه النعمة وتناقلها أبناؤهم جيلاً بعد جيل ومع ذلك لا يشكرون نعمة الله عليهم وعلى آبائهم ، والغمام جمع غمامة ، قال الفيروزآبادي في القاموس المحيط : والغمامة السحابة أو البيضاء اهـ وإنما قيل للسحاب غمام لأنه يَغُمُّ السماء أي يسترها ، وقوله عز وجل : ﴿ وأنزلنا عليكم المن والسلوى ﴾ أي وألقينا عليكم المن والسلوى والمن هو صمغة حلوة شبيهة بعسل النحل والظاهر أنه لم يكن نوعاً واحداً بل كان المن أنواعاً منها نوع يشبه خبز الرقاق حلو ومنها نوع يشبه التريجيين قال ابن البيطار في مفرداته : التريجيين طلّ يقع من السماء وهو نَدَى شبيه بالعسل جامدٌ مُتَحَبِّبٌ . وقد أخبر رسول الله ﷺ أن الكمأة من المن الذي أنزله الله على بني

إسرائيل فقد روى البخاري في صحيحه من حديث سعيد بن زيد قال : سمعت النبي ﷺ يقول : الكمأة من المنّ وماؤها شفاء للعين ، ورواه مسلم في صحيحه من طريق عبد الملك بن عمير عن عمرو بن حُرَيْث عن سعيد ابن زيد بن عمرو بن نُفَيْل عن رسول الله ﷺ باللفظ الذي أخرجه به البخاري ثم رواه مسلم من طريق الحسن العرفي عن عمرو بن حُرَيْث عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل قال : قال رسول الله ﷺ : الكمأة من المنّ الذي أنزل الله تبارك وتعالى على بني إسرائيل وماؤها شفاء للعين وفي لفظ لمسلم من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : الكمأة من المن الذي أنزل الله على موسى وماؤها شفاء للعين . أما السَّلوى فهو طير قال البخاري في صحيحه في كتاب التفسير : وقوله تعالى : ﴿ وَظَلَلْنَا عَلَيْكَ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ . وقال مجاهد : الْمَنَّاءُ صَمْغَةٌ وَالسَّلْوَى طير أهـ قيل هو المعروف بالسَّمَانِي وقيل هو يشبه السَّمَانِي وقيل هو مثل الحمامة وهذه الطيور التي فُسِّرَ بها السَّلْوَى متقاربة . وفي قوله عز وجل : ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى ﴾ رَدُّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ (أَنْزَلَ) تَكُونُ فِي مَا نَزَلَ جُمْلَةً وَأَنَّ (نَزَلَ) تَكُونُ فِي مَا نَزَلَ عَلَى التَّدْرِيجِ لِأَنَّهُ لَا نَزَاعَ أَنَّ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كَانَتَا تَنْزَلُ عَلَى التَّدْرِيجِ وَهُمَ يَضْطَرُونَ إِلَى تَأْوِيلِ نَحْوِ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَأَمْنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ ﴾ بِأَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ جُمْلَةً مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا ثُمَّ نَزَلَ عَلَى التَّدْرِيجِ فِي ثَلَاثٍ وَعَشْرِينَ سَنَةً مَنجَّأً بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ ، وَهُوَ مَذْهَبٌ غَيْرُ سَدِيدٍ ذَهَبَ إِلَيْهِ الَّذِينَ يَنْكُرُونَ كَلَامَ اللَّهِ مِنْ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ ، وَقَدْ رَدَّ عَلَيْهِمْ مَفْتِي الدِّيَارِ السَّعُودِيَّةِ السَّابِقُ الْعَلَامَةُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ آلِ الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي رِسَالَةٍ مَطْبُوعَةٍ ، وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْقَدَرِ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ مَا قِيلَ مِنْ أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ جُمْلَةً وَاحِدَةً فِي لَيْلَةِ الْقَدَرِ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ

إلى سماء الدنيا إلى بيت العزة وأمله جبريل على السفرة ثم كان جبريل يُنزلُه علي النبي ﷺ نجوما نجوما ثم قال القرطبي : قال ابن العربي : وهذا باطل ليس بين جبريل وبين الله واسطة ولا بين جبريل ومحمد عليهما السلام واسطة اهـ وما يؤيد أنه لا فرق بين أنزل ونزل إلا في تلوين الأسلوب ما ذكره الله عز وجل عن العرب وهم أهل اللسان حيث قالوا : «لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة» فهم أعرف خلق الله باللسان العربي وسألوا : لماذا لم ينزل عليه القرآن جملة واحدة ؟ فاستعملوا نزل في نزول الشيء جملة لا في التدريج مع أن الأمر في ذلك واسع كما بينت آنفا . وقوله عز وجل : ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي تَمَتَّعُوا بِالْأَكْلِ مِنْ مُسْتَلْذَاتٍ وَمُسْتَهْيَاتٍ مَا تَفَضَّلْنَا بِهِ عَلَيْكُمْ مِنَ الْمَنِّ وَالسَّلَوى . وقوله عز وجل : ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي لم يشكروا هذه النعمة العظيمة الجليلة وقالوا : لن نصبر على طعام واحد يا موسى ادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها . وهم بكفرهم هذه النعمة لن يَضُرُّوا الله شيئا وإنما يضرّون أنفسهم بارتكابهم ما يجلب لهم خزي الدنيا وعذاب الآخرة فإن العباد لو كانوا على أتقى قلب رجل ما زاد ذلك في ملك الله شيئا ولو كانوا على أفجر قلب رجل ما نقص ذلك من ملك الله شيئا ، وإنما أفعال العباد من الخير والشر راجعة إليهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره . وقوله عز وجل : ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغْدا﴾ أي واذكروا إذ أمرنا بني إسرائيل بدخول بين المقدس وسُمِّيَ قرية لما فيه من التقري والسكون والاجتماع ، من قولهم : قَرَيْتُ الْمَاءَ فِي الْحَوْضِ أي جمعته وقد سُمي الله عز وجل مكة قرية في قوله تبارك وتعالى : ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلَكَنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ كما سُمي رسول الله ﷺ المدينة المنورة قرية في قوله ﷺ : «أمرت بقرية

تأكل القرى» وقد رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما . وقوله : ﴿فكلوا منها حيث شئتم رغدا﴾ أي فقد يَسَّرْتُ فيها ألوان العيش الرغيد الكثير الواسع ، والأمر في قوله : ﴿فكلوا﴾ للإباحة . وقوله : ﴿رغدا﴾ صفة لموصوف محذوف تقديره : أكلا رغدا أي واسعا لا حَجْر فيه ، وقوله : ﴿وادخلوا الباب سجدا﴾ أي وادخلوا باب هذه القرية واسجدوا لله عز وجل شكرا على نعمائه . وقوله عز وجل : ﴿وقولوا حطة﴾ أي واطلبوا من الله أن يحط عنكم خطاياكم ويغفر لكم سيئاتكم ، وقوله عز وجل : ﴿تغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين﴾ أي إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم سيئاتكم ومحونا عنكم ذنوبكم وزدناكم من الخيرات والحسنات على حد قوله عز وجل : ﴿وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ ، وقوله عز وجل : ﴿فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون﴾ أي فحرَّف هؤلاء الظالمون لأنفسهم وغيرُوا الأمر الذي أمرهم الله به فَبَدَّلَ أن يدخلوا الباب سجدا دخلوا يزحفون على أستاههم ، وبَدَّلَ أن يقولوا حطة قالوا : حنطة فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : قيل لبني إسرائيل : ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة فدخلوا يزحفون على أستاههم فبدلوا وقالوا : حطَّةٌ حَبَّةٌ في شَعْرَةٍ ورواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سُجَّدًا وقولوا حطَّةٌ يُغْفَرْ لكم خطاياكم فبدَّلوا فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم وقالوا : حَبَّةٌ في شَعْرَةٍ . وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي الحرص على تأدية الألفاظ والأفعال التي يطلبها الشرع من العباد من غير تبديل ولا تحريف بقدر الاستطاعة لقول رسول الله ﷺ فيما رواه الترمذي بسند صحيح من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ

يقول : نَضَّرَ الله امرأً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه فَرُبَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى له من سامع . كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : إذا أتيت مَضْجَعَكَ فتوضأً وُضُوءَكَ للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن ، وقل : اللهم أسلمت نفسي إليك ، وفوضت أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك ، رهبة ورغبة إليك ، لا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت ، ونبيك الذي أرسلت فإن مُتَّ مُتَّ على الفطرة ، فاجعلْهُنَّ آخر ما تقول ، فقلت أَسْتَذْكِرُهُنَّ : وبرسولك الذي أرسلت ، قال لا : وبنبيك الذي أرسلت . فهذا الحديث يدل على أنه لا ينبغي تغيير الألفاظ الشرعية ولا سيما في الدعاء ، ولذلك لما غيَّرَ بنو إسرائيل وبدلوا قولاً غير الذي قيل لهم عاقبهم الله عز وجل ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رَجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ أي فَسَلَطْنَا على بني إسرائيل عذاباً وأرسلناه عليهم من السماء بسبب فسقهم وخروجهم على أوامر الله ، فلما بدلوا نعمة الله كفراً أنزل عليهم بدل المن والسلوى عذاباً ، وقوله : ﴿ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ فوضع الظاهر موضع الضمير إذ الأصل أن يقال : فَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ لتسجيل هذه الصفة القبيحة عليهم وهي الظلم والتعدي ووضع الأمور في غير موضعها . وقد ساق الله تبارك وتعالى في مواضع من كتابه الكريم قصة أمرهم بدخول القرية وأن يأكلوا منها حيث شاءوا وما كان منهم من مخالفة الأوامر الشرعية وتحريفهم للكلم من بعد مواضعه حيث ذكر هذه القصة في سورة البقرة ، وذكرها كذلك في سورة المائدة حيث يقول عن حديث موسى عليه السلام معهم : ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ قالوا : يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون * قال رجلان من

الذين يخافون أنعم الله عليهما : ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين* قالوا يا موسى إننا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون* قال : رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين* قال : فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين* وقال عز وجل في سورة الأعراف : ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُم اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ* فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ وقوله عز وجل : ﴿وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ﴾ وهذا تذكير لنعمة أخرى من نعم الله التي أنعم بها على بني إسرائيل وقد كفروها ولم يشكروا الله عليها مع أنها معجزة ظاهرة، وآية قاهرة وحجة بالغة، أي واذكروا يا بني إسرائيل نعمة الله عليكم إذ أصابكم العطش واحتجتم للشرب فطلب موسى عليه السلام من ربه السُّقْيَا لكم فأمره الله عز وجل أن يضرب بعصاه الحجر فضرب موسى عليه السلام الحجر بعصاه . فانفجرت وانبعجت منه اثنتا عشرة عينا بعدد أسباط بني إسرائيل لكل سبط منهم عين حتى لا يتشاحنوا ولا يتنازعوا على الماء حيث قد علم كل سبط من أسباط بني إسرائيل العين التي اختص بها، وقد قطعهم الله اثنتى عشرة قبيلة كل قبيلة تنتمي إلى ولد من أولاد يعقوب عليه السلام كما قال عز وجل : ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَى عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ وقوله عز وجل : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي قد يسرنا لكم طعامكم وشرابكم رزقا من عندنا وفضلا تفضلنا به عليكم فاعرفوا نعمة الله ولا تكفروها ولا تفسدوا في الأرض متعمدين الإفساد فيها . فالعيث شدة

الفساد يقال : عَثِيَ يَعْثِي عَثِيًّا وَعَثَا يَعْثُو عَثْوًا وَعَثَا يَعِثُ عَيْثًا وَعُيُوثًا وَمَعَاثًا ، ويقال أيضا عَثَّ يَعُثُّ ومنه العُثَّةُ وهي سُوسَةٌ تفسد الصوف . وما أشبه اليهود بهذه السوسة لعنهم الله . وقوله عز وجل : ﴿مفسدين﴾ حال مؤكدة لمعنى عاملها كقوله : ثم وليتم مدبرين كأنه قيل لهم : لا تتهادوا في الفساد حال كونكم مفسدين . هذا وليس هناك دليل على أن هذا الحجر الذي ضربه موسى عليه السلام بعصاه هو حجر كان يحمله موسى عليه السلام معه ، بل الظاهر أنه حجر كان قريباً منه عندما أمره الله عز وجل بضربه لتنبية بني إسرائيل إلى أن قلوبهم قد تقسو فتكون أشد قسوة من الحجارة إذ أن بعض الحجارة قد تتفجر منه الأنهار وليس هو الحجر الذي وضع موسى عليه ثيابه لما أراد أن يغتسل فهرب الحجر بثيابه حتى وقف بها على ملا بني إسرائيل لدفع أذى عن موسى عليه السلام ، فقد روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إن موسى عليه السلام كان رجلاً حَيِّيًا ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياء منه فأذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا : ما يتستر هذا التستر إلا من عيب في جلده إما برص وإما أذرة وإما آفة وإن الله عز وجل أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى عليه السلام فخلا يوماً وحده فخلع ثيابه على حجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول : ثوبي حجر ثوبي حجر حتى انتهى إلى ملا بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله . الحديث . فذلك قوله : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وحيها﴾ .

قال تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعْ لَنَا رَبَّكَ
يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسُهَا وَبَصَلَهَا قَالَ
أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ، اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ،
وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبِ اللَّهِ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا
يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا
يَعْتَدُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴾ .

هذا تذكير آخر لجناية أخرى من جنایات بني إسرائيل من كفرانهم لنعم
الله ، وَمَعْصِيَتِهِمْ لِرَسُولِ اللَّهِ وَإِخْلَادِهِمْ لِلدَّيْنَةِ وَالْخِسَّةِ ، مع اتصافهم بأكبر
الجنایات بعد عبادتهم للعجل وهي قتل الأنبياء ، وقد وُجِّهَ الخطاب هنا
للمعاصرين لرسول الله ﷺ لاتحادهم مع آبائهم في الخسة والدناءة وعداوة
الأنبياء والمرسلين ، وقوله عز وجل : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ
وَاحِدٍ﴾ أي واذكروا يا بني إسرائيل ما قال آبائكم لموسى عليه السلام : لن
نرضى بالاستمرار على تناول طعام واحد ولن نحبس أنفسنا على المن
والسلوى . وُسِّمِيَ المنُّ والسَّلوى طعاما واحدا مع أنهما نوعان لتكرارهما كل
يوم وفي كل غذاء على وتيرة واحدة ، ومن الأساليب العربية أنك تقول لمن
يدأوم على الصلاة والصيام وأعمال البر الكثيرة : هو على أمر واحد ، ولو أن
الإنسان قُدِّمَ له في مائدته لأيام متطاولة ألوان كثيرة مُعَيَّنَةٌ لا يتخلف منها
شيء ولا يُزَادُ عليها شيء لَصَحَّ له أن يقول : نحن نعيش على طعام واحد .
أي ما نتناوله من الطعام ثابت على وتيرة واحدة . والعَجِيبُ أن المنَّ والسَّلوى
مضربُ المثل في ألد أنواع الأطعمة وأشهاها وأنفعها فإن هؤلاء أعلنوا لموسى

عليه السلام أنهم لن يصبروا عليها ، فأنْتَ تقول للثيم الذي لا يُقَدَّرُ النعمة : لو أطعمته المنّ والسلوى ما أثمر فيه ، وكذلك طِبَاعُ هؤلاء ، والطعام قد يُطلَقُ على ما يؤكل ويُشربُ ، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك في كتابه الكريم في قصة طالوت رحمه الله حيث يقول : ﴿إِنَّ اللَّهَ مَبْتَلِيكُمْ بَنَهْرَ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ فسمى تناول ماء النهر طعاما . وكذلك قال الله تبارك وتعالى في قصة من مات من المؤمنين قبل تحريم الخمر ممن كانوا يشربونها : ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يَحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فسمى شرب الخمر طعاما ، وقد وصف رسول الله ﷺ ماء زمزم بأنه طعامٌ طَعْمٌ كما أثر الإمام أحمد رحمه الله ذلك في مسنده ، وقوله تعالى : ﴿فَادْعَ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تَنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ أي قالوا لموسى عليه السلام : فاسأل ربك وقل له أخرج لنا من نبات الأرض المحبوب لنا يخرج من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، والبقل ما تنبته الأرض من الخضر كالكراث والكرفس والنعناع ، والقثاء معروف ومنه الخيار ، والفوم هو الثوم عند كثير من أهل العلم ، وقد استدل من ذهب إلى أن الفوم هو الثوم بيت لحسان رضي الله عنه يقول فيه :

وَأَنْتُمْ أَنْاسٌ لِيَأْمُ الْأَصُولُ طَعَامَكُمْوَالْفُومُ وَالْحَوْقُلُ

قال القرطبي رحمه الله : يعني الثوم والبصل وقيل هو الحنطة . والعدس معروف وكذلك البصل ، وقد كان رسول الله ﷺ يمتنع عن أكل البصل ونحوه كالكراث والفجل ولكنه أباحه ﷺ لأصحابه في غير وقت الصلاة ، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : من أكل ثوما أو بصلا فليعتزلنا

— أو قال : — فليعتزل مسجدنا أو ليقعد في بيته ، وإن النبي ﷺ أتى يقدر فيه خصرات من بقول . فوجد لها ريحا ، فقال : قرّبوها إلى بعض أصحابه وقال : كل فإني أناجي من لا تناجي ، كما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي أيوب رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتى بطعام أكل منه وبعث بفضلته إليّ ، وإنه بعث إليّ يوما بقصعة لم يأكل منها لأن فيها ثوما . فسألته : أحرام هو ؟ قال : لا ولكن أكرهه من أجل ريحه . قال : فإني أكره ما كرهت . وقوله تعالى : ﴿أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير﴾ أي أتأخذون لأنفسكم وتختارون لها الذي هو أخس خطرا وقيمة وقدراً من العيش بدلاً بالذي هو خير منه خطرا وقيمة وقدراً ، وترغبون في الثوم والبصل والعدس والبقول بدل المن والسلوى ، وأصل الاستبدال هو ترك شيء لآخر غيره مكان المتروك ، ومعنى أدنى أي أخس وأوضع وأصغر قدراً وخطراً يقال : رجل دنيّ إذا كان خسيساً أو يتبع الأمور الخسيسة . قال ابن جرير رحمه الله : ولا شك أن من استبدل بالمن والسلوى البقل والقثاء والعدس والبصل والثوم فقد استبدل الوضيع من العيش بالرفيع منه . اهـ وقوله تعالى : ﴿اهبطوا مصرًا فإن لكم ما سألتم﴾ أي انزلوا الأرض المقدسة وادخلوا بيت المقدس فإنكم تحصلون فيه على ما تشتهون من البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل ، والمصر في اللغة المدينة ، وقوله تعالى : ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله﴾ أي فأبدلهم الله عز وجل بالعز ذلاً وبالنعمة بؤساً وبالرضا عنهم غضباً فمعنى ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة﴾ أي وجعلت عليهم وألزموها وقضي عليهم بهما . والذلة الذل والهوان والصغار والمسكنة أثر الفقر من السكون والخضوع والخزي فهي لازمة لهم محيطتهم ولو كانوا أغنياء فلا يوجد يهودي على الأرض غني النفس ولا ترى أحداً من أهل الأديان أذل ولا أحرص على المال من اليهود قبحهم الله

ولعنهم ، ومعنى : ﴿وباءوا بغضب من الله﴾ أي رجعوا وانقلبوا بسخط من الله ، وباء بالشيء ألزم نفسه به ، ولا تستعمل إلا موصولة بخير أو شر كقوله عز جل : ﴿إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك﴾ أي تنصرف وترجع حاملا لإثمي وإثمك ، وكقول رسول الله ﷺ : «أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» قال بعض أهل العلم من أهل التفسير والتأويل : إن الكلام من قوله تعالى : ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾ معترض في خلال القصص المتعلقة بحكاية أحوال بني إسرائيل الذين كانوا في عهد موسى ، يدل على هذا قوله : ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين﴾ فإن قتل الأنبياء لم يكن من الموجودين في عهد موسى عليه السلام وإنما كان من فروعهم وذريتهم اهـ وقوله تعالى : ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ أي ذلك الجزاء الذي جزيناهم به من ضرب الذلة والمسكنة عليهم ورجوعهم بغضب الله وسخطه وقع عليهم بسبب كفرهم بآيات الله ، وتكذيبهم للمرسلين ، وقتلهم أنبياء الله المعصومين من الخطايا والمعاصي والسيئات الذين لا يصدر عنهم شيء يستحقون به أدنى عقوبة فمن قتلهم كان أشنع القتلة وأعظمهم جرما وإثما ، فشر الناس على الإطلاق هم قتلة الأنبياء ، والنبي من بعثه الله بشريعة جديدة يدعو إليها أو بعثه لتقرير شريعة سابقة والرسول من بعثه الله بشريعة جديدة يدعو إليها ، والنبي أعم مطلقا بالنسبة للرسول ، فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا ، وقوله عز وجل : ﴿بغير الحق﴾ للتشنيع على اليهود لعنهم الله إذ أن من سلمت فطرته لا يخطر على باله أن نبيا من أنبياء الله يستحق أن يقتل ، قال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا عبد الصمد حدثنا أبان حدثنا عاصم عن أبي وائل عن عبد الله يعني

ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل قتله نبي أو قتل نبيا وإمام ضلالة ، وممثل من الممثلين » وقد أكد الله تبارك وتعالى فظاعة جرم قتلة الأنبياء في كتابه الكريم حيث يقول : ﴿ إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذي يأمرهم بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم * أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ﴾ كما أكد أن اليهود رعايد جبنا وأنها ضربت عليهم الذلة والمسكنة في أي مكان كانوا من الأرض إلا ما يصيبهم أحيانا من عون بعض أعداء الله لهم حربا للإسلام والمسلمين في بعض فترات التاريخ حيث يقول : ﴿ لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون * ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ والحبل الذي قد يمدون به من الله إنما يكون بسبب تقصير من يسلط اليهود عليهم بسبب تقصير هؤلاء المسلمين في حق الله وتفريطهم في جنب الله ، فهم لم ينتصروا على المسلمين ويحتلوا بيت المقدس في عصرنا بشجاعتهم ، وإنما بذنوبنا وتفرق كلمتنا لأنه إذا عصى الله من يعرفه سلط عليه من لا يعرفه ، وقوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا وال نصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ هذه قاعدة قضى الله عز وجل بها وهي تشمل جميع أجناس المكلفين في جميع الأعصار والأمصار وهي أنه لا يستحق أجر الله وحسن مثوبته والنعيم المقيم في جنات النعيم إلا من آمن بالله واليوم الآخر وعمل الصالحات ، فآمن بجميع النبيين وصدق جميع المرسلين وعلى رأسهم شيخهم وإمامهم وسيدهم محمد بن عبد الله ﷺ الذي قضى الله بأنه بعد بعثته لن

يدخل الجنة أحد إلا من طريقه واتباع منهجه وسنته والعمل بشريعته كما جاء في الأثر القدسي : «وعزّي وجلالي لو جاءوا من كل طريق واستفتحوا من كل باب ما فتحت لهم إلا أن يجيئوا من طريقك» ولا شك أن عيسى ابن مريم عليه السلام عندما ينزل في آخر الزمان يلتزم بالحكم بمنهج محمد رسول الله ﷺ، وقوله عز وجل : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني المسلمين من أمة محمد ﷺ وقوله : ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ قال البخاري في صحيحه : هادوا : صاروا يهوداً ، والنصارى هم المدّعون أنهم على دين المسيح منسوبون إلى نصرانة قرية المسيح عليه السلام فإنها يقال لها الناصرة ويقال لها : نصرانة والصابئون هم عبدة النجوم والكواكب والملائكة ، وقد كان العرب يطلقون اسم الصابئ على المائل عن دين إلى دين آخر حتى كانوا يلقبون أفضل الخلق بعد الأنبياء أصحاب محمد ﷺ بالصباة ويسمون خاتم المرسلين : الصابئ لأنه خالف دينهم ﷺ، وقوله عز وجل : ﴿مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلْ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي لا سعادة ولا فلاح ولا فوز لأي طائفة من الطوائف ولا لأي فرد من الأفراد المكلفين إلا إذا حققوا الإيمان بالله في أنفسهم وآمنوا بالبعث بعد الموت ، والتزموا بالعمل الصالح ، وقد اشترط الله عز وجل لصحة العمل وصلاحه شرطين أساسيين الأول أن يكون خالصاً لوجه الله والثاني أن يكون صواباً أي على منهج رسول الله محمد ﷺ ولذلك قال عز وجل : ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فمن حقق هذ الأمور فإنه يكون من أولياء الله الذين قال فيهم : ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وكما قال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ .

قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ * ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين * ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين * فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين ﴾ .

هذه حكاية جناية أخرى من جنایات بني إسرائيل ونقضهم للعهود والمواثيق وأنهم لا يستقرون على عهد ولا يستقيمون على ميثاق على حد قوله تبارك وتعالى فيهم : ﴿أَوْ كَلِمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وقوله عز وجل : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ أي واذكروا يا بني إسرائيل وقت أخذنا عليكم العهد الموثق بأن تحافظوا على الشريعة وأن تؤيدوا المرسلين ، وأن تؤمنوا بما يبعث الله من نبي وما يرسل من رسول ، وجعلنا لكم آية حسية للدلالة على قدرتنا عليكم وأنكم لا تستطيعون الإفلات من عقوبة الله إن عصيتم أمره وكذبتهم رسله إذ رفعنا الجبل فوق رؤوسكم كأنه سحابة تظلللكم ، حتى صرتم في رعب وفزع تخشون أن يسقط عليكم فيهلككم ، وأمرناكم والحالة هذه أن تحافظوا على الشريعة وأن تلتزموا بأحكام التوراة ووصاياها وأن تجتهدوا في تنفيذ أوامر الله وطاعة المرسلين لكي تجعلوا لأنفسكم وقاية من عذاب النار وسخط الجبار ، وأخذ الميثاق في قوله تعالى : ﴿أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ ﴾ هو إلزامهم بالعهد الموثق ، والتزامهم به ، وقوله : ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ﴾ أي نتقنا فوقكم الجبل حتى صار كأنه ظلّة ، والطور الجبل كما فسرته آية الأعراف في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ ﴾ وبعض أهل اللغة يخصوصون الطور بالجبل الذي ينبت ، فإنه يسمى

جبلا ويسمى طورا، أما الجبل الذي لا ينبت فإنه يسمى طودا، وقوله عز وجل : ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ أي خذوا ما أنزلنا عليكم من الشريعة بجدٍّ وعزيمة ونشاط واجتهاد . وقوله عز وجل : ﴿ واذكروا ما فيه ﴾ أي احفظوه ولا تنسوه واجعلوه دائما على دُكُرٍ منكم بالعمل به وتطبيق ما فيه على شئون معاشكم ومعادكم . وقوله عز وجل : ﴿ لعلكم تتقون ﴾ أي لكي تجعلوا لأنفسكم وقاية من سخط الله وعذابه ولتنتظموا في عداد عباده المتقين وقوله عز وجل : ﴿ ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين ﴾ أي ثم نقضتم الميثاق وأعرضتم عن الوفاء بما التزمت به من بعد توكيده ، فلولا إحسان الله وجوده وفضله عليكم بإمهالكم وعدم معاجلتكم بالعقوبة ولولا حلم الله ورحمته لكنتم من الهالكين الذين ضيعوا دنياهم وأخراهم ، وخسروا العاجلة والآجلة . وقوله عز وجل : ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ أي ولقد علمتم وعرفتم قصة أهل القرية التي كانت حاضرة البحر إذ ابتلاهم الله عز وجل وامتنحهم فكانت الحيتان ترفع رؤوسها فوق الماء مقبلة على الساحل يوم السبت ويسهل على من يريد صيدها أن يصيدها . والصيد محرم عليهم يوم السبت فإذا ذهب يومُ السبت اختفت من الماء القريب منهم فلا يرونها إلى السبت الآخر فاحتالوا على صيدها بوسائل كأن يحفروا حياضا كبيرة تتصل بالبحر فتدخلها الحيتان يوم السبت ولا تستطيع الرجوع إلى البحر فيصيدونها يوم الأحد والأيام الأخرى غير السبت ثم تجاهرها بالمعصية وصاروا يصيدون يوم السبت ، فوعظهم بعض الواعظين وذكرهم وخوفهم عقوبة الله فلم يتعظوا ، وقالت طائفة من بني إسرائيل : لم تعظون هؤلاء وهم مستحقون لعقوبة الله ؟ فقال الواعظون : إنما وعظناهم معذرة إلى الله ولعلمهم يرجعون عن ضلالهم ، فلا نياس من رحمة الله ، فلما عَتَوْا عَمَّا نُهِوا عنه قال الله

للمعتدين : كونوا قردة خاسئين ، فمعنى قوله عز وجل : ﴿ علمتم ﴾ أي عرفتم يا بني إسرائيل ، والخطاب لمعاصري رسول الله محمد ﷺ من بني إسرائيل وقوله تعالى : ﴿ الذين اعتدوا منكم في السبت ﴾ أي الذين تجاوزوا الحد الذي وجب عليهم أن ينتهوا عنده فلم ينتهوا بل انتهكوه والمراد بالسبت يوم السبت ، وكان قد حرم عليهم الصيد فيه ، وقوله عز وجل : ﴿ فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ أي فصيرناهم قردة صاغرين مطرودين من شرف الإنسانية إلى أخوة القردة والأمر هنا في قوله تعالى : ﴿ كونوا ﴾ هو أمر كوني أي إنما قلنا لهم كونوا قردة فصاروا قردة ، ويعبر البلاغيون عنه بأنه أمر تسخير وتكوين ، والأمر الكوني لا يتخلف على حد قوله تعالى : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ وقد هلك هؤلاء المسوخون بعد ذلك ولم يبق لهم نسل كما روى مسلم في صحيحه من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : قالت أم حبيبة : اللهم متّعني بزوجي رسول الله ﷺ وبأبي أبي سفيان وبأخي معاوية ، فقال لها رسول الله ﷺ : إنك سألت الله لأجل مضروبة وآثار موطوءة وأرزاق مقسومة ، لا يُعْجَلُ شيئاً منها قبل حِلِّه ولا يؤخر منها شيئاً بعد حِلِّه ، ولو سألت الله أن يعافيك من عذاب في النار وعذاب في القبر لكان خيراً لك ، قال : فقال رجل : يا رسول الله ، القردة والخنازيرُ هي مما مُسِخَ ؟ فقال النبي ﷺ : إن الله عز وجل لم يهلك قوماً أو يُعَذِّبَ قوماً فيجعل لهم نسلًا وإنَّ القردة والخنازيرَ كانوا قبل ذلك أهـ أما ما يدعيه الملحد الزنديق (داروين) في نظريته الإلحادية في (التطور والارتقاء) بأن الإنسان نفسه من سلالة القردة ، فهو قول كاسد فاسد عاطل باطل مردود ، ولا يرضى به إلا الزنادقة الملاحدة الدهريون المنتكسون . وكَوْنُ القردة أقدر الحيوانات العجماوات على تقليد الإنسان في بعض الحركات لا يفيد أنها أصل الإنسان ، والناس يشاهدون في جهات شتى من العالم ألواناً من القردة

يعتني بها ويلبسها أصحابها الديباج ومع ذلك لم تخرج عما عرفت به من آلاف السنين ، وما ثبت في صحيح البخاري الذي أورده في باب أيام الجاهلية من حديث عمرو بن ميمون رحمه الله قال : رأيت في الجاهلية قردة اجتمع عليها قردة قد زنت فرجوها . فإن هذا لا يدل على رابطة بين الإنسان والقرود ، وقد أشار الله عز وجل إلى أنه أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، وقال تبارك وتعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ﴾ . وقوله عز وجل : ﴿ فجعلناها نكالا ﴾ أي فصيرنا هذه العقوبة بمسوخ هؤلاء المعتدين قردة عبدة وراذلة وزاجرا ، فالنكال الزجر والعقاب ، والنكال والنكلة والمنكّل ما نكّلت به غيرك والنكّل القيّد الشديد ، ويقال : نكّل به تنكيلا أي صنع به صنيعا يُحذّر به غيره . وقوله عز وجل ﴿ لما بين يديها وما خلفها ﴾ أي عبرة لمن عاصرهم ولن يجيء بعدهم ممن يعلم خبرهم ويعرف قصتهم ، فلا يقعون في مثل ما وقعوا فيه من معصية الله ومخالفة أمره والاحتيال في نقض شرعه ، وكما قال عز وجل في فرعون لعنه الله ﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ . وقوله عز وجل : ﴿ وموعظة للمتقين ﴾ أي عبرة وزاجرا وتخويفا للمتقين الذين يخافون الله ويخشون عقوبته ، وخَصَّ المتقين بالذكر لأنهم هم الذين يعتبرون ويحرصون على سلامة أنفسهم ووقايتها من عذاب الله ، وصيانتها من أسباب سخطه . وكما قال عز وجل : ﴿ إن في ذلك لعة لمن يخشى ﴾ وقد ساق الله تبارك وتعالى قصة أخذ الميثاق على بني إسرائيل . ورفع الجبل فوقهم وما كان منهم من نقض الميثاق ، ومعصيتهم للأنبياء والاعتداء في السبت في غير موضع من كتابه الكريم بحسب مقتضيات الأحوال من الإيجاز والإطناب والمساواة فقال تبارك وتعالى في سورة البقرة أيضا : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا : سمعنا وعصينا ، وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل

بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴿ وقال عز وجل : ﴿ ورفعنا فوقهم
الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سُجَّداً وقلنا لهم : لا تعدوا في السبت
وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً * فيما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم
الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون
إلا قليلاً ﴿ وقال عز وجل : ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع
بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴿ وقال عز وجل :
﴿ واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيتهم
حيثانهم يوم سبتهم شُرْعاً ، ويوم لا يستتون لا تأتيتهم ، كذلك نبلوهم بما
كانوا يفسقون * وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم
عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون * فلما نسوا ما ذكروا به
أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئس بما كانوا
يفسقون * فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين * وإذ تأذن ربك
ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ، إِنَّ ربك لسريع
العقاب وإنه لغفور رحيم ﴿ ولقد ابتلى الله تبارك وتعالى أصحاب محمد ﷺ في
نحو ما ابتلى به بني إسرائيل فنجح أصحاب محمد ﷺ في الامتحان وفازوا
فيه ، حيث حُرِّم على المسلمين صيد البرِّ وهم حُرُّمٌ وقد خرج أصحاب رسول
الله ﷺ عام الحديبية يريدون البيت الحرام وهم محرمون فجعل الصيد يسقط
عليهم تناله أيديهم ورماحهم فعصمهم الله عز وجل من تناوله وحماهم من
معصية أمره سبحانه وتعالى وفي ذلك يقول الله عز وجل في سورة المائدة : ﴿ يا
أيها الذين آمنوا ليلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم
الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ﴿ هذا وتذييل
قوله عز وجل : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم
بقوة واذكروا ما فيه ﴿ بقوله : ﴿ لعلكم تتقون ﴿ وتذييل قوله عز وجل :

﴿فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها﴾ بقوله عز وجل : ﴿وموعظة للمتقين﴾ تأكيد ولفت انتباه إلى وجوب الحرص على تقوى الله عز وجل وملازمة الخوف منه والوقوف عند حدوده بتحليل ما أحلّ وتحريم ما حرم ، ولذلك جعل الله هدى القرآن للمتقين في صدر سورة البقرة حيث قال عز وجل : ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾ ويُنَّ أن صلاح الأعمال واستجلاب فرج الله والانتصار على الأعداء إنما يكون بتقوى الله عز وجل حيث يقول : ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا * يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما﴾ وقال تبارك وتعالى : ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا * ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ وقال عز وجل : ﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا * ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا﴾ وقال عز وجل : ﴿إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم﴾ .

قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ * قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ؟ قال : إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون * قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ؟ قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين * قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ؟ إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون * قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها ، قالوا الآن جئت بالحق ، فذبحوها وما كادوا يفعلون * وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون * فقلنا اضربوه ببعضها ، كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون ﴿ .

هذه قصة أخرى من قصص بني إسرائيل مع موسى عليه السلام لتسجيل تَعَثُّهُمْ ، وَتَنْطَعُهُمْ وَجَفَائِهِمْ وَشُوءَ أَخْلَاقِهِمْ في التعامل مع كليم الله موسى ابن عمران عليه السلام أحد أولى العزم من المرسلين عليهم صلوات الله وسلامه ، وفيها كذلك معجزة من المعجزات الحسية التي جعلها الله عز وجل لموسى عليه السلام في إحياء قتيل بني إسرائيل الذي أَدَارَأُوا فيه وتخاصموا وتدافعوا ، وفي هذه القصة توبيخ وَبَّخَ الله به بني إسرائيل المعاصرين لرسول الله محمد ﷺ الزاعمين أنهم أولى بالرسالة من النبي العربي الأمي حبيب الله ورسوله وسيد خلقه وأفضل رسله عليهم جميعا الصلاة والسلام وتذكيرهم بجنایات أسلافهم ، وإذا كان هذا التنطع والتعنّت يصدر من أسلافهم أصحاب موسى عليه السلام فما بالكم بهؤلاء الأخلاف الوارثين لجهالات آبائهم وأحقاد أسلافهم الذين وضعوا لهم التلمود المملوء بالازدراء والحقْد والكرهية لجميع بني آدم عدا بني إسرائيل ، وسياق هذه الآيات الكريمة

يدل على أنه حدث أن قَتِلَ قَتِيلٌ من بني إسرائيل ولم يعرفوا القاتل وتدافعوا وتنازعوا واختلفوا فيه وكل فريق منهم يدرأ عن نفسه أن يكون هو القاتل حتى سألوا كليم الله موسى عليه السلام أن يطلب من الله كشفه لهم ، فأخبرهم موسى عليه السلام أن الله يأمرهم أن يذبحوا بقرة فبدأ تَنَطَّعُهم وتعتهم وجفاؤهم بالنَّيل من موسى عليه السلام وأنه يسخر منهم ويستهزئ بهم ثم التشديد في صفات البقرة المطلوب ذَبْحُهَا ما هي ؟ ما لونها ؟ ما هي ؟ وهكذا شَدَّدوا فشَدَّدَ الله عليهم حتى كادوا يعجزون عن الحصول عليها قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : استفاض عن السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان من أنهم أمروا ببقرة مطلقة فلو أخذوا بقرة من البقر وذبحوها أجزأ عنهم ولكن شَدَّدوا فشَدَّدَ الله عليهم اهـ وقوله عز وجل : ﴿إِن اللّٰهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبِحُوا بَقْرَةً﴾ أي إن الله تبارك وتعالى يطلب منكم لمعرفة القاتل أن تذبحوا بقرة . والبقرة اسم للأنثى ويقال للذكر من جنسها ثور ، كناقية وجل وامرأة ورجل ، وقيل البقرة اسم جنس جمعي وهو يفرق بينه وبين واحده بالتاء المربوطة وتكون في المفرد غالبا كبقرة وبقر وشجرة وشجر ، وعلى هذا فهي تشمل الذكر والأنثى ، والتعبير بقوله : ﴿اذبحوا﴾ يفيد أن الأصل في البقر أن تذبح كالغنم كما أن الأصل في الإبل أن تنحر أي تُذَكَّى بالطعن في منحرها قال ابن المنذر رحمه الله : لا أعلم أحدا حرَّم أكل ما نحر مما يُذَبِّحُ أو ذُبِحَ مما يُنَحَّرُ اهـ وفي قوله عز وجل : ﴿إِن اللّٰهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبِحُوا بَقْرَةً﴾ بتصدير الآية بإسناد الأمر بذبح البقرة إلى الله عز وجل وأنه تعالى هو الأمر بذلك غاية في وجوب المسارعة إلى الامتثال ، ومع ذلك فإن هؤلاء السفهاء يقولون لموسى عليه السلام : ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزْوَاً﴾ وهو يشعر باستخفافهم بخبره واستبعادهم لقوله وهو الذي أنقذهم الله به من العذاب من فرعون وملائته ، ومعنى : ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزْوَاً﴾ أي أتسخر منا وتستهزئ بنا ؟ وهذا من جهلهم

بمقام الأنبياء وعدم معرفتهم أخلاق المرسلين ، وجَهْلِهِم بِحِكْمِ التشريع قال
 الماوردي : وإنما أمروا — والله أعلم — بذبح بقرة دون غيرها لأنها من جنس ما
 عبده من العجل ، لِيَهْوَنَ عندهم ما كانوا يرونه من تعظيمه وليُعْلَمَ
 بإجابتهم ما كان في نفوسهم من عبادته ، وهذا المعنى عِلَّةٌ في ذبح البقرة
 وليس بعلة في جواب السائل ولكنَّ المعنى فيه أن يحيا القتل بقتل حي فيكون
 أظهر لقدرته في اختراع الأشياء من أضدادها . اهـ وقوله عز وجل : ﴿ قَالَ
 أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ أي قال موسى عليه السلام : أستجير بالله
 وأتحصن به وألتجئ إليه أن يعصمني من هذه الصفة القبيحة التي لا تليق
 بعوام المؤمنين فهل يتَّصف بها أحد أولى العزم من المرسلين ؟ وقد أثبت
 موسى عليه السلام بهذا القول أن الاستهزاء بالناس إنما هو من أخلاق
 الجاهلين السفهاء . وقوله عز وجل : ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ؟ ﴾
 أي قالوا لموسى عليه السلام : اسأل لأجلنا ربك أي خالقك ومعبودك يوضح
 لنا صفة البقرة وكم سنها؟ وقولهم : ﴿ رَبِّكَ ﴾ يشعر بنوع من السفاهة في
 نفوسهم وعُلُوِّ في الأرض بغير حق ولو كانوا مستكينين لله عز وجل لقالوا :
 رَبَّنَا ولو قالوا ذلك لشملمهم وشَمِلَ موسى عليه السلام ، وهذا مثال من أوائل
 أمثلة تعنتهم مع أنهم في أمس الحاجة إلى الامتثال ، لكنها أخلاق بني
 إسرائيل وتنطَّعهم . وقوله عز وجل : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا
 بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ في قوله ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ ﴾ تنصيص لهم على أن هذا
 الطلب من الله عز وجل وأن موسى إنما عليه البلاغ ، وقوله ﴿ لَا فَارِضٌ ﴾ أي
 لَا مُسِنَّةٌ هَرِمَةٌ عَلَى حَدِّ قَوْلِ عُلُقَمَةَ بْنِ عَوْفٍ :

لَعَمْرُكَ قَدْ أَعْطَيْتَ جَارَكَ فَارِضًا تُسَاقُ إِلَيْهِ مَا تَقُومُ عَلَى رِجْلِ
 قال الفيروز آبادي في القاموس المحيط : وَفَرَضَتِ الْبَقَرَةُ كَضَرَبَ وَكَرَّمَ
 فَرُوضًا وَفَرَاضَةً طَعَنْتُ فِي السَّنِّ اهـ وقوله تعالى : ﴿ وَلَا بَكْرٌ ﴾ أي وليست

صغيرة لم تحمل وقوله : ﴿عوان بين ذلك﴾ أي وسط ونصف قد ولدت بطنا أو بطنين وهي أقوى ما تكون من البقر وأحسنه . قال الجوهري في الصحاح : العوان النصف في سِنِّها من كل شيء اهـ والإشارة في قوله : ﴿بين ذلك﴾ للمذكور من السِّنِّين . وقوله عز وجل : ﴿فافعلوا ما تؤمرون﴾ أي فسارعوا إلى امتثال أمر الله واذبحوا البقرة التي وصفت لكم ولا تُشَدُّوا فَيُشَدَّدَ الله عليكم . وقوله عز وجل : ﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها؟﴾ أي فتعنتوا وتنطعوا وقالوا لموسى عليه السلام : اسأل لنا ربك يوضح لنا لونها ، واللون واحد الألوان وهو هيئة كالسواد والبياض والحمرة والصفرة ، ويقال : فلان مُتَلَوِّنٌ إذا كان لا يثبت على خُلُقٍ واحد ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسرُّ الناظرين﴾ فيه تكرير قوله ﴿قال إنه يقول﴾ للتأكيد على سفاهتهم حيث يُخَبِّرون أن الأمر بذلك من الله العلي القدير ومع ذلك لا يسارعون إلى الامتثال والمبادرة بفعل ما أمروا بفعله ، ومعنى ﴿فاقع لونها﴾ أي شديدة الصفرة ، يقال عند تأكيد اللون : أصفر فاقع ، كما يقال : أسود حالك ، وأحمر قانئ وأبيض ناصع ، ومعنى : ﴿تسر الناظرين﴾ أي تدخل البهجة والسرور على نفس من ينظر إليها من حسن لونها وصفائه وقوته . وقوله : ﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي؟﴾ أي فَتَعَنَّا وَتَنَطَّعُوا وَتَشَدَّدُوا وطلبوا منه أن يسأل ربه ليعين لهم حَقِيقَتَهَا حتى تتميز عن جميع ما عداها . وقوله : ﴿إن البقر تشابه علينا﴾ أي التَّبَسَّ علينا ، وقوله : ﴿وإنا إن شاء الله لمهتدون﴾ أي وإنا إن أراد الله عز وجل هدايتنا لمهتدون أي مُؤَفَّقُونَ لمعرفة صفة البقرة المطلوبة من كل وجه . وكان هذا القول منهم أول قول يُسْعِرُ بقرب عجزهم عن متابعة السَّيْرِ في طريق التعنت والتنطع والتشديد . وقوله تعالى : ﴿قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلولٌ تُثِيرُ الأرض ولا تسقى الحرث مسلمةٌ لا شية فيها﴾ قد كرر قوله : ﴿قال إنه يقول﴾ لتأكيد التأكيد على

سفاهتهم وقوله : ﴿ لَا ذُلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ ﴾ أي هذه البقرة المطلوب ذبحها متصفة بأنها غير مُذَلَّلَةٍ لَجَرِّ المحراث لحراثة الأرض وغير صالحة لِسَقْيِ الأرض المحروثة المهيّأة للزراعة فهي كأنها وحشية لَا تُسْتَحْدَمُ فِي كِرَابِ الْأَرْضِ وحرثها وَلَا يُسْنَى عليها لسقي الزراعة . وقوله تعالى : ﴿ مُسَلِّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا ﴾ أي سليمة من العرج وسائر العيوب الخَلْقِيَّةِ ، وَلَا علامة فيها فليس فيه لون يخالف لونا بل كلها لونٌ واحد لَا سواد فيها وَلَا بياض وَلَا حمرة ، والشية مأخوذة من وشي الثوب إذا نُسِجَ على لونين مختلفين وثورٌ موشى أي في وجهه وقوائمه سَوَادٌ . وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا : الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ هذا أيضا لون من ألوان سفاهتهم فكأنهم يقولون له : ما جئت بالحق إِلَّا الْآنَ أي إِلَّا فِي هَذَا الْوَقْتِ وبهذا الوصف ، حيث عينت لنا البقرة المطلوبة وَالْآنَ عبارة عما بين الماضي والمستقبل . وقوله تعالى : ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أي فذبح قوم موسى عليه السلام البقرة التي وصفها الله لهم وَأَمَرَهُمْ بِذَبْحِهَا وَقَدْ قَارَبُوا أَنْ يَدْعُوا ذَبْحَهَا إِمَّا لَغَلَاءِ ثَمْنِهَا أَوْ نُذْرَةِ الْحَصُولِ عَلَى بَقَرَةٍ فِي مِثْلِ أَوْصَافِهَا الَّتِي وَصَفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مَخْرُجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ الخطاب فيه لليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ وإِسْنَادُ الْقَتْلِ وَالتَّذَارُؤُ إِلَيْهِمْ لما أشرت إليه سابقاً من نسبة جُنَايَاتِ أَسْلَافِهِمْ إِلَى أَبْنَائِهِمْ لِأَنَّهُمْ مِنْهُمْ تَوْبِيخًا وَتَقْرِيعًا وَتَبْكِيَةً هَؤُلَاءِ الْمَعَاصِرِينَ الَّذِينَ يَدْعُونَ أَنَّهُمْ أَحَقُّ بِالْدِينِ مِنَ الْعَرَبِ الَّذِينَ جَاءَ مِنْهُمْ أَفْضَلُ الْخَلْقِ مُحَمَّدٌ ﷺ وقوله تعالى : ﴿ قَتَلْتُمْ نَفْسًا ﴾ يُسَجَّلُ عَلَيْهِمْ أَنَّ الْقَاتِلَ إِسْرَائِيلِيٌّ مِنْ بَيْنِهِمْ وَلَيْسَ أَجْنَبِيًّا عَنْهُمْ ، وقوله تعالى : ﴿ فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ أي فتدافعتم وتخاصمتم فِي شَأْنِ قَاتِلِهَا مَنْ هُوَ؟ وَكُلُّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ يَتَّهَمُ الْفَرِيقَ الْآخَرَ بِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي قَتَلَهَا . وقوله ﴿ فَادَّارَأْتُمْ ﴾ أي تدافعتم مأخوذ من الدَّرءِ وهو الدفع وهو مأخوذ من قول القائل : دَرَأْتُ هَذَا الْأَمْرَ عَنِّي أي دفعته ومنه

قوله تعالى : (ويدراً عنها العذاب) أي ويدفع عنها إقامة الحد عليها . وقوله تعالى : ﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ أي والله معلن ما في نفوسكم من طوية وخليقة فإن هذه القصة المشتملة على قولكم لموسى عليه السلام : **أَتَتَّخِذُنَا هُزْوَاً ، وَتَنْتَظِعُكُمْ وَتَعْتَكُمُ فِي عَدَمِ الْمَسَارَعَةِ إِلَى امْتِثَالِ أَمْرِ اللَّهِ قَدْ كَشَفَ اللَّهُ بِهَا بَعْضَ خَفَايَا نَفُوسِكُمْ مِنْ عَدَمِ تَوْقِيرِ الْأَنْبِيَاءِ وَعَدَمِ سُرْعَةِ الْإِمْتِثَالِ لِمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ الْمُرْسَلُونَ .** وقوله عز وجل : ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَبْغَضِهَا﴾ أي فقلنا لقوم موسى الذين أَدَارُوا فِي الْقَتِيلِ : اضربوا القَتِيلَ ببعض البقرة التي ذبحتموها ، قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره : هذا البعض أي شيء كان من أعضاء هذه البقرة للمعجزة حاصلة به ، وَخَزَقُ الْعَادَةِ بِهِ كَائِنٌ ، وَقَدْ كَانَ مُعَيَّنًا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، فَلَوْ كَانَ فِي تَعْيِينِهِ لَنَا فَائِدَةٌ تَعُودُ عَلَيْنَا فِي أَمْرِ الدِّينِ وَالْدُنْيَا لَبَيَّنَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَنَا ، وَلَكِنَّهُ أَهْمَهُ ، وَلَمْ يَجِئْ مِنْ طَرِيقٍ صَحِيحٍ عَنِ الْمَعْصُومِ بَيَانُهُ فَنَحْنُ نُبْهِمُهُ كَمَا أَهْمَهُ اللَّهُ أَهـ . وقوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ يَحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي فضرَبوه ببعضها فأَحْيَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَأَخْبَرَ عَنْ قَاتِلِهِ ، وَبِهَذَا نُبْهِمُهُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى قُدْرَتِهِ عَلَى بَعْثِ الْمَوْتَى وَعَرَفُوا قَاتِلَ قَتِيلِهِمْ ، فَجَعَلَ ذَلِكَ الصَّنِيعَ حِجَّةً لَهُمْ عَلَى الْمَعَادِ وَفَاصِلًا مَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْخُصُومَةِ وَالْعِنَادِ ، لَعَلَّهُمْ يَعْقِلُونَ حِكْمَ اللَّهِ وَأَحْكَامَهُ ، وَيُبَادِرُونَ إِلَى امْتِثَالِ أَمْرِهِ وَطَاعَةِ رِسْلِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَقَدْ حَثَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَلَى سُرْعَةِ الْمُبَادَرَةِ لِمِثَالِ أَمْرِ اللَّهِ وَرِسُولِهِ ﷺ وَحَذَرَهُمْ أَنْ يَقْعُوا فِي مِثْلِ مَا وَقَعَ فِيهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ فَقَدْ رَوَى النَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : خُطِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ فَرَضَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ ، فَقَالَ رَجُلٌ : فِي كُلِّ عَامٍ ؟ فَسَكَتَ عَنْهُ حَتَّى أَعَادَهُ ثَلَاثًا فَقَالَ : لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجِبَتْ ، وَلَوْ وَجِبَتْ مَا قُمْتُمْ بِهَا ، ذَرُونِي مَا تَرَكْتُمْ ، فَإِنَّمَا هَلَكُ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سَوَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ ، فَإِذَا أَمَرْتَكُمْ بِالشَّيْءِ فَخَذُّوا بِهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَإِذَا نَهَيْتُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنَبُوهُ .

قال تعالى : ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله ، وما الله بغافل عما تعملون . أفطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾

إن الخطاب لا يزال مع بني إسرائيل لذم الماضين منهم وتبكيك أخلافهم المعاصرين الذين يسرون على منهاج هؤلاء المذمومين ، وقوله : ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك﴾ أي ثم صلبت قلوبكم وتحجرت من بعد رؤية هذه الآيات من فلق البحر وإنزال المن والسلوى وانفجار اثنتي عشرة عينا من الحجر وتظليل الغمام ، وإحياء القتيل الإسرائيلي مما يوجب لين القلوب وخشوعها ، والتعبير بـ «لاستبعاد القسوة عادة بعد مشاهدة مثل هذه الآيات ، والقسوة عبارة عن الغلظ والصلابة والجفاء قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : وقد ذم الله قسوة القلوب المنافية للخشوع في غير موضع فقال تعالى : ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾ قال الزجاج : قَسَتْ في اللغة : غَلُظَتْ وَيَسَيْتْ وَعَسَيْتْ ، فَقَسَوُةُ القلب ذهابُ اللَّيْنِ والرحمة والخشوع منه والقاسي والعَاسِي : الشديداً الصلابة ، وقال ابن قُتَيْبَةَ : قَسَتْ وَعَسَتْ وعتت أي يَسَيْتْ ، وَقَوَّةُ القلب المحمودَةُ غيرُ قسوته المذمومة ، فإنه ينبغي أن يكون قويا من غير عُنْفٍ وَلَيِّنًا من غير ضَعْفٍ ، وفي الأثر: القلوبُ آنية الله في أرضه فأحبها إلى الله أصلبُها وأزفُها وأصفاهُ . وهذا كاليد فإنها قَوِيَّةٌ لَيِّنَةٌ بخلاف ما يَقْسُو من العَقَبِ فإنه يابسٌ لا لين فيه وإن كان فيه قوَّةٌ . وهو سبحانه ذكر وَجَلَ القلب من ذكره ، ثم ذَكَرَ زيادة الإيمان عند تلاوة كتابه عِلْمًا وَعَمَلًا اهـ وأو في قوله تعالى : ﴿أو أشد قسوة﴾ للتنويع

بمعنى أن قلوبهم على قسمين ، قُلُوبٌ كالحجارة قسوة ، وقُلُوبٌ أَشدُّ قسوةً منها ، وَلَمْ تُشَبَّهْ بالحديد وإن كان أَصْلَبَ لأنه يلين إذا وُضِعَ في النار بخلاف الحجارة فإنها لو وُضِعَتْ في النار لا تلين ولذلك جعلها الله وَقُوداً للنار نعوذ بالله منها . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ أي وإن من الحجارة ما هو أَلْيَنُ من قلوبكم ، فمنها حجارة تتفجر منها الأنهار أي تتفجر منها المياه التي تَكُونُ الأنهار ، ومنها حجارة تَتَصَدَّعُ فتخرج منها العيون ، ومنها حجارة تَنَحْطُ من عُلُوِّها وتندك بسبب خشيتها من الله عز وجل كما حصل للطور عندما تجلى الله له ، وقوله عز وجل : ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي وما الله بنائس ولا تارك ولا ساهٍ عن شيء من أعمالكم الخبيثة وأفعالكم الشريرة وتكذيبكم لخير الخلق وأفضلهم وجحدكم لنبوته ورسالته مع معرفتكم به كما تعرفون أبناءكم وتقرون في قرارة نفوسكم أنه رسول من رب العالمين كما وصفه لكم أنبياء بني إسرائيل وإن الله لكم بالمرصاد مسجل عليكم سائر أعمالكم وخلجات صدوركم يا ذوي القلوب المتحجرة ولن يضيع على الله شيء من أعمالكم فالله يحصى عليكم أعمالكم وسيجازيكم بها ، فالأجدر بكم يا أحبار بني إسرائيل أن تسارعوا إلى الإيمان بمحمد ﷺ لتفوزوا بعز الدنيا وسعادة الآخرة . وقوله عز وجل : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي أَفَتَرْجُونَ يا معشر المسلمين أن ينقاد لدينكم وشريعتكم أحبار اليهود وَيُصَدِّقُوكُمْ بما جاءكم به نبيكم محمد رسول الله ﷺ من الدين الحق والشرعة الكاملة الشاملة والحال أنهم كاذبون مفترون على الله غارقون في تقليد آبائهم وأسلافهم ، متمثلون معهم في الأخلاق الذميمة ومحاربة الأنبياء ومعاداتهم ، وقد وصف الله تبارك وتعالى أحوال هؤلاء اليهود بما يفيد أنهم أربع فرق في كل

فرقة منهم صفةٌ تحسم مادة الطمع في إيمانها إن قلنا : إن جملة ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ﴾ مستأنفة لكشف حال فريق آخر من اليهود . أما إذا قلنا : إن الجملة حالية معطوفة على الجملة الحالية قبلها فتكون الفرق ثلاثا فالفرقة الأولى وصفها الله تبارك وتعالى بقوله : ﴿ وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴾ والفرقة الثانية وصفها الله تبارك وتعالى بقوله : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ، أفلا تعقلون ﴾ والفرقة الثالثة وصفها الله تبارك وتعالى بقوله : ﴿ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون ﴾ والفرقة الرابعة وصفها الله تبارك وتعالى بقوله : ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴾ ثم وصفهم بوصف جامع لجميعهم وهو اعتقادهم الفاسد وغرورهم بزعمهم أنهم إن عذبوا بالنار فلن يكون عذابهم فيها أبديا سَرْمَدِيَا كغيرهم من الأمم بل لن تمسهم النار إلا أياما معدودات بقدر أيام عبادة آبائهم للعجل ، ومن كانت هذه هي صفاتهم فكيف يطمع في إيمانهم؟ وقوله عز وجل : ﴿ وقد كان فريق منهم ﴾ أي وقد كانت طائفة من بني إسرائيل وهو فعيل من التفرق كما سميت الجماعة بالحزب من التحزب ، قال أعشى بني ثعلبة :

أُخِذُوا فَلَمَّا خِفْتُ أَنْ يَتَفَرَّقُوا فَرِيقَيْنِ مِنْهُمْ مُضْعِدٌ وَمُصَوِّبٌ

والفريق اسم جمع لا واحد له من لفظه كالرَهْط والقوم وقوله تعالى : ﴿ يسمعون كلام الله ﴾ أي يستمعون التوراة ثم يحرفونه أي يغيرونه إما بتبديل حروفه أو صرف معانيه وتأويله على غير وجهه وقوله : ﴿ من بعد ما عقلوه ﴾ أي من بعد ما فهموا المراد منه ، فهم أحبار سوء يتعمدون تغيير الحق بتحريفه

أو تأويله ، وهم يحرفون كلام الله ويبدّلونه ويردّون المعنى الحق الذي سمعوه . وقوله تعالى : ﴿وهم يعلمون﴾ أي يعرفون الحق لكنهم يَنحَرِفُونَ عنه ، وأصل التحريف من انحراف الشيء عن جهته وميله عنها إلى غيرها ، فهؤلاء الأخبار يَبَيِّنُ الله عز وجل أن تحريفهم للكلم من بعد مواضعه لم يحصل لهم عن جهل ونقص في معرفة الحق بل كانوا يعرفون الحق ويعقلونه ثم يبدّلونه وهم واثقون في أنفسهم أنهم في تحريف ما حرّفوا كاذبون على الله مفترون مبطلون . ولا شك أن هذا الفريق من بني إسرائيل هم شرُّ الناس وأضرُّهم على الإنسانية كلها فإن من يحرف كلام الله عن جهل وقصور في الفهم وإن كان مستحقاً لغضب الله وسخطه لجرأته على تحريف كلام الله وعلى القول على الله عز وجل بغير علم فإن من حرّف كلام الله بعد فهمه وعقله ومعرفته يكون إثماً وأفحش جرماً ، وقد اتفق المسلمون على أن اليهود حرّفوا التوراة وغيروا فيها وبدّلوا إما في ألفاظها وإما في معانيها وأحكامها بسبب انحرافهم ، كتغييرهم حكم رجم الزاني إلى تسخيمه وتسويد وجهه وفضحه إن كان من الأغنياء وأعيان بني إسرائيل ووجوههم ، ورجمه إن كان من الفقراء ، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما واللفظ للبخاري من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن اليهود جاءوا إلى النبي ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا فقال لهم رسول الله ﷺ : ما تجدون في التوراة في شأن الرجم ؟ فقالوا : نَفَضَحُهمُ ويجلدون قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه : كذبتُم إن فيها الرجمَ ، فأتوا بالتوراة ، فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقال له عبد الله بن سلام رضي الله عنه ارفع يدك ، فرفع يده ، فإذا آية الرجم فقالوا : صَدَقَ يا محمد ، فيها آية الرجم ، فَأَمَرَ بهما رسول الله ﷺ فَرَجِمَا ، فرأيت الرجل يُخَنِّي على المرأة يقيها الحجارة ، وفي لفظ للبخاري : قال رسول الله ﷺ لليهود : ما تصنعون

بهما ؟ قالوا : نُسَخِّمُ وُجُوهَهُمَا وَنُخْزِيهِمَا قَالَ : ﴿ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فجاءوا فقالوا لرجل منهم يَمُنَّ بِرِضْوَانِ أَعْمَرَ : اقرأ ، فقرأ حتى انتهى إلى موضع منها فوضع يده عليه ، فقال : ارفع يدك فَرَفَعَ فإذا آية الرجم تَلَوُّحُ قَالَ يَا مُحَمَّد : إِنْ فِيهَا آيَةُ الرِّجْمِ وَلَكِنَّا نَتَكَاثَمُهُ بَيْنَنَا ، فَأَمْرُ بِهِمَا فَرُجِمَا ، وَفِي لَفْظِ مُسْلِمٍ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى بِيَهُودِيٍّ وَيَهُودِيَّةً قَدْ زَنِيَا ، فَاِنْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى جَاءَ يَهُودٍ فَقَالَ : مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَةِ عَلَى مَنْ زَنَى ؟ قَالُوا نُسَوِّدُ وَجُوهَهُمَا وَنَحْمِئُهُمَا وَنَحْمِلُهُمَا وَنَخَالِفُ بَيْنَ وَجُوهِهِمَا وَيُطَافُ بِهِمَا قَالَ : ﴿ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فجاءوا بها فقرءوها حتى إِذَا مَرَّ بِآيَةِ الرِّجْمِ وَضَعَ الْفَتَى الَّذِي يَقْرَأُ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرِّجْمِ ، وَقَرَأَ مَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا وَرَاءَهَا فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ وَهُوَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : مُرَّةً فَلْيَرْفَعْ يَدَهُ فَرَفَعَ يَدَهُ إِذَا تَحْتَهَا آيَةُ الرِّجْمِ فَأَمْرُ بِهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرُجِمَا . قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : كُنْتُ فِيمَنْ رَجَمَهُمَا فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَقِيهَا مِنَ الْحِجَارَةِ بِنَفْسِهِ . وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَؤُلَاءِ الْمُحْرِفِينَ لِكَلَامِ اللَّهِ بَعْدَ سَمَاعِهِ وَفَهْمِهِ فِي جُمْلَةٍ مِنَ الصِّفَاتِ الذَّمِيمَةِ حَيْثُ يَقُولُ : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يَحْفَرُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ، وَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ وَالشَّوَاهِدُ عَلَى تَحْرِيفِ الْيَهُودِ لِلتَّوْرَةِ كَثِيرَةٌ مِنْ وَاقِعِ الْأَسْفَارِ الْخَمْسَةِ الَّتِي تَتَكُونُ مِنْهَا مَجْمُوعَةُ التَّوْرَةِ عِنْدَهُمْ وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْكُرَهَا الْيَهُودُ وَلَا غَيْرُهُمْ ، فَالْيَهُودُ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ مُوسَى كَتَبَ أَسْفَارَ التَّوْرَةِ الْخَمْسَةَ بِيَدِهِ ، مَعَ أَنَّ فِيهَا وَصْفَ مَوْتِ مُوسَى وَدَفْنِهِ ، فَكَيْفَ كَتَبَ مُوسَى هَذَا بِيَدِهِ ؟ فِي الْفَصْلِ (الْإِصْحَاحِ) الْحَادِي وَالثَّلَاثِينَ

من سفر التثنية ما نصه : (٢٤) فعندما كَمَّل موسى كتابة كلمات هذه التوراة بيده في كتاب إلى تمامها (٢٥) أمر موسى اللاويين حاملي تابوت عهد الرب قائلًا : (٢٦) خذوا كتاب التوراة هذا وَضَعُوهُ بجانب تابوت عهد الرب إلهكم ليكون هناك شاهداً عليكم (٢٧) لأني عارف تَمَرُّدكم ورقابكم الصُّلْبَة ، هو ذا وأنا بعد حي معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب فكم بالحرى بعد موتى . (٢٨) اجمعوا إلى كل شيوخ أسباطكم وعرفاءكم لأنطق في مسامعهم بهذه الكلمات وأشهد عليهم السماء والأرض (٢٩) لأني عارف أنكم بعد موتى تفسدون وتزيغون من الطريق الذي أوصيتكم به . وفي الفصل (الإصحاح) الرابع والثلاثين من سفر التثنية : (٥) فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب (٦) ودفنه في الجواء في أرض موآب مقابل بيت فغور ولم يعرف إنسان قبره إلى اليوم اهـ فهذه شواهد ثابتة لا يستطيع أحدٌ من كهنتهم وأحبار الشَّوْء فيهم أن ينكر أنها من صميم التوراة عندهم . وهي شاهد عدل على أنهم قد حرَّفوا الكلم من بعد مواضعه ، وأنهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَا بِعَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا : اتَّخَذْتُمُوهُمْ بِيَمِينِكُمْ لِجَحْادِكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ .
أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ . وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ . فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ . ﴾

قد ذكرت في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ : أن جملة ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا ﴾ يمكن أن تكون مستأنفة لكشف حال فريق آخر من اليهود وعليه فإن الفرق اليهودية التي ذكرها الله في هذا المقام تكون أربع فرق أما إذا قلنا : إن الجملة حالية معطوفة على الجملة الحالية قبلها فتكون الفرق ثلاثا ، وقد جَنَحَ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إلى أن الفرق ثلاث فقد قال في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ : فذَمَّ هؤلاء الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانِي كما ذَمَّ الذين يحرفون معناه ويكذبون فقال تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرِفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . ﴾ إلى قوله : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . ﴾ فهذا أحد الصنفين ، ثم قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي ﴾ أي تلاوة ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ ثم ذَمَّ الذين يفترون كتباً يقولون هي من عند الله وما هي من عند الله ، فقال : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ يَكْسِبُونَ ﴾ وهذه الأصناف الثلاثة تستوعب أهل الضلال والبدع ، فإن أهل البدع الذين ذمهم الله ورسوله نوعان : أحدهما : عالم بالحق يتعمد خلافه ، والثاني جاهل مُتَّبِعٍ لغيره فالأولون : يبتدعون ما يخالف كتاب الله ،

ويقولون : هو من عند الله : إما أحاديثُ مُفْتَرِيَّاتٌ ، وإما تفسيرٌ وتأويل للنصوص باطل ، ويُعضدون ذلك بما يدَّعونه من الرأي والعقل ، وقصدهم بذلك الرياسة والمأكُلُ فهؤلاء يكتبون الكتاب بأيديهم ليشتروا به ثمنًا قليلًا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم من الباطل وويل لهم مما يكسبون من المال على ذلك ، وهؤلاء إذا عورضوا بنصوص الكتب الإلهية ، وقيل لهم : هذه تخالفكم حرّفوا الكلم عن مواضعه بالتأويلات الفاسدة ، قال الله تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ وأما النوع الثاني : الجُھَّالُ ، فهؤلاء الأميون الذين لا يعلمون الكتاب إلا أُمانيّ ، وإن هم لا يظنون . فعن ابن عباس وقتادة في قوله : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ ﴾ أي غير عارفين بمعاني الكتاب ، يعلمونها حفظًا وقراءة بلا فهم ، ولا يدرون ما فيه ، وقوله : ﴿ إِلَّا أُمَانِيّ ﴾ أي تلاوة ، فهم لا يعلمون فقه الكتاب ، إنما يقتصرون على ما يسمعونهُ يتلى عليهم ، قاله الكسائي والزجاج ، وكذلك قال ابن السائب : لا يحسنون قراءة الكتاب ، ولا كتابته إلا أُماني ، إلا ما يحدثهم به علماءهم . وقال أبو روق وأبو عبيدة : أي تلاوة وقراءة عن ظهر القلب ، ولا يقرأونها في الكتب ، ففي هذا القول جَعَلَ الأُماني التي هي التلاوة تلاوة الأميين أنفسهم ، وفي ذلك جعله ما يسمعونهُ من تلاوة علماءهم ، وكلا القولين حق . والآية تعمهما فإنه سبحانه وتعالى قال : ﴿ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ ﴾ لم يقل : لا يقرأون ولا يسمعون ، ثم قال : ﴿ إِلَّا أُمَانِيّ ﴾ وهذا استثناء منقطع ، لكن يعلمون أُمانيّ إما بقراءتهم لها ، وإما بسماعهم قراءة غيرهم ، وإن جَعَلَ الاستثناء متصلًا كان التقدير : لا يعلمون الكتاب إلا علم أُماني ، لا علم تلاوة فقط بلا فهم ، والأُماني جمع أُمنية وهي التلاوة ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ ، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ، ثم يحكم

الله آياته والله عليم حكيم ﴿ قال الشاعر:

تمنى كتاب الله أول ليلة وآخره لاقى حمام المقادر

والأميون نسبة إلى الأمة، قال بعضهم إلى الأمة وما عليه العامة، فمعنى الأمي العامي الذي لا تمييز له، وقد قال الزجاج هو على خلق الأمة التي لم تتعلم، فهو على جيلته، وقال غيره: هو نسبة إلى الأم، كأن الكتابة كانت في الرجال دون النساء ولأنه على ما ولدته أمه، والصواب: أنه نسبة إلى الأمة كما يقال عامي نسبة إلى العامة التي لم تتميز عن العامة بما تمتاز به الخاصة، وكذلك هذا لم يتميز عن الأمة بما يمتاز به الخاصة من الكتابة والقراءة، ويقال: الأمي لمن لا يقرأ ولا يكتب كتاباً ثم يقال لمن ليس لهم كتاب مُنزل من الله يقرأونه وإن كان قد يكتب ويقرأ ما لم ينزل، وبهذا المعنى كان العرب كلهم أميين، فإنه لم يكن عندهم كتاب منزل من الله، قال الله تعالى: ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا﴾ وقال: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم﴾ وقد كان في العرب كثير ممن يكتب ويقرأ المكتوب وكلهم أميون فلما نزل القرآن عليهم لم يبقوا أميين باعتبار أنهم لا يقرأون كتاباً من حفظهم، بل هم يقرأون القرآن من حفظهم، وأناجيلهم في صدورهم لكن بقوا أميين باعتبار أنهم لا يحتاجون إلى كتابة دينهم، بل قرآنهم محفوظ في قلوبهم، كما في الصحيح عن عياض بن حمار المجاشعي عن النبي ﷺ أنه قال: «خلقت عبادي يوم خلقتهم حنفاء - وقال فيه - إني مبتليكم ومبتل بكم، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظاناً» فأمتنا ليست مثل أهل الكتاب الذين لا يحفظون كتبهم في قلوبهم بل لو عدت المصاحف كلها كان القرآن محفوظاً في قلوب الأمة، وبهذا الاعتبار فالمسلمون أمة أمية بعد نزول القرآن وحفظه. كما في الصحيح عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «إنا أمة أمية لا نحسب ولا نكتب الشهر

هكذا، وهكذا، فلم يقل: إِنَّا لَا نَقْرَأُ كِتَابًا وَلَا نَحْفَظُ، بل قال: لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسِبُ فِدِينَنَا لَا يَحْتَاجُ أَنْ يَكْتُبَ وَيَحْسِبَ، كما عليه أهل الكتاب من أنهم يعلمون مواقيت صومهم وفطرهم بكتاب وحساب ودينهم معلق بالكتب لو عدت لم يعرفوا دينهم، ولهذا يوجد أكثر أهل السنة يحفظون القرآن والحديث أكثر من أهل البدع وأهل البدع فيهم شبه بأهل الكتاب من بعض الوجوه. وقوله: ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ هو أمي بهذا الاعتبار لأنه لا يكتب ولا يقرأ ما في الكتب، لا باعتبار أنه لا يقرأ من حفظه بل كان يحفظ القرآن أحسن حفظ والأمي في اصطلاح الفقهاء خلاف القارئ؛ وليس هو خلاف الكاتب بالمعنى الأول، ويعنون به في الغالب مَنْ لَا يُحَسِّنُ الْفَاتِحَةَ، فقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أُمَانِي﴾ أي لا يعلمون الكتاب إلا تلاوة لا يفهمون معناها، وهذا يتناول من لا يحسن الكتابة ولا القراءة من قبل، وإنما يسمع أماني علما، كما قال ابن السائب ويتناول من يقرأه عن ظهر قلبه ولا يقرأه من الكتاب، كما قال أبو روق، وأبو عبيدة — وقد يقال: إن قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ أي الخط، أي لا يحسنون الخط، وإنما يحسنون التلاوة، ويتناول أيضا من يحسن الخط والتلاوة ولا يفهم ما يقرأه ويكتبه، كما قال ابن عباس وقتادة: غَيْرُ عَارِفِينَ مَعَانِي الْكِتَابِ يَعْلَمُونَهَا حِفْظًا وَقِرَاءَةً بِلَا فَهْمٍ، وَلَا يَدْرُونَ مَا فِيهِ، وَالْكِتَابُ هُنَا الْمُرَادُ بِهِ الْكِتَابُ الْمَنْزُولُ. وهو التوراة ليس المراد به الخط، فإنه قال: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ فهذا يدل على أنه نفى عنهم العلم بمعاني الكتاب، وإِلَّا فَكَوْنُ الرَّجُلِ لَا يَكْتُبُ بِيَدِهِ لَا يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ، بل يظن ظنا؛ بل كثير ممن يكتب بيده لا يفهم ما يكتب، وكثير ممن لا يكتب يكون عالما بمعاني ما يكتبه غيره، وأيضا فإن الله ذكر هذا في سياق الذم لهم، وليس في كون الرجل لا يخط ذمٌّ إذا قام بالواجب، وأنا الذم على كونه لا يعقل

الكتاب الذي أنزل إليه سواء كتبه وقراه أو لم يكتبه ولم يقرأه كما قال النبي ﷺ: «هذا أو أن يُرفع العلم». فقال له زياد بن ليبيد: كيف يرفع العلم وقد قرأنا القرآن فوالله لنُقرَّأه ولنُقرَّئهُ نساءنا فقال: إن كنت لأحسبك من أफه أهل المدينة أو ليست التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا تغني عنهم؟» وهو حديث معروف، رواه الترمذي وغيره. ولأنه قال تعالى قبل هذا: ﴿وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله، ثم يحرفونه من بعدما عقلوه وهم يعلمون﴾ فأولئك عقلوه ثم حَرَفوه وهم مذمومون سواء كانوا يحفظونه بقلوبهم ويكتبونه ويقرأونه حفظاً وكتابةً، أو لم يكونوا كذلك، فكان من المناسب أن يذكر الذين لا يعقلونه وهم الذين لا يعلمون إلا أمانى، فإن القرآن أنزله الله كتاباً متشابهاً مثاني، ويذكر فيه الأقسام والأمثال فيستوعب الأقسام، فيكون مثاني، ويذكر الأمثال فيكون متشابهاً، وهؤلاء وإن كانوا يكتبون ويقرأون فهم أميُّون من أهل الكتاب، كما نقول نحن لمن كان كذلك هو أمي وساذج وعاميٌّ وإن كان يحفظ القرآن ويقرأ المكتوب إذا كان لا يعرف معناه. وإذا كان الله قد ذم هؤلاء الذين لا يعرفون الكتاب إلا تلاوة دون فهم معانيه، كما ذم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون. دَلَّ على أن كلا النوعين مذموم: الجاهل الذي لا يفهم معاني النصوص، والكاذب الذي يحرف الكلم عن مواضعه وهذا حال أهل البدع فإنهم أحد رجلين: إما رجل يحرف الكلم عن مواضعه ويتكلم برأيه، ويؤوِّله بما يُضيفُهُ إلى الله، فهؤلاء يكتبون الكتاب بأيديهم ويقولون هو من عند الله ويجعلون تلك المقالات التي ابتدعوها هي مقالة الحق وهي التي جاء بها الرسول والتي كان عليها السلف ونحو ذلك ثم يحرفون النصوص التي تعارضها فهؤلاء إذا تعمدوا ذلك وعلموا أن الذي يفعلونه مخالف للرسول، فهم من جنس هؤلاء اليهود، وهذا يوجد في كثير من الملاحدة، ويوجد في

بعض الأشياء في غيرهم .

فإن قيل : فقد قال بعض المفسرين : ﴿إلا أمانِي﴾ إلا ما يقولونه بأفواههم كذبا وباطلا وروي هذا عن بعض السلف واختاره الفراء وقال ﴿الأماني﴾ الأكاذيب المفتعلة ، قال بعض العرب لابن دأب — وهو يحدث — أهذا شيء رَوَيْتُهُ أم تمنيته أي افْتَعَلْتُهُ؟ فأراد بالأماني التي كتبها علماءهم من قَبْل أنفسهم ثم أضافوها إلى الله من تغيير صفة محمد ﷺ ، وقال بعضهم : ﴿الأماني﴾ يتمنون على الله الباطل والكذب كقولهم : ﴿لن تمسنا النار إلا أياما معدودة﴾ وقولهم : ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى﴾ وقولهم : ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ وهذا أيضا يروى عن بعض السلف . قيل : كلا القولين ضعيف ، والصواب الأول ، لأنه سبحانه قال : ﴿ومنهم أُمِّيُونَ لا يعلمون الكتاب إلا أمانِي﴾ وهذا الاستثناء إما أن يكون متصلا أو منقطعا ، فإن كان متصلا لم يجز استثناء الكذب ولا أمانِي القلب من الكتاب . وإن كان منقطعا فالاستثناء المنقطع إنما يكون فيما كان نظير المذكور وشبيها له من بعض الوجوه ، فهو من جنسه الذي لم يذكر في اللفظ ليس من جنس المذكور ولهذا لا يصلح المنقطع حيث يصلح الاستثناء المفرغ ، وذلك كقوله : ﴿لا يذوقون فيها الموت﴾ ثم قال : ﴿إلا الموتة الأولى﴾ فهذا منقطع . لأنه يَحْسُنُ أن يقال : لا يذوقون إلا الموتة الأولى . وكذلك قوله تعالى : ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراضٍ منكم﴾ لأنه يحسن أن يقال : لا تأكلوا أموالكم بينكم إلا أن تكون تجارة . وقوله : ﴿وما لهم به من علم إلا اتباع الظن﴾ يصلح أن يقال : وما لهم إلا اتباع الظن . فهنا لما قال : ﴿لا يعلمون الكتاب إلا أمانِي﴾ يحسن أن يقال : لا يعلمونه إلا أمانِي ، فإنهم يعلمونه تلاوة يقرءونها ويسمعونها ، ولا يحسن أن يقال : لا يعلمون إلا ما تمناه قلوبهم أو لا يعلمون إلا الكذب فإنهم قد كانوا يعلمون ما هو صدق

أيضا ، فليس كل ما عِلْمُوهُ من علمائهم كان كذبا ، بخلاف الذي لا يعقل معنى الكتاب ، فإنه لا يعلم إلا تلاوة وأيضا فهذه الأمانى الباطلة التي تمنوها بقلوبهم ، وقالوها بالسنتهم كقوله تعالى : ﴿تلك أمانيتهم﴾ قد اشتركوا فيها كلهم ، فلا يُخَصُّ بالذم الأميئون منهم ، وليس لكونهم أميين مدخل في الذم بهذه ، ولا لتفنى العلم بالكتاب مدخل في الذم بهذه ، بل الذمُّ بهذه مِنْ مَنْ يَعْلَمُ أنها باطل أعظم من ذم من لا يعلم أنها باطل ، ولهذا لما ذمَّ الله بها عَمَمَ ولم يخص فقال تعالى : ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيتهم﴾ الآية . وأيضا فإنه قال : ﴿وإن هم إلا يظنون﴾ فدلَّ على أنه ذمهم على نفي العلم ، وعلى أنه ليس معهم إلا الظنُّ .

وهذا حال الجاهل بمعاني الكتاب ، لا حال من يعلم أنه يكذب فظهر أن هذا الصنف ليس هم الذين يقولون بأفواههم الكذب والباطل ، ولو أريد ذلك لقليل : لا يقولون إلا أمانى . لم يقل : لا يعلمون الكتاب إلا أمانى بل ذلك الصنف هم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويَلَوْن ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويكتبون الكتاب بأيديهم ليشتروا به ثمنا قليلا ، فهم يُحَرِّفُونَ معاني الكتاب ، وهم يُحَرِّفُونَ لفظه لمن لم يعرفه ويكذبون في لفظهم وخطهم . اهـ هذا ومعنى قوله تعالى : ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون﴾ أي وكان من شأن هؤلاء الأخبار اليهود أنهم ربما يجتمعون بالمؤمنين فيسبق من لسانهم وينفلت منها بعض ما يحرسون على كتمانهم من صفات رسول الله ﷺ في كتبهم وأنهم يعلمون من هذه الكتب صفات رسول الله ﷺ كما عاينوها فيه لما اجتمعوا به وشاهدوه ، فإذا رجع هؤلاء وجلسوا مع اليهود في مجالسهم الخاصة بهم تلاوموا على ما بدّر من

بعضهم في إخبار المؤمنين بأن محمداً ﷺ موصوف في الكتب التي بأيديهم بنفس الوصف الذي شاهده لما أبصروا رسول الله ﷺ وقالوا لمن بَدَرَ منهم هذا الكلام : أتحدثون المؤمنين بمحمد بما عرفتم في التوراة من وصف محمد وأنتم بذلك تعطون المسلمين حجة عليكم ليخاصموكم بها عند الله عز وجل ، وقيموا عليكم البرهان في ترك اتِّباعه مع علمكم بصدقه . وقوله ﴿أفلا تعقلون﴾ أي أفلا تفهمون أنكم تعطونهم حجة عليكم . وفي هذه الآية الكريمة إشارة إلى تشابه أخلاق اليهود وأخلاق المنافقين الذين قال الله عز وجل فيهم : ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلَّوا إلى شياطينهم قالوا : إنا معكم إنما نحن مستهزئون﴾ كما أن في قوله تبارك وتعالى في حق اليهود : ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء﴾ إشارة إلى تشابه أخلاق اليهود وأخلاق الكفار من المشركين الذين حكى الله عز وجل عنهم أنهم قالوا : ﴿ولن نؤمن لرُقيك حتى تُنزلَ علينا كتابا نقرؤه﴾ وهذا يشعر أن اليهود كانوا يتلاقون مع المنافقين والمشركين في الكفر والأخلاق الرذيلة . وقوله عز وجل : ﴿أولاً يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ أي ألم يَدْرُسْ هؤلاء في كتبهم أن الله يعلم ما يخفونه سواء حدَّثوا به أو لم يحدثوا فهو عز وجل يعلم السرَّ وأخفى ويعلم ما لا يتكلمون به كما يعلم ما يتكلمون به ، والاستفهام للإنكار والتوبيخ ، فأَيُّ فائدة لهم في لومهم من يُحدِّثُ منهم بصفات رسول الله ﷺ وأنبياءهم قد عَرَفُوهم بأن علم الله عز وجل محيط بجميع الكائنات ، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السموات ، وتقديم الإسرار على الإعلان للإيذان بافتضاحهم ووقوع ما يحذرونه ، إذ الأشياء البارزة والأشياء الكامنة كلها في علم الله عز وجل سواء كما قال تعالى : ﴿إن تُخْفُوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ، ويعلم ما في السموات وما في الأرض والله على كل شيء قدير﴾ وقوله عز وجل : ﴿وإن هم

إلا يظنون ﴿أي ما هم إلا قوم قُصَّارى أمرهم الظنُّ والتقليد من غير أن يصلوا إلى مرتبة العلم، ولما بينَ حال هؤلاء المخدوعين المتبعين للظن أتبع ذلك بيان عاقبة فريق آخر من اليهود وهم الدعاة إلى الضلالة بالزور والكذب على الله عز وجل الذين يختلقون أشياء من عند أنفسهم يفترونها ثم يزعمون لعوام اليهود ورعاعهم أنها من عند الله وما هي من عند الله ليأكلوها أموال الناس بالباطل، ويحصلوا من عوامهم ورعاعهم على الهدايا والهبات والسُّحت وقوله تعالى: ﴿ليشتروا به ثمنا قليلا﴾.

قال الرازي في تفسير قوله: ﴿ليشتروا به ثمنا قليلا﴾ فهو تنبيه على أمرين الأول: أنه تنبيه على نهاية شقاوتهم لأن العاقل يجب أن لا يرضى بالوزر القليل في الآخرة لأجل الأجر العظيم في الدنيا فكيف يليق به أن يرضى بالعقاب العظيم في الآخرة لأجل النفع الحقيق في الدنيا، الثاني: أنه يدل على أنهم ما فعلوا ذلك التحريف ديانة بل إنما فعلوه طلبا للمال والجاه، وهذا يدل على أن أخذ المال على الباطل وإن كان بالتراضي فهو محرم لأن الذي كانوا يُعْطونه من المال كان على محبة ورضا، ومع ذلك فقد نبّه تعالى على تحريمه اهـ وقوله تعالى: ﴿فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾ هذا وعيد شديد على أن يكتب الإنسان بيده شيئا ينسبه إلى الله عز وجل كذبا وزورا مهما كان الأمر سواء كان الباعث على ذلك دينيا أو دنيويا والعاقل لو أعطي الدنيا بحذافيرها ثمنا على أن يقول على الله زورا ويفترى على الله كذبا ما رضي بذلك فما بالك بمن يخطه بيده ويُسجِّلُه على نفسه، والله در القائل:

وَيْبِلِي الدَهْرُ مَا كَتَبَتْ يَدَاهُ

وَمَا مِنْ كَاتِبٍ إِلَّا سَيِّئِلِي

يَسْرُكُ فِي الْقِيَامَةِ أَنْ تَرَاهُ

فَلَا تَكْتُبْ بِخَطِّكَ غَيْرَ شَيْءٍ

وهؤلاء اليهود يكتبون ما يسوؤهم ويسود وجوههم عند الله يوم القيامة

﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون﴾ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴿وكذلك في هذا

وعيد شديد لمن اكتسب المال من غير طريق شرعي فما بالك بمن اكتسبه بالافتراء على الله . وقد جمع الله تبارك وتعالى بعض صفات هؤلاء اليهود القبيحة في القول على الله كذبا وزورا حيث يقول عز وجل : ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون . وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها ، والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون . ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إليّ ولم يوح إليه شيء ومن قال : سأُنزل مثل ما أنزل الله ، ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ والويل هو الهلاك والدمار ، وقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ، وكتاب الله الذي أنزله على نبيه أحدث أخبار الله ، تقرأونه غضا لم يشب وقد حدثكم الله تعالى أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه ، وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا : هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم ولا والله ما رأينا منهم أحدا قط سألكم عن الذي أنزل عليكم . اهـ وقوله تعالى : ﴿ مما كتبت بأيديهم ﴾ ومعلوم أن الكتابة لا تكون إلا باليد إذ المقصود تحقيق مباشرتهم بأنفسهم لما يفترونه ، ففي تقييد الكتابة هنا باليد زيادة في تقييد فعلهم ، والعرب قد يقيدون بمثل هذا القيد للتحقيق والتأكيد ولفت الانتباه ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ ولا طائر يطير بجناحيه ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ يقولون بأفواههم ﴾ مع أن الطيران إنما يكون بالجناح والقول إنما يكون بالأفواه .

قال تعالى : ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة﴾ ، قل أَلتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * بلى من كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٠﴾ .

هذه حكاية أخرى من حكايات قبائح أقوال اليهود لعنهم الله ، وهو جَزُمُهُمْ بأن الله تعالى لا يعذبهم في النار يوم القيامة إلا أياما معدودة قليلة ، وهم في هذه المقالة مفترون على الله مخلقون كاذبون لا دليل على مقاتلتهم من نقل أو عقل ، أما من جهة العقل فلأن الله هو المالك لهم والمسيطر عليهم يعذب من عصاه عدلا ويرحم من يشاء فضلا ، فالله هو المالك وحده وهو المتصرف وحده ليس ذلك للملك مقرب ولا لنبي مرسل ، وهم مستوون في البشرية مع سائر البشر فلماذا يقررون أن العذاب الدائم الأبدي السَّرمدي لغير بني إسرائيل ، وأن اليهود إن عذبوا يوم القيامة فلن يُعَذَّبوا إلا أياما قليلة بقدر أيام عبادة آبائهم لعجل السامري وقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاةً فيها سُمَّ فقال رسول الله ﷺ : اجمعوا لي من كان هنا من اليهود ، فجمعوا له ، فقال لهم رسول الله ﷺ : إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقوني عنه ؟ فقالوا : نعم يا أبا القاسم ، فقال لهم رسول الله ﷺ : من أبوكم ؟ قالوا : أبونا فلان ، فقال رسول الله ﷺ : كذبتُم بل أبوكم فلان ، فقالوا : صدقت وبررت ، فقال : هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه ؟ فقالوا : نعم يا أبا القاسم ، وإن كذبتك عرفت كذبتنا كما عرفته في أبينا ، قال لهم رسول الله ﷺ : مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟ فقالوا : نكون فيها يسيرا ، ثم تخلفوننا فيها ، فقال لهم رسول الله ﷺ اخسئوا فيها ، والله لا نخلفكم فيها

أبدا ثم قال لهم : فهل أنتم صادقون عن شيء إن سألتكم عنه ؟ قالوا : نعم فقال : هل جعلتُم في هذه الشاة سُما ؟ فقالوا : نعم ، فقال : ما حملكم على ذلك ؟ فقالوا : أَرَدْنَا إن كنت كذَّاباً أن نستريح منك ، وإن كنت نبيا لم يَضُرَّكَ . اهـ وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن غرور اليهود وما مَرَدُوا عليه من حُبِّ الافتراء في الدين هو الذي حملهم على هذه المقولة الكاذبة من أنهم لن يعذبوا في النار إلا أياما معدودات حيث يقول عز وجل عنهم في سورة آل عمران : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ * ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات وغرَّهم في دينهم ما كانوا يفترون * فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴿ وقد افترى لهم أحابار السوء منهم مبادئ التمييز العنصري فكتبوا لهم التلمود زعما منهم أنه شرح للتوراة واستنباط من أصولها مع أن بعض نصوص التلمود قد يخالف بعض نصوص التوراة فزعموا لهم في التلمود أن اليهود أحبُّ إلى الله من الملائكة وأنهم من عنصر الله فهم أبناء الله وأحباؤه ، وأطلقوا اسم «الأممي» على كل من ليس يهودي وقرَّروا لهم أن الموت جزاء الأممي إذا ضرب اليهودي وأنه لولا اليهود لارتفعت البركة من العالم واحتجبت الشمس وانقطع المطر ، وأن اليهود يَفْضُلُونَ الأميين كما يَفْضُلُ الإنسان البهيمة ، وأن الأميين جميعا كلابٌ وخنازير ، وأن بيوتهم كحظائر الماشية نجاسة ، وأنه يحرم على اليهودي العطف على الأممي ؛ لأنه عدوه وعدو الله ، وأن التَّقِيَّةَ أو المداواة معه جائزة للضرورة تجنباً لأذاه ، وأن كل خير يصنعه يهودي مع أمميٍّ هو خطيئة عظمى ، وأن كلَّ شر يعمله معه هو قربان لله يُثيبه عليه ، وأن الربا غير الفاحش يجوز مع اليهودي ونسبوا هذا القول إلى موسى وصموئيل ، وأنَّ الربا الفاحش جائز مع الأممي ، وأن كلَّ ما على الأرض ملك لليهود فما تحت أيدي

الأميين من الأموال مغتصب من اليهود وعليهم استرداده بشتى الوسائل ، وهذه المبادئ التلمودية هي التي كونت نفسية اليهود الممتلئة بالغرور والافتراء . وقد ذكر عبدالله بن سلام رضي الله عنه — وكان سيّد أحبار اليهود وابن سيّدهم — أن اليهود قوم بُهتٌ فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه قال : سمع عبدالله بن سلام بقدوم رسول الله ﷺ وهو في أرض يَحْتَرَفُ ، فأتى النبي ﷺ فقال : إني سائلُكَ عن ثلاثٍ لا يعلمهن إلا نبيٌّ ، فما أوَّلُ أشرار الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزِعُ الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال : أخبرني بهن جبريل آنفاً ، قال : جبريل؟ قال : نعم ، قال : ذاك عدوُّ اليهود من الملائكة ، فقرأ هذه الآية : ﴿من كان عدوًّا لجبريل فإنه نزَّلَه على قلبك بإذن الله﴾ أمّا أوَّلُ أشرار الساعة فنارٌ تحشر الناس من المشرق إلى المغرب ، وأمّا أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت ، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد ، وإذا سبق ماء المرأة نزعَت . قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله ، يا رسول الله ، إن اليهود قومٌ بُهتٌ ، وإنهم إن تعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يَبْهَتُونِي ، فجاءت اليهود ، فقال النبي ﷺ : أيُّ رجلٍ عبدالله فيكم؟ قالوا : خيرنا وابن خيرنا ، وسيّدنا وابن سيّدنا ، قال : رأيتم إن أسلم عبدالله بن سلام فقالوا : أعاده الله من ذلك ، فخرج عبدالله ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمداً رسول الله فقالوا : شرُّنا وابن شرِّنا ، وانتقصوه ، قال : فهذا الذي كنت أخاف يارسول الله . اهـ وقوله تعالى : ﴿وقالوا : لن تمسنا النار﴾ أي قالوا : لن تلمسنا النار ولن تصيب أجسامنا ولن نعذب بها . وقوله : ﴿إلا أياما معدودة﴾ أي إلا أياما قليلة يسيرة ، كقوله تعالى : ﴿وشروه بثمان بخص دراهم معدودة﴾ أي قليلة . وكقوله تعالى عن أيام الصيام : ﴿أياماً معدودات﴾ أي قلائل . وقوله تعالى : ﴿قل أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف

الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون ﴿١﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الزاعمين أنهم لن تمسهم النار إلا أياما معدودة: أخذتم بما تقولون من دعواكم هذه ميثاقا وعهدا من الله ، وحصلتم منه على حجة وبرهان؟ فإن الله تبارك وتعالى لا ينقض ميثاقه ولا يخلف وعده . كما قال عز وجل : ﴿٢﴾ إن الله لا يخلف الميعاد ﴿٣﴾ أم لم تتخذوا عهدا من الله بما تقولون بل تقولونه وتفترونه من عند أنفسكم جهلا وغرورا وضلالا بلا حجة ولا برهان ولا علم ؛ لأن الميثاق الذي جاء به النبيون والمرسلون أن من أطاعه أدخله الجنة ومن عصاه عذبه بالنار، فالجنة للمؤمنين المتقادين لله ورسله مهما كانت أجناسهم وألوانهم وأعصارهم وأمصارهم والنار للكافرين المحاذين لله ورسله مهما كانت أجناسهم وألوانهم وأعصارهم وأمصارهم فإن الله تبارك وتعالى ليس بينه وبين أحد من خلقه وعبادته نسب ، ولذلك لما قال اليهود : نحن أبناء الله وأحباؤه ردَّ عليهم افتراءهم هذا بأنهم لو كانوا أبناء الله وأحباؤه ما عذبهم بالنار ولا أخذهم بذنوبهم فإن الحبيب لا يعذب حبيبه في النار وفي ذلك يقول الله عز وجل : ﴿٤﴾ وقالت اليهود نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير ﴿٥﴾ ولذلك قال عز وجل هنا رداً عليهم افتراءهم ، ومؤكدا عهد الوثيق ووعد الحق بأن الناس عنده سواء وأن من ارتكب الجرائم وأحاطت به السيئات حتى مات على غير الإسلام فهو من أهل النار، وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات حتى ماتوا على ذلك فهم من أهل الجنة ، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى : ﴿٦﴾ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خَطِيئَتُهُ فأُولَئِكَ أصحاب النار هم فيها خالدون * والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولَئِكَ أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴿٧﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿٨﴾ بلى هو حرف جوابٍ مختصٌّ بنفي شيء متقدم كأنه قيل لا عهد لكم من

الله بما تفترونه وتدعونه من أنكم لن تمسكم النار إلا أياما معدودة . وقد وضعت العربُ كلماتٍ أجوبةٍ منها : بلى ونعم وجير وأجل وإي ، ولكل واحدة منها مقامها ، فإذا قال قائل : أليس زيد قائما؟ فقلت : بلى صار معناه أنه قائم ولو قلت نعم صار معناه أنه ليس بقائم قال تعالى : ﴿ألست بربكم قالوا : بلى﴾ أي أنت ربنا ، وقد أُثِرَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لو قالوا : نعم لكفروا ، يعني لأنه يصير معناه : لست ربنا ، وهذا كفر وقوله تعالى : ﴿من كسب سيئة﴾ أي اقترف ذنبا وارتكب معصية وعمل سوءا وقوله : ﴿وأحاطت به خطيئته﴾ أي واستولت عليه معصيته وأحدقت به من كل جانب حتى مات كافرا ، وقوله عز وجل : ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي فهؤلاء الذين استولت عليهم المعاصي وأحدقت بهم جرائمهم من كل جانب حتى ماتوا على الكفر هم أهل النار الملائمون لها المخلّدون فيها ، وليس في هذه الآية الكريمة دليل على أن أهل الكبائر التي دون الشرك والكفر يخلّدون في النار لأن خيرَ ما يُفسّرُ القرآن هو القرآن والسنة وقد قال الله تبارك وتعالى : ﴿إنَّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ في موضعين من القرآن الكريم ، كما روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال : أتيت النبي ﷺ وهو نائم وعليه ثوب أبيض ، ثم أتيته وقد استيقظ فقال : ما من عبد قال : لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة ، قلت : وإن زنى وإن سرق؟ قال : وإن زنى وإن سرق ، قلت : وإن زنى وإن سرق؟ قال : وإن زنى وإن سرق ، قلت : وإن زنى وإن سرق؟ قال : وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذر . وكان أبو ذر إذا حدث بهذا قال : وإن رغم أنف أبي ذر . وليس المقصود من حديث أبي ذر تهوين أمر الزنى والسرقة بل المقصود أن مرتكبيهما تحت مشيئة الله إن شاء الله عذبه وإن شاء عفا عنه ، بخلاف من مات على الشرك والكفر

فإنه مُخَلَّدٌ في النار لقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ مِنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي وكل من آمن بالله وكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر وبالقدر وعمل صالحا على منهج محمد ﷺ فهؤلاء هم أهل الجنة الملازمون لها لا يريمون عنها ولا يتحولون منها وهم فيها خالدون ، مهما كانت أجناسهم وألوانهم وأعصارهم وأمصارهم جعلنا الله بفضله منهم .

قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذَى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حَسَنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ .

هذا هو النص الثاني في هذه السورة الكريمة بأخذ الميثاق على بني إسرائيل ، سوى ما تكرر من مطالبتهم بالوفاء بالعهد وكان النص الأول موجَّهاً إلى بني إسرائيل على طريق الخطاب للمعاصرين لرسول الله ﷺ من بني إسرائيل ببيان فضائح أسلافهم من إعراضهم وتوليهم بعد أخذه الميثاق عليهم ونقضهم له ، توبيخاً للمعاصرين الذين يقلدون أباءهم في كل شر ولا يحرصون على اتباع وصايا المرسلين ، أما هذا النص الثاني بأخذ الميثاق عليهم فقد جاء بتعميمه نصاً لجميع بني إسرائيل الماضين والحاضرين ؛ لأنهم جميعاً مشتركون في هذه المخالفات التي وبخهم الله عليها في حيز أخذ الميثاق ، حيث قال في النص الأول : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ * ثم توليتم من بعد ذلك فلولاً فضّل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين﴾ وقال في النص الثاني هنا : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ الآية ثم قال في النص الثالث بعده مباشرة : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ الآيات إلى قوله : ﴿فَلَا يُخَفِّفْ عَنْهُمْ الْعَذَابَ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ وفي قوله عز وجل : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ : لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ الآية شروع في بيان مواد الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل الشامل للماضين منهم والمعاصرين — وهو في الواقع ميثاق الله على جميع المكلفين من سائر أتباع النبيين والمرسلين — ويتكون هذا الميثاق من التكليف بثمانية أشياء لا سعادة لمجتمع من المجتمعات إلا بالاستمساك بها ومن طبَّقها كان من أهل جنات

النعيم ومن كفر بها كان من أصحاب الجحيم وهذه التكاليف الثمانية جاءت بعد القاعدة الكلية التي اشتملت عليها الآيتان السابقتان وهما قوله تعالى : ﴿بلى من كَسَبَ سيئةً وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ * والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ والتكليف الأول من هذه التكاليف الثمانية هو قوله تعالى : ﴿لا تعبدون إلا الله﴾ وهو يقتضي الأمر بعبادة الله وحده والتحذير من عبادة غيره ، وهي الحقيقة الكبرى التي من أجلها خلق الله الجنَّ والإنس ، والسموات والأرض وأقام سوق الجنة والنار ، وهذا الأمر يقتضي أيضا وجوب معرفة الله وتوحيده في ربوبيته وألوهيته وأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، كما يقتضي هذا الأمر معرفة كيفية عبادته ولا سبيل لمعرفتها إلا بالوحي والرسالة ، فهو يقتضي الإيمان بالله وكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، أما التكليف الثاني وهو قوله تعالى : ﴿وبالوالدين إحسانا﴾ أي وأن تحسنوا بالوالدين إحسانا ومقتضاه وجوب برِّهما والقيام بحقهما ، ودفع كل أذى عنهما ، وطاعتيهما في غير معصية الله حتى ولو كانا كافرين ؛ لأنها هما السبب في وجود الولد بعد الله عز وجل ولذلك قرن الله تبارك وتعالى وجوب الإحسان إلى الوالدين بوجوب عبادته وحده في مقامات كثيرة من كتابه الكريم وأكد ذلك رسول الله ﷺ في أحاديث شتى ، وفي ذلك يقول عز وجل في هذا المقام : ﴿لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا﴾ ويقول عز وجل : ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا﴾ ويقول عز وجل : ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفًّا وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَخَفَضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ * ربُّكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا﴾ ويقول عز وجل :

﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علمٌ فلا تطعهما إليّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾ ويقول عز وجل : ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنّا على وهنٍ وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصيرُ﴾ * وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ويقول عز وجل : ﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرهاً وَوَضَعْتَهُ كُرْهًا وَحَمَلَهُ وَفْصَالَهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبِّتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ * أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وَعَدَ الصَّدَقُ الَّذِي كَانُوا يوعَدُونَ﴾

وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : سألت النبي ﷺ : أيُّ العمل أحبُّ إلى الله تعالى؟ قال : الصلاة على وقتها ، قلتُ : ثم أيُّ؟ قال : برُّ الوالدين ، قلتُ : ثم أيُّ؟ قال : الجهاد في سبيل الله . كما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : رَغِمَ أَنْفٌ ثُمَّ رَغِمَ أَنْفٌ ثُمَّ رَغِمَ أَنْفٌ من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كلاهما فلم يدخل الجنة . كما روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : أقبل رجل إلى نبي الله ﷺ فقال : أبايُعَلِّك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله تعالى ، فقال : هل لك من والدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ؟ قال : نَعَمْ بل كلاهما ، قال : فتبتغي الأجر من الله تعالى؟ قال : نَعَمْ قال : فارجع إلى والدَيْكَ فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا ، وفي رواية للبخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : جاء رَجُلٌ فاستأذنه في الجهاد قال؟ أحيُّ

والدأ؟ قال: نعم، قال: ففيهما فجاهد. أما التكليف الثالث من التكاليف الثمانية فهو قوله تعالى: ﴿وذي القربى﴾ وهو يقتضي الأمر بوجوب الإحسان إلى الأقارب، ولذلك نبّه الله تبارك وتعالى إلى وجوب الإحسان إلى الأقارب في غير موضع من الكتاب الكريم حيث يقول في بيان مقاصد الشريعة التي تكون المجتمع المثالي: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون﴾ وقد اعتبر الإسلام قطيعة الرحم من أفظع الجرائم وأوجب على قاطع الرحم لعنة الله حيث يقول عز وجل: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم وقال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة قاطع» أي قاطع رحم كما رواه البخاري ومسلم من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه. ولا شك أن الذي لا يصل رحمه لن يصل من سواهم فهو قريب من كل شر بعيد عن كل خير. أما التكليف الرابع فهو قوله تعالى: ﴿واليتامى﴾ والإحسان إلى اليتامى أمانة من أبرز أمارات المجتمع السعيد، وهو صورة مشرقة من صور التكافل الاجتماعي والمعنى الأصلي لليتيم هو الانفراد يقال: صبيّ يتيماً أي منفرد من أبيه، ودُرّة يتيمة أي ليس لها نظير واليتيم من بني آدم من مات أبوه قبل أن يبلغ الحلم أما اليتيم من سائر الحيوانات فهو من ماتت أمه قبل أن يتمكن من القيام بحاجة نفسه، وقد وصّى الله تبارك وتعالى بوجوب الإحسان إلى اليتامى في مقامات كثيرة من القرآن الكريم ونهى عن قهر اليتيم حيث يقول: ﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾ وجعل إيذاء اليتيم علامة التكذيب بالدين حيث يقول: ﴿أرأيت الذي يكذب بالدين﴾ فذلك الذي يدع اليتيم أي يدفعه دفعاً عنيفاً. وقد بشر رسول الله ﷺ كافل اليتيم بالجنة في منزل قريب من منزل رسول الله ﷺ فقد روى البخاري في صحيحه من حديث سهل بن

سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا . وأشار بالسَّبَّابةِ والوسطى وفرَّجَ بينهما» . والتكليف الخامس من هذه التكاليف الثمانية هو قوله عز وجل : ﴿والمساكين﴾ وهو جمع مسكين . وهو مأخوذ من السُّكُونِ كأن الفقر أسكنه من الحرَّكِ وأثخنه عن التَّقَلُّبِ ، وقد جعل الله تبارك وتعالى الفقراء والمساكين مَصْرِفَيْنِ من مصارف الزكاة في الإسلام ، والقاعدة عند أهل العلم : أن المسكين إذا ذكر وحده كالذي هنا فإنه يشمل الفقير كذلك ، كما أن الفقير إذا ذكر وحده يشمل المسكين أيضا أما إذا عطف أحدهما على الآخر كقوله في مصارف الصدقات : ﴿للفقراء والمساكين﴾ فإن المسكين يراد به من يملك دون النصاب وأن الفقير من لا يملك شيئا ألبتة فهما إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا . والمسكين أحسن حالا من الفقير إذ الفقير أصله مَنْ كُسِرَ فَقَارُهُ . والفَقَّارُ جمع فَقَّارَةٍ وهو ما انتَضَدَ من عظام الصُّلْبِ من لَدُنِ الكَاهِلِ إلى العَجَبِ ، وقد وصف الله عز وجل أهل السفينة بأنهم مساكين حيث يقول : ﴿أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر﴾ أما التكليف السادس من هذه التكاليف الثمانية فهو قوله عز وجل : ﴿وقولوا للناس حسنا﴾ أي وخاطبهم باللين من القول واستعملوا معهم الرِّفْقَ في الحديث مهما كانت أحوالهم ، وقد وصَّى الله تبارك وتعالى موسى وهارون عليهما السلام أن يقولوا لفرعون قولاً لنا حيث يقول عز وجل : ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَنَا لَعَلَّهُ يُتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ والرِّفْقُ ما كان في شيء إلا زانه والفُخْشُ ما كان في شيء إلا شانه ، ولذلك كثرت وصايا رسول الله ﷺ بالحض على الرفق والإحسان في القول ، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله» كما روى مسلم من حديثها رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله رفيق يحب الرفق ، ويُعْطِي على الرفق ما لا يعطي على العُنف

وما لا يُعْطِي على ما سواه . كما روى مسلم من حديثها رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا يُنْزَعُ من شيء إلا شأنه» كما روى مسلم من حديث جرير بن عبد الله رضي عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : مَنْ يُحَرِّمِ الرفقَ يُحَرِّمِ الْخَيْرَ كُلَّهُ . أما التكليف السابع والثامن فهو قوله تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ وقد تقدم الحديث على هذين التكليفين عند قوله تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ وهذه التكاليف الثمانية هي الأساس لكل مجتمع مثالي سعيد . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ أي نكثتم يا بني إسرائيل العهد ، ونقضتم الميثاق ، وبدلتم نعمة الله كفرًا وخالفتم أمر الله في هذه التكاليف الثمانية ، وأعرضتم عن طاعة الله وَذَاوَمْتُمْ عَلَى هَذَا الْإِعْرَاضِ حتى صار طبيعة من طبائعكم وَسَجِيَّةً من سجاياكم يرثها خلفكم عن سلفكم سوى عدد قليل منكم استمسكوا بالعهد ولم ينقضوا الميثاق ، ولذلك قال الله عز وجل : ﴿لَيْسُوا سَوَاءً ، مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ وقد كان من هؤلاء القائمين على الحق عبدالله بن سلام رضي الله عنه .

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ
أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تُشْهَدُونَ﴾ * ثم أنتم هؤلاء تقتلون
أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان
وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم ، أفتؤمنون ببعض
الكتاب وتكفرون ببعض ، فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة
الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون .
أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم
ينصرون﴾ .

إن الله تبارك وتعالى بعد أن بيّن مَوَادَّ الميثاق المأخوذ على جميع بني إسرائيل
من أسلافهم وأخلافهم ، والذي هو في الواقع ميثاق الله تبارك وتعالى على
جميع المكلفين من سائر أتباع النبيين والمرسلين ، وبعد أن بيّن نقض بني
إسرائيل لجميع مَوَادَّ هذا الميثاق وإعراضهم عن العمل به إلا من هَدَاهُ الله
وهم قليل منهم ، شرع في بيان مواد الميثاق الخاص ببني إسرائيل دون غيرهم
من أتباع النبيين والمرسلين ، ووبّخهم وأنّبهم على أنهم لم يُحَرِّمُوا حرامه ولم
ينزجروا عما نهوا عنه إلا ما وافق منه هَوَاهُمْ في بعض الأحيان ، ولما كان هذا
الميثاق خاصاً ببني إسرائيل كما أسلفت فَصَلَّتهُ عن مَوَادَّ الميثاق الذي قبله ،
ولم يُدْخِلْهُ فيه وفي ذلك يقول الله عز وجل : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ أي
واذكروا يا بني إسرائيل العهد الموثق الذي أخذناه عليكم ، لحماية نفوسكم ،
وصيانة دماءكم ، ووضع أسباب استقراركم في دياركم ، والظاهر والعلم عند
الله عز وجل - أن هذا الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل في هذا المقام إنما
نَقَضَهُ المعاصرون لرسول الله ﷺ من بني إسرائيل ، فقد استفاض أن سكان
يثرب كانوا من الأوس والخزرج ويهود بني النضير ويهود بني قريظة ويهود بني

قينقاع ، وكانت العداوة بين الأوس والخزرج قد بلغت مداها . فكانت الحروب لا تكاد تنقطع بين الأوس والخزرج ، ولهم أيام مشهورة منها يوم بُعَاث وهي وقعة كانت بين الأوس والخزرج في مزرعة عند بني قريظة بالقرب من حصونهم . وقد روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان يوم بُعَاث يوماً قدَّمه الله لرسوله ﷺ ، فَقَدِمَ رسول الله ﷺ وقد اُفترق مَلَأُوهُمْ وَقِيلَتْ سَرَوَاتُهُمْ وَجُرْحُوا ، فَقَدَّمَهُ الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام اهـ . وكان يهود بني النضير وبني قينقاع قد حالفوا الخزرج وكانت بنو قريظة قد حالفوا الأوس ، فإذا وقعت حرب بين الأوس والخزرج قاتل كل فريق مع حلفائه فيقتل اليهودي حليف الأوس اليهودي حليف الخزرج ، ويقتل اليهودي حليف الخزرج اليهودي حليف الأوس ، وقد يدخل الفريق الغالب بيوت الفريق المغلوب فيخرجونهم من ديارهم ، ويتهبون ما فيها من الأموال والأمتعة والأثاث . وقد يقع بعض اليهود أسرى في يد العرب من الأوس والخزرج ، وكان الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل أن لا يقتل إسرائيلي إسرائيلي ولا يجوز لإسرائيلي أن يُخْرِجَ إسرائيليًا من داره قهراً ، وأنه متى وَجَدَ إسرائيليًا إسرائيليًا في الأسر وجب عليه تخليصه من الرِّقِّ ومُفَادَاتِهِ . فكانوا إذا وضعت الحرب أوزارها بين الفريقين اجتهد اليهود سواء كانوا من حلفاء الأوس أو من حلفاء الخزرج في فكِّ الأسارى اليهود بَعْضُ النظر عن قبائلهم ، فقد يفتدي اليهودي النضيري الأسير القُرَظِيَّ وَيَفْكُهُ من يد عدوه ويُحَرِّره ، كما قد يفك اليهودي القُرَظِيَّ الأسير النضيري ويفتديه ويحرره بدعوى أن الميثاق المأخوذ عليهم من الله يوجب عليهم فكُّ أسرارهم . وهذا من التناقضات العجيبة والسفاهة في الرأي أن يَسْتَحِلَّ أحدهم قَتْلَ الآخر وهو محرم عليه ويشهد بذلك ، وَيُخْرِجُهُ من داره وهو مُحَرَّمٌ عليه ، وهو يشهد بذلك أيضاً وَيُقَرَّرُ أنه حرام ، ثم يَفْكُ أسرارهم زاعماً أنه لا يُحِبُّ أن يرى أَحَدٌ

أَتَبَاعِ مِلَّتِهِ أُسِيرًا . فَوَبَّخَهُمُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى ذَلِكَ ، وَفَضَحَهُمْ فِي
تَنَاقُضَاتِهِمْ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا
تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ أَيِ وَادْكُرُوا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّا أَخَذْنَا عَلَيْكُمْ الْعَهْدَ
الْمَوْثُوقَ : ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ أَيِ لَا يُرْقِ إِسْرَائِيلِي دَمَ إِسْرَائِيلِي وَقَوْلُهُ : ﴿لَا
تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ هُوَ نَفْيٌ بِمَعْنَى النَّهْيِ أَيِ لَا تَسْفِكُوا دِمَاءَكُمْ ، وَالْمَقْصُودُ :
لَا يَقْتُلْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَإِضَافَةُ الدِّمَاءِ إِلَيْهِمْ لِتَأْكِيدِ الرِّابِطَةِ بَيْنَهُمْ كَأَن دَمَ
أَخِيهِ فِي الدِّينِ هُوَ دَمُهُ ، وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ
دِيَارِكُمْ﴾ أَيِ وَلَا يَحِلُّ لِإِسْرَائِيلِي أَنْ يُخْرِجَ إِسْرَائِيلِيًّا مِنْ دَارِهِ قَهْرًا وَظُلْمًا .
وَإِضَافَةُ الْأَنْفُسِ وَالْدِيَارِ إِلَيْهِمْ لِنَفْسِ الْمَعْنَى الْمَوْجُودِ فِي إِضَافَةِ الدِّمَاءِ إِلَيْهِمْ
كَأَن مَنْ أَخْرَجَ أَخَاهُ فِي الدِّينِ مِنْ دَارِهِ إِنَّمَا أَخْرَجَ نَفْسَهُ مِنْ دَارِهِ هُوَ ، وَهَذَا
يُشْعِرُ بِفُظَّاعَةِ جَرَمٍ مَنْ يُخْرِجُ غَيْرَهُ مِنْ دَارِهِ بِغَيْرِ حَقٍّ لَا سِيَّما إِذَا كَانَ أَخَا فِي
الدِّينِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أَيِ ثُمَّ اعْتَرَفْتُمْ بِهَذَا الْمِيثَاقِ
وَالْتَزَمْتُمْ بِهِ اعْتِقَادًا ، وَلَا زِلْتُمْ تَقْرُونَ وَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ لَا يَحِلُّ لِأَحَدِكُمْ أَنْ يَقْتُلَ
أَخَاهُ بِغَيْرِ حَقٍّ كَمَا لَا يَحِلُّ لِأَحَدِكُمْ أَنْ يُخْرِجَ أَخَاهُ مِنْ دَارِهِ قَهْرًا وَبَغْيًا وَظُلْمًا ،
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ إِنْخِ الْآيَةُ هُوَ خُطَابٌ خَاصٌّ
بِهَؤُلَاءِ الْيَهُودِ الْمُعْتَدِينَ عَلَى الْمِيثَاقِ فِيهِ تَوْبِيخٌ شَدِيدٌ وَاسْتِعْبَادٌ قَوِيٌّ لِمَا ارْتَكَبُوهُ
بَعْدَ الْإِقْرَارِ بِالْمِيثَاقِ وَالشَّهَادَةِ عَلَى أَنَّهُ حَقٌّ ، وَالتَّعْبِيرُ بِثَمٍّ لِإِفَادَةِ تَمَادِيهِمْ فِي
الْبَاطِلِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿هَؤُلَاءِ﴾ أَيِ يَا هَؤُلَاءِ وَالْعَرَبُ قَدْ يَتْرَكُونَ حَرْفَ النِّدَاءِ وَهُوَ
مَرَادُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا﴾ أَيِ يَا يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا
كَأَنَّهُ قِيلَ : ثُمَّ أَنْتُمْ يَا هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ بَعْدَ إِقْرَارِكُمْ بِالْمِيثَاقِ يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ،
وَيُخْرِجُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا مِنْ دِيَارِهِمْ تَتَعَاوَنُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَأَنْتُمْ
مَعَ قَتْلِكُمْ مَنْ تَقْتُلُونَ وَإِخْرَاجِكُمْ مَنْ تَخْرُجُونَ إِذَا وَجَدْتُمْ الْأَسِيرَ مِنْكُمْ فِي
أَيْدِي غَيْرِكُمْ مِنَ الْوَثْنِيِّينَ قَمْتُمْ بِفِدَائِهِ وَتَحْرِيرِهِ مِنْ أَيْدِيهِمْ ، أَلَا تَحْجُلُونَ مِنْ

تناقضكم هذا؟ وأنتم موقنون بأن قهركم لبعضكم وإخراجهم من ديارهم مُحَرَّمٌ عليكم، أفَتصدقون ببعض ما في التوراة وتُكذِّبون ببعض أحكامها فما تستحقون على فعلكم هذا، وتلاعِبكم بكتابكم إلا الدُّلَّ والصغار والخزي والعار في حياتكم الدنيا، ويوم تقوم الساعة يُرَدُّ من فعل ذلك مع ما ناله من خزي الحياة الدنيا إلى أفْظع العذاب الذي أعدّه الله لأعدائه الناقضين لميثاقه المتلاعِبين بكتابه، ولا يخفى على الله تبارك وتعالى شيء من أعمالكم فالله مُنَزَّهٌ عَنِ السَّهْوِ والنسيان، كما قال موسى عليه السلام: «لا يضل ربي ولا ينسى» فيما حكى الله عز وجل عنه. ومعنى قوله: ﴿تظاهرون عليهم﴾ أي تتعاونون عليهم، فالتظاهر هو التعاون، لما في المتعاونين من تقوية بعضهم ظهر بعض، والإثم المعصية والعدوان هو تجاوز الحد ظلماً وبغياً، والأسارى جمع أسير وهو من يؤخذ قهراً، ويقال له: الأخيذ أيضاً قال الفيروز آبادي في القاموس المحيط: والأسير الأخيذ والمقيّد والمسجون اهـ وقوله: ﴿تفادوهم﴾ أي تُنْقِذُوهم وتُخَلِّصُوهم من الأثر، وقوله تعالى: ﴿وهو محرم عليكم إخراجهم﴾ قوله: ﴿هو﴾ يحتمل أن يكون ضمير الشأن والحال والقصة أي والحال والشأن أن إخراجهم من ديارهم محرم عليكم. ويحتمل أن يكون قوله: ﴿هو﴾ كنايةً عن الإخراج الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم﴾ كقوله تعالى: ﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ أي اعدلوا، العدل أقرب للتقوى، وهو من دلالة الفعل على الحدث وحده إذ هو موضوع للحدث والزمان، وتسمى هذه الدلالة الدلالة التضمنية، وقوله تعالى: ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾ الاستفهام فيه للتوبيخ على هذا التناقض الواقع منهم باستباحة قتل بعضهم وإخراجهم من ديارهم وهو محرم عليهم، وهم مع ذلك يفكون من يقع في الأسر منهم بدفع الفداء لتحريرهم من الرق، وقوله تعالى: ﴿فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي

في الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يُرَدُّون إلى أشد العذاب ﴿ أي فما عُقُوبَةُ من يتلاعب بالكتاب فَيُحَرِّمُ منه ما يشتهي تحريمه ويرفض تحريم ما حَرَّمَ الكتابُ إذا لم يكن يشتهي تحريمه إلا خزي أي هوان وذِلَّةٌ وصغار في الحياة الدنيا ، وقد أوقع الله ذلك بهم فأخرج رسول الله ﷺ بني النضير من ديارهم لأول الحشر وقتل مقاتِلَةَ قُرَيْظَةَ وسبي ذراريهم ، ثم أخرج عمر رضي الله عنه جميع اليهود من جزيرة العرب ولا يزال الخزي يلاحقهم حتى وصل الذروة في ذلك إِيَّان القرن التاسع عشر الميلادي حيث كان اليهودي يستحي أن يذكر في أوروبا أنه يهودي وقد قام كثير منهم بترك اليهودية هَرَباً من هذا الخزي وكان من بين هؤلاء عدوُّ الله وعدو الإنسانية كارل ماركس داعية الشيوعية فقد انتقل هو وأبوه وأمه وأخته من اليهودية إلى النصرانية ثم انتقل إلى الإلحاد والكفر بفاطر السموات والأرض لعنه الله ولعن أتباعه إلى يوم الدين وقوله تعالى : ﴿ ويوم القيامة يُرَدُّون إلى أشد العذاب ﴾ أي ويوم تقوم الساعة يُحْشَرُ اليهود مع الملاحدة والدهريين وفرعون وملأته في أفطع العذاب وهو عذاب جهنم نعوذ بالله منها . وقوله تعالى : ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ أي وما الله بِسَاهٍ أو ناسٍ أو تاركٍ شيئاً من أعمالكم ، وهو مُجَازِيكم بها ، ولا يظلم ربك أحداً ، وقوله تعالى : ﴿ أولئك الذين اشترَّوا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يُخَفَّف عنهم العذاب ولا هم يُنصرون ﴾ أي هؤلاء الذين حرَّمُوا من شريعتهم ما اشْتَهَوْا تحريمه واستباحوا من محرمات شريعتهم ما اشْتَهَوْا استباحته ، وحرَّضُوا على رياستهم على الضعفاء وأهل الجهل والغباء من أهل ملتهم ، واشترَّوا بعض مَلَأْدُ الحياة الدنيا الفانية وبعض شهواتهم الجاحمة فيها بثمن هو النعيم المقيم في جنات النعيم ، فما أشد خسارتهم في صفقتهم ؟ وما أشد فداحة مصيبتهم وما أقبح ما فعلوا بأنفسهم ، وقد أعدَّ الله لهم في جهنم عذاباً لا يخطر على البال ، ولا يدور في الخيال ، حيث يُنَادُون يا مالك ليقض

علينا ربك قال إنكم ماكثون ، لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق
كارهون كلما نضجت جلودهم بدلهم ربهم جلوداً غيرها ليدوقوا العذاب ، فلا
تُخَفَّفُ عنهم شدته ، ولا يَجْرُوا أحد أن يدفع شيئاً من عذاب الله عنهم ، نعوذ
بالله أن نسير سيرتهم ، أو نَنْهَجَ مِنْهُمْ ، أو نَنْسِجَ على منوالهم ولا حول ولا
قوة إلا بالله العلي العظيم .

قال تعالى : ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب ووقينا من بعده بالرسول وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ، أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتهم وفريقا تقتلون﴾ وقالوا : قلوبنا غلفت بل لعنهم الله بكفرهم فقليلًا ما يؤمنون﴾ .

هذا بيان آخر لبعض نعم الله الجليلة والآله العظيمة التي تفضل بها على بني إسرائيل حيث أرسل لهم موسى عليه السلام كليم الله وأعطاه التوراة فيها هدى ونور، وأتبعه بالرسول الكرام كداود وسليمان وإلياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى وعيسى وغيرهم عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام وكيف قابل هؤلاء الإسرائيليون نعم الله بالجحود والكفران ، وقد بين الله عز وجل أنهم كانوا لا يطيعون الرسل إلا فيما تشتهيهم أنفسهم وأنهم كانوا يستكبرون على المرسلين فيكذبون بعضهم ويقتلون بعضهم ، وأنهم قالوا : ﴿قلوبنا غلفت﴾ . وفي ذلك يقول الله عز وجل : ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ أي والله لقد أعطينا موسى التوراة . وتصدير هذه الجملة بالقسم الذي أرشدت له اللام الموطئة للقسم في قوله : ﴿ولقد﴾ لإظهار كمال الاعتناء بما في حيزه ، وقوله عز وجل : ﴿وقفينا من بعده بالرسول﴾ أي وأتبعنا بعضهم بعضا من بعد موسى عليه السلام وأرسلنا كل رسول منهم في إثر الرسول الذي قبله ، كقوله تعالى : ﴿ثم أرسلنا رسلنا تترى﴾ أي متتابعين ، وأصل التقفية الإلتباع والإرداف مأخوذ من إلتباع القفا وهو مؤخر العنق تقول : استقفيته إذا جئت من خلفه ، كما يقال : قفوته إذا صرت خلف قفاه ، والضمير في قوله : ﴿من بعده﴾ أي من بعد موسى عليه السلام ، وقوله عز وجل : ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات﴾ أي وأعطينا عيسى ابن مريم المعجزات التي أظهرها الله تبارك وتعالى على يديه التي تبين أنه رسول من رب

العالمين، من إحياء الموتى، وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيرا بإذن الله ويبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، ويخبرهم ببعض الغيوب التي يعرفون أنه لا علم له بها من أي طريق سوى الوحي المنزل عليه من الله، وقوله تعالى: ﴿وأيّدناه بروح القدس﴾ أي وقويناه وأعناّه بالروح المقدّسة أي المطهّرة والمراد به جبريل عليه السلام، والإضافة في روح القدس من إضافة الموصوف إلى الصفة كقولك: حاتم الجود، والتأييد مأخوذ من قول العرب: آد يئيد أيّدا بمعنى اشتدّ وقوي، قال الفيروزآبادي في القاموس المحيط: (آد) يئيد أيّدا اشتدّ وقوى، والآد الصّلب والقوّة كالأيّد، وأيّدته مؤيدة وأيّدته تأييدا فهو مؤيّد ومؤيّد قوّيته اهـ ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿والسّماء بّنيها بأيدٍ﴾ أي بقوة، وكذلك قوله تبارك وتعالى في حق داود عليه السلام: ﴿واذكر عبدنا داود ذا الأيدٍ إنه أواب﴾ أي صاحب القوة في دين الله عز وجل وقد كان رسول الله ﷺ يدعو لحسان بن ثابت شاعر رسول الله ﷺ ورضي الله عنه فيقول: اللهم أيّده بروح القدس، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرّ بحسان وهو ينشد الشعر في المسجد فلحظ إليه، فقال: قد كنت أنشد فيه، وفيه من هو خير منك، ثم التفت إلى أبي هريرة فقال: أنشدك الله أسمعت رسول الله ﷺ يقول: «أجب عني اللهم أيّده بروح القدس». وفي الصحيحين أيضا عن البراء أن رسول الله ﷺ قال لحسان: «اهجهم - أو هاّجهم - وجبريل معك» وقال حسان رضي الله عنه:

وجبريلُ رسولُ الله فينا وروح القدس ليس به خفاء
وقد كانت جميع رسل بني إسرائيل يحكمون بشريعة موسى عليه السلام
وينفذون أحكام التوراة، مع ما يوحيه الله عز وجل إليهم من بعض الأحكام
في بعض القضايا التي تستجد، وكذلك أنبياءهم غير المرسلين، كما قال عز

وجل : ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونورٌ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا
للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استُحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه
شهداء، فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا، ومن لم
يحكم بها أنزل الله فأولئك هم الكافرون * وكتبنا عليهم فيها أن النفس
بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح
قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له، ومن لم يحكم بها أنزل الله فأولئك هم
الظالمون﴾ وقد تقدّم في تفسير قوله عز وجل : ﴿ويقتلون النبيين بغير الحق﴾
أن النبي من بعثه الله بشريعة جديدة يدعو إليها أو بعثه لتقرير شريعة
سابقة، وأن الرسول من بعثه الله بشريعة جديدة يدعو إليها، وأن كل رسول
نبي وليس كل نبي رسولا، وقد أنزل الله عز وجل الزبور على داود والإنجيل
على عيسى عليهما السلام وفي ذلك يقول الله عز وجل : ﴿وآتينا داود زبوراً﴾
ويقول : ﴿وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة
وآتينا الإنجيل فيه هدى ونورٌ ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة
للمتقين﴾ . وقوله عز وجل : ﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم
استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون﴾ هذه هي القاعدة عند بني إسرائيل
مع أنبياء الله ورسله وأن مدار قبولهم للحق أو رده هو شهوات أنفسهم
وأهواؤها فإذا اتاهم الرسول بخلاف ما يهون كذبوه وربما قتلوه، ولا يقبلون
من الحق الذي يجيء به الأنبياء والمرسلون سوى ما يشتهونه وتميل إليه
أنفسهم التي جبلت على حب العلو في الأرض بغير الحق، وجمع الخطام،
واتباع الشهوات، وهذا أقصى ما توصف به النفس الإنسانية من الذم،
وأقبح أخلاق بني آدم، وفيه تسلية ومواساة لرسول الله ﷺ الذي كان يعرفه
أحبار بني إسرائيل قبل مجيئه كما يعرفون أبناءهم، ومع ذلك كذبوه وتعاونوا
مع المشركين والمنافقين على محاربة دعوته والصّد عن سبيل الله، والهوى :

الميل إلى الشيء ومحبتة والهوى: السقوط، تقول: هوى فلان هذا الشيء يهوى هوى إذا أحبه ومال إليه، وتقول: هوى يهوى هوىًا إذا سقط وانحدر، ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾ وقوله: ﴿استكبرتم﴾ أي تكبرتم عن اتباعه وطاعته، والاستفهام في قوله: ﴿أفكلما جاءكم رسول﴾ للتوبيخ لهم على هذا الخلق الذميم وللتعجب من هذا السلوك المنحرف المعوج. ومحلّ الاستفهام التوبيخي هو قوله: ﴿استكبرتم﴾ أي استكبرتم كلما جاءكم رسول الخ أي بادرتهم فريقا من الرسل بالكذب وفريقا آخر بالقتل وقدم الكذب لأنه أوّل ما يفعلونه مع أنبيائهم ورسلمهم من الشر، إذ هو مشترك بين المقتول وغيره فهم قد كذبوا الذين قتلوهم من الرسل والأنبياء أيضا، وإنما لم يصرح بأنهم كذبوا من قتلوهم من الرسل؛ لأن جريمة قتلهم أكبر من جريمة تكذيبهم، والتعبير بالمضارع في قوله عز وجل: ﴿وفريقا تقتلون﴾ لاستحضار الصورة الفظيعة التي ارتكبوها وللايحاء بما حاولوه من قتل رسول الله ﷺ أكثر من مرة حيث عزموا على رمي حجر كبير فوق رأسه ﷺ وهو في بني النضير كما حاولوا قتله بالسّم في خيبر عندما قدموا له شاة مسمومة. وقد قتلوا من المرسلين زكريا ويحيى وغيرهما وكما همّوا كذلك بقتل عيسى فلم يمكنهم الله تبارك وتعالى من ذلك بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما. وقوله تعالى: ﴿وقالوا: قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون﴾ هذا بيان آخر لبعض قبائح بني إسرائيل المعاصرين لرسول الله ﷺ، وجيء به على سبيل الالتفات من الخطاب إلى الغيبة إشعارًا بأنهم مستحقون للإعراض عنهم تقييحا لشأنهم، وازدراء لهم، و﴿غُلف﴾ جمع أغلف وهو ما وضع في غلاف وغطاء وُلّف به وعُصِب عليه، أي وقالوا: قلوبنا في أكنة وأغطية تغطيها فلا يصل إليها شيء مما يخبرهم به رسول الله ﷺ

من وجوب طاعتهم لله وإيمانهم برسوله والانقياد لشرعه ، وقد صاروا بهذا القول متماثلين مع مشركي قريش الذين قالوا لرسول الله ﷺ : ﴿قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب﴾ وقوله تعالى : ﴿بل لعنهم الله بكفرهم﴾ أي بل طردهم الله تعالى وأبعدهم عن رحمته ، وأقصاهم وأخزاهم وخذلهم ، بسبب كفرهم بالله وجحودهم لنعمه وتكذيبهم لرسوله واتباعهم للشيطان و(بَلْ) في هذا المقام للإضراب الإبطالي ، فليس عدم قبولهم للحق هو ما زعموه من أن قلوبهم غلف فإن الله تبارك وتعالى خلق عباده حنفاء فاجتالتهم الشياطين وحولتهم عن الطريق المستقيم ، والفطرة التي فطر الله الناس عليها ، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تُتَّج البهيمة بهيمةً جمعاء هل تُحْسِن فيها من جدعاء» ثم يقول : ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم﴾ ، كما روى مسلم في صحيحه من حديث عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته : «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا : كل مال نحلته عبداً حلالاً ، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب ، وقال : إني بعثتك لأبتيك وأبتي بك ، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء ، تقرؤه نائماً ويقظان ، وإن الله أمرني أن أحرق قريشاً فقلت : رب إذا يثلغوا رأسي فيدعوه خبزاً ، قال : استخرجهم كما استخرجوك ، واغزهم نُغْزِكَ ، وابعث جيشاً نبعث خمسة مثله ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك» . الحديث وقوله تبارك وتعالى :

﴿فقليلًا ما يؤمنون﴾ قال ابن جرير رحمه الله : أخبر أنه لعن الذين وصف صفتهم في هذه الآية ثم أخبر عنهم أنهم قليلو الإيمان بما أنزل الله إلى نبيه محمد ﷺ ، ولذلك نصب قوله : ﴿فقليلًا﴾ لأنه نعت للمصدر المتروك ذكره ، ومعناه : بل لعنهم الله بكفرهم فإيماناً قليلاً ما يؤمنون اهـ وقال القرطبي : وقال معمر : المعنى لا يؤمنون إلا بقليل مما في أيديهم ويكفرون بأكثره اهـ .

قال تعالى : ﴿ولما جاءهم كتابٌ من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾ * بنسأ اشترى به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب ، وللكافرين عذاب مهين * وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا : نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم ، قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ﴿ .

هذا نوع آخر من قبائح اليهود وسوء سيرتهم ، وكفرهم بما سبق أن أعلنوا إيمانهم به ، وذلك أنهم لما استفاض عندهم وصف محمد رسول الله ﷺ ، بسبب وصف أنبياء بني إسرائيل ورسلم له ﷺ ، وأنه يبعث من برية فاران ويهاجر إلى أرض سبخة ذات نخيل بين لابتين ، وأنه يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، وأن بين كتفيه خاتم النبوة كرز الحجلة في أمارات لا تخفى سارع أحبار من بني إسرائيل إلى الخروج إلى أرض العرب ينتظرون مجيء هذا النبي ﷺ ، وكان هؤلاء المهاجرون من بني إسرائيل هم آباء بني النضير وبني قريظة وبني قينقاع ، وقد اختار أكثرهم يثرب لانطباق وصف مهاجر رسول الله ﷺ عليها ، وكانت يثرب قبل مجيئهم إليها قد سكنها الأوس والخزرج ، وقد حالف بنو قينقاع وبنو النضير الخزرج كما حالف بنو قريظة الأوس على ما تقدم في تفسير قوله تعالى : ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم﴾ إلى نهاية الآية السادسة والثمانين من هذه السورة المباركة وقد صارت اليهود إذا قامت حربٌ بينهم وبين العرب الوثنيين من الأوس أو الخزرج أو غيرهم استفتحوا عليهم وقالوا لهم : إن نبياً مبعوث الآن قد أظلم زمانه ، وأنهم سيتبعونه إذا ظهر ، وأنهم سيقاتلون معه أهل

الأوثان، وكان كلام اليهود هؤلاء هو السبب في مسارعة الأوس والخزرج إلى الدخول في الإسلام، فإن الله تبارك وتعالى لما أراد إظهار دينه وإعزاز رسوله، وإنجاز وعده خرج رسول الله ﷺ في الموسم ليعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم، فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً، فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أنتم؟» قالوا: نفرٌ من الخزرج، قال: «أمن موالي يهود؟» قالوا: نعم، قال: «أفلا تجلسون أكلمكم؟» قالوا: بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فقال بعضهم لبعض: يا قوم تعلمون والله إنه النبي الذي توعدكم به اليهود فلا يَسْبِقُنْكُمْ إليه، فسارعوا إلى الإيمان بالله والاستجابة لرسوله ﷺ، وبالرغم من أن اليهود قد حاولوا كتمان صفة رسول الله ﷺ بعد ظهوره صلوات الله وسلامه عليه فإنهم قد فاتتهم أشياء من صفاته لم يستطيعوا كتمانها، حيث لم يزل موجوداً في التوراة وغيرها من كتب العهد القديم بعض صفات رسول الله ﷺ ومن ذلك قوله في التوراة: سأقيم لبني إسرائيل من إخوتهم مثلك يا موسى أنزل عليه توراَةً وأجعل كلامي على فيه. ولم يأت رسول قط يذكر أن معجزته كلام الله سوى محمد ﷺ والمراد بالتوراة في هذا النص الشريعة إذ إن معنى التوراة هو الشريعة، كما جاء في التوراة: جاء الله أو تجلّى الله من طور سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلّى أو استعلن من جبال فاران. وهذا النص لا غموض فيه إذ الجملة الأولى قد قصد بها تقرير شريعة موسى عليه السلام وإنزال التوراة عليه في طور سيناء، والجملة الثانية بشارة بعيسى عليه السلام المبعوث من ساعير بالجليل من فلسطين، والجملة الثالثة بشارة بمحمد رسول الله ﷺ المبعوث من بلاد فاران، التي لاشك عند أهل العلم بجزيرة العرب أنها جبال مكة، وهذه الأماكن الثلاثة قد أقسم الله بها في القرآن العظيم حيث يقول عز وجل:

﴿والتين والزيتون﴾ * وطور سينين * وهذا البلد الأمين ﴿ فالتين والزيتون جبلان من جبال بيت المقدس أنزل الله الوحي على عيسى عندهما، وطور سينين هو الجبل الذي كلّم الله موسى عنده وآتاه التوراة، والبلد الأمين مكة التي بعث الله منها محمدا ﷺ، والقرآن رتبها بحسب التدرّج إلى أعلى، والتوراة ذكرتها بحسب الترتيب الزمني .

هذا ولا يزال إلى اليوم في كتب العهد القديم ذكر سَلْع وهو الجبل الواقع داخل المدينة المنورة والمعروف إلى اليوم حيث أشير في النص الإسرائيلي إلى فرحه وتهلله واستبشاره بمقدمه ﷺ، فمعرفة أحبار بني إسرائيل بصفات رسول الله ﷺ بلغت حدّا يساوي معرفة الإنسان بولده، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، وفي هذا يقول الله عز وجل : ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدّق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾ أصل تقدير الكلام : ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم كفروا به وكانوا من قبل يجيئه يحلفون للمشرّكين من الأوس والخزرج وغيرهم من الوثنيين العرب أن زمان النبي قد أظلمهم وأنهم سينصرونه ويؤيدونه ويقتلون الوثنيين ويتنصرون عليهم معه فلما جاءهم النبي الذي عرفوه كفروا به . فالكلام مكوّن في الأصل من جملتين شرطيتين وجملة معترضة بينهما، وقد حذف جواب الأولى لدلالة جواب الشرطية الثانية عليه، وحذف جواب الشرط إذا دل عليه دليل هو شائع في اللسان العربي قال ابن جرير رحمه الله عن جواب الشرطية الأولى في هذه الآية الكريمة : هو مما ترك جوابه استغناء بمعرفة المخاطبين به بمعناه، وبما قد ذكر من أمثاله في سائر القرآن، وقد تفعل العرب ذلك إذا طال الكلام فتأتي بأشياء لها أجوبة، فتحذف أجوبتها لاستغناء سامعيها بمعرفتهم بمعناها عن ذكر الأجوبة، كما قال جل ثناؤه : ﴿ولو أن قرآنا سُيِّرَتْ به الجبال أو قُطِعَتْ به الأرض أو كُلِّمَ به الموتى

بل الله الأمر جميعاً ﴿ فترك جوابه والمعني : ولو أن قرآنا سوى هذا القرآن سِرت
 به الجبال لسِرت بهذا القرآن ، استغناء بعلم السامعين بمعناه ، قالوا :
 فكذلك قوله : ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ﴾ اهـ .
 والمقصود بالكتاب في قوله : ﴿ ولما جاءهم كتاب ﴾ هو القرآن العظيم .
 ومعنى قوله : ﴿ مصدق لما معهم ﴾ أي موافق لما عند أهل التوراة من الإقرار
 بالله وبالرسالة وما اشتملت عليه التوراة وغيرها من كتب العهد القديم من
 النعوت والصفات والعلامات التي تشهد أن محمدا رسول الله . وقوله تعالى :
 ﴿ فلعنة الله على الكافرين ﴾ أي فخزي الله وسخطه على الجاحدين الكاتمين
 لصفات محمد ﷺ وهم يعرفونها أتم المعرفة ، وكان مقتضى السياق أن يقول :
 فلعنة الله عليهم ، لكن مقتضى الحال يقتضي تسجيل صفة الكفر عليهم
 فلذلك وضع الظاهر موضع الضمير حيث قال : ﴿ فلعنة الله على
 الكافرين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ بشما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله
 بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ﴾ أي قبح وذم ما استبدل
 واعتاض به هؤلاء اليهود أنفسهم كفرهم بما أنزل الله من القرآن الكريم على
 نبيه العظيم محمد ﷺ وما كان كفرهم إلا للبغي والحسد وطلب ما ليس لهم ،
 وكان هذا البغي والحسد منهم لأجل أن الله نزل القرآن من فضله على حبيبه
 ومجتابه وخيرته من خلقه محمد ﷺ ، وهم يريدون حَصْر النبوة فيمن يختارونه
 هم لا فيمن يختاره الله ويصطفيه ، فما أقل حياءهم وما أفحش بغيهم
 وتعتتهم ، والعرب أكثرها من استعمال كلمة (اشترى) فيمن أخذ السلعة
 ودفع الثمن و(شرى) فيمن باع السلعة وأخذ الثمن ، وقد يستعملون : شرى
 واشترى بمعنى باع قال الفيروزآبادي في القاموس المحيط : شراه يشريه ملكه
 بالبيع وباعه كاشترى فيهما ضدّ اهـ وهؤلاء اليهود لعنهم الله قد خسروا
 أنفسهم بسبب حسدهم لرسول الله ﷺ لنزول القرآن العظيم عليه ، ويريدون

حصر النبوة في ذرية إسحاق بن إبراهيم وحرمان ذرية إسماعيل منها وهم
 يعلمون علم اليقين أن إسماعيل وإسحاق هما ولدا خليل الرحمن عليهما
 السلام وقد أشار الله عز وجل إلى ذلك حيث يقول : ﴿ألم تر إلى الذين أتوا
 نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا : هؤلاء
 أهدى من الذين آمنوا سبيلا ﴾ أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن
 تجد له نصيرا * أم لهم نصيبٌ من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا * أم
 يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب
 والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما ﴿ وقد أشار عز وجل في قوله : ﴿أم لهم نصيب
 من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا﴾ إلى أن اليهود لو كان لهم تصرف في
 ملك السموات والأرض لحرموا الناس من كل خير وكانوا لا يعطون من الخير
 مهما كان تافها قدر النقرة في ظهر النواة . وقد وافق اليهود في هذه السفاهة
 من إرادة التحكم في رحمة الله إخوانهم مشركي قريش حيث أرادوا حصر النبوة
 فيمن كان ذا مال ظنا منهم أن مقاييس الرجال هي بقدر ما بأيديهم من المال
 فرد الله تبارك وتعالى عليهم مبينا لهم أن النبوة والرحمة رزق من الله يؤتيه الله
 من يشاء وأن قريشا أو غيرهم ليس بيدهم شيء من خزائن السموات
 والأرض بل خزائن الرحمة بيده حيث يقول عن مقالة قريش : ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ
 الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ، بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابَ ﴾ * أم عندهم
 خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ﴿ وقال عز وجل : ﴿وقالوا : لولا نَزَّلَ هَذَا
 الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ * أنهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا
 بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ
 بعضهم بعضا سُخْرِيًا ورحمة ربك خيرٌ مما يجمعون ﴾ ولولا أن يكون الناس
 أمةً واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سُقُفًا من فضة ومعارج عليها
 يظهرون ﴾ ولببوتهم أبوابا وسُرُرًا عليها يتكئون ﴾ وزخرفا ، وإن كل ذلك لما
 متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين ﴿ وقوله تبارك وتعالى : ﴿فبأءوا

بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين ﴿أي فاستوجبوا واستحقوا، واستقروا ورجعوا بسخط ولعنة ومقت من الله عليهم لكفرهم بحبيبه ومصطفاه محمد رسول الله ﷺ مع ما استحقوه من غضب ومقت وسخط من الله عليهم لقبائحهم السابقة، وجرائمهم المتلاحقة بقتلهم للأنبياء وتكذيبهم للمرسلين، وقوله عز وجل: ﴿وللّٰكافرين عذاب مهين﴾ أي وهؤلاء اليهود عقاب شديد عند الله عز وجل يهينهم ويذلهم جزاء ما اقترفوه من تكذيبهم للرسل وقتلهم للأنبياء وحرصهم على العزة الكاذبة والرياسة الزائلة في عذاب أبدي سرمدي لا يخفف عنهم، ولا يشفع فيهم شافع ولا يدفع عنهم دافع، وكان مقتضى السياق أن يقال: ولهم عذاب مهين، لكن مقتضى الحال اقتضى وضع الظاهر موضع الضمير لتسجيل صفة الكفر عليهم المشعرة بعلية استحقاقهم لغضب من الله على غضب ولذلك العذاب المهين. وقوله عز وجل: ﴿وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾ أي وإذا دعا اليهود داع وطلب منهم المسارعة إلى الإيمان بمحمد ﷺ وبما أنزل الله من القرآن أجاب هؤلاء اليهود لعنهم الله بأنهم إنما يؤمنون بالتوراة وحدها ويكذبون بكل كتاب سواها حيث يكفرون بالإنجيل المنزل على عيسى والقرآن المنزل على محمد صلى الله عليهما وسلم، والحال أن هذا القرآن المنزل على محمد ﷺ هو الحق الثابت المقطوع بحقيقته لأنه لا يلحقه تغيير ولا تبديل ولا تحريف حالة كونه موافقا للأصول الموجودة في التوراة حيث شرع الله فيه ما وصى به نوحا وإبراهيم وموسى عليهم السلام، ولو كنتم صادقين في دعواكم الإيمان بالتوراة والالتزام بها فلم قتلتم أنبياء الله الذين بعثهم الله ليحكموا بالتوراة بينكم، وما دمت قد قتلتم الأنبياء فإنكم غير مؤمنين بما في التوراة، وغير مصدقين للأنبياء، فدعواكم منقوضة بسلوككم الشاهد على كفركم وجحودكم.

قال تعالى : ﴿ ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ﴾ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا : سمعنا وعصينا وأُشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين * قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصةً من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين * ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين * ولتجدنهم أحرص الناس على حياةٍ ومن الذين أشركوا يودّ أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون ﴾ .

في هذا المقام الكريم من هذه السورة المباركة يكرر الله تبارك وتعالى التنديد ببني إسرائيل الذين كذبوا رسوله محمدا ﷺ ، وصدوا عن سبيل الله وتعاونوا مع المشركين والمنافقين على الإثم والعدوان ومعصية الرسول وزعموا أنهم لن يؤمنوا إلا بالتوراة التي جاءهم بها موسى عليه السلام ولن يؤمنوا بكتاب جاء بعدها ، فأكد الله تبارك وتعالى بتكرير أن موسى جاءهم بالبينات وأنهم بعد رؤيتهم لهذه البينات الواضحة والمعجزات الظاهرة عبدوا العجل من بعد ذهابه إلى ميقات ربه ، وأنهم لما أمرهم الله عند أخذ الميثاق عليهم ورفع الجبل فوقهم كأنه ظلة : خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا ، لم يقولوا سمعنا وأطعنا بل قالوا سمعنا وعصينا ، ومن كانت هذه حالهم فهم قريبون من كل شر بعيدون عن كل خير ، وفي هذا تسليّة لرسول الله محمد ﷺ ومواساةً له حتى لا ينزعج من سوء ردهم لأنهم إذا كانوا فعلوا هذا مع موسى عليه السلام وهو من بني إسرائيل ، وقد رفع الله عنهم به شرور فرعون وملئه ، فلا يستكثر الشرّ منهم مع غيره ﷺ مع أن هذا التكرير في المعاني مع ما اشتمل عليه من ضروب الفصاحة وأساليب البلاغة والبيان هو أحد معاني كون القرآن العظيم

متشابهها مثاني وهو من دلائل الإعجاز. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات﴾ أي وتالله لقد أتاكم موسى كليم الله عليه السلام بالمعجزات الظاهرات، والحجج القاهرة فأبصرتموها بعيونكم، وتأكدت لديكم كتأكد رؤيتكم للشمس في راحة النهار ليس دونها سحب ومع ذلك عصيتم أمره ونقضتم عهده، والمراد بالآيات في هذا المقام هي المعجزات الكونية وهي العصا التي تحولت ثعبانا حتى كاد ينخلع قلب فرعون لها واليد التي أدخلها في جيبه سمراء فخرجت بيضاء من غير برص ولا سوء والجراد الذي سلطه الله على قوم فرعون حتى صار يخالطهم في كل شيء، والقمل والضفادع كذلك والدم الذي يجدونه في طعامهم وشرابهم والسنون، والطوفان، وفلق البحر بعصا موسى عليه السلام حتى جعل لهم طريقا في البحر يبسا. وقوله تبارك وتعالى ﴿ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾ أي عبدتم العجل الذي صنعه لكم السامري واتخذتموه إلهًا من دون الله بعد أن فارقكم موسى ذاهبا إلى ميقات ربه. وقد فعلتم ما فعلتم وأنتم مرتكبون لأفحش الظلم وأعظمه حيث أشركتم بالله وإن الشرك لظلم عظيم، وهذا توبيخ من الله تبارك وتعالى لليهود وتبكيته لهم على سوء صنيعهم في إشراكهم بالله ومخالفتهم للأنبياء وتأنيب لهم على أنهم إذا كانوا فعلوا ما فعلوا من اتخاذ العجل إلهًا مع أنهم يرون أنه لا يملك لهم ضرا ولا نفعًا وأن الله الملك الحق المبين الذي أيّد موسى بالمعجزات وأجرى على يديه الأعاجيب التي أيقن فرعون وملؤه أنهم عاجزون عن مقارعتها ومع قرب مشاهدة بني إسرائيل لما عاينوه من عجائب قدرة الله فهم إلى تكذيب محمد ﷺ وجحود ما في كتبهم التي يزعمون أنهم مؤمنون بها من صفات رسول الله ﷺ والتي كانوا يستفتحون على العرب بسبب وقوفهم عليها أسرع وأقرب لطول الأمد، وقوله تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ قد

تقدم تفسيره ، وقوله تعالى : ﴿ واسمعوا ﴾ أي وأطيعوا ما سمعتم من أوامر الله واعملموا بهذه الأوامر ، وقوله تعالى : ﴿ قالوا سمعنا وعصينا ﴾ هو أجلى بيان يصوّر سوء أخلاقهم وسفاهة نفوسهم ، أي بدل أن يقولوا سمعنا وأطعنا قالوا : سمعنا وعصينا ، ولذلك وبخهم الله تبارك وتعالى على هذا الخلق الذميم في مقام آخر من كتابه الكريم حيث يقول عز وجل في سورة النساء ﴿ من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا ، واسمع غير مُسمع وراعنا لِيَأْ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا : سمعنا وأطعنا وأسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردّها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا ﴾ وإذا كان أسلافهم قد قالوا سمعنا وعصينا مع مشاهدتهم رفع الجبل فوق رؤوسهم فكيف يكون حال أخلافهم الذين قد طال الأمد بينهم وبين آبائهم . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعَجَلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ أي وتغلغل حبّ عجل السامري في قلوبهم ، يقال : أَشْرَبَ فلان حبّ كذا أي تغلغل حبّه في قلبه وخالط شغافه ، ومنه قول زهير بن أبي سلمى المزنيّ :

فصحوت عنها بعد حبّ داخل والحبُّ يُشربُه فـؤادُك داءٌ
ومنه قول الشاعر وقد عتب على زوجته عثمة في بعض الشئون فطلقها وازداد ولها بها :

تغلغل حبّ عثمة في فؤادي فباديه مع الخافي يسير
تغلغل حيث لم يبلغ شراب ولا حزنٌ ولم يبلغ سرور
أكاد إذا ذكرت العهد منها أطيّر لو أنّ إنساناً يطيرُ
وإنها لم يقل الله عز وجل : وأشربوا في قلوبهم حبّ العجل لأن ذلك

معلوم عند العرب ، قال ابن جرير: ولكنه ترك ذكر الحب اكتفاء بفهم السامع لمعنى الكلام إذ كان معلوماً أن العجل لا يُشرب القلب ، وأن الذي يُشرب القلب منه حُبّه اهـ وقد جاء في الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه عن رسول الله ﷺ قوله : « تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً فأَيُّ قلبٍ أشربها نكت فيه نكتةٌ سوداء » . والباء في قوله تعالى : ﴿ بكفرهم ﴾ للسببية أي وخالط حبّ العجل شغاف قلوبهم بسبب مسارعتهم إلى الكفر وانغماسهم فيه ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قل بثّما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴾ هذا أمر من الله عز وجل لحبيبه ورسوله وأفضل خلقه محمد ﷺ يأمره فيه أن يوتّخ هؤلاء اليهود الذين يزعمون أنهم لن يؤمنوا بمحمد ﷺ ولن يؤمنوا بالقرآن الذي أنزله الله عليه لأنهم إنما يؤمنون فقط بما أنزل عليهم من التوراة وما اختص به بنو إسرائيل فلن يؤمنوا بنبي من غير بني إسرائيل فأمر الله رسوله ﷺ أن يوتّخهم وأن يقول لهم : بثّما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ، أي قبح وذمّ هذا النوع الذي سمّيتموه إيانا وقبح وذم ما يأمركم به هذا الإيـمان الزائف المفترى والدعوى الكاذبة لأن الإيـمان الحق هو الذي جاء به المرسلون وهو لا يأمر بتكذيب المرسلين وقتل الأنبياء فلو كانت دعواكم بأنكم مؤمنون دعوى صادقة ما قتلتم الأنبياء وما كذبتهم المرسلين ، ولسارعتم إلى الإيـمان بمحمد ﷺ الذي تعرفونه قبل مجيئه كما تعرفون أبناءكم بسبب ما وصفه الأنبياء لأمتهم من صفاته ﷺ ، وقوله تعالى : ﴿ قل إن كانت لكم الآخرة عند الله خالصةً من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ أي أخبر اليهود يا محمد وقل لهم : أنتم تزعمون أن الجنة لكم خاصة وأن نعيم الآخرة لن يشارككم فيه أحد ، فتمنوا الموت إن كنتم صادقين في دعواكم أن الجنة لكم خاصة وأنه لن يدخل الجنة إلا اليهود ، حيث قلت : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ، فإذا كنتم محقّين في دعواكم

فتمنوا الموت ؛ لأن من أيقن أنه من أهل الجنة فإنه يتمنى سرعة دخولها والله تبارك وتعالى قضى أن الجنة خالصة لكل مؤمن من أي لون أو جنس أو مصر أو عصر حيث يقول في الطيبات من الرزق : ﴿ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ﴾ أي يشترك فيها الكافرون مع المؤمنين في الحياة الدنيا ويختص بها المؤمنون يوم القيامة فلا يشاركهم فيها أحد ، كما ثبت أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ لما بشره رسول الله ﷺ بالجنة وكان يأكل تمرات في يده وهو في المعركة ألقى التمرات وقال : إن عشت حتى أكلها فإنها حياة طويلة وقاتل حتى استشهد رضي الله عنه فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه في قصة غزوة بدر قال : وجاء المشركون فقال رسول الله ﷺ : « لا يقدّم أحدٌ منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه » ، فدنا المشركون فقال رسول الله ﷺ : « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض » قال : يقول عُمَيْرُ بن الحُمام الأنصاري : يا رسول الله : جنة عرضها السموات والأرض ، قال : « نعم » قال : بخ بخ ، فقال رسول الله ﷺ : « ما يحملك على قولك : بخ بخ » ، قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها ، قال : « فإنك من أهلها » ، فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ، ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه ، إنها لحياة طويلة ، قال : فرمى بها كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل رضي الله عنه . وقد أعلم الله رسوله ﷺ أن اليهود لن يتمنوا الموت أبدا وأنهم أحرص الناس على حياة وأن الواحد منهم يتمنى أن يعيش ألف سنة . ففضح اليهود وأكذبهم في دعواهم أنهم هم أهل الجنة خاصة وأنهم لن تمسهم النار إلا أياما معدودة فقال تبارك وتعالى : ﴿ ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ﴾ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يودّ أحدهم لو يُعمرَ ألف سنة وما هو بمزخرجه من العذاب أن يُعمرَ والله بصير بما يعملون ﴾ أي ولن يشتهي أحد

من اليهود أن يعجل بموته لعلمهم بسوء صنيعهم ، وقبيح أفعالهم وفاحش ظلمهم وكفرهم ، بل هم أحرص الناس على الحياة زيادة على عدم تمنى الموت بل هم أحرص على الحياة من المشركين لأن المشركين لا يقرون بالبعث ولا يخافون من النار لأنهم لا يقرون بها ، بخلاف اليهود فإنهم يقرون بالنار ومع ذلك لا يعملون إلا عمل أهل النار، فهم أشد الناس كراهية للموت ، ويتمنى اليهودي أن يعيش ألف سنة مع أنه مهما طال عمره فلن يزحزح عن النار ولن يبعد عنها فهو من أهلها المخلدين فيها* ولا يخفى على الله شيء من قبيح أعمالهم ، وكما قال عز وجل : ﴿ قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ * ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين * قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ .

قال تعالى : ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزّله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ﴾ * من كان عدواً لله وملائكته ورسوله وجبريل وميكال فإن الله عدوّ للكافرين * ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون * أو كلّما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم ، بل أكثرهم لا يؤمنون * ولما جاءهم رسول من عند الله مصدّق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ﴾ .

لا تعلم الإنسانية في تاريخها الطويل أنّ أحداً عادى الملائكة سوى إبليس واليهود وبعض المتأثرين بعبد الله بن سبأ اليهودي من أهل الأهواء الذين يزعمون أن جبريل خان الأمانة لما نزل بالوحي على محمد ﷺ بدل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ولذلك يقولون عند انصرافهم من الصلاة : خان الأمين ، خان الأمين ، وقد نال جبريل عليه السلام من عداوة اليهود ما لم ينله ملك من الملائكة الكرام سواء ، وقد تقدم في تفسير قوله تبارك وتعالى : ﴿ وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ﴾ أن عبد الله بن سلام رضي الله عنه لما سأل رسول الله ﷺ عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي وهي أول أشراط الساعة وأول طعام أهل الجنة وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه فلما قال له رسول الله ﷺ : « أخبرني بهن جبريل آنفاً » ، قال : جبريل ؟ قال : « نعم » . قال : ذاك عدو اليهود من الملائكة . فقرأ هذه الآية : ﴿ من كان عدواً لجبريل فإنه نزّله على قلبك بإذن الله ﴾ ، والمعروف أن جميع المقرين بالملائكة يحبونهم لأنهم عباد مكرمون وقد غالى بعض الغالين من محبي الملائكة فعبدوهم من دون الله ، تعالى الله عن الشريك والتّد والنظير . وقد بلغ اليهود بعداوتهم للملائكة مبلغاً من الوقاحة والسفاهة يؤذن بعدم انتظار أي خير منهم ، ولا شك أن من عادى جبريل عليه السلام فقد عادى الله ؛ لأنه من أئمة أولياء الله ورسوله

من الملائكة الكرام المصطفين كما قال عز وجل : ﴿الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس﴾ وقد آذن الله تبارك وتعالى من عادى وليا من أوليائه بالحرب كما جاء في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله تعالى قال : من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب» . الحديث . ولذلك أمر الله تبارك وتعالى نبيه محمدا ﷺ فقال له : ﴿قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين﴾ من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين﴾ وذلك أن من عادى ملكا من الملائكة فهو عدو لله ولجميع الملائكة ولجميع المرسلين ومن عادى رسولا من المرسلين أو نبيا من النبيين فهو عدو لله ولجميع الأنبياء والمرسلين ، لأن القاعدة التي جاء بها الرسل أن معاداة نبي أو رسول تكون معاداة لجميع الأنبياء والمرسلين ولذلك كرر الله تبارك وتعالى هذا المعنى في كتابه الكريم حيث يقول : ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾ مع أنهم ما جاءهم إلا نوح عليه السلام لكن لما كان تكذيبهم لنوح عليه السلام تكذيبا لجميع المرسلين جعلهم مكذبين لجميع الرسل وكذلك قال عز وجل : ﴿كذبت عاد المرسلين﴾ وقال : ﴿كذبت ثمود المرسلين﴾ وقال : ﴿كذبت قوم لوط المرسلين﴾ وقال : ﴿كذب أصحاب الأيكة المرسلين﴾ وقال : ﴿كذبت ثمود بالنذر﴾ وقال : ﴿كذبت قوم لوط بالنذر﴾ وكل هذا لتقرير أن من كذب رسولا فقد كذب جميع المرسلين . ومن عادى نبيا فقد عادى جميع الأنبياء ، ومن عادى ملكا فقد عادى جميع الملائكة ، وجواب قوله : ﴿من كان عدوا لجبريل﴾ مضمراً تقديره عاداه الله وآذنه بالحرب يدل عليه قوله تعالى في تذييل الآية التي تلي هذه الآية : ﴿فإن الله عدو للكافرين﴾ وقوله عز وجل : ﴿فإنه نزله على قلبك بإذن الله﴾ أي فإن جبريل نزل القرآن على قلبك يا محمد بأمر من الله

عز وجل كما قال عز وجل : ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين ﴾ وفي هذا ثناء على جبريل عليه السلام بأنه حامل الخير للإنسانية لهداها وبشرها فلا يعاديه إلا من انتكست فطرته ، وانحرف عن الصراط المستقيم ، وفي التعبير بقوله : ﴿فَإِنَّهُ نَزَلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ إشارة إلى معجزة كبرى وهي حفظ رسول الله ﷺ للقرآن لأن جبريل إنما يقرؤه عليه عند نزوله مرة واحدة فينتقش في قلب رسول الله ﷺ ، وقد يكون المنزل في الدفعة الواحدة طويلاً كسورة الأنعام التي نزلت دفعة واحدة ، كما قد يتباعد وقت النزول بين آية والتي تليها في ترتيب المصحف إلى عشر سنوات فأكثر ومع ذلك لا يضيع منه شيء ولا يختلط عليه ترتيبه وهو الأُمِّي ﷺ مع أنه أشد تفلتاً من صدور الرجال من الإبل المعقّلة . وقوله تعالى : ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي موافقاً لما سبقه من الكتب السماوية في أصول الدين ، وقوله : ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وهذا القرآن الذي نزل به جبريل على قلب رسول الله محمد ﷺ يرسم للإنسانية أحسن المناهج ويدها على أرقى الأنظمة فيهدي به من شرح الله صدره للإسلام ، وهو بشارة لمن تمسك به بالجنة دار السلام ، وقوله عز وجل : ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ هو لتقرير وتأكيد مضمون ما تقدم في الآية السابقة من أن عدو جبريل عدو الله وملائكته ورسله ، وهو توبيخ لليهود الزاعمين أنهم يحبون بعض الملائكة ويبغضون جبريل كما يزعمون أنهم يؤمنون بموسى ويكفرون بعبسى ومحمد عليهما السلام ، فبين الله عز وجل أن من عادى جبريل فقد عادى جميع الملائكة ومن كفر برسول من الرسل فقد كفر بجميع المرسلين وأن من فعل ذلك كان عدواً لله مهما ادعى الإيمان ولذلك ذيل الآية بقوله : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ وكان مقتضى السياق أن يقال : فإن الله عدو لمن

عاداهم ، لكن مقتضى الحال يقتضي وضع الظاهر موضع الضمير لتسجيل صفة الكفر عليهم حتى لا يتشدقوا بدعوى الإيمان . وعطف جبريل وميكايل على الملائكة هو من عطف الخاص على العام كقوله تعالى : ﴿ تنزل الملائكة والروح ﴾ فإن الروح من الملائكة ، وعطف الخاص على العام يكون لمزية في الخاص ومنزلة يتميز بها عن العام ، وقد كان رسول الله ﷺ كثيرا ما يخص جبريل وميكايل وإسرافيل بالذكر فقد روى مسلم في صحيحه من حديث الصديقة بنت الصديق عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : كان النبي ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته فقال : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » . وفي جبريل لغات صحيحة فيقال فيه : جبريل وجبريل وجبرئيل وقد قرئ في المتواتر بها وفي ميكايل لغات كذلك فيقال فيه ميكايل وميكايل ، وميكائيل ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ولقد أنزلنا إليك آيات بيّنات وما يكفر بها إلا الفاسقون ﴾ قال ابن جرير رحمه الله : فتأويل الآية : ولقد أنزلنا إليك فيما أوحينا إليك من الكتاب علامات واضحات تبين لعلماء بني إسرائيل وأخبارهم الجاحدين نبوتك والمكذبين رسالتك أنك لي رسول إليهم ، ونبي مبعوث ، وما يجحد تلك الآيات الدالات على صدقك ونبوتك التي أنزلتها إليك في كتابي فيكذب بها منهم إلا الخارج منهم من دينه التارك منهم فرائضي عليه في الكتاب الذي تدّين بتصديقه ، فأما المتمسك منهم بدينه والمتبع منهم حكم كتابه فإنه بالذي أنزلت إليك من آياتي مصدق وهم الذين كانوا آمنوا بالله وصدقوا برسوله محمدا ﷺ من يهود بني إسرائيل اهـ ولا شك أن إخبار رسول الله ﷺ لبني إسرائيل بخفايا علوم اليهود ومكنون أسرار أخبارهم وأخبار آبائهم الأولين ،

التي لا يعلمها إلا علماؤهم وكبار أخبارهم والتي أرشدتهم فيها إلى ما حرفة أوائلهم وأواخرهم وبدّلوه من كلام الله ، وغيروه من أحكامهم كرجم الزاني وقطع يد السارق ، وغيرهما من الأحكام والحدود التي طبقوها على فقرائهم دون أغنيائهم وذوي الجاه منهم ، وهو يعلمون علم اليقين أن محمداً أميٌّ لم يخط بيده كتاباً ولم يتل التوراة وغيرها من كتب العهد القديم ، وإنما أطلعه الله تبارك وتعالى على ذلك بما أنزله عليه جبريل من القرآن كلام الله ، ولذلك يقول عز وجل : ﴿أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿أو كلّمّا عاهدوا عهداً نبذه فريقٌ منهم﴾ هي صورة واضحة بينة لأخلاق بني إسرائيل ، وأن هؤلاء اليهود لا يوفون بعهد ولا يبرون بوعده ، وأن ديدنهم ودأبهم هو نقض العهود والمواثيق فإذا عاهدوا الله أو عاهدوا رسله أو عاهدوا كائناً من كان لم يستقيموا على هذا العهد بل يسارع فريق منهم إلى نقضه ، وفي هذا تسليّة ومواساة لرسول الله محمد ﷺ ، وإخباره بأن هذه هي أخلاق بني إسرائيل المعاصرين لك ورثوها عن آبائهم غير الأنبياء والمرسلين ، فهي كما قيل : شنشنة معروفة من أخزم ، والاستفهام في قوله : ﴿أو كلّمّا عاهدوا عهداً نبذه فريقٌ منهم﴾ للإنكار والتوبيخ والتبكيّة وبيان فحش ما يقدمون عليه من نقض العهود والمواثيق ، والنبذ في الأصل الطرح والرمي ولذلك قيل للقيط أو الملقوط : المنبوذ وهو الذي يطرحه أهله بعد ولادته خوف لحوق العار بأهله ، ومن ذلك قول أبي الأسود الدؤلي :

نظرت إلى عنوانه فنبذته كنبذك نعلأ أخلقت من نعالكا

والمقصود من نبذ الميثاق والعهد نقضه ، وقوله تعالى : ﴿بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ لتأكيد أن أكثر بني إسرائيل على هذا الخلق ودفع ما قد يتوهم من أن الفريق الذي ينبذ العهد هم قلة منهم ، إذ أن الفريق قد يطلق على العدد القليل فيبين أن هذا حال أكثريتهم وإن كانت قلوبهم شتى ، وأما القليل فقد

آمنوا كعبد الله بن سلام رضي الله عنه . وقوله تعالى : ﴿ ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ﴾ أي ولما أتاهم رسول من عند الله تنطبق عليه جميع الصفات التي عرفوها في كتبهم ووصايا أنبيائهم طرحت طائفة من الذين عندهم علم من كتابهم هذا الكتاب وجعلوه وراء ظهورهم ، وكنتموا ما فيه من صفات رسول الله ﷺ وما عرفوا من الحق ، وصاروا بمنزلة الجاهلين الذين لم يقرءوا كتابهم ولم يعرفوا ما فيه ، والتنكير في قوله تعالى : ﴿ رسول ﴾ هو للتعظيم والتفخيم وقوله : ﴿ من عند الله ﴾ لتأكيد التفخيم والتعظيم لمحمد ﷺ ، وقوله : ﴿ مصدق لما معهم ﴾ لتأكيد التأكيد وأنه لا مزية عند من عنده أدنى معرفة بهذه الصفات أن محمدا رسول الله ﷺ . والمراد بقوله تعالى : ﴿ كتاب الله ﴾ يعني التوراة وهو مفعول نبذوا ، وأضيف الكتاب يعني التوراة إلى الله وإن كان التحريف قد أصابها ؛ لأن الأصل أنها من الله ولا سيما ما بقي فيها من الحق المقتضي لتوحيد الله عز وجل وتصديق المرسلين وصفات محمد رسول الله ﷺ .

قال تعالى : ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سَلِيمٍ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينُ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكِينَ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ، وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا : إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يَفْرُقُونَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ، وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَلَقَدْ عَلَّمُوا لِمَنْ اشْتَرَاهُ مَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ* وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ .

ساق الله تبارك وتعالى فيما مضى صوراً من صور سلوك اليهود المخزية لهم في الدنيا والآخرة من نقضهم للعهد وغدرهم بالمواثيق ، وتكذيبهم للمرسلين وقتلهم للأنبياء مع عبادتهم للعجل وكفرهم بنعم الله وآياته ، وفي هذا المقام الكريم يبيّن أنهم لم يكونوا يكتفون بتكذيب الأنبياء أو قتلهم بل كانوا يكذبون عليهم ، وينسبون لهم أقوالاً ما قالوها وأفعالا ما فعلوها ، وقد نال سليمان عليه السلام من كذبهم وافترائهم عليه الشيء الكثير ، واتبعوا في ذلك شياطين الجن والإنس التي تفتري وتختلق وتكذب على سليمان عليه السلام ، وقد كانت اليهود تكذب بنبوة داود وسليمان عليهما السلام ويزعمون أنهما ملكان فقط من ملوك بني إسرائيل وليسا بنبيين ، وقد زعمت لهم شياطينهم من اليهود وإبليس وجنوده من الجن والإنس أن سليمان كان ساحراً ، وأنه كان يحكم بني إسرائيل بواسطة خاتمه السحري ، وأنه كان إذا دخل بيت الخلاء دفع بالخاتم لزوجته لما فيه من ذكر الله حتى يخرج من الخلاء ، وأن الشيطان جاء إلى امرأة سليمان في صورة سليمان فدفعت إليه الخاتم ، فذهب الشيطان إلى كرسي الملك وجلس يحكم في بني إسرائيل ، وأن سليمان لما خرج من بيت الخلاء قال لامرأته : هاتِ الخاتم ، فقالت : قد خرج سليمان قبلك

وأخذه، وأنكرت سليمان، فهام سليمان على وجهه حتى عمل عند صَيَّاد، وكان الصياد يعطيه أجرته كلَّ يوم سمكتين، فكان سليمان يبيع سمكة يشتري بثمانها خبزا، ويطبخ السمكة الأخرى، وأنه استمر على ذلك أربعين يوما، ثم إن بني إسرائيل قاموا على هذا الشيطان الجالس على كرسي سليمان فهرب منهم - ولا أدري كيف لم ينفعه الخاتم - وألقى بالخاتم في البحر، فابتلعه سمكة، ثم وقعت في شباك الصياد، فلما دفع لسليمان أجرته سمكتين باع واحدة وطبخ الأخرى وهي التي كان في جوفها الخاتم، فلما فتحها وجد خاتمه فلبسه ورجع إلى ملكه. والعجيب أن هذا الإفك اليهوديَّ تسرَّب إلى بعض أكابر أهل العلم فصدقوه وفَسَّر بعضهم به قول الله عز وجل: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّه جَسَدا﴾ قالوا: أي شيطاننا، وقد انتشر على السنة العامة والخاصة ذكر خاتم سليمان وخواصه، وصار الدجالون يرسمونه في أوراق دجلهم، مع أن رسول الله ﷺ فَسَّر فتنة سليمان المذكورة في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ فْتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّه جَسَدا ثُمَّ أَنَابَ﴾ بأن سليمان عليه السلام حلف ليطوفنَّ على مائة من نسائه فتحمل كلَّ واحدة منهن بفارس يحمل السلاح ويجاهد في سبيل الله ونسي أن يقول إن شاء الله فطاف عليهن فلم تحبل إلا واحدةً جاءت بشق ولد فأخذ وألقي على كرسيه، فاعتذر إلى الله عز وجل بأنه ما طلب الولد تكثرا وافتخارا وإنما ليقاتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله وقال: ﴿رب اغفر لي وهب لي مُلْكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب﴾ فقبل الله معذرتَه واستجاب دعوتَه، وأبدله الريح كما قال تعالى: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينُ كُلُّ بَنَاءٍ وَغَوَاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَإِنْ لَهُ عِنْدُنَا لَزَلْفَى وَحَسَنَ مَّآبٍ﴾ وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن

رسول الله ﷺ قال : « قال سليمان بن داود : لأطوفنَّ الليلة بمائة امرأة تلد كل امرأة منهن غلاما يقاتل في سبيل الله ونسي أن يقول إن شاء الله فأطاف بهن فلم تلد منهن امرأة إلا واحدة نصف إنسان فقال رسول الله ﷺ : لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان دركاً لحاجته . وفي لفظ للبخاري : « فلم تحمل شيئاً إلا واحداً ساقطاً أحد شقيه فقال النبي ﷺ : لو قالها لجاهدوا في سبيل الله » اهـ . وإن تعجب فعجب لمن يترك هذا التفسير النبويّ ويأتي بأكاذيب اليهود والشیاطين ، وقد وبّخ الله تبارك وتعالى اليهود في هذا المقام من سورة البقرة وبين أنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان . وقوله : ﴿ واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان ﴾ أي طرح اليهود تعاليم الكتاب الذي بأيديهم واتبعوا ما تتلو أي تفتري وتكذب وتختلق الشياطين وهو إبليس وجنوده من مردة الجن والإنس ولا سيما أحبار السوء من اليهود حيث زعموا أن ملك سليمان وتسلطه على الجن لم يكن إلا لكونه ساحراً ، ولم يكن نبيا ولا رسولا ، وقوله تعالى : ﴿ وما كفر سليمان ﴾ أي وما كان سليمان ساحرا لأنه لو كان ساحرا لكان كافرا ، برّاه الله وصانه وعصمه من كل سوء ، ومن دعاوى اليهود الباطلة المختلقة ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ولكنّ الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ﴾ أي ولكن مردة الجن والإنس من أصحاب النفوس الخبيثة ، والطوايا الشريرة هم الكافرون الجاحدون ، الناشرون بين الناس السحر ، وفي هذا نصّ صريح على كفر الساحر ، وقد عدّه رسول الله ﷺ من الموبقات أي المهلكات فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات » قالوا : يا رسول الله ما هنّ ؟ قال : « الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتّولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » .

والسحر في اللغة العربية يطلق على كل شيء لَطُفَ مأخذه ودقّ، ويطلق كذلك على الصّرف والتحويل عن الجهة المعتادة والتمويه بالحيل والتخايل وهو أن يفعل الساحر أشياء فيُخَيَّلُ للمسحور أنها بخلاف ما هي به في الواقع كالذي يرى السراب من بعيد فيُخَيَّلُ إليه أنه ماء، وكالذي يركب مركبا شديد السرعة (كالقطار) إذا كان طريقه بين أشجار أو منازل أو غيرها من الأشياء الثابتة فيُخَيَّلُ إلى راحته أنه واقف وأن الأشجار أو المنازل أو الجبال هي التي تجري، كما يطلق السحر على الخداع من قولهم: سحرت الصبيّ إذا كان قد خدعه ومنه قوله لبيد:

فإن تسألينا فيم نحن فإنا عصافير من هذا الأنام المسحّر
كما يطلق السحر على الاستمالة بقوة البيان ومنه قول رسول الله ﷺ: «إن من البيان لسحرا» الذي رواه البخاري. كما كان يطلق على الساحر اسم العالم حيث كانت مدارس تعليمه في مصر أيام فرعون موسى قد بلغت حدا لم يعرف في التاريخ أنه بلغه أحد بعدهم أو قبلهم، كما كانت مدارسه في جزيرة العرب قبل الإسلام، وقد أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ في الحديث الذي أخرجه مسلم من حديث صهيب رضي الله عنه في قصة أصحاب الأخدود والراهب والساحر. وقد يكون السحر برقى شيطانية وطلاسم ونفث في عقد، وهو سحر أهل بابل من عهد إبراهيم عليه السلام وكانوا يعبدون الكواكب، وقد يكون السحر بخفة اليد كالشعوذة، ولا شك أن النفس الإنسانية قابلة للتأثر ولذلك نهى الأطباء المرعوف عن النظر إلى الأشياء الحمرة، كما نهى المصروع عن النظر إلى الأشياء القوية اللمعان والدوران. كما أن بعض السحرة قد يستعين بالمغناطيس ونحوه، وأخطر أنواع السحر ما كان بالرقى الشيطانية والنفث في العقد، وهذا النوع من السحر لا يفعله إلا الكافر بالله، ولما كثر شرّ هذا النوع من السحر أنزل الله الملكين هاروت

وماروت ببابل من أرض العراق يعلمان الناس فكَّ سحر المسحورين ،
ويحذرائهم من إيذاء الناس بالسحر، ويقولان لكل من يعلمانه : إنما نحن
فتنة فلا تكفر، أي فلا تستغل فرصة معرفتك لفك سحر المسحورين بسحر
الناس ، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى : ﴿وما أنزلَ على الملكين ببابل
هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولَا : إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾
وذلك أن تعليمهما كان ذا وجهين ، يمكن استخدامه في وجوه من الشر
ويمكن استخدامه في وجوه الخير وهو فك المسحور وكما قال عز وجل
﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾ وقد تكون معرفة طرق الشر ضرورية للقضاء
عليها وفي ذلك يقول الشاعر :

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه
وقوله تبارك وتعالى : ﴿فيتعلمون منها ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾ أي
ويعرفون من الملكين الطرق التي يُفرِّق بها الساحر بين الزوج وزوجته ، وقد
أشار الله تبارك وتعالى إلى أن عمل الساحر إنما يؤثر على عين المسحور فتتأثر
نفسه حيث يقول الله عز وجل : ﴿فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم
وجاءوا بسحر عظيم﴾ وكما قال عز وجل : ﴿فإذا جبالهم وعصيتهم يخيل
إليه من سحرهم أنها تسعى﴾ فالمسحور قد يخيل إليه أنه فعل الشيء وهو لم
يفعله ، وقد منَّ الله تبارك وتعالى على أمة محمد ﷺ فأَنْزَلَ المعوذتين فاستغنى
المسلمون بهما وبتلاوتهما عن تعلم السحر أو تعليمه . وقوله تبارك وتعالى :
﴿وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾ أي ولا يتمكن السحرة أو
غيرهم من إلحاق ضرر بأحد من خلق الله إلا بقضاء من الله امتحانا
وابتلاء ، وقوله تعالى : ﴿ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم﴾ أي ويعرف هؤلاء
السحرة ما يفسد دينهم ولا يجلب لهم خيرا في دنياهم فالسحرة هم أشد
الناس عوزاً وفقراً ، وقوله تعالى : ﴿ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من

خلاق ﴿ أي ولقد علم اليهود الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم وانقادوا
للشياطين السحرة واختاروا السحر على الكتاب المنزل أن من اختار السحر
لا حظ له عند الله يوم القيامة وأنه لا نصيب له في الجنة . وقوله تبارك وتعالى :
﴿ ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ﴾ أي وقد ذمّ وقبح ما باعوا به
أنفسهم من السحر والكفر، ولو كانوا يعرفون حقيقة ما يصيرون إليه من
العذاب ما تعلموه . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من
عند الله خير لو كانوا يعلمون ﴾ أي ولو أن هؤلاء اليهود تركوا السحر وصدقوا
محمدا ﷺ واتبعوه لأثيبوا ثوابا عظيما ولجزاهم الله الجزاء الحسن الذي هو
أحسن لهم من السحر، ولو كان عندهم إدراك لسارعوا إلى الاستجابة لله
ولرسوله ﷺ وفي ذلك من الخير لهم ما لا يدور بخيالهم ولا يخطر ببالهم .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا : رَاعِنَا وَقُولُوا : انظُرْنَا واسمعوا ، وللكافرين عذاب أليم ﴾ ما يؤدّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم ، والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ﴾ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ، ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ، ومالككم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ، ومن يتبدّل الكفر بالإيمان فقد ضلّ سواء السبيل ﴾ .

هذا بيان لبعض دسائس اليهود وما تنشره ألسنتهم من قول ظاهره الحسن وباطنه الخسة والنذالة وسوء الأدب ، كما كانوا يدسون بأن القرآن لو كان من عند الله ما كان يأمر بالشيء ثم بعد مدّة يغيّره كجعل القبلة إلى بيت المقدس ثم بعد مدّة يحوّلها إلى الكعبة ، ويزعمون أن النسخ لا يجوز لأنه يدل على أن الحكم الأول المنسوخ كان غير صالح ، وقد تأثر المشركون من العرب بدسائس اليهود هذه ، والحامل لليهود ومن ينهج نهجهم من المشركين هو الحسد والحقد وجهلهم بحكمة التشريع . واليهود يزعمون أنهم يصدقون ما في التوراة ، والتوراة قد تقرر فيها أن آدم كان يزوّج بناته من بنيه ثم حرّم بعد ذلك في جميع شرائع الأنبياء ، كما أن التوراة تقرر أن الجمع بين الأختين كان جائزاً في عهد إبراهيم وإسحاق ويعقوب وأن يعقوب عليه السلام جمع بين الأختين ، وأن ذلك قد حرّم عليهم في التوراة ، مع أن اليهود لعنهم الله هم أسوأ الناس اعتقاداً في الله تبارك وتعالى ، ويقررون أن الله بعد أن خلق الإنسان وكثر شره في الأرض حزن أنه عمل الإنسان . وهو صريح في القول بالبّداء على الله تبارك وتعالى ، فقد جاء في الإصحاح السادس من سفر

التكوين في الفقرة الخامسة : ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم . وفي الفقرة السادسة منه : فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه . اهـ وموقف اليهود هذا لعنهم الله ينطبق عليه المثل الذي يقول : رمتني بدائها وانسلت ، لأن نسخ بعض الأحكام من أجل وأعلى سبل التربية والتعليم ، ومثله كمثّل الطبيب الحاذق الماهر الخريت الذي يصف دواءً لمريضه وهو يعلم عند وصفه له أن هذا الدواء مؤقّت يلائم المريض الآن ولا يلائمه غداً ، ولذلك يأمر المريض بمراجعته بعد مدة ليصف له الدواء الذي يناسبه حينذاك . ﴿ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم﴾ وكما قال عز وجل : ﴿وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ فالتطور في التشريع من أجل مقاصد الشريعة ، فإن الخمر لو أمر بتحريمها دفعة واحدة من أول الأمر لحصل من وراء ذلك شر كبير ، لكنه تدرّج في تحريمها ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ، وقد علم علماء النفس أن هذا الأسلوب في التشريع هو السبيل السويّ الملائم لأحوال النفس الإنسانية . وقد نبهت الآية الأولى من هذه الآيات إلى تنبيه المسلمين إلى لحن اليهود الخبيث في القول ، إذ يقولون لرسول الله ﷺ عند محادثته : راعنا بدل قولهم له : انظرنا ، وكلمة راعنا في لغتهم تستعمل للذم إذ هي عندهم من الرعونّة فكانوا يستعملونها للذم فنهى الله المؤمنين أن يقولوا لرسول الله ﷺ : راعنا وإنما يقولون له : انظرنا ، وهذا يدل على أن المباح قد يمنع لسد ذريعة الشر لأن كلمة راعنا في اللغة العربية لا عيب فيها وهذا كما نهى المؤمنين عن سب آلهة المشركين إذا كان سب آلهة المشركين يؤدي إلى أن يسبّ المشركون الله عز وجل وفي ذلك يقول : ﴿ولا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وقد كان من لحن اليهود لعنهم الله إذا سلّموا على رسول الله ﷺ يقولون : السّام عليكم

وهم يريدون : الموت عليكم فكان رسول الله ﷺ إذا قالوا له : السام عليكم قال : وعليكم . وقد سمعت عائشة رضي الله عنها اليهود وهم يقولون ذلك لرسول الله ﷺ فقالت : وعليكم السام واللعنة ، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا : السام عليك ، ففهمتها فقلت : عليكم السام واللعنة ، فقال رسول الله ﷺ : « مهلاً يا عائشة فإن الله يحب الرفق في الأمر كله » ، فقلت : يا رسول الله : أو لم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ : « فقد قلت : وعليكم » . وقد نبّه رسول الله ﷺ المسلمين إذا سلّم عليهم أهل الكتاب أن يقولوا : وعليكم ، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا سلّم عليكم أهل الكتاب فقولوا : وعليكم » . هذا وقد صدّر الله تبارك وتعالى هذه الآية بقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ قال الرازي في تفسيره لهذه الآية الكريمة : اعلم أن الله تعالى خاطب المؤمنين بقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ في ثمانية وثمانين موضعاً من القرآن اهـ ، وقد أثر عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً قال له : اعهد إليّ ، فقال ابن مسعود : إذا سمعت الله يقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فازعها سمعك فإنه خير يأمر به أو شرّ ينهى عنه . وقوله تعالى : ﴿ وللكافرين عذاب أليم ﴾ أي ولليهود عذاب مؤلم في جهنم بسبب قولهم لرسول الله ﷺ ما قالوا ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ما يودّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن يُنزلَ عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ في هذا البيان الكريم إعلان لما تنطوي عليه نفوس اليهود والمشركين من إرادة التحكم في رحمة الله ، وأنهم يريدون تحجير فضل الله ورحمته فلا يمنح الله رحمة ولا فضلاً إلا من يوافق اليهود والمشركون على منحه هذا الفضل وهذه الرحمة ، فما أسوأ أخلاقهم وما أشدّ قبح أنفسهم ،

وقد بين الله تعالى أنه لو كانت الرحمة بأيديهم ما منحوا أحدا منها نقيرا أي قدر النقرة التي تكون في ظهر النواة كما تقدم في تفسير قوله تعالى : ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ﴾ الآيات إلى قوله : ﴿ فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ﴾ وقد ردّ الله تبارك وتعالى عليهم وفضح ما هم عليه من سوء الطّويّة فقال : ﴿ والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ أي والله يعلم حيث يجعل رسالته ، وقد تفضل على النبي الأميّ العربيّ الهاشمي محمد بن عبد الله فأعطاه الشريعة الكاملة الشاملة التامة الصالحة لكل زمان ومكان ومصر وعصر وجيل وقبيل ، والله الحمد والشكر وله الشناء الحسن الجميل ، فنعمة لا تحصى وآلاؤه لا تستقصى ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . وقوله عز وجل : ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ﴾ أصل النسخ في اللغة يطلق على معانٍ منها الإبطال والإزالة والنقل والتحويل ، وفي الشرع هو رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متراخ عنه ، والنسخ قد يكون للآية وحكمها كحديث عائشة رضي الله عنها الذي أخرجه مسلم في صحيحه : كان فيما أنزل : (عشر رضعاتٍ معلوماتٍ يحرمُن) فنسخ بـ خمس رضعاتٍ معلوماتٍ يحرمُن) . وقد يكون النسخ للتلاوة مع بقاء الحكم كرجم الزاني المحصن فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو جالس على منبر رسول الله ﷺ يقول : إن الله بعث محمدا ﷺ بالحق ، وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل الله آية الرجم فقرأناها وعقلناها ووعيناها ، رجم رسول الله ﷺ ورجننا بعده ، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل : والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله فيضلّوا بترك فريضة أنزلها الله ، والرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أُحصن من الرجال والنساء إذا

قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف اهـ وقد يكون النسخ للحكم مع بقاء التلاوة كعدة المتوفى عنها زوجها حيث كانت عدتها سنة كاملة لا تخرج فيها من بيتها لقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ﴾ فقد نسخ حكمها مع بقاء تلاوتها بقوله تبارك وتعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ، ولما أنكر الجاهلون حكمة النسخ بين عز وجل أنه أعلم بما ينزل حيث قال : ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزَلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ بل أكثرهم لا يعلمون * قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴿ وقال في هذا المقام من سورة البقرة : ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ أي ما نبطل من آية أو نترك تبديلها نأت بما هو خير لكم في المنفعة وأرفق بكم ، أو بمثله في الحكم المراعي لمصلحة المكلفين المناسب للبقاء والدوام والعموم والشمول . وخالق العباد أعلم بما يعود عليهم بالخير من المناهج ، وما يتمكنون من القيام به من الأحكام وقد وضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فله الحمد وله الشكر . وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ * ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ، وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴿ أي قد علمت أن الله لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض ، وقد علمت أن السموات والأرض ملك لله ، له فيهما التصرف التام ، يحكم فيهما بما يشاء لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ، فله الخلق والله الأمر ، وهو أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين ، وهو ولي المؤمنين ونصيرهم لا يتولون غيره ولا ينتصرون بسواه ، وهو وليهم يخرجهم من الظلمات إلى النور وينصرهم على أعدائهم . وقوله تعالى : ﴿أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا

سئل موسى من قبل ومن يتبدّل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل ﴿١﴾ أي بل إنكم معشر اليهود جُبلتُم على كثرة السؤال لمن يبعثه الله لكم رسولا كشأنكم في تعتكم وتنطعكم وكثرة سؤالكم لموسى عليه السلام في شأن البقرة وسؤالكم له أن يريكم الله جهرة، ومن يشتر الكفر ويدفع ثمنه الإيمان فقد انحرف عن الصراط المستقيم وتاه عن المنهج الحق، وقوله تعالى: ﴿رسولكم﴾ يفيد التنصيص على أن محمداً رسول الله إلى بني إسرائيل وغيرهم من الأمم كما أنه رسول الله إلى العرب فهو المبعوث للناس كافة بشيرا ونذيرا صلوات الله وسلامه عليه إلى يوم الدين . وقد كره الإسلام كثرة السؤال فقد روى البخاري ومسلم من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان ينهى عن قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال .

قال تعالى : ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ، وَامْتَقِدُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

بعد أن بيّن تبارك وتعالى في الآية الخامسة بعد المائة أن أهل الكتاب والمشرّكين لا يحبّون أن يُنزّل على المؤمنين خير أبداً حقداً على المسلمين وتحجيراً لرحمة الله أن تنزل على غير بني إسرائيل أو على رجل فقير، فاليهود لا يريدون النبوة في غيرهم ، والمشرّكون لا يريدون النبوة إلا في رجل غني من أهل مكة أو من أهل الطائف ، وهنا يؤكد الله عز وجل ما امتلأت به قلوب بعض أهل الكتاب — مع كفرهم بالله وتكذيبهم لرسوله وأفضل خلقه محمد ﷺ — من الحقد والحسد للمسلمين على النعمة العظمى التي امتنّ الله تعالى عليهم بها حيث هداهم للإيمان بكتابه وتصديق رسوله ﷺ ، فهؤلاء اليهود لعنهم الله يتمنّون أن يرجع المسلمون كفّاراً وأن يرتدّوا عن الإسلام ، وما تمنّوا هذا التمنيّ لعيب وجدوه في الإسلام أو حرصاً على مصلحة هؤلاء المسلمين بل الحامل الوحيد لهم على رغبتهم في رجوع المسلمين عن دينهم هو الحقد على المسلمين والحسد الذي امتلأت به جوارحهم ، وفاضت به صدورهم ، من كراهية الإسلام والمسلمين بعد أن عرفوا أن محمداً رسول الله وأنه المنعوت من أنبياء بني إسرائيل بعلاماته الجلية الواضحة وأنه يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة وأن بين كتفيه خاتم النبوة وأنه يهاجر من مكة إلى أرض سبخة ذات نخيل بين لابتين ، وحديث إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه شاهد عدل من علماء أهل الكتاب النصاري على معرفتهم لصفات رسول الله ﷺ قبل بعثته فقد قال ابن إسحاق : حدثني عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري عن محمود بن

لبید عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : حدثني سلمان الفارسيّ من
 فيه قال : كنت رجلاً فارسياً - وساق حديث خروجه من المجوسية ودخوله في
 النصرانية وهروبه من أبيه إلى الشام لدراسة النصرانية وتنقله من أسقف إلى
 أسقف حتى لحق بصاحب عمورية وأنه أقام عند خير رجل على هدي
 أصحابه وأمرهم وأنه لما حضره الموت قال له سلمان : إلى من توصي بي؟ وبم
 تأمرني؟ قال : أي بني والله ما أعلمه أصبح اليوم أحدٌ على مثل ما كنّا عليه
 من الناس أمرك به أن تأتيه، ولكنه أظل زمان نبي وهو مبعوثٌ بدين إبراهيم
 عليه السلام يخرج بأرض العرب، مهاجرة إلى أرض بين حرتين بينهما نخل،
 به علاماتٌ لا تخفى، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة وبين كتفيه خاتمُ
 النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل . ثم يذكر سلمان رضي الله
 عنه كيف أخذه نفرٌ من كلبٍ تجار وظلموه وباعوه عبداً بوادي القرى من
 رجل يهودي وأن هذا اليهوديّ باعه على ابن عم له من يهود بني قريظة وأنه
 احتمله إلى المدينة قال سلمان رضي الله عنه : فوالله ما هو إلا أن رأيتهَا،
 فعرفتها بصفة صاحبي، ثم يذكر سلمان خبر هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة
 فيقول : فوالله إني لفي رأس عذق لسيدي أعمل فيه بعض العمل وسيدي
 جالس تحتي إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه فقال : يا فلان، قاتل الله
 بني قبيلة والله إنهم الآن لمجتمعون بقاء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم
 يزعمون أنه نبي، قال سلمان : فلما سمعتها أخذتني العرواء حتى ظننت أني
 سأسقط على سيدي فنزلت عن النخلة ثم يقول سلمان : وقد كان عندي
 شيء قد جمعته فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت به إلى رسول الله ﷺ وهو بقاء
 فدخلت عليه فقلت له : إنه قد بلغني أنك رجل صالح ومعك أصحاب لك
 غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء كان عندي للصدقة فرأيتم أحق به من
 غيركم قال : فقربته إليه فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : «كلوا»، وأمسك يده

فلم يأكل ، فقلت في نفسي هذه واحدة ثم انصرفت عنه فجمعت شيئا ، وتحول رسول الله ﷺ إلى المدينة ثم جئته به فقلت له : إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة فهذه هدية أكرمتك بها قال : فأكل رسول الله ﷺ منها وأمر أصحابه فأكلوا معه فقلت في نفسي : هاتان ثنتان . قال : ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغرقد ، قد تبع جنازة رجل من أصحابه ، عليّ شملتان لي وهو جالس في أصحابه فسلمت عليه ثم استدرت أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي فلما رأي رسول الله ﷺ استدبرته عرف أني أستثبت في شيء وصف لي ، فألقى رداءه عن ظهره فنظرت إلى الخاتم فعرفته فأكبت عليه أقبله وأبكي فقال لي رسول الله ﷺ : «تحول» ، فتحولت فجلست بين يديه فقصصت عليه حديثي كما حدثتك يا ابن عباس . وقوله تعالى : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ أي تمنى كثير من اليهود والنصارى لو يتمكنون من ردّكم عن الإسلام وإعادتكم إلى الكفر بالله . وقوله تعالى : ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ أي حقدًا عليكم وكراهية أن ينالكم خير ولم يفعلوا ذلك لغير علّة الحسد الذي ملأ نفوسهم وصدورهم عليكم مع يقينهم بأنكم على الحق وأنهم على الباطل وأن محمدا رسول الله ، وقوله تعالى : ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ أي إذا سمعتم من اليهود أو المشركين أو رأيتم منهم أيها المؤمنون شيئا يسوؤكم فلا تحزنوا واهجروهم هجرا جميلا واغفروا للذين لا يرجون أيام الله واتركوا مؤاخذتهم وأعرضوا عنهم واصبروا على أذاهم حتى يأذن الله لكم في قتالهم ويخذلهم ويذلهم بنصره لكم وتأيدكم عليهم ، والعفو هو ترك المؤاخذة على ما يبدر منهم ، والصفح إزالة أثره من النفس حتى لا تحزن . وقد حقق الله وعده لرسوله وللمؤمنين ، فأذلّ المشركين واليهود وأعزّ الإسلام والمسلمين . وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أسامة بن زيد حبّ

رسول الله ﷺ وابن حَبَّه أن رسول الله ﷺ ركب على حمارٍ على قطيفةٍ فديكةٍ ،
وأردف أسامة بن زيد وراءه ، يعود سعد بن عبادَةَ في بني الحارث بن الخزرج
قبل وقعة بدر، قال : حتى مرَّ بمجلس فيه عبد الله بن أبي ابن سلول ، وذلك
قبل أن يسلم عبد الله بن أبي فيإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين
عبدة الأوثان واليهود ، وفي المجلس عبد الله بن رواحة ، فلما غشيت المجلس
عجاجة الدابة خمر عبد الله بن أبي أنفه بردائه ثم قال : لا تغبروا علينا ، فسلم
رسول الله ﷺ عليهم ثم وقف ، فنزل فدعاهم إلى الله ، وقرأ عليهم القرآن ،
فقال عبد الله بن أبي ابن سلول : أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول ، إن كان حقا
فلا تؤذنا به في مجلسنا ، ارجع إلى رحلك ، فمن جاءك فاقصص عليه ، فقال
عبد الله بن رواحة : بلى يا رسول الله ، فاغشنا به في مجالسنا ، فإننا نحب ذلك
فاستبَّ المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون ، فلم يزل النبي ﷺ
يخفضهم حتى سكنوا ، ثم ركب النبي ﷺ دابته فسار حتى دخل على سعد
ابن عبادَةَ ، فقال له النبي ﷺ : « يا سعد ألم تسمع ما قال أبو حبابٍ — يريد
عبد الله بن أبي — قال كذا وكذا » قال سعد بن عبادَةَ : يا رسول الله اعفُ
عنه ، واصفح عنه ، فالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي
أنزل عليك ، لقد اصطَلَحَ أهل هذه البحيرة على أن يُتَّوَجَّوه فيعصَّبوه
بالعصاة ، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شرق بذلك ، فذلك
فعل به ما رأيت ، فعفا عنه رسول الله ﷺ ، وكان النبي ﷺ وأصحابه يعفون
عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ، ويصبرون على الأذى ، قال الله
عز وجل : ﴿ وَلِتَسْمِعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا
أَذَى كَثِيرًا ۖ الْآيَةُ . ﴾ وقال الله : ﴿ وَكَثِيرٌ مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوِ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ
إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ﴾ إلى آخر الآية ، وكان النبي ﷺ يتأول
العفو ما أمره الله به ، حتى أذن الله فيهم ، فلما غزا رسول الله ﷺ بدرًا فقتل

الله به صناديد كفار قريش قال ابن أبي سلول ومن معه من المشركين
 وعبد الأوثان : هذا أمرٌ قد توجّه ، فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام
 فأسلموا ، اهـ وقوله في الحديث : على قطيفة فدكية أي على كساء غليظ
 منسوب إلى فديك وهي قرية مشهورة على مرحلتين من المدينة المنورة قرب
 خيبر ، وقوله : قبل أن يسلم عبد الله بن أبي أي قبل أن يظهر الإسلام بلسانه
 ويبطن الكفر فقد صار عدو الله هذا رأس المنافقين لعنهم الله ، وقوله : على
 أن يتوجوه فيعضّوه بالعصابة أي فيتوجوه ملكا عليهم ويلبسوه تاج الملك
 على أهل يثرب من الأوس والخزرج واليهود ، وقوله : شَرِقَ بذلك أي غَصَّ به
 وامتلأ قلبه حسدا . وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي إن الله لا
 يعجزه شيء فله القدرة التامة ، وما شاء الله كان ، وفي هذا وعد بتحقيق نصر
 الله لنبيه ﷺ وللمؤمنين ووعد بخذلان اليهود والمشركين ، وقد أنجز الله وعده
 فنصر المسلمين وأذل اليهود المشركين ، فله الحمد والشكر . وقوله تعالى :
 ﴿وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ هو تأكيد لهذين الركنتين من أركان الإسلام ،
 وقد تقدم تفسيره ، وقوله تعالى : ﴿وَمَا تَقَدَّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ
 اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي واستعينوا في الانتصار على عدوكم بالأعمال
 الصالحة من الصلاة والزكاة وفعل الخيرات ، وكلّ عمل صالح تعملونه لن
 يضيع عند الله وسيجزىكم به أحسن الجزاء فإنه مطلع على جميع أعمال عباده
 ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره .

قال تعالى : ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ، تلك أمانيتهم ، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ * بلى من أسلم وجهه لله وهو محسنٌ فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ .

هذه صورة واضحة لعنصرية اليهود المبنية على الأمانى الكاذبة ، وما اختلقه لهم أحبار السوء في تلمودهم حيث زعموا أن الجنة لن يدخلها يوم القيامة أحدٌ إلا من كان يهودياً ، ولقد تأثرت النصرانية التي وضعها شاول اليهوديَّ وحرف بها دين المسيح عليه السلام حيث زعم لأتباع المسيح عليه السلام بعد رفعه إلى السماء بوقت قليل أنه رأى يسوع وأنه آمن به ، وسمى نفسه بولس ، وقد احتال بذلك للقضاء على المسيحية بتحريفها وتغيير أصولها . وقد تم له ذلك بعد مصارعة مع الحواريين رضي الله عنهم حيث وضع ديانة جديدة ادعى فيها أن المسيح ابن الله وأن الله ثالث ثلاثة ثم راح يدعي أنه معلم المسيحية الوحيد وصار يستمد تعاليمه من مذاهب الهندوس والبوذيين وفلسفة الإغريق وبعض تعاليم اليهود التلمودية ، وقد ألّف برنابا أحد الحواريين إنجيله للرد على شاول حيث يقول برنابا في مطلع إنجيله : أيها الأعزاء إن الله العجيب العظيم قد افتقدنا في هذه الأيام بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم . والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى ، مبشرين بتعليم شديد الكفر ، داعين المسيح ابن الله ورافضين الختان الذي أمر الله به دائماً ، مجوّزين كلّ لحم نجس ، الذي ضل في عدادهم أيضاً بولس (شاول اليهودي) الذي لا أتكلم عنه إلا مع الأسى ، وهو السبب الذي من أجله أسطر هذا الحق الذي رأيته اهـ وقد ظهرت تعاليم شاول اليهودية التلمودية العنصرية في إنجيلي متى ومُرقس حيث قررا أن ما عدا بني إسرائيل من الأمم إنما هم كلابٌ ، ففي الفقرة الواحدة

والعشرين من الإصحاح الخامس عشر إلى الفقرة السادسة والعشرين يقول إنجيل متى : ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى نواحي صور وصيدا ، وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة : ارحمني يا سيّد يا ابن داود ابنتي مجنونةٌ جدا ، فلم يجبها بكلمة ، فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين : اصرفها لأنها تصيح وراءنا ، فأجاب وقال : لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة . فأنت وسجدت له قائلة : يا سيد أعني ، فأجاب وقال : ليس حسناً أن يؤخذ خُبزُ البنين ويطرح للكلاب . وفي إنجيل مرقس في الفقرة الرابعة والعشرين إلى السابعة والعشرين من الإصحاح السابع يقول : ثم قام من هناك ومضى إلى تخوم صور وصيدا ، ودخل بيتا وهو يريد أن لا يعلم أحد ، فلم يقدر أن يختفي لأن امرأة كان بابتها رُوحٌ نجسٌ سمعت به فأنت وخرّت عند قدميه ، وكانت المرأة أُمّية وفي جنسها فينيقية سورية ، فسألته أن يخرج الشيطان من ابنتها ، وأما يسوع فقال لها : دعي البنين أولاً يشبعون ، لأنه ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب . فهذان النصان من إنجيلي متى ومرقص يقرران أن عيسى يصف الأُمّيين - وهم من عدا بني إسرائيل - بأنهم كلاب . نزه الله عيسى ابن مريم وصانه أن يقول مثل هذا الكلام أو يعتقده . مع ملاحظة ما في هذين النصين من التناقض بين الإنجيلين في جنسية المرأة التي لحقت يسوع حيث وصفت في إنجيل متى بأنها كنعانية وفي إنجيل مرقس بأنها فينيقية سورية ، وبهذه النصوص التلمودية تمكنت العنصرية من نفوس أهل الكتاب فغرتهم الأُماني وزعموا أن الجنة لن يدخلها أُمّيٌّ وأنها خاصّة لهم ، وقوله عز وجل : ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ﴾ أي وقال اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا ، لأن هذا التفصيل معلوم قطعاً ولذلك أوجز الكلام هذا الإيجاز ،

فإنّ مما لا شك فيه أن اليهود يكذبون عيسى عليه السلام ويرمونّه وأمه بكل قبيح ، ويعتقدون أن أتباعه كفّارٌ من أهل النار، وهوّد جمع هائد كَبُورِ جمع بائِر . والمراد بهم اليهود وقد تكون مأخوذة من الهود بمعنى التوبة على حد قول موسى عليه السلام : إنا هدنا إليك أي تبنا إليك ، ويمكن أن تكون مأخوذة من التهويد وهو الترجيع بالصوت في لين والتطريب حيث كان أحبار اليهود إذا قرءوا على العامة أتوا بنغمات صوتية خاصة مع غنة شديدة ومدّ بالخياشيم على حد قول الله تعالى فيهم : ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ ويمكن أن يكون لفظ اليهود منسوباً إلى يهوذا أخي يوسف الصديق وأحد أبناء إسرائيل ويكون إطلاقه على جميع بني إسرائيل على سبيل التغليب ، وهو يقال فيه : يهوذا ويهودا حيث تتعاور فيه الذال المعجمة والذال المهملة . ولذلك أورده الفيروز آبادي في الهود وفي الهوذ فقال في الهود : ويهودا أخو يوسف الصديق وقال في الهوذ : واليهوديّ اليهودي ، ويمكن أن يكون لفظ اليهود مأخوذاً من المهاودة وهي المواعدة على حد قوله تعالى : ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾ على أننا لم نجد في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسوله ﷺ إطلاق كلمة اليهود على سبيل المدح ولم تستعمل في كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ إلا على سبيل الذم . أما النصراري فهم جمعُ نصراني ، والنصرانية في الأصل : نسبةٌ إلى نصرانة وهي قرية المسيح عليه السلام من أرض الجليل بفلسطين وتسمّى هذه القرية أيضاً الناصرة ونصوريّة ، ولا يُعرف على التحديد متى أطلقت هذه الكلمة على أهل الإنجيل ولم توجد هذه الكلمة في كتب النصراري إلا في أوائل القرن الثاني بعد ميلاد المسيح عليه السلام في عهد الإمبراطور «تراجان» الموجود في العام السادس بعد المائة من ميلاد المسيح عليه السلام ، وقد يفهم من القرآن الكريم أنهم أحدثوا هذا الاسم إذ يقول الله تبارك وتعالى : ﴿الَّذِينَ

قالوا إنا نصارى ﴿ هذا ولا ينبغي إطلاق كلمة مسيحيين على النصارى لأنهم في الواقع لا يتبعون المسيح عليه السلام ، ولذلك لم نجد في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسوله ﷺ تسميتهم مسيحيين وقد أطلق عليهم القرآن أنهم نصارى كما سماهم كذلك أهل الكتاب ، وأهل الإنجيل . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ تلك أمانيتهم ﴾ أي هذه هي شهواتهم الباطلة وأمنياتهم الكاذبة الخادعة ، والمراد من هذه الأمانى هي ما ادّعوه من أن الجنة لهم ومن أنهم لن تمسهم النار إلا أياما معدودة ، وبأنهم أهل الحق ، وبأن الله خصهم وحدهم بإنزال الكتب السماوية عليهم ولا يجب عليهم الإيمان إلا بنبي من بني إسرائيل ، ولا شك أن من أعظم أمنياتهم الكاذبة قولهم : نحن أبناء الله وأحباءه . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المغرورين المخدوعين أصحاب الأمنيات الكاذبة : هاتوا حجتكم ودليلكم على أن الجنة خاصة بكم ولن يدخلها أحد سواكم إن كنتم صادقين فيما تزعمون فالدّعى بلا برهان ولا حجة ولا دليل دعوى مردودة ، والأمانى مركب العاجز ولذلك قال رسول الله ﷺ : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » . كما رواه الترمذي من حديث أبي يعلى شّداد بن أوس رضي الله عنه وقال الترمذي : حديث حسن . وفي هذه الآية دليل على أن النافي للحكم يطالب بالدليل لأن أهل الكتاب لما نفوا أن يدخل الجنة أحد غيرهم طالبهم الله عز وجل بالدليل على ما نفوه فقال : ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾ إبطالٌ لدعوى أهل الكتاب وإثبات لما نفوه ، حيث قرّر قاعدة العدل والإنصاف والرحمة والإحسان وهي أن من أسلم وجهه لله وهو محسن فهو الموعود بالجنة مهما كان عنصره ولونه وبلده

وجيله وقبيله وغناه وفقره، وقد كرّر الله تبارك وتعالى هذه القاعدة في كتابه الكريم للقضاء على التمييز العنصري الذي أفسد قلوب اليهود ومن نهج منهجهم التلمودي، حيث قال: ﴿فإِذَا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِي هَدًى فَمَن تَبَعَ هَٰذَا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿وكما قال: ﴿بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ * والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ في آيات كثيرة في مواضع شتى من القرآن العظيم. وقوله: ﴿بلى﴾ إثبات لما نفوه وإبطال لما أثبتوه لأنفسهم، وقوله تعالى: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أي من أخلص العمل لله وحده لا شريك له، وكما قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجَّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي ويعمل على وفق شريعة محمد ﷺ وهذان هما الشرطان الأساسيان في قبول الأعمال، فلا بد لقبول العمل أن يكون خالصا لوجه الله ولا بد أن يكون صوابا على منهج رسول الله ﷺ، وقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد». وفي رواية لمسلم عنها رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد». وإنما أفرد الضمير في قوله ﴿وَجْهَهُ﴾ وفي قوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ وفي قوله: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ لمراعاة لفظ «مَنْ» وجمع الضمير في قوله: ﴿وَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لمراعاة معنى «مَنْ» فإن لفظها مفرد ومعناها جمع، كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

قال تعالى: ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب، كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم، فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين، لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم* والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله، إن الله واسع عليم*.

إنه لا شك أن اليهود يكفرون بعيسى عليه السلام وبالإنجيل ويعتقدون أن النصارى سواء كانوا من معاصري عيسى عليه السلام أو ممن جاء بعدهم إلى بعثة محمد ﷺ ليسوا على شيء معتد به، كما أنه لا شك أن النصارى يعتقدون أن موسى رسول الله وكليمه وأن التوراة حق من الله، بيد أنهم يعتقدون أن اليهود لما كفروا بعيسى عليه السلام أصبحوا ليسوا على شيء معتد به حيث لم يتبعوا وصايا الأنبياء والمرسلين من بني إسرائيل بوجوب تصديق من يبعثه الله من الأنبياء والمرسلين. وبهذا يقرر اليهود أن النصارى ليسوا على صواب في دينهم، ويقرر النصارى أن اليهود ليسوا على صواب في دينهم، وقد ساق الله تبارك وتعالى مقالة اليهود في النصارى ومقالة النصارى في اليهود بعد أن ذكر قول اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا، وقول النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا، واتفاق اليهود والنصارى على أن الجنة لن يدخلها عربي ولا أعجمي غيرهم أوضح الله تبارك وتعالى هنا تناقضهم وتكذيب بعضهم بعضا، وهذا يدفع توهم من قد يتوهم أن اليهود أو النصارى قد بنوا ما زعموه من حرمان غيرهم من الجنة على شيء ثابت حيث قرّر أنهم متناقضون متباغضون، لا يسرون على منهج رشيد ولا يأتون بقول سديد فهم كذبة فجرة، لا يعرفون إلا الهوى، ولا يتجهون إلا إلى

الضلال ، وقد شهد بعضهم على بعض بذلك ، وقد بين الله عز وجل أن قول بعضهم في بعض هو الواقع فليست اليهود على شيء وليست النصارى على شيء وفي ذلك يقول عز وجل : ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء﴾ وقوله عز وجل : ﴿وهم يتلون الكتاب﴾ أي وهم يقرءون جميعا التوراة فهم يدعون جميعا أنهم مقرون بها وأنها من عند الله ، وهذا يفيد أنهم في غاية السفاهة حيث يكفر بعضهم بعضا وهم يقرءون بكتاب واحد وهو التوراة وكتب العهد القديم ، وإن كان النصارى يزيدون على اليهود أنهم يقرون بالإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام في الوقت الذي يكفر فيه اليهود بالإنجيل ، ويزعم اليهود والنصارى أنهم أهل العلم ، ولو كانوا صادقين في زعمهم لحملهم العلم بالتوراة على المسارعة إلى تصديق محمد ﷺ ، لكنهم إذا كان هذا حال بعضهم مع بعض فهل ينتظر منهم أن يكونوا أحسن حالا مع رسول الله محمد ﷺ؟ وفي هذا التعبير تنديد بهم ، وتحقير لسلوكهم مما يجعلهم هم والأُميين من مشركي العرب الذين ليسوا من أهل الكتاب ولا من أهل العلم والمعرفة على حد سواء ولذلك قال بعدها : ﴿كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم﴾ أي مثل مقالة اليهود في النصارى ومقالة النصارى في اليهود قال الجهلة من عباد الأصنام في اليهود والنصارى أنهم ليسوا على شيء وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك في سورة فاطر ، وبين أن المشركين في جزيرة العرب كانوا يحسّون مع جهلهم وشركهم أن اليهود لم يقوموا بما يجب عليهم من طاعة لموسى عليه السلام واتباع للتوراة وأن النصارى لم يقوموا بما يجب عليهم من طاعة لعيسى عليه السلام واتباع للإنجيل حيث يقول عز وجل في مشركي قريش : ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكوننّ أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا﴾ استكبارا في الأرض ومكر السيئ ، ولا

يحيقُّ المكرَّ السيِّئ إلا بأهله ، فهل ينظرون إلا سنَّت الأولين ، فلن تجد لسنَّت الله تبديلاً ولن تجد لسنَّت الله تحويلاً ﴿ وقوله تعالى : ﴿ فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ أي فالله الملك الحق المبين يفصل بينهم يوم القيامة ويقضي بينهم بالعدل ولا يظلم ربك أحداً من المختلفين فيجازيهم على اختلافهم وافترائهم وغرورهم وأمنياتهم الكاذبة وكفرهم برسوله ﷺ وصدّهم عن سبيله ، ويعرفون في عرصات القيامة ما تناقضوا فيه ، وما اختلقوه ﴿ ويوم يَعُضُّ الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ، إن الله على كل شيء شهيد ﴾ . ومعنى : ﴿ يوم القيامة ﴾ أي يوم يقوم الناس لرب العالمين من قبورهم لمحشرهم ويؤتى كل إنسان كتاب عمله ، فلا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ، وقد كان رسول الله ﷺ شديد الضراعة إلى ربه يسأله أن يهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه ، فقد تقدّم في تفسير قوله تعالى : ﴿ من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين ﴾ ما رواه مسلم في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها في دعاء النبي ﷺ عندما يفتتح صلاة الليل أنه قال : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهديني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » . وأخبر رسول الله ﷺ أن الله هدى المسلمين لما اختلف فيه أهل الكتاب من اليهود والنصارى فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، ثم هذا

يومهم الذي فُرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله ، فالناس لنا فيه تبعُ اليهود غداً والنصارى بعد غدٍ». هذا لفظ البخاري ، أما لفظ مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «نحن الآخرون ونحن السابقون يوم القيامة بيد أن كل أمة أوتيت الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ، ثم هذا اليوم الذي كتبه الله علينا ، هدانا الله له ، فالناس لنا فيه تبعُ اليهود غداً والنصارى بعد غدٍ». وقوله تبارك وتعالى : ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يُذكرَ فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين﴾ أي لا أحد أفحش ظلماً ممن يمنع المؤمنين ولا سيما النبي ﷺ من الصلاة في بيوت الله التي أذن الله أن ترفع ويُذكر فيها اسمه ولا سيما المسجد الحرام الذي جعله الله تبارك وتعالى مثابة للناس وأماناً ، ولا شك أن المشركين الذين أخرجوا رسول الله ﷺ من مكة كانوا يجمعون بين الشرك الموصوف بأنه الظلم العظيم وبين الصد عن المسجد الحرام ، وهذا وعيد شديد لكل صاد عن ذكر الله في المساجد ، ولا يفعل ذلك عادة إلا المشركون الكافرون بالله ، وعمارة المساجد تطلق على بنائها وعلى إقامة الصلاة فيها كما أن خراب المساجد قد يكون بهدمها وإفساد بنائها وقد يكون بالصد عن الصلاة بها ومنع المصلين من دخولها ، وقد وصف رسول الله ﷺ من يعتاد المساجد بأنه يعمرها فقد روى الترمذي وقال : حديث حسن من رواية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان قال الله عز وجل : ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾» الآية . وقال البخاري في صحيحه : باب بنية المسجد وقال أبو سعيد : كان سقف المسجد من جريد النخل ، وأمر عمر ببناء المسجد وقال : وأكنَّ الناس من المطر وإياك أن تحمَّر أو تُصَفَّر فتفتن الناس ، وقال أنس : يتباهون بها ثم لا يعمرونها إلا قليلاً . وقال ابن عباس : لتزخرفنها كما زخرفت

اليهود والنصارى اهـ وقد وصف الله تبارك وتعالى إخراج أهل المسجد الحرام منه بأنه أكبر من القتال في الشهر الحرام حيث يقول : ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل : قتال فيه كبير وصدّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ هذا وعد للمؤمنين وعلى رأسهم سيد المرسلين ﷺ بتمكينهم من المسجد الحرام وسائر المساجد ووعد شديد لمن صدّ عن سبيل الله والمسجد الحرام أو غيره من المساجد بأن الله يسلّط عليهم الدّل والهوان وأن يصيبهم بخزي الدنيا مع ما أعد لهم في الآخرة من العذاب الموجه المؤلم ، وقد فعل الله ذلك فمكّن لرسوله ﷺ فدخل المسجد الحرام آمناً مطمئناً ، وأذل المشركين حتى منعهم من دخولهم لنجاستهم حيث يقول : ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون﴾ وقال عز وجل : ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ . وقوله عز وجل : ﴿والله المشرق والمغرب فأينما تولّوا فثمّ وجهه الله إن الله واسع عليم﴾ هذه بداية التمهيد لتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة قبلّة إبراهيم وإسماعيل وتوطين النفوس على ذلك قبل الأمر به ، لعلم الله عز وجل أن المشركين الجاهلين وأهل الكتاب سيستغلون نسخ القبلة من جهة بيت المقدس إلى جهة الكعبة أسوأ استغلال للتشويش على المسلمين بعد أن فضح تناقض اليهود والنصارى والمشركين ، فبين عز وجل هنا أن الجهات كلّها لله عز وجل ، وأن المسلم إذا توجه إلى جهة يأمره الله عز وجل بالتوجه إليها فهو على حق وهو محسن في عمله ، قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله : يقال : أردت هذا الوجه أي هذه الجهة والناحية ومنه قوله : ﴿والله المشرق والمغرب فأينما تولّوا فثمّ وجهه

الله ﴿أي قبلة الله ووجهه الله . وبعد أن بين أن معنى : ﴿أينما تولّوا﴾ أي تتوجهوا وتستقبلوا، قال : فإن قوله : ﴿ولله المشرق والمغرب﴾ يدل على أن وجه الله هناك من المشرق والمغرب الذي هو الله كما في آية القبلة ﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ اهـ ومعنى : ﴿إن الله واسع عليم﴾ أي إن الله تبارك وتعالى محيط بجميع خلقه يسعهم بالكفاية والتدبير والجلود، عليم بأفعالهم ونوايا قلوبهم لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

قال تعالى : ﴿وقالوا : اتَّخَذَ اللهُ وَلِداً ، سبحانه بل له ما في السموات والأرض كلُّ له قانتون﴾ بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون* وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية ، كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم ، قد بينّا الآيات لقوم يوقنون* إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تُسأل عن أصحاب الجحيم﴾ .

بعد أن بيّن الله تبارك وتعالى بعض تناقضات اليهود والنصارى والذين أشركوا حيث يكفّر بعضهم بعضاً ، وأنهم إنما يتعاونون ويكونون يدا واحدة لإطفاء نور الله والله متمّ نوره ، بيّن في هذا المقام الكريم تشابه أهل الكتاب من اليهود والنصارى مع المشركين الأميين من العرب حيث ادّعى كل فريق منهم أنّ الله ولدًا ، إذ زعمت اليهود أن عزيزاً ابن الله وزعمت النصارى أن المسيح ابن الله وزعم الجاهلون العرب الأميون أن الملائكة بنات الله ، وهو قولٌ منكر تكاد السموات تنفطر منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً بسبب هذه الدعوى الباطلة والفرية الكاذبة على الله عز وجل ، وقد ردّ الله باطلهم ودحض مقالتهم باستحالة ما يزعمون وبطلان ما يدّعون حيث إنّ جميع ما في السموات والأرض ملكٌ لله ، الذي أوجد السموات والأرض على غير مثال سابق بما فيهما وما بينهما ، فكيف يكون له ولدٌ والكلُّ عبيده وخلقه ، وليس لله نِدٌّ ولا شبيه ولا نظيرٌ ولا شريك ، ولم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . ولما قال العرب الجاهلون : الملائكة بناتُ الله ، قيل لهم : مَنْ أمهاتهم؟ قالوا : سروات الجن أي شريفات الجن وقد نفى الله عز وجل عن نفسه اتخاذ الصاحبة وهو يقتضي نفي الولد ، ولذلك قال عز وجل : ﴿وجعلوا لله شركاء الجنّ وخلقهم وخرقوا له بنين وبناتٍ بغير علم ، سبحانه وتعالى عما

يصفون * بديع السموات والأرض أتى يكون له ولدٌ ولم تكن له صاحبةٌ وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ﴿ وقال عز وجل : ﴿ إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد ، له ما في السموات وما في الأرض ، وكفى بالله وكيلاً * لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً * فأما الذين آمنوا و عملوا الصالحات ﴿ الآية وقال في سورة يونس : ﴿ قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني ﴿ الآية . وقال في ختام المسك من سورة الإسراء : ﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريكٌ في الملك ولم يكن له وليٌ من الدّلّ وكبره تكبيراً ﴿ وقال في افتتاحية الخير من سورة الكهف : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً * ما لهم به من علم ولا لآبائهم ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، إن يقولون إلا كذباً ﴿ وقال في سورة مريم : ﴿ ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴿ وقال فيها أيضاً : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً * لقد جئتم شيئاً إداً * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً * أن دعوا للرحمن ولداً * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً * إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً . ﴿ وقال عز وجل : ﴿ ألا إنهم من إفكهم ليقولون * ولّد الله وإنهم لكاذبون ﴿ ثم قال : ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ، ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون ﴿ وقال عز وجل : ﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد ﴿ وقد أكد تبارك وتعالى في هذه الآيات الكريمة أنه رب كل شيء ومليكه والكل عبده ، والولد لا يكون عبداً ، وقد روى البخاري في صحيحه من حديث حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « قال الله : كذّبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان ، وأما شتمه

إياي فقلوه : لي ولدٌ ، فسبحاني أن ألتخذ صاحبة أو ولدًا . وقوله تعالى : ﴿وقالوا اتخذ الله ولدا﴾ أي وقال اليهود والنصارى والمشركون : صنع الله لنفسه ولدا أو صيّر له ولدًا وقوله عز وجل : ﴿سبحانه﴾ أي تنزيها لله عما لا يليق به وإبعادًا له عن كل نقص وبراءة له من كل سوء . وقوله عز وجل : ﴿بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون﴾ * بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾ هذه هي أدلة بطلان مقالة اليهود والنصارى والمشركين في دعواهم أن الله ولدا ، وذلك بتقرير أن اليهود والنصارى والمشركين يقولون بأن الله له كل ما سواه على سبيل الملك والخلق والإيجاد والإبداع ، والولد إنما يكون من جنس أبيه ، والوالد يحتاج إلى الولد لنفعه ودفع الأذى عنه إذا كبر ، والله الذي له ما في السموات والأرض مَلِكًا ومُلكًا وجميع هذه المخلوقات المملوكات لله مقرة له بالعبودية بلسان حالها أو مقالها ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، فالجميع قانت خاضع له مقر بأنه رب كل شيء ومليكه وسيده ، وهو بديع السموات والأرض أي موجدتهما على غير مثال سابق ومخترعهما من العدم ، وهو غني عن العالمين ، وقضاؤه نافذ ، وسلطانه تام إذا أراد أمرا لا يحتاج إلى مادة أو معالجة أو معاونة بل يقول له كن فيكون ، كما قال للسموات والأرض اثبتا طوعا أو كرهما قالتا أتينا طائعين ، وإذا كان هذا هو شأن رب السموات والأرض فكيف يتخذ ولدا ، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى : ﴿بل له ما في السموات والأرض﴾ : أي ليس الأمر كما افترضوا ، وإنما له ملك السموات والأرض ومن فيهن وهو المتصرف فيهم وهو خالقهم ورازقهم ومقدّرهم ومسخرهم ومسيرهم ومصرفهم كما يشاء ، والجميع عبيد له ومُلك له فكيف يكون له ولدٌ منهم؟ والولد إنما يكون متولدا من شيئين متناسبين وهو تبارك وتعالى ليس له نظير ولا مشارك في عظمته وكبريائه ، ولا صاحبة

له ، فكيف يكون له ولد؟ اهـ وقوله تعالى : ﴿وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية﴾ هو بيان لنوع آخر من قبائح أقوال المشركين العرب الأميين حيث يرغبون في أن يكلمهم الله بلا واسطة ، أو تحيثهم آية مما يقترحون وهذه السفاهة من هؤلاء السفهاء تدل على بِلادة نفوسهم وسوء أخلاقهم ، وأنهم ما قدروا الله حق قدره وكأنهم مع عجزهم التام عن الإتيان بمثل سورة من القرآن الكريم لم يكتفوا بآيته العظمى وحجته الكبرى ، وقد حكى الله عنهم بعض مقترحاتهم حيث يقول : ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تَفْجُرَ لنا من الأرض ينبوعا * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا * أو تُسْقِطَ السماء كما زعمت علينا كِسفاً أو تأتي بالهـ والملائكة قبيلاً * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنتُ إلا بشراً رسولا﴾ وقد أوضح الله تبارك وتعالى أنه لو أجاب قريشا إلى مقترحاتهم فإنهم لن يؤمنوا ؛ لأنهم يقرون في قلوبهم أن محمداً رسول الله وأنه الصادق الأمين وأنهم ما جربوا عليه كذبا قط وأن الذي حملهم على التكذيب واقتراح الآيات هو الحسد الذي امتلأت به قلوبهم أن ينزل القرآن على رجل فقير، إنما يريدونه بحسب شهواتهم أن يكون من أغنياء القريتين مكة أو الطائف ، وفي ذلك كله يقول الله عز وجل : ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ ويقول عز وجل : ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون﴾ . وقوله تعالى : ﴿كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم﴾ أي كما قال الجاهلون الأميون العرب المشركون الذين لا يعلمون قال الذين من قبلهم من اليهود والنصارى مثل مقالتهـم فاليهود قالوا : أرنا الله جهرة ، وقالوا : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة عند ما مروا بقوم يعكفون على أصنام لهم ، وقالوا : لن نصبر على طعام

واحد، وقالوا في طالوت : أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يُؤت سعة من المال؟ في اقتراحات كثيرة يقترحونها على موسى عليه السلام ويقترحونها على أنبيائهم من بعده . والنصارى قالوا : هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟ وقوله تعالى : ﴿تشابهت قلوبهم﴾ أي تماثلت قلوب الأميين من المشركين وقلوب أهل الكتاب من اليهود والنصارى في العناد والعمى فتشابهت أقاويلهم الباطلة الفاسدة ومقترحاتهم العاطلة الكاسدة . وقوله تعالى : ﴿قد بينا الآيات لقوم يوقنون﴾ أي قد أوضحنا أننا قد آتيناهم بالآيات البينات والحجج الظاهرات على أن محمدا هو رسول الله حقا وصدقا فلو كانت لهم بصائر لأيقنوا ، لأن هذه الآيات التي بيناها قد استجاب لها المؤمنون وآمن بها المتقنون الموقنون . وقوله تعالى : ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ولا تُسأل عن أصحاب الجحيم﴾ أي إنا بعثناك أيها الرسول الكريم مصحوبا بالحق الثابت والآيات الكافية الشافية التي يؤمن على مثلها البشر تبشّر من أطاعك بالجنة وكريم ثوابها بالخبر الذي تنطلق له أسارىزهم فرحا وسرورا ، وتحذر من عصاك وتخوفهم من النار ، ولست بمسؤول يوم القيامة عن أهل النار التي تتأجج بهم ، فالبشارة هنا هي الخبر المؤثر على البشرية بما يسرّ والنذارة هي التحذير والتخويف ، والجحيم هي النار الشديدة التأجج بعضها فوق بعض . وقوله تعالى : ﴿بشيرا ونذيرا﴾ هما صفتان من صفات رسول الله ﷺ في الكتب السماوية السابقة فقد روى البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه وجد صفة رسول الله ﷺ في التوراة - يعني بها هنا بعض كتب العهد القديم - يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأميين أنت عبدى ورسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب في الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، ويفتح عيوننا عمياً ، وأذاناً صماً وقلوبا غلفاً بأن يقولوا : لا إله إلا الله .

قال تعالى: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾، قل إن هدى الله هو الهدى، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مآلك من الله من ولي ولا نصير* الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به، ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون* يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين* واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون*.

بعد أن بين الله تبارك وتعالى بعض ما توافقت عليه فرق اليهود والنصارى والمشركون من زعمهم الباطل: أن الله اتخذ ولداً، ونزه الله نفسه المقدسة عما يقولون، وأبطل دعواهم بالحجج العقلية القاطعة التي لا مفر للعاقل من الانقياد لها، والإيمان بها، والتي لا يستطيع اليهود ولا النصارى ولا المشركون جحد شيء منها لأنها مبنية على الأمور التي يُسلم بها اليهود والنصارى والمشركون فهم جميعاً يقولون بأن الله أكبر من كل شيء، وأن السموات والأرض وما فيهما له وحده جلّ وعلاً، أوضح هنا لرسوله ﷺ أن ما يقترحونه من الآيات لو جاءتهم لن يؤمنوا وأنهم مستمسكون بباطلهم أشد استمساك، ولن يقفوا عند هذا الحد من الثبات على باطلهم بل هم يريدون منك أن تترك الحق الذي أنت عليه وتتبعهم في باطلهم مع تناقضهم، فلن ترضى عنك اليهود ولو خليتهم وشأنهم حتى تتبع ملتهم، ولن ترضى عنك النصارى ولو خليتهم ودينهم حتى تتبع ملتهم، مع أن رضا اليهود مباين لرضا النصارى، ولن تستطيع بحال أن تنال رضا الفريقين المتناقضين المتباغضين، لاستحالة الجمع بين الضدين والنقيضين، وقوله تعالى: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى﴾ أي ولن يزول غضب اليهود والنصارى وبغضهم لك أيها النبي

الكريم والرسول العظيم ، ولن يرضوا عنك ، حتى تتبع ملتهم أي حتى تترك دينك الحق وتتبع هواهم وباطلهم ، والملة الدين والمذهب سواء كان حقا أو باطلا ، ولذلك عبّر الله تبارك وتعالى عن ملة اليهود والنصارى بأنها أهواء ، وقوله تعالى : ﴿ قل إنّ هدى الله هو الهدى ﴾ أي أخبر اليهود والنصارى وغيرهم بأنّ دين الله الذي بعث به محمدا ﷺ هو الدين الحق وهو سبيل الرشاد ، وهو الذي يصلح أن يستقى هدى وما سواه فهو ضلال ، والذي عليه اليهود والنصارى ليس هدى وإنما هو هوى ، وليس بعد الحق إلا الضلال ، ولذلك لما قال اليهود والنصارى فيما حكى الله عز وجل عنهم بقوله : ﴿ وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا ﴾ ردّ عليهم هذا الزعم الكاذب فقال : ﴿ قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾ وقال : ﴿ ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ﴾ إنّ أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبيّ والذين آمنوا والله وليّ المؤمنين ﴿ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير ﴾ أي وتالله لئن وافقتهم على أقوالهم التي هي أهواء باطلة وشهوات جامحة وأمنيات خادعة كاذبة ، بعد أن منّ الله عليك بالدين الحق المعلوم صحّته بالدلائل القاطعة والبراهين الساطعة فلن تجد وليا يقيم لك أمرك ولا ناصرا ينصرك ويدفع عنك ، والمقصود من هذا الوعيد هو التهديد لمن أطاع اليهود أو النصارى في مذاهبهم الزائفة الباطلة ، وتوجيه الخطاب بهذا لرسول الله ﷺ المعصوم من الهوى والزيغ ، الذي صانه الله من كل إثم وعصمه من كلّ خطيئة واصطنعه الله لنفسه ورباه على عينه ، واصطفاه لرسالته وأمنه على وحيه وفضّله على سائر خلقه ، إنما هو من باب قول القائل : إياك أعني واسمعي يا جارة ، وذلك كقوله عز وجل : ﴿ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنّ عملك ولتكونن من

الخاسرين * بل الله فاعبد وكن من الشاكرين * ومن البدهيات المسلمة أن أنبياء الله معصومون محفوظون مصونون عن الوقوع في المعاصي والسيئات . وقوله تعالى : ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به﴾ أي الذين أعطيناهم القرآن يقرءونه حق قراءته أي القراءة الحقة التي يستحقها من الترتيل والتجويد والخشية وتحسين الصوت وتحبيره ، وتلاوته آناء الليل والنهار ، والعمل بمحكمه والإيمان بمتشابهه وتحليل حلاله وتحريم حرامه ، والوقوف عند حدوده ، والمحافظة على حروفه ، وصيانتها من التحريف والتبديل ، ولا شك أن قوله : ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ يفيد العموم فيشمل الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام رضي الله عنه ويشمل الذين آمنوا من العرب والعجم . وتفسير الكتاب في هذا المقام بالتوراة بعيد حيث إنه بعد نزول القرآن لا تُقرب تلاوة التوراة إلى الله عز وجل ، وإنما قد يطلب تلاوة جملة أو جمل منها للاستشهاد على حكم تلاعب به أهل الكتاب كالرجم الذي حولوه إلى التحميم والتشهير إذا وقع من أغنيائهم ، وقد أثنى الله تبارك وتعالى على من آمن من أهل الكتاب حيث يقول : ﴿ليسوا سواء﴾ ، من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين * وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين * وقد بشر رسول الله ﷺ هؤلاء المؤمنين من أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجلٌ من أهل الكتاب آمن بنيه ثم آمن بي ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه ، ورجلٌ كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فتزوجها» . ولا يجوز أن يوصف من آمن من أهل الكتاب بأنه يهودي أو

نصراني، ويُزَجَرُ من يصفه باليهودية أو النصرانية بعد أن منّ الله عليه بالإسلام، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن الذي يتلو القرآن آناء الليل والنهار هو الذي ينبغي أن يغبط؛ لأنه بخير المنازل وأفضل الأعمال فقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا حسد إلا على اثنين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ورجل آتاه الله مالا فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار». والمراد بالحسد في الحديث الغبطة وهي أن تتمنى مثل ما للغير، لأنه تنافس في الخير بخلاف الحسد فإنه تمنى زوال النعمة عن الغير وهو مذموم، وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ الإشارة فيه لعلو منزلة الذين أوتوا الكتاب فتلوه حق تلاوته، ووصفهم بالإيمان به تقريرٌ لعلو شرف المؤمنين، وكريم منزلتهم عند الله عز وجل، كأنه يقول: هم المؤمنون حقا المقرون بكتاب الله المنقادون لتعاليمه، وفيه تعريض باليهود والنصارى الذين ضيّعوا الكتاب واشتروا به ثمنا قليلا، وقد أثنى الله تبارك وتعالى على من آمن من أهل الكتب السماوية السابقة الذين سارعوا إلى الإيمان بمحمد رسول الله ﷺ وبشهرهم بمضاعفة حسناتهم حيث يقول عز وجل: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ وقوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي ومن يجحد حَقِّيَّةَ القرآن ولا يصدق أنه من عند الله ويكفر بمحمد ﷺ فهؤلاء هم الذين ضيّعوا دينهم ودنياهم وأهلكوا أنفسهم، وفاتهم الحظوظ التي أعدها الله لأهل الإيمان فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين، فلا استقرار لهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار كما

قال عز وجل : ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهدٌ منه ومن قبله كتابٌ موسى إماما ورحمةً ، أولئك يؤمنون به ، ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ، فلا تك في مرية منه ، إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ وقوله عز وجل : ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين * واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون﴾ قد تقدم في تفسير الآيتين السابعة والأربعين والثامنة والأربعين من هذه السورة المباركة التشابهيّتين مع هاتين الآيتين الكريميتين أن هذا التكرير هو أحد معاني كون القرآن متشابها مثنائي ، وأن معنى كونه متشابها أنه يشبه بعضه بعضا في البلاغة والفصاحة والصدق والإحكام والإتقان واستتباع منافع الخلق في المعاش والمعاد ، وأن معنى كونه «مثنائي» أي يردد المعنى ويكرره في مقامات متباعدة دون أن يلحقه تناقض أو اختلاف مع مراعاة مقامات الأحوال ، وأن المعاني التي تكرر يقصد بتكريرها التأكيد عليها ، وذلك لشدة البلوى بها ، مع عظيم خطرها ، فإن أكثر المشركين مع اختلاف أعصارهم وأمصارهم كانوا يشركون بالله ويجعلون شركاءهم شفعاء عند الله كما قال عز وجل : ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض ، سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ * وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَاتَّخَذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾

بعد أن بيّن الله تبارك وتعالى أنّ ما عليه اليهود والنصارى والمشركون من الدين هي أهواء وشهوات ، وأنّ هدى الله هو الهدى ، وأن من أسلم وجهه لله وهو محسن سعد بمرضاة الله ورضوانه مهما كان لونه وجنسه ، وعصره ومصره ، ومن اتّبع هواه وترك هدى الله شقي وكان مستحقا لسخط الله وعقابه مهما كان لونه وجنسه وعصره ومصره ، بيّن في هذا المقام الكريم أن إبراهيم خليل الرحمن إمام الحنفاء الذي يزعم اليهود والنصارى والعرب المشركون أنهم على ملته افتراءً وزوراً وكذباً ؛ لأنه عليه السلام لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولم يك من المشركين وإنما كان حنيفاً مسلماً وبيّن هنا أنه لما بشّر الله عز وجل بأنه جاعله للناس إماماً قال : ومن ذريتي ، فأخبره الله عز وجل أن ذريته منها المنحرف عن دين الله الظالم لنفسه ومنها المستقيم على هدى الله الذي يبعث به الأنبياء والمرسلين ، فمن كان من ذرية إبراهيم على هدى الله فهو المستحق للكرامة ومن انحرف عن دين الله فلا كرامة له ، حيث يقول عز وجل هنا : ﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ أي واذكر إذ اختبر الله تبارك وتعالى نبيه ورسوله وخليله إمام الحنفاء وأباً الأنبياء إبراهيم عليه السلام بأوامر شرعية أمره الله عز وجل بها فقام بها على خير وجه وأكمله ووفّى بها أمره الله عز وجل به وقال الله عز وجل له : إِنِّي مُصَيِّرُكَ قُدُوةً يُقْتَدَىٰ بِهَا الْمُؤْمِنُونَ ، ويأتى بها الصالحون ، فسأل إبراهيم ربّه عز وجل أن يجعل من ذريته أئمة

صالحين يكونون قدوة في الخير والعمل الصالح فأخبره الله عز وجل أن ذريته سيكون منهم أئمة خير ورشد وسيكون منهم ظالمون منحرفون عن سواء السبيل ، لا يسلكون سبيل المرسلين ولا ينهجون نهج الصالحين فمن انحرف من ذريتك عن نهج الأنبياء وأشرك بالله فله النار، ولن ينفعه أنه من ذريتك ، وتصدير هذه الآية بقوله : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيمَ ربه ﴾ وهي أول حديث عن إبراهيم خليل الرحمن في هذه السورة المباركة للدلالة على عظم مسؤولية الأنبياء والمرسلين ولا سيما من كان من أولي العزم منهم وفي مقدمتهم خليل الرحمن عليه وعليهم السلام ولذلك أخبر رسول الله ﷺ أن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل فقد قال البخاري في صحيحه : باب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل . قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري : وصدر هذه الترجمة لفظ حديث أخرجه الدارمي والنسائي في الكبرى وابن ماجه وصححه الترمذي وابن حبان والحاكم كلهم من طريق عاصم بن بهدلة عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال : قلت : يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال : « الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، يُبتلى الرجل على حسب دينه » الحديث . اهـ ولا شك أن أعظم صور البلوى هي ما أمر الله به إبراهيم عليه السلام بذبح ولده فانقاد لأمر الله ولم يتردد في تنفيذ ما أمره الله عز وجل به كما قال الله عز وجل : ﴿ وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين ﴾ رب هب لي من الصالحين * فبشرناه بغلام حلیم * فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى؟ قال : يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين * فلما أسلما وتلّاه لرجلين * ونادينا أن يا إبراهيم * قد صدقت الرؤيا ، إنا كذلك نجزي المحسنين * إن هذا هو البلاء المبين ﴿ وقد ذكر الله تبارك وتعالى أن إبراهيم عليه السلام وفيّ بما أمره الله عز وجل به حيث يقول : ﴿ أم لم يُنبأ بها في صحف موسى ﴾ وإبراهيم الذي وفيّ

* ألا تنزر وازرةً وزرَّ أخرى * وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يُرى * ثم يُجزَّاهُ الجزاءَ الأوفى ﴿١﴾ وقد أكَّد الله تبارك وتعالى أن ذرية إبراهيم ليسوا سواءً وأن منهم الظالم والمهتدي ، والصالح والطالح في مواضع كثيرة من كتابه الكريم ليبطل دعوى بني إسرائيل العنصريين حيث زعموا أنه لن يدخل الجنة أحدٌ غيرهم وأنهم لن تمسَّهم النار إلا أياماً معدودات وأنهم أبناء الله وأحبَّاءه ، فوصف بعض ذرية إبراهيم عليه السلام هنا بالظلم وقال عز وجل في سورة الصافات : ﴿وباركنا عليه وعلى إسحاق ، ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾ وقال تعالى في سورة الحديد : ﴿ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتدٍ وكثيرٌ منهم فاسقون﴾ . وقوله تعالى : ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾ هذا بيان للناس يعلن الله تبارك وتعالى فيه أن أعظم مكان على وجه الأرض يشوب إليه الناس من جميع أجناسهم وألوانهم ، وأقطارهم وأمصارهم ، في جميع أعصارهم هو البيت الحرام والكعبة المشرفة ، يأمن فيه كل من دخله لا يحل لأحد كائناً من كان أن يثير فيه شغباً ، ولا يزعج فيه آمنة ، حتى الطير ، ومن أراد به سوءاً أذاقه الله من عذابه الأليم ، وفي هذا إيحاءٌ إلى أنه أولى مكان على وجه الأرض يستحق أن يتوجَّه المسلمون إليه في صلاتهم ، وأن يكون مهوى أفئدتهم ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿وإذ جعلنا البيت مثابةً للناس وأمناً﴾ أي واذكر إذ صيرنا الكعبة المشرفة مرجعاً للناس يثوبون إليه من جميع جهات الأرض دون تفرقة لألوانهم أو أجناسهم فهم فيه سواءٌ العاكف فيه والباد ، يأتونه من كل فج عميق مشاةً وركبانا ، وقد جعلناه مكاناً آمناً وأماناً ، واستقرار نفس وراحة بالٍ ، على مرِّ العصور والدهور ، من دخله كان آمناً ، لا يحل لأحد أن يثير فيه رعباً ، أو يسبب فيه

خوفا وفرعا، حتى كان الرجل يلقي فيه قاتل أبيه أو أخيه أو ولده فلا يهيجه ولا يزعجه، وقد أكد الله تبارك وتعالى على أمن البيت الحرام ممتناً به على قريش في مواضع من كتابه الكريم حيث يقول هنا: ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأماناً﴾ ويقول في سورة آل عمران: ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أنه فرض الأمن في المسجد الحرام وما حوله من مكة وما يحيط بها إلى حدود معلومة وجعل ذلك كله حرماً يأمن فيه الإنسان والطير، وأن إبراهيم خليل الرحمن كان يدعو ربه ليديم الأمن والاستقرار في مكة حيث يقول عز وجل: ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً﴾ ويقول تبارك وتعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً﴾ ويوتخ الله تبارك وتعالى مشركي قريش على كفرهم برسول الله ﷺ وادّعائهم أنهم لو آمنوا به تخطفهم الناس حيث يقول عز وجل: ﴿وقالوا إن نتبع الهدى معك نُتخطف من أرضنا، أو لم نمكّن لهم حرماً آمناً يُحْبِى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ وقال عز وجل: ﴿أو لم يروا أننا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم، أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون﴾ وقال تعالى في بيان قواعد الخير التي أمر رسوله ﷺ أن يعلنها للناس: ﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرّمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ ويقول عز وجل: ﴿والتين والزيتون * وطور سينين * وهذا البلد الأمين﴾ وقوله تعالى: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ أي واجعلوا أيها المستجيبون لله عند مقام إبراهيم مكان صلاة لكم، وقد بين ذلك رسول الله ﷺ بفعله وقوله، كما جاء في قصة حجة الوداع عند مسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال: حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن فطاف سبعاً، فرمل ثلاثاً، ومشى أربعاً، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم فقرأ: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ فصلى ركعتين فجعل المقام بينه

وبين البيت . الحديث وفي رواية للبخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال : قدم رسول الله ﷺ فطاف بالبيت سبعا ثم صلى خلف المقام ركعتين . الحديث . وروى البخاري في صحيحه في تفسير قوله تعالى : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ من حديث أنس رضي الله عنه قال : قال عمر : وافقت ربي في ثلاث ، قلت : يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى ؟ فنزلت : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ . . الحديث ، ومقام إبراهيم هو الحجر الذي كان يقوم عليه وهو بيني الكعبة وإسماعيل يناوله الحجارة وقد أثر قدماء في الحجر فصار موطئه فيه ظاهرا ، وقد صار معلوما عند العرب من لدن إسماعيل جيلا بعد جيل إلى بعثة رسول الله ﷺ ثم إلى اليوم وفيه يقول أبو طالب في لاميته المشهورة :

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة على قدميه حافيا غير ناعل
وفي تقديم ذكر الصلاة عند مقام إبراهيم على ذكر بناء إبراهيم للبيت مع أن الحجر إنما صار بهذه المثابة بعد بناء البيت للفت الانتباه إلى أن الله تبارك وتعالى جعله آية شاهدة باقية للدلالة على بناء إبراهيم للبيت لعلمه عز وجل أن اليهود سيوجدون أن يكون إبراهيم قد بنى الكعبة ولذلك قال عز وجل : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ﴾ . وقوله عز وجل : ﴿ وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود ﴾ أي ووصينا وأمرنا وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن ينظفا البيت الحرام من كل رجس ونجس حسي أو معنوي ، فيصوناه من جميع القاذورات ويحفظاه من الأوثان والأصنام ، ليكون طاهرا للطائفين الذين يدورون حول الكعبة على الصفة المشروعة وللعاكفين أي المقيمين فيه بقصد الاعتكاف ، وللركع السجود أي المصلين . وكما قال عز وجل : ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت

أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود ﴿١﴾ وتقديم الطواف بالبيت في آية البقرة وآية الحج على الاعتكاف والصلاة ؛ لأن الطواف من خصائص بيت الله الحرام ولا يحل لمسلم أن يطوف حول أي مكان آخر من قبر أو غيره ؛ لأن الطواف بغير الكعبة من أمارات الشرك بالله . والركع جمع راكم والسجود جمع ساجد . وهما كناية عن الصلاة لأنها من أهم أركانها .

قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مِنْ آمْنٍ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ* وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا وَتَبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ .

كان دعاء إبراهيم عليه السلام بأن يجعل الله مكة بلدا آمنا وأن يرزق أهله من الثمرات مرتين مرّة قبل بناء البيت الحرام وقبل أن تصير مكة بلدا به ساكنون وذلك حين وضع ولده إسماعيل وأمه هاجر عند دوحة فوق زمزم وليس بمكة يومئذ أحد ، ولذلك قال في دعائه : ﴿رب اجعل هذا بلدا آمنا﴾ أما دعاؤه المرة الثانية فكان بعد أن سكنها مع إسماعيل وهاجر جماعة من جُرُهم وصارت بلدا مأهولا بالسكان ولذلك قال في دعائه في المرة الثانية : ﴿رب اجعل هذا البلد آمنا﴾ وقد أفاد الخبر الذي رواه البخاري من حديث ابن عباس أن دعوة إبراهيم حيث قال : ﴿رب إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم﴾ إلى قوله ﴿يشكرون﴾ كانت قبل بناء البيت ، إلا أن الله تعالى قد ذكر في جملة دعوات إبراهيم في سورة إبراهيم قوله : ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق﴾ مما يدل على أن هذه الدعوات لم تكن كلها في وقت واحد . ودعاء إبراهيم بجعل مكة بلدا آمنا معناه أن يديم الله تحريمه وأمنه ؛ لأن الله حرّمه يوم خلق السموات والأرض فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما واللفظ للبخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال النبي ﷺ يوم افتتح مكة : « لا هجرة ولكن جهادٌ ونيةٌ ، وإذا استنفرتم فانفروا فإنّ هذا بلدٌ حرّمه الله يوم

خلق السموات والأرض وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة». الحديث ، فتحريم إبراهيم لمكة إنما كان لأنه هو الذي أعلن ذلك وسأل الله ثباته ودوامه وعلى هذا يحمل قول رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال عندما أشرف على المدينة : «اللهم إني أحرم ما بين جبلَيْها مثل ما حرم إبراهيم مكة ، اللهم بارك لهم في مدهم وصاعهم» . كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري عن عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها وحرمتُ المدينة كما حرم إبراهيم مكة ودعوت لها في مَدَّها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم لمكة» فالمقصود أن إبراهيم عليه السلام أعلن تحريم مكة وسأل الله دوامه وثباته . وقد روى البخاري في صحيحه قصة مجيء إبراهيم بإسماعيل وهاجر إلى مكة وقصة دعائه عليه السلام وتردده على مكة ثم بناء البيت الحرام من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : جاء إبراهيم ﷺ بأم إسماعيل وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء فوضعها هناك ، ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم قفى إبراهيم منطلقاً ، فتبعته أم إسماعيل ، فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها ، قالت له : الله أمرك بهذا؟ قال : نعم ، قالت : إذا لا يضيئنا ، ثم رجعت فانطلق إبراهيم ﷺ حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات فرفع يديه فقال : ﴿رب إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع﴾ . حتى بلغ : ﴿يشكرون﴾ . وجعلت أم إسماعيل تُرضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوَّى أو قال : يتلبَّطُ ، فانطلقت

كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا ، فلم تر أحدا فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا فلم تر أحداً ففعلت ذلك سبع مرات قال ابن عباس رضي الله عنهما قال النبي ﷺ : « فلذلك سعى الناس بينهما » فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت : صه تريد نفسها ثم تسمعت فسمعت أيضاً فقالت : قد أسمعت ، إن كان عندك غواثٌ فأغثْ فإذا هي بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه أو قال : بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف - وفي رواية - بقدر ما تغرف . قال ابن عباس رضي الله عنهما قال النبي ﷺ : « رحم الله أم إسماعيل ، لو تركت زمزم أو قال : لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا » ، قال : فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافوا الضيعة فإن هاهنا بيتا لله بينه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله ، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالراية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله ، فكانت كذلك حتى مرّت بهم رفقة من جرّهم ، أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كدّاء فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عاثفا فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على ماء ، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء ، فأرسلوا جرياً أو جريين فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم فأقبلوا وأمّ إسماعيل عند الماء ، فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ قالت : نعم ، ولكن لاحق لكم في الماء قالوا : نعم ، قال ابن عباس قال النبي ﷺ : فألفى ذلك أمّ إسماعيل وهي تحب الأنس فنزلوا فأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم حتى إذا كانوا بها أهل أبيات ، وشبّ الغلام وتعلّم العربية منهم وأنفَسَهم وأعجبهم حين شبّ فلما أدرك

زَوْجوه امرأة منهم وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا وفي رواية يصيد لنا ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بشر، نحن في ضيق وشدة، وشكت إليه قال: فإذا جاء زوجك أقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئاً فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا في جهد وشدة قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول: غير عتبة بابك قال: ذاك أبي وقد أمرني بأن أفارقك، الحقي بأهلك، فطلقها، وتزوج منهم أخرى فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده فدخل على امرأته فسأل عنه قالت: خرج يبتغي لنا قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بخير وسعة وأثنت على الله فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء قال النبي ﷺ: ولم يكن لهم يومئذ حبٌ ولو كان لهم دعا لهم فيه قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه، وفي رواية: فجاء فقال: أين إسماعيل؟ فقالت امرأته: ذهب يصيد فقالت امرأته: ألا تنزل فتطعم وتشرب وقال: وما طعامكم وما شرابكم؟ قالت: طعامنا اللحم وشرابنا الماء قال: اللهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم قال: فقال أبو القاسم ﷺ: بركة دعوة إبراهيم، قال: فإذا جاء زوجك فأقرئي عليه السلام ومُريه يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال «هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه فسألني عنك فأخبرته فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك قال: ذاك أبي وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك، ثم لبث

عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلا له تحت دوحة قريبة من زمزم فلما رآه قام إليه فصنع كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، قال يا إسماعيل: إن الله أمرني بأمر قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك قال: فإن الله أمرني أن أبني بيتا هاهنا، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، فعند ذلك رفع القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ أي واذكر إذ قال إبراهيم عليه السلام رب صير هذا المكان بلدا مطمئنا لا يروّع أهله بقتال، ولا يسلط عليهم عدو. وقوله تعالى: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي واجعل عيش المؤمنين فيه رغدا، واحفظهم من الجذب والقحط وأدرّ عليهم من خيرات الدنيا؛ لأن أهلها في واد غير ذي زرع، وقوله: ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ بدل من قوله: ﴿أَهْلَهُ﴾ كأنه قال: وارزق ساكنيه من المؤمنين، وقد حمله على تخصيص المؤمنين بهذا الدعاء ما تأدّب به من تنبيه الله له عندما سأل الإمامة لذريته فأجابه الله: لا ينال عهدي الظالمين، فحرص على تخصيص المؤمنين بهذا الدعاء، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي وسأرزق مع مؤمني أهل مكة كافرهم أيضا متاع الحياة الدنيا، ثم أدفع الكافر إلى عذاب الجحيم، فالدنيا أعطيها لمن أحب، ولكن الجنة أخص بها المؤمنين وإن كان الكافر إنما يتمتع بالنعيم الدنيوي تبعا للمؤمنين لأن الأصل أن الله أوجد الطيبات في الدنيا من أجل المؤمنين والكفار يشاركونهم فيها على سبيل التبعية، وفي الآخرة تكون خالصة للمؤمنين كما قال عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ

والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصةً يوم القيامة ﴿١﴾
وقوله تعالى : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ أي واذكر إذ
يرفع إبراهيم خليل الرحمن وولده إسماعيل عليهما السلام أسس البيت الحرام
ويعليان بنيانه برفع جُدره بعضها فوق بعض حيث بوأ الله تعالى لإبراهيم
مكان البيت كما قال عز وجل : ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ أي هيأناه
له وأعلمناه به ، وقوله تعالى : ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي
يقولان وهما يعملان هذا العمل الصالح : ربنا تقبل منا عملنا واجعله محلاً
لقبولك ورضاك عنا إنك لا تخفى عليك خافية ولا يغيب عن علمك شيء .
وقوله : ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا
مَنَاسِكَنا وَتَبِ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي واجعلنا اللهم منقادين
لك على الدوام واجعل من ذريتنا أمة منقادة لدينك متبعة لشرعك وعلمنا
مانحتاج إليه من شرائع ديننا ، وعاملنا بعفوك ومغفرتك إنك أنت العائد على
عبادك بالفضل والجود والإحسان والغفران .

قال تعالى : ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم﴾ ، إنك أنت العزيز الحكيم* ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ، ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين* إذ قال له ربّه أسلم قال أسلمت لرب العالمين* ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنيّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون* .

تتابع دعوات إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، فبعد دعاء إبراهيم عليه السلام لمكة أن يديم الله عزّها وأمنها وأن يجعل عيش أهلها رغداً ، وقد استجاب الله تبارك وتعالى دعاءه حيث أصبحت مكة تجبى إليها ثمرات كل شيء من رزق الله ، ثم دعا إبراهيم وإسماعيل وهما بينان الكعبة قائلين : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ثم ذكر دعاءهما بأن يثبتهما الله على الإسلام وأن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة منقادة لله مستجيبة لرسوله ﷺ وأن يتفضل عليهما وعلى المسلمين بتبصيرهم بشرائع دينهم ، ومناهج سعادتهم ، ومراسيم عبادتهم ثم دَعَوْا الله تبارك وتعالى هنا أن يبعث في ذريتهما الساكين في أم القرى وما حولها رسولا من ذريتهما يقرأ عليهم القرآن ويبينه لهم ، ويفقههم في الدين ويطهرهم من الشرك بدعوتهم إلى التوحيد الخالص لله عز وجل ، وفي تتابع هذه الدعوات وهذه التضمرات من خليل الرحمن ومن ولده إسماعيل عليهما السلام لفت الانتباه إلى فضل الدعاء ولذلك وصف الدعاء بأنه العبادة ، فقد روى أحمد والترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجه وقال الترمذي : حديث حسن صحيح عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «الدعاء هو العبادة» ، ثم قرأ : ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾ وقوله تعالى : ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم﴾ أي يا سيدنا

ومصلح شئوننا، ومدبر أمورنا يا من ربّيتنا بجودك وإحسانك أرسل في ذريتنا رسولا من ذريتنا. وقد استجاب الله تبارك وتعالى من خليفه إبراهيم ومن إسماعيل عليهما السلام دعاءهما وحققه لهما في نبيه الكريم ورسوله العظيم محمد ﷺ حيث أرسله من أهل البلد الحرام، ولذلك أخبر رسول الله ﷺ أنه دعوة أبيه إبراهيم فقد روى الإمام أحمد بسند حسن عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبُشِّرْ عيسى بي، ورأت أُمِّي أنه خرج منها نورٌ أضاءت له قصور الشام». قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: والمراد أن أول من نوه بذكره وشهره في الناس إبراهيم عليه السلام، ولم يزل ذكره في الناس مذكورا مشهورا سائرا حتى أفصح باسمه خاتم أنبياء بني إسرائيل نسباً وهو عيسى ابن مريم حيث قام في بني إسرائيل خطيباً وقال: ﴿إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يديّ من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ اهـ وقد حصر الله تبارك وتعالى النبوة والكتاب بعد إبراهيم عليه السلام في ذريته حيث يقول عز وجل: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ فكل كتاب أنزله الله تعالى بعد إبراهيم عليه السلام على نبي من الأنبياء ففي ذريته، وقد جعل الله تبارك وتعالى لخليفه إبراهيم فرعين، أحدهما إسماعيل والآخر إسحاق وقد ولد لإسحاق يعقوب وهو إسرائيل، وإليه ينتسب سائر أسباطهم، وكانت فيهم النبوة حتى ختموا بعيسى ابن مريم وهو من بني إسرائيل لنسب أمه فيهم أما الفرع الثاني من ذرية إبراهيم وهو إسماعيل فلم يأت من ذريته نبي غير الجوهرة الباهرة والذرة الزاهرة خاتم الأنبياء وسيد المرسلين صاحب المقام المحمود والحوض المورود الذي يغبطه الأولون والآخرون يوم القيامة محمد ﷺ الذي تفضل الله به علينا فجعله حظنا وحظّ الإنس والجن من جميع الأجناس الذين سعدوا بالإيمان به من لدن بعثته إلى يوم القيامة عليه صلوات

الله وسلامه التامان الأكملان إلى يوم الدين . وكان من مكافأة الله عز وجل لخليله إبراهيم على بناء الكعبة أن جعله في السماء السابعة يسند ظهره إلى البيت المعمور الذي تحجه الملائكة في السماء وكان من مكافأته على دعائه بأن يبعث الله من ذريته وذرية ولده إسماعيل رسولا واستجاب الله له بإرسال سيد البشر ﷺ أن جعل الصلاة عليه مقرونة بالصلاة على محمد ﷺ وأجرى ذكره بالثناء عليه إلى يوم القيامة من عباد الله الصالحين حيث يقولون في تشهدهم في الصلاة : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد . وقوله عز وجل : ﴿ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ﴾ أي يقرأ عليهم القرآن ، ولذلك ربط الله تبارك وتعالى بين بعثة محمد ﷺ في مكة البلد الحرام وبين تلاوته للقرآن حيث يقول : ﴿ إِنَّمَا أَمَرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ * وأن أتلو القرآن ﴿ وقوله عز وجل : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ أي ويبين لهم مجمل الكتاب وقد يخص عمومهم ويعمم خصوصه ويقيد مطلقه ويطلق مقيده حيث يندرج ذلك كله في قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ والحكمة هي الفقه في الدين واتباع سنة النبي الكريم ووضع الأمور في مواضعها ، ومعنى : ﴿ يُزَكِّيهِمْ ﴾ أي يطهرهم وذلك بترغيبهم في الطيبات وترهيبهم من المحرمات وتحذيرهم من سائر النجاسات المعنوية والحسية . وقوله : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أي إنك أنت الغالب القاهر الفعال لما يريد الواضع للناس أسعد المناهج ، ولا يخلو أمرك أو نهيك عن حكمة قد يعقلها العالمون ، وقد تخفيها عن الخلق فيتعبد بأمرك أو نهيك المتعبدون ، لإيمانهم أنك أنت الحكيم العليم وقوله عز وجل : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةٍ

إبراهيم إلا من سفه نفسه ﴿ هذا توبيخ لمن انحرف عن ملة إبراهيم فأشرك بالله وابتدع ديناً مناقضاً لما جاء به إمام الخلفاء خليل الرحمن عليه السلام ومَن في قوله : ﴿ ومَن يرغب ﴾ للاستفهام الإنكاري فهي بمعنى النفي أي لا أحد يرغب أي ينحرف عن ملة إبراهيم أي شريعته في وجوب إخلاص العبادة لله وحده وإسلام وجهه لله عز وجل والاستجابة للرسول المبعوث بدين الإسلام الذي هو دعوة إبراهيم عليه السلام الذي سَمِيَ نفسه وولده إسماعيل مسلمين وسَمِيَ أمة محمد ﷺ المسلمين كما قال عز وجل : ﴿ وجاهدوا في الله حقَّ جهاده ، هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ، ملة أبيكم إبراهيم ، هو سمّاكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إلا من سفه نفسه ﴾ أي إلا من جهل نفسه واستخف بها وضيعها ورضي أن يكون يهودياً أو نصرانياً أو وثنياً مشركاً وقد برأ الله عز وجل إبراهيم من اليهودية والنصرانية والوثنية حيث قال : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ ولقد اصطفيناه في الدنيا ﴾ أي اخترناه وفضلناه بالرسالة والنبوة وبعثناه بالهداية والرشاد ، ومنحناه في الدنيا حسنة واتخذناه خليلاً وأبقينا ذكره في العالمين وفي ذلك يقول الله عز وجل : ﴿ إنّ إبراهيم كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ وقوله : ﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ أي وإن له في الآخرة لزلفى وفوزاً وحسن مآب في عباد الله الصالحين الفائزين برضوان الله والمنازل العالية في جنات النعيم . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إذ قال له ربه أسلم قال : أسلمت لرب العالمين ﴾ يبيّن الله تبارك وتعالى سبب اصطفاء إبراهيم في الدنيا وعلوّ منزلته في الآخرة أنه سريع المبادرة إلى امتثال أمر الله والانقياد له والاستسلام

والإذعان لما يطلبه الله منه مهما كان فيه من بلوى وامتحان . فهو بمجرد ما قيل له : أسلم أي أخلص لي العبادة واخضع لي بالطاعة بادر بقوله : أسلمت وخضعت وانقذت لأمر الله مالك كل شيء وسيده ومدبره ومصلحه ومريه . وأمر إبراهيم عليه السلام بالإسلام لا يدل على أنه كان خاليا منه ، بل المقصود من الأمر بالإسلام هو الثبات عليه ، وملازمة الاستمسك به ، والقاعدة أن الأمر بالشيء لا يقتضي أن المأمور خال عند الأمر من التلبس بمضمونه ، كما أن النهي عن الشيء لا يقتضي الوقوع فيه . وقوله تعالى : ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي وعهد إبراهيم عليه السلام عهدا مؤكداً إلى بنيه أي إلى أولاده وذريته وكذلك عهد يعقوب عليه السلام إلى أبنائه عهدا مؤكداً بوجوب الاستمسك بملة إبراهيم المقتضية لتجريد التوحيد لله عز وجل وإخلاص العبادة له وحده والالتزام بشريعة الإسلام وترك الابتداع في الدين ، وقال إبراهيم ويعقوب في وصيتهما لأبنائهما : إن الله اصطفى لكم الدين أي اختار لكم شريعة الإسلام فعصوا عليها بالنواجز والزموها وأديموا الاستمسك بها حتى يأتيكم الموت وأنتم على الإسلام ، ولا يخطر على بال عاقل أن قوله : ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ﴾ نهي عن الموت ؛ لأن الموت والحياة بيد الله وحده فقد قهر الله تبارك وتعالى العباد على الموت فليس لأحد من خلق الله كائناً من كان أن يتحكم فيه ، وإنما المقصود بقوله عز وجل : ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أن يحرص الإنسان على الاستمسك بالإسلام حتى يأتيه الموت وهو ملازم لهذه الملة الحنيفية ، فإن المرء يموت غالباً على ما يلتزم به ويحرص عليه كما أنه يبعث على ما مات عليه . فمهما حاول الشيطان أن يصرفكم عن شريعة الإسلام وملة إبراهيم فلا تطيعوه ، ولا تنقضوا هذه الشريعة في وقت من الأوقات فقد تأتاكم منياكم في حال نقضكم للملة

فتموتون على غير الإسلام نعوذ بالله . وكما وصّى إبراهيم بنيه ويعقوب بملازمة ملة الإسلام إلى الموت فقد وصّى رسول الله ﷺ أمته بذلك ، فقد روى مسلم في صحيحه من طريق عبد الرحمن بن عبد ربّ الكعبة قال : دخلت المسجد فإذا عبد الله بن عمرو بن العاص جالس في ظل الكعبة والناس مجتمعون عليه فأتيتهم فجلست إليه فقال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فنزلنا منزلاً فمنا من يصلح خباءه ومنا من ينتضل ومنا من هو في جشّره إذ نادى منادي رسول الله ﷺ : الصلاة جامعة فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال : «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدلّ أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينذرهم شرّ ما يعلمه لهم ، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها ، وسيصيب آخرها بلاءٌ وأمورٌ تنكرونها ، وتجيء فتنةٌ فيرقق بعضها بعضاً وتجيء الفتنة فيقول المؤمن : هذه مهلكتي ، ثم تنكشف وتجيء الفتنة فيقول المؤمن : هذه هذه ، فمن أحبّ أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس الذي يحبّ أن يؤتى إليه ، ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع ، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنقه الآخر» . الحديث .

قال تعالى : ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون﴾ .

يؤكد الله تبارك وتعالى في هذا المقام وفيما قبله وفيما بعده من بدء حديثه عن إبراهيم عليه السلام بقوله تعالى : ﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ بِكَلِمَاتٍ فَاتَمَّهَنَّ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿لَا نَفْرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ في الآية السادسة والثلاثين بعد المائة ، يؤكد على أن الإسلام هو دين الله الذي بعث به أنبياءه ورسله ، وأن اليهودية والنصرانية من الديانات المختلقة المنحرفة عن دين الأنبياء والمرسلين ولذلك كرّر مادة أسلم في هذه الآيات التي ذكرت سبع مرات حيث قال في الآية الثامنة والعشرين بعد المائة في دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام : ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ وقال في الآية الحادية والثلاثين بعد المائة عن إبراهيم عليه السلام : ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلَمْ قَالَ أَسْلَمْتَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثم قال في الآية الثانية والثلاثين بعد المائة : ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ثم قال في الآية الثالثة والثلاثين بعد المائة وهي التي نحن بصدد تفسيرها : ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ثم قال في الآية السادسة والثلاثين بعد المائة : ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نَفْرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ فبعد أن

بين عز وجل أن إبراهيم وإسماعيل كانا مسلمين وقد سألا الله عز وجل أن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة ثم أكد أن ملة إبراهيم هي الإسلام حيث يقول: ﴿إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين﴾ ثم ذكر أن إبراهيم ويعقوب عليهما السلام حرصا على إسلام بنيهما، فوصياهم بالتمسك بدين الإسلام الذي اصطفاه الله للناس حيث قال كل واحد منهما لبيه: ﴿إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ ثم ذكر في هذا المقام الكريم أن أولاد يعقوب عليه السلام قرروا أمامه عند موته بأنهم يستمسكون بالإسلام ولا يفارقونه أبدا وأنهم يقيمون على عبادة الله وحده إله يعقوب وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهها واحدا وهم له مسلمون، ثم أمر الله عز وجل رسوله محمدا ﷺ أن يعلن أن ملة إبراهيم هي الحنيفية السمحة التي يجب على جميع المكلفين من جميع الأجناس أن يتبعوها وأن يعلنوا جميعا أنهم مسلمون، و(أم) في قوله تعالى: ﴿أم كنتم شهداء﴾ بمعنى بل التي للإضراب وهمزة الاستفهام والإضراب هنا للانتقال من توبيخهم على رغبتهم عن ملة إبراهيم التي لا يرغب عنها إلا من سفه نفسه إلى توبيخهم على انحرافهم عن دين يعقوب عليه السلام مع افتراءهم وادعائهم أنهم على دينه . والاستفهام لإنكار أن يكونوا حضورا عند وصية يعقوب لبيه بوجوب إخلاص العبادة لله وحده وجواب بنيه له بأنهم يستمسكون بالحنيفية ملة آبائهم يعقوب وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق وأنهم مسلمون، ومعنى قوله تعالى: ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهًا واحدا ونحن له مسلمون﴾ أي لا تدعوا على أنبيائي ورسلي أنهم كانوا يهودا أو نصارى وبخاصة يعقوب عليه السلام وأنه كان على ملتهم فليس لديكم برهان على ما تدعون، أكنتم حضورا عند حضور مقدمات الموت يعقوب

عليه السلام حتى تعلموا ما قال لبنيه وماذا كانت وصيته لهم عند آخر عهده بالدنيا؟ لو كنتم شهداء عند ذلك لعلمتم أن وصيته لبنيه كانت للتأكيد عليهم بالاستمسك بالإسلام ملة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب فلا تكذبوا أيها اليهود والنصارى على يعقوب عليه السلام، ولا تنسبوا له دينا يخالف دين الإسلام، وليس معنى كون هؤلاء الأنبياء مسلمين أن تكون شريعتهم متطابقة مع شريعة الإسلام التي بعث الله بها حبيبه محمدا ﷺ في جميع أصولها وفروعها، بل المراد أن شرائع جميع المرسلين متطابقة في وجوب إخلاص العبادة لله وحده والمحافظة على الكليات الخمس التي تحفظ للإنسانية دينها وأنفسها وأموالها وأعراضها وعقولها أما الفروع وهيئات العبادات ومواقيتها فقد جعل الله تعالى لكل أمة شرعة ومنهاجا يتلاءم معهم ويناسبهم، ولذلك وصف رسول الله ﷺ الأنبياء بأنهم أولاد علات أو إخوة لعلات فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أولى الناس بابن مريم والأنبياء أولاد علات ليس بيني وبينه نبي»، وفي لفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد». وفي لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة» قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: «الأنبياء إخوة من علات وأمهاتهم شتى ودينهم واحد». اهـ ومعنى قوله أولاد علات أو إخوة لعلات أو إخوة من علات أنهم إخوة من أب، وأمهم شتى، وأما الإخوة من الأبوين فيقال فيهم: أولاد الأعيان، أو إخوة الأعيان، والمقصود من الحديث أن أصل دين جميع المرسلين واحد في التوحيد والكليات الخمس التي هي حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال، أما الفروع والمناهج

فهي مختلفة بحسب أحوال أمة كل نبي ولذلك قال تبارك وتعالى بعد ذكر مجموعة من المرسلين: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ وقال: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصىنا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ وقال عز وجل: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾ وقوله عز وجل: ﴿إذ قال لبيته ما تعبدون من بعدي قالوا: نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق﴾ أي حين قال يعقوب وقت احتضاره عليه السلام لأولاده أي شيء تتخذونه معبودا من بعد موتي وقد أراد يعقوب عليه السلام بسؤاله ذلك لبيته تقريرهم على التوحيد والإسلام وأخذ ميثاقهم على الثبات عليهما تكميلا لوصيته لهم بقوله: ﴿فلا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون﴾ ولا شك أن إبراهيم جد يعقوب وأن إسماعيل عم له وإسحاق والد وقد سمى الجميع آباء، والناس لا يختلفون في تسمية الجد أبا، أما العم وهو أخو الأب فقد أشار القرآن العظيم إلى تسميته أبا في هذا المقام الكريم من القرآن العظيم. وكذلك في سورة النور عندما ذكر محارم المرأة التي لا يمنعها من أن تظهر أمامهم بزيتها حيث قال: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدن زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدن زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن، وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ فلم يذكر الله عز وجل في الآية العم والخال وهما لا شك من المحارم لأن العم دخل في مسمى الأب وقد أخبر الله تبارك وتعالى عن يوسف الصديق عليه السلام أنه قال: ﴿واتبعت ملة آبائي

إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴿ وإبراهيم جد أبيه وإسحاق جده ويعقوب أبوه وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «يا عمر أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه» كما روى البخاري من حديث البراء أن رسول الله ﷺ قال : «الخال بمنزلة الأم» ، وأثر أنه عليه السلام قال : الخال والد . وقال تعالى في قصة يوسف : ﴿ورفع أبويه على العرش﴾ والمقصود أبوه يعقوب وخالته وكانت زوجة أبيه على ما ذكر أن أم يوسف عليه السلام كانت قد ماتت . وقوله عز وجل : ﴿ونحن له مسلمون﴾ هي تتممة عهد أبناء يعقوب لأبيهم وهو المقصود حيث أقروا أنهم على ملة الإسلام دين الأنبياء والمرسلين والذي جعله الله عز وجل العلم الذي يطلق على أمة محمد ﷺ في مشارق الأرض ومغاربها إلى يوم القيامة . وقوله عز وجل : ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون﴾ أي هؤلاء الأشاوس الأئمة الأماجد الكرام إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وأهل التوحيد والإسلام من أبنائهم قد مضوا إلى الله عز وجل وحازوا الفضل العظيم والثناء الجميل ، وقد جعل الله تبارك وتعالى لهم ثواب ما قدّموا من الدعوة إلى الحنيفية السمحة والأعمال الصالحة التي اكتسبوها ، وأنتم يا معشر من يزعم أنهم ينتمون إليهم وقد ثبت أنكم لستم على ملتهم فليس لكم من أعمالهم الصالحة شيء فلكل نفس ما عملت من خير أو شر ، فلهم جزاء الخير الذي عملوه ولكم جزاء الشر الذي اقترفتموه ، فإن الأبناء لا ينتفعون بعمل الآباء إلا إذا كانوا على منهجهم في الإسلام ، على حد قوله تعالى : ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين﴾ ولذلك نبه رسول الله ﷺ ابنته فاطمة الزهراء وعمّه العباس بن عبد المطلب وعمّته صفية بنت عبد المطلب بأن يشتروا أنفسهم فإنه لن يغني عنهم من الله شيئا فقد

روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قام
 رسول الله ﷺ حين أنزل الله : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ قال : « يا معشر
 قريش أو كلمة نحوها ، اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني
 عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني
 عنك من الله شيئاً ، ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً ،
 ويا فاطمة بنت محمد ﷺ سليني من مالي ، لا أغني عنك من الله شيئاً » .
 ورواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ : قال : قال رسول الله
 ﷺ حين أنزل عليه : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ : « يا معشر قريش اشتروا
 أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبد المطلب لا أغني
 عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا
 صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا فاطمة بنت رسول الله
 سليني بما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً » . وكذلك أخبر رسول الله ﷺ أن
 من بطأ به عمله لم يُسرع به نسبه كما رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله
 عنه .

قال تعالى : ﴿وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾ * قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ * فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولّوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكمهم الله ، وهو السميع العليم﴾

هذا شروعٌ في بيان لون آخر من ألوان كفر اليهود والنصارى وهو أنهم لم يكتفوا بما هم عليه من الضلال والانحراف عن دين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وأبنائهم المهتدين بل عملوا على إضلال غيرهم عن الدين الحق ، وصدّ الناس عن الإيمان بمحمد رسول الله ﷺ بادّعاء اليهود أن الهدى في اليهودية وادّعاء النصارى أن الهدى في النصرانية ، مع تكفير إحدى الطائفتين للأخرى وقد ردّ الله تبارك وتعالى عليهم باطلهم هذا بحجة مفحمة ملزمة قاطعة لكل أثر لشبهتهم فأمر نبيه محمدا ﷺ أن يقول لليهود والنصارى ومن يدور في فلكهم من المشركين : ﴿قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾ * أي اتركوا هذه الدّعاوى التي لا دليل عليها سوى الهوى والشهوة بدليل تناقضكم وتكفير بعضكم لبعض بل تعالوا نتبع ملة إبراهيم إمام الخفاء لأنه كان حنيفا مسلما ونحن وإياكم متفقون على صحة دين إبراهيم لكنكم انحرفتم عن هذا الدين بقول اليهود عزيز ابن الله وبقول النصارى المسيح ابن الله واتخاذكم جميعا الأنداد والشركاء لله كما قال عز وجل : ﴿وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله ، أنى يؤفكون﴾ * اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما

أُمرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون ﴿١﴾ وقوله عز وجل : ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ ﴿٢﴾ هو نظير قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ ﴿٣﴾ فهو إجمال يعرف السامع تفصيله ، أي وقالت اليهود للمؤمنين : كونوا هودا تهتدوا : وقالت النصارى للمؤمنين : كونوا نصارى تهتدوا ، أي تصيروا على الهدى والاستقامة وقوله عز وجل : ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٤﴾ أي قل لهم يا محمد على سبيل الردّ عليهم وإلزامهم بالحجة التي لا مفرّ لهم عن الإذعان لها لو كانت لهم قلوبٌ وعقولٌ : بل نتبع نحن وأنتم ملة إبراهيم حنيفا ، وتتركون ما أنتم عليه من عبادة الأبحار والرهبان والعزير وترك النصارى لهذه الأنداد ولعبادة المسيح ابن مريم ، لأن إبراهيم كان حنيفا مسلما ماثلا عن الشرك إلى التوحيد ولم يكن من المشركين ، فإذا اتبعتم ملة إبراهيم البريء من كل شرك وأقررتهم بدين الإسلام صرتم على الهدى ، أما نحن فعلى ملة إبراهيم ولن نحيد عنها أبدا حتى نموت عليها كما وصّى بذلك إبراهيم ويعقوب عليهما السلام . وأصل الحنيف في الشرع هو المستقيم على الحق المائل عن الباطل ، وقوله تعالى : ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نَفَرَّقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿٥﴾ هذا الأمر «قولوا» للمؤمنين الذين قال لهم اليهود والنصارى كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا أي ردّوا عليهم باطلهم وأعلموهم أن هدى الله الذي من تمسك به اهتدى هو الاعتقاد بالقلب والنطق باللسان وإعلان الإيمان بالله وبالقرآن المنزل على محمد ﷺ وبصحف إبراهيم عليه السلام وبما أنزل الله تعالى إلى إسماعيل وإسحاق ويعقوب وما أنزله الله تعالى على الأنبياء من

۲۹۲

تتضمن هذا المعنى ، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأ بهما في ليلة كفتاه» . كما كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقرأ في الركعة الأولى من ركعتي السنة في الفجر قوله تبارك وتعالى : ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ﴾ الآية فقد روى مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يقرأ في ركعتي الفجر ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ والتي في آل عمران ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ وفي لفظ لمسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في ركعتي الفجر في الأولى منهما : ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ الآية التي في البقرة ، وفي الآخرة منهما : ﴿آمَنَّا بِاللّٰهِ وَاشْهَدْ بَأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَالْأَسْبَاطَ﴾ هو عام أريد به الخصوص إذ المقصود به هنا الأنبياء من أحفاد يعقوب عليه السلام ، والأصل في اللغة إطلاق السبط على ولد الولد أو ولد البنت كما قيل في الحسن والحسين رضي الله عنهما إنهما سبطا رسول الله ﷺ وقد يطلق السبط في بني إسرائيل بمعنى القبيلة عند العرب وقد قطع الله تعالى بني إسرائيل اثنتي عشرة قبيلة وكل قبيلة من هذه القبائل الإسرائيلية تنتمي إلى ولد من أولاد يعقوب عليه السلام وهو إسرائيل كما قال عز وجل : ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتِي عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ فليس كل سبط نبيا ، وموسى عليه الصلاة والسلام من الأسباط أباً وأماً وعيسى عليه السلام من الأسباط بالنسبة لأمه حيث إنه لا والد له ، وإنما خصهما الله تبارك وتعالى بالذكر لِعُلُوِّ منزلتهما فهما أفضل أنبياء بني إسرائيل وهما من أولي العزم من المرسلين . وقوله عز وجل : ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ أي فإن صدق اليهود والنصارى وقالوا آمنا بالله وبالقرآن وبصحف

إبراهيم وما أنزل على إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون وأذعنوا لذلك وانقادت له نفوسهم فصَدَّقوا بذلك مثل ما صدقتم وأقروا بمثل ما أقررتم به أيها المؤمنون فقد وفَّقوا ورشدوا واستقاموا وسلكوا طريق الحق وهم حينئذ منكم وأنتم منهم حيث دخلوا في ملتكم والتزموا بشريعتكم ، ومما يتحتّم أن لا يخطر على البال أن المقصود : فإن آمنوا بمثل الله الذي آمتّم به فإن الله تعالى ليس له مثل ولا نِدٌّ ولا نظير ولا شبيه ولا شريك ، كما أنه لا مثل للقرآن ولا نظير ، قال ابن جرير رحمه الله : فإن صدَّقوا مثل تصديقكم بما صدقتم به من جميع ما عددنا عليكم من كتب الله وأنبيائه فقد اهتدوا ، فالتشبيه إنما وقع بين التّصديقين والإقرارين اللذين هما إيمان هؤلاء وإيمان هؤلاء ، كقول القائل : مرَّ عمرو بأخيك مثل ما مررتُ به يعني بذلك : مرَّ عمرو بأخيك مثل مروري به ، والتمثيل إنما دخل تمثيلاً بين المرورين لا بين عمرو وبين المتكلم ، فكذلك قوله : ﴿فإن آمنوا بمثل ما آمتّم به﴾ إنما وقع التمثيل بين الإيمانيين لا بين المؤمن به اهـ . ومعني قوله عز وجل : ﴿وإن تولّوا فإنما هم في شقاق﴾ أي فإن أعرض اليهود والنصارى فلم يؤمنوا بمثل إيمانكم أيها المؤمنون بالله وبما جاء به الأنبياء ، واستمروا على ما هم عليه من التفريق بين الرسل وقالوا : نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، فإنما هم قد اختاروا طريق مشاقتكم واستقرت نفوسهم الشريرة على العصيان وحرب الله ورسوله ومخالفتكم ، والشقاق الفراق والمحاربة والعداوة ، كأن كلّ واحد من الفريقين صار في شقّ أي جانب مناقض لشقّ عدوه أي الجانب الذي هو فيه ، ولا شك أن كلّ واحد منهما يحرص على إلحاق ما يشقّ ويصعب على صاحبه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت

مصيلاً ﴿ أي بجانب الرسول ﷺ ويعانده وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فسيكفيهم
الله وهو السميع العليم ﴾ أي فسينصرك الله عليهم ويمكنك منهم ويحكمك
فيهم ، والله لا تخفى عليه خافية ، فهو يسمع دبيب النملة على الصخرة
الصماء في الليلة الظلماء ، ويعلم السر وأخفى ، وقد قال في كفار قريش :
﴿ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد
العقاب ﴾ وقال في اليهود : ﴿ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله
فإن الله شديد العقاب ﴾ وفي هذه الآية الكريمة وعدّ من الله تعالى لرسوله ﷺ
وللمؤمنين بنصرهم وتأييدهم وتمكينهم في الأرض ، ووعدّ لليهود والنصارى
بإذلالهم وقهرهم ، وقد فعل الله ذلك وأنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب
وحده ولم يمض طویل زمن حتى صارت راية الإسلام خفاقة في مشارق
الأرض ومغاربها ودخل الناس في دين الله أفواجا وصارت ملوك الصين
يرتجفون من مهابة الإسلام والمسلمين ، وحتى صار هارون الرشيد الخليفة
العباسي المشهور يجلس في مجلسه فتمرّ به السحابة فيقول : سيري أينما
شئت ، وامطري أينما شئت فسيأتيني خراجك .

قال تعالى : ﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون * قل
أتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ
مُخْلِصُونَ﴾ .

بعد أن أوضح الله تبارك وتعالى أن دعوى اليهود والنصارى بأنهم على
الهدى دعوى باطلة عاطلة وأمر عز وجل باتباع ملة إبراهيم إذ فيها هدى الله
الحق ، وشرعه القويم وطلب منهم أن يدخلوا في ملة إبراهيم التي جاء بها
محمد ﷺ وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأنبياء من الأسباط ، وأن لا يفرقوا
بين الأنبياء ، وأن يصدقوا بهم جميعا ، وأن من التزم بملة إبراهيم والأنبياء هو
المهتدي ، وتوعد من أعرض عن الحنيفية ملة إبراهيم وانغمس في الشقاق
بدحره ، ووعد من تمسك بملة إبراهيم بنصره وَصَفَ في هذا المقام الكريم ملة
إبراهيم والأنبياء من بعده بأنها صبغة الله أي الملة التي أمر بها وفطرته التي
فطر الناس عليها ، وهي الدين القيم ، الذي اختاره الله لخلقه ، وارتضاه
لعباده ، والذي لا يقبل من أحد دينا سواه ، ولن يستطيع البشر كلهم لو
اجتمعوا أن يضعوا نظاما يقوم مقامه أو يسد مسدّه ، لأن الإنسان مهما أوتي
من الثقافة والمعرفة خاضع لتحكم بيئته ومعارفه وتربيته وسلوكه . ومن
القواعد المقررة أن الإنسان مدني بالطبع ومعنى ذلك أن الله تعالى خلقه على
طبيعة تجعله لا يستغني عن غيره من الناس في طعامه ولباسه وحاجاته ، إذ
قد ركبّه الله تعالى على صورة لا بقاء لها على الأرض إلا بالغذاء ، وقد هداه الله
إلى ابتغائه بفطرته غير أنّ قدرة الواحد من البشر قاصرة عن إدراك أقل ما
يمكن أن يعيش به الإنسان ، فلا يحصل له ما يكفيه إلا بعمل يقوم به الكثير
من الناس ، فالرغيف الذي يأكله الإنسان لم يصل إليه إلا بعد عمل كثير من
حراثة وزراعة وريّ وحصاد ودياس وطحن وعجن وطبخ ، وكل واحد من

هذه الأعمال لا يتم إلا بآلات تحتاج إلى العديد من الصناعات لا يستطيع أن يقوم الإنسان بمفرده بها، ولما كانت طبيعة الناس متفاوتة في مقاصدها متنازعة الرغبات والميول والشهوات، وقد يركب الإنسان الصعب والذلول في سبيل قضاء مآربه، وتحقيق شهوته، مما قد يتعارض مع شهوات الآخرين وحاجاتهم، وقد يؤدي طلب تحصيلها إلى سفك الدماء وانتهاك الحرمات إذ قد يأكل القويّ الضعيف، ويفني الكثير القليل، فلا بدّ إذن للإنسانية من نظام، ولما كان عقل الإنسان قاصراً عن وضع نظام شامل لصالح المعاش والمعاد، إذ قد يرى الإنسان الخير شراً، والشرّ خيراً على حدّ قول الشاعر:

يُقَضَّى على المرء في أيام محتته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

والإنسان قد يعجز في كثير من الأحيان عن معرفة مصلحة نفسه، لذلك كان الناس محتاجين بالضرورة إلى نظام يحمي دماءهم وأعراضهم وعقولهم وأموالهم ويوضح لكل ذي حقّ حقه، مع إرشادهم إلى أعظم الحقوق وأوجب الواجبات وهو إخلاص العبادة لله وحده، ومعرفة مراسيم العبادة، ولو فرضنا أن جماعة من أهل الفكر أرادوا أن يضعوا مثل هذا النظام لعجزوا لتفاوت الأفراد والجماعات والأمم والشعوب والأعصار في تقديرات الأشياء على طبيعتها الصحيحة لأن الإنسان مهما اتسعت مداركه، وعظمت ثقافته، فإنه من حيث يدري أو لا يدري خاضعٌ لتحكّم بيئته ومعارفه وتربيته وسلوكه كما أسلفت ولهذا كانت القوانين والأنظمة التي يضعها البشر لا استقرار لها ولا ثبوت ولا دوام ولا شمول وكانت دائماً محتاجةً إلى التعديل أو التبديل مع قصورها عن تربية النفس الإنسانية على أحسن المناهج لذلك كان الناس محتاجين إلى منهج يضعه أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين ورب العالمين الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وقد اقتضت حكمة الله تبارك وتعالى أن يبعث في كل أمة نذيراً، يصطفيه من خلقه،

ويختاره لرسالته ويصطنعه لنفسه ، ويربّيه على عينه ، وينزل عليه الكتاب والشرعة التي تلائم قومه ليرسم لهم الطريق إلى الله ، وليدّهم على مراسيم سعادتهم الدنيوية والأخروية ، ولئلا يقول المنحرفون : ما جاءنا من بشير ولا نذير ، كما ذكر عز وجل حيث قال : ﴿ رسلنا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير ، والله على كل شيء قدير ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ﴾ بنصب ﴿ صبغة ﴾ على أنها بدلٌ من ﴿ ملة إبراهيم ﴾ وتفسيرٌ لها في قوله تعالى : ﴿ بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾ ، والصّبغة تطلق على معان ، قال الفيروزآبادي في القاموس المحيط : والصّبغة بالكسر الدين والملة وصبغة الله فطرة الله أو التي أمر الله تعالى بها محمدا ﷺ وهي الختانة اهـ . وقوله عز وجل : ﴿ ومن أحسن من الله صبغة ﴾ أي ولا صبغة أحسن من صبغة الله ، التي يربّيهم بها فيطهرهم من أقذار الشرك وأدناس الضلال ويجعلهم متخلقين بأحسن الأخلاق ، وأصفى ألوان السلوك ويتصبّغون بالصّبغة التي تجلّهم في معاشهم ومعادهم ، ولا شك أن الفطرة التي فطر الله الناس عليها تنصقل بطاعة الله واتباع شريعته وتصديق رسله ، ولكنها تختلّ موازينها بانحرافها عن شرعة الله ومنهاجه وكلما ازداد العبد طاعةً لله استنارت بصيرته ، وازدانت فطرته على حد قول شاعر يثني على أخلاق آخر :

طُبعت عليها صبغة ثم لم تزل على صالح الأخلاق والدين تُطْبَعُ

أي طبعك الله على الأخلاق الفاضلة والسجايا الحميدة التي صبغك الله وفطرك عليها ثم لم تزل وأنت تتخلّق بصالح الأخلاق والدين . ولا شك أن تعاليم الشريعة لا تدانيها تعاليم المنحرفين عنها ، لأنها تشريع الله ومن أحسن من الله تشريعا ، وحكم الله ومن أحسن من الله حكما ، وصبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ، وقوله تعالى : ﴿ ونحن له عابدون ﴾ أي ونحن نتبع ملة إبراهيم التي هي صبغة الله التي يصبغ بها عباده المؤمنين ونحن لا نعبد إلا الله ولا ننقاد لمنهج سوى منهجه ولا نزدلف إليه إلا بمراسيم العبادة التي يبعث بها رسله وينزل بها كتبه . وقوله عز وجل : ﴿ قل أتحاجونا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون ﴾ هذا أمر من الله عز وجل لرسوله وحبيبه وسيد خلقه محمد ﷺ بأن يوبّخ اليهود والنصارى الذين يجادلون في الله ويزعمون أنهم أبناؤه وأحبّاءه وأنه لن يعذبهم بالنار إلا أياما معدودات وأن الجنة لهم وحدهم دون سائر الأمم مع أنهم مقرون بأن الله هو رب الأمم ورب اليهود والنصارى وأنهم مقرون بأن الله هو خالق جميع الأمم وسيدهم ومالكهم ومربيهم بإحسانه وجوده ورازقهم من فضله ، فلا وجه لهذه المجادلة لأنها جدال بالباطل ولجاجة في القول على الله بلا برهان حيث إنه من المعلوم أن ملة إبراهيم قررت أن الجنة للمحسنين وأن النار للكافرين من أي لون ومن أي جنس ، والهمزة في قوله تعالى : ﴿ أتحاجونا ﴾ للإنكار والتوبيخ لليهود والنصارى ، أي أتجادلوننا في الله فتدعون أنكم أحق به منا لعرقكم التلمودي العنصري ؟ . وقوله : ﴿ وهو ربنا وربكم ﴾ أي والحال أنه رب جميع الخلق فلا فضل لأحد عنده إلا بالتقوى ، وقوله : ﴿ ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ أي ولنا أعمالنا الحسنة الموافقة لشرعه الخالصة لوجهه ، ولكم أعمالكم السيئة المناقضة لشرعه الصّادة عن دينه المكذّبة لرسله ، المنافية لملة إبراهيم والأنبياء من بعده ولا يسأل أحد عن أحد يوم

القيامة ، فلا تزر وازرة وزر أخرى ، كما في صحف إبراهيم الذي وقى . وقوله تعالى : ﴿ ونحن له مخلصون ﴾ أي ونحن نعبد الله عبادة خالصة من الشرك صافية من الرياء وأنتم قد أشركتم بالله ما لم ينزل به سلطانا فاتخذتم أحباركم ورهبانكم أربابا من دون الله وعبد اليهود العزيز وعبد النصارى المسيح ابن مريم وأنتم إنما أمرتم بعبادة إله واحد كما هو في نصوص الكتب التي بأيديكم . ففي إنجيل متى في الإصحاح الثاني والعشرين : أفما قرأتم ما قيل لكم من قبل الله القائل : أنا إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب . وفي إنجيل مرقس في الإصحاح الثاني عشر في الفقرة السادسة والعشرين منه : أفما قرأتم في كتاب موسى في أمر العليقة كيف كلمه الله قائلا : أنا إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب . وفي هذا الإصحاح أيضا : إنّ أول كلّ الوصايا هي اسمع يا إسرائيل : الربّ إلهنا ربّ واحد وتحبّ الربّ إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك ، هذه هي الوصية الأولى . اه فهذه نصوص كتبكم تقرر وتؤكد أن الله إله واحد لا شريك له في ألوهيته وربوبيته وأسمائه الحسنی وصفاته العلی ومع ذلك تشركون بالله ما لم ينزل به سلطانا وعبد اليهود عزيزا وقالوا هو ابن الله وعبد النصارى المسيح وقالوا هو ابن الله ، فنحن المسلمين نخلص لله العبادة ولا نشرك بالله شيئا ، وأنتم تشركون بالله ، وتدعون أنكم أهل الجنة وأبناء الله وأحباؤه ، وقد ذكر الله عز وجل عن موسى عليه السلام لما قال له بعض آبائكم : اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة ، قال لهم : إنكم قوم تجهلون . وقال : أغير الله أبغيكم إلهًا ، كما ذكر الله عز وجل عن عيسى عليه السلام أنه قال لبني إسرائيل : ﴿ يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾ .

قال تعالى : ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى ، قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمَ اللَّهُ ، وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ
شَهَادَةَ عَنْدهِ مِنَ اللَّهِ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ * تلك أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا
كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تَسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

بعد أن بين الله عز وجل أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب
والأنبياء من الأسباط كانوا حنفاء مسلمين على فطرة الله عز وجل وصبغته
التي لم تغيّرهما الأهواء ولم يتسلط عليها الشيطان وأن اليهودية والنصرانية من
الديانات المبتدعة ، المخالفة للحنيفية السمحة دين إبراهيم والأنبياء عليهم
الصلاة والسلام وبعد أن وبّخهم على دعواهم أنهم هم وحدهم أهل الجنة
وأَنهم هم المهتدون وأفحمهم بالحجة الدامغة أَنهم خلق من خلق الله كسائر
بني آدم لا مزية لهم عليهم فمن أطاع الله واتبع ملة إبراهيم وصدّق المرسلين
ولم يفرق بين الأنبياء فيؤمن ببعض ويكفر ببعض ودخل في دين الإسلام فله
الجنة ومن عصاه فله النار من أي لون ومن أي جنس ، وعلمهم أن ميزان
الاستقامة في اتباع ملة إبراهيم فمن اتبعها نجا ومن انحرف عنها ضل
وهلك ، وأن محمدا رسول الله والذين اتبعوه هم الحنفاء المسلمون وأن أعمالهم
الصالحة لن تضيع عند الله عز وجل وأن اليهود والنصارى ليسوا حنفاء ولا
مسلمين فهم أبعد الناس عن ملة إبراهيم والأنبياء من بعده وأن أعمالهم
السيئة مكتوبةٌ عليهم وسينالون من عقاب الله ما يستحقون . انتقل هنا
لتأكيد توبيخ اليهود والنصارى مشيرا إلى أَنهم أهل بهتان وافتراء على إبراهيم
والأنبياء من بعده فقال : ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى ﴾ أي أستمرون على باطلكم بعد
سماحكم هذه البراهين القاطعة والحجج الدامغة الساطعة وتقولون بألستكم

كذبا وزورا وبهتانا ومكابرة ولجاجة ووقاحة : إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى ، أي يقول اليهود منكم : إن هؤلاء الأنبياء كانوا يهودا ، ويقول النصارى منكم : إن هؤلاء الأنبياء كانوا نصارى ؟ وقد أخبر الله عز وجل أن هؤلاء الأنبياء ما كانوا يهودا وما كانوا نصارى ؛ لأن اليهودية لم تعرف إلا بعد نزول التوراة على موسى عليه السلام وبعد وفاته بزمان طويل وبعد التحريف والتبديل ، وأن النصرانية لم تُعرف إلا بعد نزول الإنجيل على عيسى عليه السلام ، ونحن وأنتم متفقون على أن التوراة والإنجيل لم تنزل إلا بعد إبراهيم خليل الرحمن بمئات متطاولة من السنين كما قال عز وجل : ﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ﴾ * ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون * ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين * إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ﴾ ولا شك أن هذه شهادة من الله تبارك وتعالى لإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط بأنهم على الملة الحنيفية وليسوا يهودا ولا نصارى ، وأنتم في قرارة قلوبكم ونفوسكم تعلمون بشهادة الله تبارك وتعالى هذه لهؤلاء الحنفاء ، وهي في وصايا أنبيائكم لكم ، فهل أنتم أعلم بأنبياء الله ورسله من الله الذي اصطفاهم وأرسلهم ؟ فصرتم تسمونهم بأسماء وتصفونهم بصفات برأهم الله عز وجل منها ونزههم عنها ، وفي ذلك يقول الله عز وجل هنا توبيخا لهم وتقريعا : ﴿ قل أنتم أعلم أم الله ؟ ﴾ فلا استفهام هنا للتوبيخ والتقريع وأنهم قد انحطوا إلى درجة من السلوك سقطوا بها في الحضيض ، ولو كانت لهم قلوب تفقه لذابوا خجلا ، لكن قلوبهم قاسية كالْحجارة أو أشد قسوة كما نبّه إلى ذلك رب العزة تبارك وتعالى في قوله : ﴿ ثم

قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة ﴿١﴾ وقوله عز وجل :
 ﴿٢﴾ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ﴿٣﴾ أي لا أحد أشد ظلماً وأجحد
 حقاً من هؤلاء اليهود والنصارى الذين يكتمون ما عندهم من شهادة الله
 لإبراهيم وأبنائه الأنبياء بالحنيفية ، كما يكتمون ما عندهم من شهادة الله
 لمحمد ﷺ بالرسالة حيث أخذ العهد بها على الأنبياء أن يوصوا أممهم باتباع
 محمد ﷺ والاستجابة له ، كما قال عز وجل : ﴿٤﴾ وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما
 آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به
 ولتنصرنه ، قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا
 وأنا معكم من الشاهدين ﴿٥﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿٦﴾ وما الله بغافل عما
 تعملون ﴿٧﴾ هو وعيد شديد لليهود والنصارى المفترين على الله عز وجل وعلى
 أنبيائه وإنذاراً لهم بأن أعمالهم السيئة مسجلة عليهم لا يغفل الله عنها ولا
 ينسى شيئاً منها وسيجزئهم بها ويؤاخذهم عليها ، وتذليل هذه الآية الكريمة
 بهذا الوعيد للتنبيه على أن الكذب على الله تعالى وعلى الأنبياء ليس كالكذب
 على غيرهم ، وأن كتمان الشهادة الكائنة من الله ليس ككتمان شهادة كائنة
 من عند غير الله مع أن كتمان الشهادة الكائنة من عند غير الله فيها إثم عظيم
 ولذلك حذر الله تبارك من ذلك في غير موضع من القرآن الكريم حيث يقول
 عز وجل : ﴿٨﴾ ولا تكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ، والله بما
 تعملون عليم ﴿٩﴾ ويقول عز وجل : ﴿١٠﴾ يا أيها الذي آمنوا شهداء بينكم إذا
 حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم
 إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت ، تحبسونهما من بعد
 الصلاة فيقسمان بالله إن ارتبتم لا نشتري به ثمناً ولو كان ذا قربي ولا نكتم
 شهادة الله إنا إذا لمن الآثمين ﴿١١﴾ وقد أخبر رسول الله ﷺ أن الذين يكذبون على
 الله ينادى عليهم يوم القيامة على رؤوس الخلائق ويلعنون فقد روى البخاري

ومسلم في صحيحيهما واللفظ للبخاري من طريق صفوان بن محرز المازني قال : بينما أنا أمشي مع ابن عمر رضي الله عنهما أخذ بيده إذ عرض رجل فقال : كيف سمعت رسول الله ﷺ في النجوى ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الله يدني المؤمن ، فيضع عليه كنفه ويستره فيقول : أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول : نعم أي رب ، حتى إذا قرّره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هلك قال : سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم فيعطى كتاب حسناته ، وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهداء : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين» . أما لفظ مسلم من طريق صفوان ابن محرز قال : قال رجل لابن عمر كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى ؟ قال : سمعته يقول : «يُدنى المؤمن يوم القيامة من ربه عز وجل حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه فيقول : هل تعرف ؟ فيقول : أي رب أعرف ، قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم ، فيعطى صحيفة حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق : هؤلاء الذين كذبوا على الله» . كما أخبر رسول الله ﷺ أن الكذب عليه ﷺ ليس كالكذب على غيره من الناس فقد روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» . ورواه مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، ولذلك أخبر علي رضي الله عنه أن سقوط الإنسان من السماء إلى الأرض أهون من الكذب على رسول الله ﷺ فقد روى البخاري في صحيحه من طريق سويد بن غفلة قال : قال علي رضي الله عنه : إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ فلأن أحرّ من السماء أحب إليّ من أن أكذب عليه . الحديث . وقوله عز وجل : ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ هو تأكيد لمعنى الآية الرابعة والثلاثين بعد المائة ، المتضمنة أن

هؤلاء الأئمة العظام والأنبياء الكرام إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وأهل التوحيد والإسلام من أبنائهم قد مضوا إلى الله عز وجل وحازوا الفضل العظيم والثناء الجميل وقد جعل الله لهم ثواب أعمالهم الصالحة التي اكتسبوها، وأنتم يا معشر من يزعم أنهم يتمون إليهم وقد ثبت أنكم لستم على ملتهم فليس لكم من أعمالهم الصالحة شيء فلكل نفس ما عملت من خير أو شر فلهم جزاء الخير الذي عملوه ولكم جزاء الشر الذي اقترعتموه . فإن الأبناء لا ينتفعون بأعمال الآباء الصالحين إلا إذا كانوا على ملتهم ولا شك أن كل آية تكرر لفظها في القرآن الكريم فإنها تفيد مضمون الآية المكررة بتأكيديه ولفت الانتباه إليه لشدة حاجة الناس إلى معرفته ومع ذلك فإنها تشتمل على زيادة معنى يناسب المقام الجديد لاشتغاله على معنى جديد أيضا مثل هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها، وقوله تعالى : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ حيث ترد الآية التي كررت بعد إبراز أدلة جديدة أو أعمال مضافة إلى ما سبق الكلام قبل الآية السابقة من أجله ولذلك يذكر قوله عز وجل : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ بعد نعمة عظيمة أو دفع بلوى فإنه تبارك وتعالى قد كرر هذه الآية في سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرة منها ثمانية ذكرت عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله وبدائع صنعه ومبدأ الخلق ومعادهم ثم سبعة منها عقب آيات فيها ذكر النار وشدائدها بعدد أبواب جهنم ثم ثمانية بعدد أبواب الجنتين اللتين أعدهما لمن خاف مقام ربه وذكر بعض صفاتهما ثم ثمانية بعدد أبواب الجنتين اللتين من دونهما ، وقد فصل هذه الآية بين كل نعمتين بما نبههم عليه ليفهمهم هذه النعم ويقرهم بها ، فله الحمد وله الشكر على ما منح من النعماء وما دفع من البلاء .

قال تعالى : ﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، قل الله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا، وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ، وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ، وما كان الله ليضيع إيمانكم ، إن الله بالناس لرءوف رحيم* قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ، وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم ، وما الله بغافل عما يعملون﴾ .

كان رسول الله ﷺ بعد مقدمه المدينة يصلي إلى جهة بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا ، وكان اليهود يُعجبهم أن يتجه رسول الله ﷺ إلى جهة بيت المقدس وكان رسول الله ﷺ يحب أن يتوجه في صلاته إلى الكعبة قبله أبويه إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام ، وكان رسول الله ﷺ يقلب وجهه في السماء ضارعا إلى الله عز وجل أن يحول قبلته إلى المسجد الحرام فاستجاب الله دعاءه وأنزل عليه : ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾ الآية ، وقد روى البخاري في صحيحه من طريق زهير عن أبي إسحاق عن البراء أن النبي ﷺ كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده ، أو قال : أخواله من الأنصار ، وأنه صلى قِبَلَ بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا ، وكان يُعجبه أن تكون قبلته قِبَلَ البيت ، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر وصلى معه قوم ، فخرج رجلٌ ممن صلى معه فمر على أهل مسجد وهم راکعون فقال : أشهدُ بالله لقد صليتُ مع رسول الله ﷺ قِبَلَ مكة ، فداروا كما هم قِبَلَ البيت ، وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قِبَلَ

بيت المقدس ، وأهل الكتاب ، فلما ولّى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك . قال زهير: حدثنا أبو إسحاق عن البراء في حديثه هذا أنه مات على القبلة قبل أن تُحوّل رجالٌ ، وقُتِلُوا ، فلم نذر ما نقول فيهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ وفي لفظ للبخاري من طريق إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرا ، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يوجّه إلى الكعبة ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ قد نرى قلبك وجهك في السماء ﴾ فتوجّه نحو الكعبة وقال السفهاء من الناس وهم اليهود : ﴿ ما ولّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ، قل الله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ فصلّى مع النبي ﷺ رجل ثم خرج بعدما صلى فمرّ على قوم من الأنصار في صلاة العصر نحو بيت المقدس فقال : هو يشهد أنه صلى مع رسول الله ﷺ وأنه توجّه نحو الكعبة ، فتحرّف القوم حتى توجّهوا نحو الكعبة . وقد روى مسلم في صحيحه من طريق أبي الأحوص عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال : صليت مع النبي ﷺ إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا حتى نزلت الآية التي في البقرة : ﴿ حيث ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره ﴾ فنزلت بعدما صلى النبي ﷺ فانطلق رجل من القوم فمرّ بنائس من الأنصار وهم يصلون فحدّثهم فولّوا وجوههم قبل البيت . وقوله في لفظ زهير عند البخاري : نزل على أجداده أو قال : أخواله من الأنصار ، الشك فيه من أبي إسحاق السّبيعي شيخ زهير ، وفي إطلاق لفظ أجداده أو أخواله تجوّز لأن الأنصار أقاربه من جهة الأمومة لأن أم جده عبد المطلب بن هاشم منهم وهي سلمى بنت عمرو أحد بني عدي بن النجار وإنما نزل النبي ﷺ بالمدينة على إختهم بني مالك بن النجار . وقوله : ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا ، رواية مسلم من طريق أبي إسحاق : ستة عشر شهرا ، بلا

شك ، وقد روى البزار والطبراني من حديث عمرو بن عوف : سبعة عشر ، قال الحافظ في الفتح : والجمع بين الروایتين سهل بأن يكون من جزم بستة عشر لفق من شهر القدوم وشهر التحويل شهرا وألغى الزائد ومن جزم بسبعة عشر عدّهما معا ومن شك تردّد في ذلك ، وذلك أن القدوم كان في شهر ربيع الأول بلا خلاف وكان التحويل في نصف شهر رجب من السنة الثانية على الصحيح وبه جزم الجمهور ورواه الحاكم بسند صحيح عن ابن عباس اهـ ، وقوله : وأهل الكتاب ، هو عطف على اليهود من عطف العام على الخاص أو المراد النصارى لأن قبلة المسيح كانت إلى بيت المقدس ولم يصلوا إلى المشرق إلا في عهد قسطنطين أو كان إعجابهم بطريق التبعية لليهود صدأ عن سبيل الله . وقوله : مات على القبلة قبل أن تحوّل رجال وقتلوا . . قال الحافظ في الفتح : ذكر القتل لم أراه إلا في رواية زهير وباقي الروايات إنما فيها ذكر الموت فقط وكذلك روى أبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم صحيحا عن ابن عباس ، والذين ماتوا بعد فرض الصلاة وقبل تحويل القبلة من المسلمين عشرة أنفس ، فبمكة من قريش : عبد الله بن شهاب والمطلب ابن أزهر الزهريان ، والسكران بن عمرو العامريّ ، وبأرض الحبشة منهم : حطّاب بالمهملة ابن الحارث الجمحي وعمرو بن أمية الأسدي وعبد الله بن الحارث السهمي ، وعروة بن عبد العزى وعديّ بن نضلة العدويان ، ومن الأنصار بالمدينة البراء بن معرور بمهملات وأسعد بن زرارة فهؤلاء العشرة متفق عليهم ، ثم قال الحافظ : ولم أجد في شيء من الأخبار أن أحدا من المسلمين قتل قبل تحويل القبلة لكن لا يلزم من عدم الذكر عدم الوقوع فإن كانت هذه اللفظة محفوظة فتحمل على أن بعض المسلمين ممن لم يشتهر قتل في تلك المدة في غير الجهاد ، ولم يضبط اسمُه لقلة الاعتناء بالتاريخ إذ ذاك اهـ . هذا وقد وطنّ الله تبارك وتعالى نفوس المؤمنين على ما سينا لهم من

السفهاء اليهود والمشركين والمنافقين من لمز بسبب تحويل القبلة وأرشدتهم للجواب المفهم لكل لامز من هؤلاء وأنه إنما فرض عليهم التوجه لبيت المقدس ثم حوّلهم إلى الكعبة لامتحان أهل الإيمان ممن ينقلب على عقبيه وأن المشرق والمغرب وسائر الجهات لله وحده فقال : ﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم﴾ . وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : بينما الناس في صلاة الصبح بقباء إذ جاءهم رجل فقال : إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة ، فاستقبلوها وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة . وفي رواية لمسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يصلي نحو بيت المقدس فنزلت : ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ فمَرَّ رجل من بني سلمة وهم ركوعٌ في صلاة الفجر وقد صَلَّوْا ركعة فنادى : ألا إن القبلة قد حُوِّلَتْ فما لوالها كما هم نحو القبلة . وقد كان تحويل القبلة إلى الكعبة سببا في مطاوعة بعض مرضى القلوب لليهود في الإنكار على المسلمين وبدأت أعناق النفاق تشرَّب . وقد طمأن الله المسلمين بأن اليهود يعتقدون في قرارة أنفسهم أن ما جاء به رسول الله ﷺ حق وإن كان الحسد يحول بينهم وبين الإذعان له حيث يقول : ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ ، وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم

وما الله بغافل عما يعملون ﴿١٠﴾ .

وقوله عز وجل : ﴿سيقول السفهاء﴾ أي سيتحدث الجهلة الحمقى الحاقدون الحاسدون من اليهود والنصارى والذين أشركوا عندما يسمعون أن الله استجاب لدعاء رسوله ﷺ وجعل القبلة إلى الكعبة قبله إبراهيم وإسماعيل ، والسين فيه للاستقبال ، والمراد بإعلام رسول الله ﷺ والمسلمين بذلك توطين نفوسهم وإعداد الجواب للرد على هؤلاء السفهاء ، وقوله تعالى : ﴿ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها﴾ أي أي شيء صرف المسلمين عن التوجه لبيت المقدس في صلاتهم إلى التوجه إلى الكعبة؟ وقوله تعالى : ﴿قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ أي أعلمهم يا محمد أن الأمر كله لله ، وأن الحكم له وحده يتصرف في شئون خلقه كما يشاء لا معقب لحكمه فما على العبد إلا أن يمثل أمر ربه فحيثما أمره بالتوجه فليتوجه ، ولو أمره بالتوجه في اليوم الواحد مرات إلى جهات متعددة وجب على العبد المسارعة لامثال أمر ربه لأن المشارق والمغارب وسائر الجهات لله وحده ، والبرّ في طاعة الله لا في نفس الجهة ؛ ولذلك قال عز وجل : ﴿ليس البرّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ أي يسدد ويوفق من يحب من عباده إلى سلوك المنهج القويم الموصل إلى جنات النعيم ومرضاة رب العالمين ، وقوله تعالى : ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾ أي وكما هديناكم إلى قبله أبيكم إبراهيم إمام الخفاء وأبي الأنبياء و خليل الرحمن جعلناكم خير الأمم وأعد لها لنقيم منكم شهداء على الأمم يوم القيامة ولنقيم الرسول محمدا ﷺ شاهدا عليكم ، وهذه مرتبة عالية ومنزلة سامية ، وقد روى البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : يُدعى نوح عليه السلام يوم القيامة فيقول : لبيك

وسعديك يا رب ، فيقول : هل بَلَّغْتَ ؟ فيقول : نعم ، فيقال لأُمته : هل بَلَّغْكُمْ ؟ فيقولون : ما أُنَانَا من نذير ، فيقول : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأُمته ، فيشهدون أنه قد بَلَّغَ ، ويكون الرسول عليكم شهيداً ، فذلك قوله عز وجل : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۚ ﴾ اهـ والوسط هو العدل ومنه قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ أي أعدلهم وخيرهم ومنه قول زهير بن أبي سلمى المزني :

هُمُو وَسَطٌ يَرْضَى الْأَنَامُ بِحُكْمِهِمْ إِذَا نَزَلَتْ إِحْدَى اللَّيَالِي بِمُعْظَمِ

وهذا من فضل الله على أمة محمد ﷺ أهل السنة والجماعة الذين حماهم الله من غلو النصارى في المسيح ورهبانهم ، ومن تقصير اليهود في حق أنبيائهم ، كما جعل أهل السنة والجماعة وسطاً بين جميع الطوائف الغالين والمقصرين من أهل الزيغ والأهواء حيث يوالي أهل السنة جميع أصحاب محمد ﷺ ويترضون عليهم جميعاً ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا ﴾ الآية ، أي وما فرضنا عليكم التوجه أولاً إلى بيت المقدس ثم حولناكم إلى قبله إبراهيم عليه السلام إلا لامتحان أهل الإيمان وفضح من ينقلب على عقبيه ، وقد استحوذ عليه الشيطان فأرغى وأزبد بخلاف أهل الهدى فإنهم يحبون ما أحب الله وما أحبَّ رسوله ﷺ ، وقد حفظ الله للذين ماتوا قبل تحويل القبلة إلى الكعبة صلاتهم وتقبلها منهم ، إن الله بهم لرءوف رحيم . وقوله تعالى : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾ الآية أي قد رأينا تصرف وجهك نحو السماء متضرعاً إلى الله أن يحول القبلة إلى الكعبة ، فلنحولنَّك إلى القبلة التي تحبها فحول وجهك في صلاتك جهة المسجد الحرام وحيث ما كنتم أيها المسلمون فاستقبلوا الكعبة من جميع جهات الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً وما بين هذه الجهات . وإن اليهود الذين حملوا لواء التشنيع عليكم بسبب تحويل القبلة إلى الكعبة ليعلمون في قرارة نفوسهم أنكم على الحق ، ولكن حملهم الحسد على التشويش عليكم وسيجزئهم الله ويخزيهم بأعمالهم .

قال تعالى : ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ، وما أنت بتابع قبلتهم ، وما بعضهم بتابع قبلة بعض ، ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين ﴾ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون* الحق من ربك فلا تكوننّ من الممترّين* ولكلّ وجهةٌ هو موكّيتها فاستبقوا الخيرات ، أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعا ، إن الله على كلّ شيء قدير* ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون* ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تحشوهم واخشوني ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون ﴿ .

بعد أن وطّن الله تبارك وتعالى نفوس المؤمنين لما سيستقبلونه من سفاهة السفهاء من اليهود والنصارى والذين أشركوا عندما يأمر الله تبارك وتعالى باستقبال المسجد الحرام في الصلاة بدل الصلاة إلى بيت المقدس ، وأن الله تبارك وتعالى استجاب لما يحبه رسوله وحبّيه محمد ﷺ فأمر نبيه والمؤمنين أن يستقبلوا الكعبة في صلاتهم وبعد أن طمأنهم بأن صلاتهم التي كانوا يتجهون فيها إلى بيت المقدس غير ضائعة عند الله عز وجل لأنها كانت على وفق المشروع آنذاك وأطلق على الصلاة اسم الإيمان تعظيما لشأنها ، وأعلم رسوله والمؤمنين أن الذين أوتوا الكتاب يعلمون في قرارة نفوسهم أن تحويل القبلة حق من الله عز وجل ، ذكر هنا أموراً ثلاثة يقرّر الأول منها قطع كل رجاء في انقياد هؤلاء اليهود ومن يدور في فلکهم إلى الحق واتباع القبلة التي جعلها الله للمسلمين وهي قبلة إبراهيم عليه السلام ويقرر الثاني منها قطع كل أمل

لليهود والنصارى في أن يتبع محمد رسول الله ﷺ قبلتهم ، ويقرر الثالث
 العداوة المتأصلة بين اليهود والنصارى في الوقت الذي يتعاونان فيه ضد
 الإسلام والمسلمين ، وأن اليهود لن يتبعوا أبدا قبله النصارى وأن النصارى لن
 يتبعوا أبدا قبله اليهود وأن الحامل لليهود والنصارى على عدم اتباع قبلك هو
 المكابرة والعناد ، لا أنهم شاكون في حقية ما أنت عليه ، ولو أنك أقمت لهم
 كل دليل على صحة ما جئتهم به لما اتبعوك ولما تركوا أهواءهم وفي ذلك كله
 يقول الله عز وجل هنا : ﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا
 قبلتك ، وما أنت بتابع قبلتهم ، وما بعضهم بتابع قبلة بعض ﴾ أما قوله
 تعالى : ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن
 الظالمين ﴾ فهو نظير قوله تبارك وتعالى في الآية العشرين بعد المائة من هذه
 السورة المباركة : ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك
 من الله من ولي ولا نصير ﴾ . وكذلك قوله تبارك وتعالى في الآية السابعة
 والثلاثين من سورة الرعد حيث يقول عز وجل : ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم بعد
 ما جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا واق ﴾ وقد ذكرت في تفسير الآية
 العشرين بعد المائة من هذه السورة : أي وتالله لئن وافقتهم على أقوالهم التي
 هي أهواء باطلة ، وشهوات جامحة وأمنيات خادعة كاذبة بعد أن من الله
 عليك بالدين الحق المعلوم صحته بالدلائل القاطعة والبراهين الساطعة فلن
 تجد ولما يقيم لك أمرك ولا ناصرا ينصرك ويدفع عنك . والمقصود من هذا
 الوعيد هو التهديد لمن أطاع اليهود أو النصارى في مذاهبهم الزائغة الباطلة ،
 وتوجيه الخطاب بهذا لرسول الله ﷺ المعصوم من الهوى والزيغ الذي صانه
 الله من كل إثم ، وعصمه من كل خطيئة ، واصطنعه الله لنفسه ورباه على
 عينه ، واصطفاه لرسالته وأمنه على وحيه وفضله على سائر خلقه إنما هو من
 باب قول القائل : إياك أعني واسمعي يا جاره ، وقوله تعالى : ﴿ الذين

آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴿١﴾ أي إن علماء أهل الكتاب لا يشك أحد منهم في أن محمدا هو رسول الله ﷺ حقا وصدقا كما لا يشك أحد من الناس في معرفة ابنه إذا رآه، وذلك بسبب ما كانوا يتدارسون من صفاته ﷺ، ولذلك قال سلمان رضي الله عنه في الحديث الصحيح عنه في ذكر الصفات التي كان قد عرفها من أسقف عمورية عن رسول الله ﷺ: أنه يهاجر إلى أرض بين حرتين بينهما نخل به علامات لا تخفى، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة وبين كتفيه خاتم النبوة، فيذكر سلمان رضي الله عنه أنه لما وصل إلى المدينة قال: فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفت بها بصفة صاحبي اهـ غير أن أهل الكتاب هؤلاء يكتمون الناس ما في كتبهم من صفة رسول الله ﷺ صدأ عن سبيل الله وحسداً أن تكون النبوة في غير بنى إسرائيل. وقوله تعالى: ﴿الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾ المقصود منه تربية المسلمين على أنهم على الهدى وأن الذي يجيئهم من عند الله هو الحق الثابت الذي لا مرية فيه ولا شك، وهو نظير قوله تعالى في سورة آل عمران عن عيسى عليه السلام وأن مثله كمثل آدم الذي خلقه الله من تراب فقال له: كن فيكون، وأن عيسى ولد من مريم العذراء من غير أب ثم قال: ﴿الحق من ربك فلا تكن من الممترين﴾ وقد ذكرتُ فيما مضى أن النهي عن الشيء لا يقتضي الوقوع فيه. وقوله عز وجل: ﴿ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات﴾ أي لكل إنسان من المكلفين قصده الذي هو قاصده من خير أو شر فهو ساع إليه مجتهد في الوصول له، فسارعوا أيها المؤمنون ويامن يريد فكاك رقبته من النار إلى عمل المبررات، وتنافسوا في الخيرات، وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض، قد أعدها الله للمتقين، وقوله عز وجل: ﴿أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعا إن الله على كل شيء قدير﴾ أي مهما عمل قاصد الشر من شر

ومهما عمل قاصد الخير من خير فلن يضيع عند الله عمله ، فإن الله تبارك وتعالى جامع الناس يوم القيامة وسيجزى كلّ عامل بما عمل ، على حد قوله تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾ * فأما من أوتي كتابه بيمينه * فسوف يحاسب حسابا يسيرا * وينقلب إلى أهله مسرورا * وأما من أوتي كتابه وراء ظهره * فسوف يدعو ثورا * ويصلى سعيرا * إنه كان في أهله مسرورا * إنه ظنّ أن لن يحور * بلى إن ربه كان به بصيرا ﴿ فلو كان عمل الإنسان مثقال ذرة فسيأتى به الله الذي لا يعجزه شيء ولا يفوته شيء لأنه قادر على كل شيء . فعلى العاقل الكئس أن يبادر إلى الخيرات وأن يحذر كل الحذر من اقتراف السيئات ليحشره الله يوم القيامة مع النبين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ، وقوله عز وجل : ﴿ وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ * ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴿ هو تأكيد لأمره عز وجل رسوله محمدا ﷺ والمؤمنين بالتوجه إلى الكعبة البيت الحرام في صلواتهم حيث كانوا في أي مكان من الأرض في سائر الجهات ، وقد كرّر الله تبارك وتعالى الأمر بالتوجه إلى جهة البيت الحرام ثلاث مرات حيث قال عز وجل : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةَ تَرْضَاهَا ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ * ثم قال في المرة الثانية : ﴿ وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ * ثم قال في المرة الثالثة : ﴿ وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي

ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون ﴿ وهذا لأن أعداء الإسلام ما جادلوا في شيء كجدالهم في تحويل القبلة إلى الكعبة بعد أن كانت القبلة إلى بيت المقدس التي جعلها الله لابتناء المطيعين والعاصين ولتأكيد وجوب استقبال القبلة في أي جهة كان المصلي ، فلو صلى المسلمون في المسجد الحرام كانوا كالدائرة المحيطة بالكعبة ، وإذا صلوا في غير المسجد الحرام وهم بمكة كان اتجاههم إلى الكعبة وإذا صلوا خارج مكة في أي مكان من الأرض وجب عليهم أن يتجهوا في صلاتهم إلى الكعبة ، ولو صاروا في مكان أرفع أو أسفل وجب عليهم أن يتجهوا إلى الكعبة ، وفي هذا إشارة لعموم الشريعة وشمولها ، ومعجزة للنبي الأمي محمد ﷺ ، فإن المسلم بعد اختراع « الطائرات والصواريخ » إذا وجبت عليه الصلاة وهو في هذه الطائرات أو الصواريخ الصاعدة في طبقات الجو العليا وجب عليه أن يتحرى الاتجاه إلى الكعبة البيت الحرام ، كما أن فيه إشارة إلى أن الإسلام سينتشر ويعم آفاق المعمورة ، وقوله عز وجل : ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تحשוهم واخشوني ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون ﴾ أي كيلا يكون لأحد من الناس سواء كانوا يهوداً أو نصارى أو وثنيين أو غيرهم عليكم سبيل يحاجونكم به لكن من عاند لمجرد العناد فلا ينفعه دليل ولا برهان كما أن الأعمى لا يستضيء بالنور مهما كان ساطعاً ، فلا تخافوا منهم ولا تأخذكم في الله لومة لائم ، واحصروا خشيتكم فيمن يستحق أن يُخاف ويُحشى وهو الحي القيوم ، وقد أمرت بتحويل القبلة إلى الكعبة لأتم عليكم النعمة باتباع قبلة إبراهيم إمام الخنفاء عليه السلام ولتكمّل لكم الشريعة من جميع وجوها ، ولتهتدوا إلى ما ضلت عنه الأمم ، فتكونوا على الصراط المستقيم .

قال تعالى : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ * فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴿

بعد أن ساق الله تبارك وتعالى الحديث عن إبراهيم عليه السلام إمام الخفاء وعن ابنه إسماعيل عليه السلام وعن رفعهما القواعد من البيت ودعائهما بأن يبعث الله في ذريتهما ساكني البلد الحرام رسولا منهم يتلو عليهم آيات الله ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، وبعد أن بين أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا على الحنيفية السمحة وأنهم لم يكونوا يهودا ولا نصارى وبعد أن تفضل على رسوله محمد ﷺ وعلى المؤمنين بتحويل القبلة إلى الكعبة قبله إبراهيم وإسماعيل وأقام الحجة القاطعة على أن اليهود والنصارى موقنون بأن محمدا ﷺ على الحق في توجهه إلى الكعبة وأنه رسول الله ﷺ وساق الكثير من أقوال اليهود والنصارى وأحوالهم المنبئة عن سوء سلوكهم وكثرة تناقضاتهم ، وذكر في ختام المسك من هذا المقام قوله تبارك وتعالى : ﴿ ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون ﴾ شرع يبين استجابته لدعوة إبراهيم عليه السلام ببعث محمد ﷺ رسولا منهم منبهاً إلى أن محمدا ﷺ هو النعمة الكبرى التي امتن الله بها على المؤمنين الذين سارعوا إلى الاستجابة لله ورسوله ﷺ وأن الذين لم يؤمنوا به قد بدّلوا نعمة الله هذه كفراً ، ووصف وظيفة رسوله محمد ﷺ بنفس الصفات التي دعا إبراهيم عليه السلام ربّه أن يبعث الرسول بها وهو قوله تعالى هنا : ﴿ يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ﴾ وكانت دعوة إبراهيم عليه السلام : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ وقد تفضل الله تبارك

وتعالى فزاد محمداً ﷺ صفة كريمة أخرى وهي أنه يُعَلِّم أُمَّته ما لم يكونوا يعلمون حيث يقول عز وجل في تمام الآية التي هنا : ﴿ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿كما أرسلنا فيكم رسولا منكم﴾ هو مرتبط بقوله تبارك وتعالى في الآية التي قبلها : ﴿ولآتت نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون﴾ كأنه قيل : وأمرتكم بهذه الأوامر لإتمام النعمة عليكم وإلرا دتي اهتداءكم إلى الصراط المستقيم وهذا كالنعمة التي تفضلت بها عليكم فاستجبت دعاء أبيكم إبراهيم فأرسلت فيكم رسولا منكم ، وفي بيان أن إرسال محمد ﷺ نعمة عظمى على المؤمنين الذين استجابوا له فسعدوا به يقول عز وجل مشيرا إلى وظيفة هذا الرسول الكريم التي وردت في دعوة إبراهيم : ﴿لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ وقد ندَّد الله تبارك وتعالى بمن لم يستجب لرسوله محمد ﷺ بأنه بدَّل نعمة الله كفراً وأحل قومه دار البوار ، ولا سيما إذا كان مطاعا في قومه حيث يقول : ﴿ألم تر إلى الذين بدَّلوا نعمة الله كفرا وأحلَّوا قومهم دار البوار﴾ جَهَنَّم يصلونها وبئس القرار﴾ وقوله عز وجل : ﴿يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة﴾ هذه هي وظائف رسول الله ﷺ التي وردت في دعوة إبراهيم عليه السلام وقد مرَّ تفسيرها ، وقد وردت هذه الصفات أيضا له ﷺ في الآية التي سقت آنفا في كون رسول الله ﷺ نعمةً من الله عظمى ومنةً كبرى ، وقد وردت هذه الصفات أيضا في سورة الجمعة حيث يقول عز وجل : ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ وآخرين منهم لَمَّا يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم﴾ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ وقوله عز وجل : ﴿ويعلمكم ما لم تكونوا

تعلمون ﴿ هذه صفة زائدة على الصفات السابقة وفيها إشارة إلى معجزة كبرى من معجزات رسول الله ﷺ حيث عَلَّمَ أمته ﷺ أصدق أخبار الأمم الماضية وعرفهم ما كان من الحوادث السابقة وما يكون من الحوادث اللاحقة ، ووضع لهم أحسن الأنظمة التي أرشده الله إليها ، الصالحة لكل زمان ومكان وجيل وقبيل ، والتي لم تعرفها الإنسانية في تاريخها الطويل ، مما يعترف بفضلها الأصدقاء والأعداء حتى بدأت أوروبا في وقت نهضتها الحديثة تأخذ ببعض التعاليم الإسلامية التي ما كانت تعرفها وقد رأت أن شريعة الإسلام أوفى من سائر الأنظمة بها حتى شملت الشفعة وغيرها ، ونحن نعلم علم اليقين أن رسول الله ﷺ علمنا كل شيء نحتاجه في معاشنا أو معادنا حيث علمنا ﷺ ماذا نقول إذا استيقظنا من نومنا وماذا نقول عند منامنا ، وماذا نفعل أو نقول عند دخول منازلنا أو تناول طعامنا أو شربنا وسائر حاجاتنا ، وماذا نقول عند ركوب مراكبنا أو في سفرنا أو حضرنا ، حتى قال بعض المشركين لسلمان الفارسي رضي الله عنه : لقد علمكم نبيكم كل شيء ، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه قال : قيل له : قد علمكم نبيكم ﷺ كل شيء حتى الخراءة فقال : أجل لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط أو بول أو أن نستنجي باليمين أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار أو أن نستنجي برجيع أو بعظم . وفي لفظ لمسلم عن سلمان رضي الله عنه قال : قال لنا المشركون : إني أرى صاحبكم يعلمكم حتى يعلمكم الخراءة فقال : أجل إنه نهانا أن يستنجي أحدنا بيمينه ، أو يستقبل القبلة ، ونهى عن الروث والعظام وقال : « لا يستنجي أحدكم بدون ثلاثة أحجار » اهـ . وقد صار أصحاب رسول الله ﷺ أئمة الدنيا في العلم وورثوا ذلك للدنيا حتى كان عظماء أوروبا يفتخرون أحدهم بالذهاب إلى الأندلس ليشهد بعض حلقات العلم على علمائها ، وبعد أن كان العرب أشد الناس جهلا وأبعدهم

ضلالة صاروا أعمق الناس علما وأبرَّهم قلوبا ، وأقلَّهم تكلفا وأصدقهم لهجة . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ هو لفت انتباه العباد إلى ذكر الله وشكره على نعمه التي لا تحصى وعلى الأخص شكره على نعمته العظمى بإرساله محمدا ﷺ بدين الإسلام فإن النعمة صيد وشكرها قيد ولذلك قال عز وجل : ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾ وشكر الله عز وجل على إرساله محمدا ﷺ يملأ قلب الشاكر نورا ، ويزيده بصيرة بتعاليم الشريعة وفقه دين الإسلام ، ولذلك ذكر الله تبارك وتعالى أن ذكره سبب فلاح العباد ونجاحهم وفوزهم ونصرهم ، حيث يقول عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴾ وقد أفاد قوله عز وجل : ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ وجوب ذكر الله تعالى وشكره ، والذكر يكون باللسان وبالقلب وبالجوارح ، فالذكر باللسان تحميده وتسبيحه وتمجيده وتقديسه وتلاوة كتابه ، وذكره بالقلب التفكير في خلق السموات والأرض وما فيها لاستحضار عظمة الله في النفس لتشرق فيها أنوار السعادة وينحسر عنها سلطان الشيطان الذي يخنس إذا ذكر العبد ربه ، ومن ذكره كذلك طلب العلم ومعرفة كيفية العبادات وأحكام الله وأوامره ونواهيه ووعدته ووعيده ، وأما ذكره عز وجل بالجوارح فهو أن تكون جوارح الإنسان مشغلة بطاعة الله منتهية عن معاصيه وقافة عند حدوده ، فلا يراه حيث نهاه . ومعنى قوله عز وجل : ﴿ أذكركم ﴾ أي أكافئكم على ذكركم لي بذكركم لكم بعفوي ونعمتي وجودي وإحساني ومغفرتي فمن ذكر الله تبارك وتعالى في الرخاء ذكره في الشدة ففرَّج كربته وقضى حاجته ودفع الضرَّ عنه ، وأثنى عليه في الملاء الأعلى ، وقد أرشد رسول الله ﷺ إلى فوائد ذكر الله تبارك وتعالى فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله

ﷺ قال : « مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر مثل الحي والميت » . كما روى مسلم من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده » . كما روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة فمر على جبل يقال له : جُمدان ، فقال : « سيروا ، هذا جمدان ، سبق المفردون » قالوا : وما المفردون يا رسول الله ؟ قال : « الذاكرون الله كثيرا والذاكرات » كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى : أنا عند ظنّ عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم » كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا : هلمُّوا إلى حاجتكم ، قال : فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، قال : فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم : ما يقول عبادي ؟ قال : يقولون : يسبحونك ، ويكبرونك ، ويحمدونك ، ويمجدونك ، قال : فيقول : هل رأوني ؟ قال : فيقولون : لا والله ما رأوك ، قال : فيقول : كيف لو رأوني ؟ قال : فيقولون : لو رأوك كانوا أشدّ لك عبادة وأشدّ لك تمجيدا ، وأكثر لك تسبيحا ، قال : فيقول : فما يسألون ؟ قالوا : يسألونك الجنة ، قال : يقول : وهل رأوها ؟ فيقولون : لا والله يا ربّ ما رأوها ، قال : فيقول : فكيف لو رأوها ؟ قال : يقولون : لو أنهم رأوها كانوا أشدّ عليها حرصاً وأشدّ لها طلباً وأعظم فيها رغبة ، قال : فمّمّ يتعوّذون ؟ قال : يقولون : من النار ، قال : يقول : فهل رأوها ؟ قال : يقولون : لا والله يا ربّ ما رأوها ، قال : يقول : فكيف لو رأوها ؟ قال : يقولون : لو رأوها كانوا أشدّ منها فراراً

وأشد لها مخافة ، قال : فيقول : فأشهدكم أني قد غفرت لهم ، قال : يقول ملكٌ
من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم ، إنما جاء لحاجة ، قال : هم الجلساء لا
يشقى جليسهم» .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ * ولا تقولوا لمن يُقتل في سبيل الله أمواتٌ ، بل أحياءٌ ولكن لا تشعرون * ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشّر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمةٌ وأولئك هم المهتدون * .

بعد أن أمر الله عز وجل المؤمنين بذكره وشكره لما أسبغه عليهم من النعماء أمرهم هنا بالصبر على ما قد يصيبهم من البلاء والضراء ، ليجمعوا بين منازل الشاكرين والصابرين فيكونوا في أحسن درجات السلوك الإنساني في الحياة الدنيا مع ما يُعدّه الله عز وجل لهم من المنازل العالية في جنات النعيم ، ولذلك أخبر رسول الله ﷺ أن المؤمن في خير دائماً إن أصابته سراء شكر وإن أصابته ضراء صبر ، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث صهيب بن سنان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «عَجَباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خَيْرٌ ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» . وقد مرّ في تفسير الآية الخامسة والأربعين من هذه السورة الكريمة معنى قوله عز وجل : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ وأشارت إلى أن الصبر والصلاة من أعظم العون على القيام بأوامر الله والاستراحة من عناء الحياة ومشقتها ، وأنه بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين وأن الله أمر رسوله وحبيبه محمداً ﷺ بالصبر والصلاة للاستراحة من أذى المشركين حيث يقول : ﴿ فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فستبح وأطراف النهار لعلك ترضى ﴾ وفي قوله عز وجل : ﴿ إن الله مع الصابرين ﴾ إشارة عظيمة بأن الصابرين يمنحهم الله مَعِيَّتَهُ الخاصّة التي معناها النصر والعون والتأييد

والتسديد والهداية والتوفيق ، وذلك لأن مَعِيَّةَ الله لخلقه تنقسم إلى قسمين :
معية خاصة بالمعنى الذي وصفت ، ومعية عامة ومعناها العلم ، فهو تبارك
وتعالى مع جميع خلقه بعلمه لا تخفى عليه خافية مهما كانت من شئونهم
وأحوالهم ، والله تبارك وتعالى فوق عرشه العظيم بذاته ، مباينٌ لجميع خلقه ،
ولا شك أن بشارة الله لعبده الصالح بأنه معه هي أعظم البشائر وأوثق
أسباب النصر ، ولذلك لما أمر الله عز وجل موسى وهارون بدعوة فرعون إلى
الله عز وجل ذكرا أنها يخافان أن يسبق فرعون إلى عقوبتهما بالسجن أو غيره
أو أن يطغى فيقتلها قبل سماع دعوتها فطمأنهما الله عز وجل بأنه معهما وفي
ذلك يقول عز وجل : ﴿ اذهبوا إلى فرعون إنه طغى ﴾ فقولاً له قولاً لينا لعله
يتذكر أو يخشى * قالاً ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى * قال : لا
تخافا إنني معكما أسمع وأرى ﴿ وقد ذكر الله عز وجل أن فرعون وجنوده لما
صمّموا على القضاء على موسى عليه السلام وقومه أوحى الله إليه بالخروج
بقومه ليلاً ، وأشار عليه بسرعة السير فلما خرج موسى وقومه سارع فرعون
وجنوده ليدركوهم ويستأصلوهم ، فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى
لموسى عليه السلام : دنا وقت قضائهم علينا ولا مفر لنا ؛ لأن البحر كان
أمامهم والعدو وراءهم والجبال عن يمينهم وشمالهم فلا مفر لهم ، فطمأنهم
موسى عليه السلام بأنه لا خوف عليهم مينا لهم أن الله عز وجل وعده أن
يكون معنا وما دام الله معنا فلن ينتصر علينا فرعون ولن يتمكن من القضاء
علينا ، فأمره الله عز وجل أن يضرب البحر بعصاه ف ضرب لهم طريقاً في البحر
يَبَسًا ، وفي ذلك يقول عز وجل : ﴿ وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم
مُتَّبِعُونَ ﴾ فأرسل فرعون في المدائن حاشرين * إن هؤلاء لشرذمة
قليلون * وإنهم لنا لغائظون * وإنا لجميع حاذرون * فأخرجناهم من
جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بني إسرائيل *

فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿١﴾ وَقَدْ أَشَارَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى هَذِهِ الْمَعِيةِ الْخَاصَّةِ الَّتِي يُؤَيِّدُ بِهَا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ الْكَرِيمِ لَتَكُونَ نَبْرَاسًا يَهْتَدِي بِهَا الْمُؤْمِنُونَ وَيَسْعَى لَطَلِبُهَا الصَّالِحُونَ حَيْثُ يَقُولُ : ﴿إِنْ اللَّهُ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ وَيَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ فِي قِصَّةِ اخْتِفَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَارِ ثَوْرٍ مِنْ قَرِيْشٍ مَعَ صَاحِبِهِ وَحَبِيبِهِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُمَا فِي طَرِيقِ الْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ وَقَدْ بَحَثَتْ قَرِيْشٌ عَنْهُمَا وَتَتَبَعَتْ أَثَارَهُمَا حَتَّى وَقَفَتْ عَلَى رَأْسِ الْغَارِ فَخَافَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يَصِيبَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُوءٌ مِنْ قَرِيْشٍ وَحَزَنَ لِذَلِكَ فَطَمَأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِنَفْسِ مَا طَمَأَنَ بِهِ مُوسَى قَوْمَهُ الْخَائِفِينَ مِنْ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ حَيْثُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا » وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ، بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ يَنْبَغِي اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْمُسْلِمِينَ إِلَى عَدَمِ إِطْلَاقِ لَفْظِ الْمَوْتِ عَلَى الشَّهَدَاءِ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ سَوَاءً كَانُوا قَدْ قُتِلُوا فِي مَعْرَكَةٍ مَعَ الْكَافِرِينَ كَشَهَدَاءِ بَدْرٍ وَغَيْرِهِمْ أَمْ قُتِلُوا فِي غَيْرِ الْمَعْرَكَةِ كَسُمَيَّةَ أُمِّ عِمَارِ بْنِ يَاسِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الَّتِي كَانَتْ عَدُوَّ اللَّهِ أَبُو جَهْلٍ يَعْذِبُهَا بِالنَّارِ وَيَقُولُ لَهَا : اذْكُرِي آلِهَتَنَا بِخَيْرٍ وَاذْكُرِي مُحَمَّدًا بِسُوءٍ ، فَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَضَرَبَهَا بِحَرْبَتِهِ فَقَتَلَهَا فَكَانَتْ أَوَّلَ شَهِيدَةٍ فِي الْإِسْلَامِ ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ

أن الشهداء أحياء عند ربهم يُرزقون، وليس المقصود من هذه الحياة أنها حياة دنيوية بل هي حياة برزخية خاصة منحها الله تبارك وتعالى للشهداء، وقد فسرها رسول الله ﷺ فقد روى مسلم في صحيحه من طريق مسروق قال: سألنا عبد الله بن مسعود عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا، بَلْ أحياء عند ربهم يرزقون﴾ الآية، قال: إنا قد سألنا عن ذلك. فقال: «أرواحهم في أجواف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تشرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع عليهم ربهم اطلاعاً فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب نريد أن تردّ أرواحنا في أجسادنا حتى نُقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُركوا». وقوله عز وجل: ﴿وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ يوحى بأن حياة الشهداء لا يعلمها إلا الله عز وجل، وما دام قد أخبر ربُّ العزة جل وعلا أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون وعلمنا رسول الله ﷺ بعض صور من حياتهم التي أعلمه الله عز وجل بها فما علينا إلا التسليم، مع يقيننا أنهم فارقوا الحياة الدنيا، وأن أرواحهم خرجت من أجسادهم كما يدل عليه الحديث الصحيح المتقدم حيث قالوا: نريد أن تردّ أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى. لكننا لا نسميهم أمواتا وإنما نسميهم شهداء، وقوله عز وجل: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أي ولنختبرنكم بقليل من الخوف الذي يحصل لكم من إرجاف عدوكم بكم وبقليل من الجوع بسبب قحط يصيبكم أو حصارٍ من عدوكم وذهاب بعض أموالكم وموت بعض أحبائكم، وعدم تمام ثمرة مزارعكم إما للجائحة أو غيرها، فاصبروا على ما

يُصِيبُكُمْ وَبَشِّرْ يَا مَنْ تَتَأْتِي مِنْهُ الْبَشَارَةُ هَؤُلَاءِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا نَزَلَ بِهِمْ
بَلَاءٌ مِنْ خَوْفٍ أَوْ جُوعٍ أَوْ نَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَاحْتَسَبُوا مَا
يُصِيبُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ وَاسْتَرَجَعُوا وَحَسَبُوا أَنْفُسَهُمْ عَنِ الْجَزَعِ وَأَيَقِنُوا أَنَّ
الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لَهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مَا أَخَذَ وَلِلَّهِ مَا أُعْطِيَ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ،
وَقَالُوا: إِنَّا لِلَّهِ مُلْكًا وَمِلْكًا يَتَصَرَّفُ فِيْنَا كَيْفَ يَشَاءُ وَنَحْنُ رَاضُونَ بِقَضَائِهِ
حَامِدُونَ لَهُ فِي السَّرَاءِ وَالضَّرَاءِ، وَأَنْ مَرْجِعُنَا إِلَيْهِ. وَقَوْلُهُ عِزٌّ وَجَلٌّ: ﴿أَوَلَيْكَ
عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأَوَلَيْكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ أَيُّ هَؤُلَاءِ الْأَمَاجِدِ
الْكَرَامِ الصَّابِرُونَ الْمُحْتَسِبُونَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ ثَنَاءٌ حَسَنٌ وَعَفْوٌ عَنْهُمْ
وَمَغْفِرَةٌ لَذُنُوبِهِمْ وَرَحْمَةٌ وَإِحْسَانٌ وَجُودٌ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَأَوَلَيْكَ هُمُ أَهْلُ
الْإِهْتِدَاءِ السَّالِكُونَ سَبِيلَ الرِّشَادِ، الْمُوَفَّقُونَ لِمَا يَرْضِي رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَقَدْ بَشَّرَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمَ بِأَنْ أَدَى يُصِيبُهُ يَكْفُرُ اللَّهُ بِهِ مِنْ خَطَايَاهُ، فَقَدْ رَوَى
الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحَيْهِمَا مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا
وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حَزَنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ حَتَّى الشُّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَرَ اللَّهُ بِهَا
مِنْ خَطَايَاهُ». وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ تَصِيبُهُ مَصِيبَةٌ
فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ اللَّهُمَّ أَجْرْنِي فِي مَصِيبَتِي وَأَخْلِفْ
لِي خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا أَخْلَفَ اللَّهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا» قَالَتْ: فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ قُلْتُ:
أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ، أَوَّلَ بَيْتٍ هَاجَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ إِنِّي
قُلْتُهَا، فَأَخْلَفَ اللَّهُ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. الْحَدِيثُ. وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ عَنْهَا رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ عَبْدٍ تَصِيبُهُ مَصِيبَةٌ
فَيَقُولُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أَجْرْنِي فِي مَصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا
مِنْهَا، إِلَّا أَجَرَهُ اللَّهُ فِي مَصِيبَتِهِ وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا» قَالَتْ: فَلَمَّا تَوَفَّى
أَبُو سَلَمَةَ قُلْتُ كَمَا أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَخْلَفَ اللَّهُ لِي خَيْرًا مِنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الصِّفَا والمروةَ من شعائر الله فمن حجَّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطَّوف بهما ، ومن تطوَّع خيراً فإنَّ الله شاكِرٌ عليمٌ ﴾ .

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى قصة رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ودعوتهما بأن يجعل الله من ذريتهما أمة مسلمة وأن يبعث فيهم رسولا منهم ، وقرر أنَّ الحق والهدى في ملة إبراهيم وليس في اليهودية ولا النصرانية ، وبعد أن أمر رسوله محمداً ﷺ والمسلمين باستقبال البيت الحرام الذي هو قبلة إبراهيم وإسماعيل ، وذكر أنه أتم النعمة على المسلمين ببعثة رسول الله ﷺ المتبع لملة إبراهيم عليه السلام والداعي لإحياء الحنيفية السمحة عملاً بقوله عز وجل : ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ وكان السعي بين الصفا والمروة من الشعائر الثابتة من عهد إبراهيم عليه السلام كما ذُكِرَ في حديث ابن عباس رضي الله عنهما في قصة سعي هاجر بينهما للبحث عن الماء لها ولولدها إسماعيل عليه السلام سبع مرات الذي رواه البخاري والذي سقت نصّه في تفسير قوله تعالى : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ﴾ حيث قال رسول الله ﷺ : « فلذلك سعى الناس بينهما » ذكر هنا أن الصفا والمروة من شعائر الله ومعالم دينه في شريعة الإسلام الذي بعث بها خاتم رسله وسيد أنبيائه محمداً ﷺ ، ولزيادة تقرير وتأكيد أن الذي يزعم أنه يحب إبراهيم عليه السلام يجب عليه أن يسارع إلى الاستجابة لمحمد ﷺ المبعوث بملة إبراهيم عليه السلام ، وسبب نزول قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الصِّفَا والمروةَ من شعائر الله ﴾ الآية هو ما رواه البخاري في صحيحه من طريق الزهري قال عروة : سألت عائشة رضي الله عنها فقلت لها : رأييتِ قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الصِّفَا والمروةَ من شعائر الله فمن حجَّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطَّوف بهما ﴾ فوالله ما على أحدٍ جُنَاح

أن لا يطوف بالصفاء والمروة، قالت: بشما قلت يا ابن أختي، إن هذه لو كانت كما أولتها عليه كانت لا جناح عليه أن لا يتطوف بهما، ولكنها أنزلت في الأنصار، كانوا قبل أن يسلموا يهلّون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل، فكان من أهل يتحرّج أن يطوف بالصفاء والمروة، فلما أسلموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، قالوا: يا رسول الله إنّنا كنّا نتحرّج أن نطوف بين الصفاء والمروة فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ الآية.

قالت عائشة رضي الله عنها: وقد سنّ رسول الله ﷺ الطواف بينهما فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما، ثم أخبرت أبا بكر بن عبد الرحمن فقال: إنّ هذا لعلم ما كنت سمعته، ولقد سمعت رجلا من أهل العلم يذكرون أن الناس إلا من ذكرت عائشة ممن كان يهل بمناة كانوا يطوفون كلّهم بالصفاء والمروة، فلما ذكر الله تعالى الطواف بالبيت ولم يذكر الصفاء والمروة في القرآن قالوا: يا رسول الله كنّا نطوف بالصفاء والمروة وإن الله أنزل الطواف بالبيت فلم يذكر الصفاء، فهل علينا من حرج أن نطوّف بالصفاء والمروة؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ الآية، قال أبو بكر: فأسمع هذه الآية نزلت في الفريقين كليهما: في الذين كانوا يتخرجون أن يطوفوا بالجاهلية بالصفاء والمروة والذي يطوفون ثم تخرجوا أن يطوفوا في الإسلام من أجل أن الله تعالى أمر بالطواف بالبيت ولم يذكر الصفاء حتى ذكر ذلك بعد ما ذكر الطواف بالبيت. وقد روى مسلم هذا الحديث من طريق الزهري أيضا عن عروة بن الزبير قال: قلت لعائشة زوج النبي ﷺ: ما أرى على أحد لم يطف بين الصفاء والمروة شيئا، وما أبالي أن لا أطوف بينهما، قالت: بش ما قلت يا ابن أختي، طاف رسول الله ﷺ وطاف المسلمون فكانت سنة، وإنها كان من أهل لمناة الطاغية التي بالمشلل لا يطوفون بين الصفاء والمروة، فلما كان الإسلام سألنا النبي ﷺ عن ذلك فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ

شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوّف بهما ﴿ ولو كانت كما تقول لكانت : فلا جناح عليه أن لا يطوّف بهما ، قال الزهري : فذكرت ذلك لأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فأعجبه ذلك وقال : إنّ هذا العلم ، ولقد سمعت رجالا من أهل العلم يقولون : إنما كان من لا يطوف بين الصفا والمروة من العرب يقولون : إنّ طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهلية ، وقال آخرون من الأنصار : إنما أمرنا بالطواف بالبيت ولم نؤمر به بين الصفا والمروة ، فأنزل الله عز وجل ﴿ إنّ الصفا والمروة من شعائر الله ﴾ قال أبو بكر بن عبد الرحمن فأراها قد نزلت في هؤلاء وهؤلاء . كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من طريق عاصم قال : قلت لأنس بن مالك رضي الله عنه : أكتتم تكرهون السعي بين الصفا والمروة ؟ قال : نعم ، لأنها كانت من شعائر الجاهلية حتى أنزل الله : ﴿ إنّ الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوّف بهما ﴾ وقول عائشة رضي الله عنها في حديثها : وقد سنّ رسول الله ﷺ الطّواف بينهما . لا تريد رضي الله عنها بقولها : (سنّ) معنى السنّة المقابلة للفريضة بل مرادها شرعية الطواف بين الصفا والمروة بل أشارت رضي الله عنها إلى وجوبه بدليل قولها بعد ذلك مباشرة : فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما . وما يؤكد ذلك ما رواه البخاري في صحيحه من طريق عمرو بن دينار قال : سألتنا ابن عمر رضي الله عنه عن رجل طاف بالبيت في عمرة ولم يطف بين الصفا والمروة أباقي امرأته ؟ فقال : قدم النبي ﷺ فطاف بالبيت سبعا ، وصلى خلف المقام ركعتين فطاف بين الصفا والمروة سبعا ، لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ، وسألنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما فقال : لا يقربنها حتى يطوف بين الصفا والمروة . اهـ والصفا والمروة جبلان معروفان بمكة هما أقرب الجبال لبيت الله الحرام كان يفصل بينهما الوادي ، و(ال) فيهما

للتعريف بأن المراد الطواف بين هذين الجبلين المعروفين المعهودين ، إذ الصفا
 في الأصل جمع صفاة وهي الصخرة الصماء الملساء الصلدة التي لا تنبت
 الخالية من الطين والتراب ، والمروة قال الخليل : هي من الحجارة ما كان
 أبيض أملس صلباً شديد الصلابة ، وأشار بعضهم إلى أنه ما كان من هذه
 الحجارة حالة كونه صغيراً ، وليس كل صفا أو مروة يطوّف بينهما فلذلك
 وصفت السلام في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الصفا والمروة﴾ بأنها للعهد ، وقوله عز
 وجل : ﴿مَنْ شَعَّاثَ اللَّهَ﴾ أي من معالم الدين التي جعلها الله تبارك وتعالى
 معلماً ومشعراً لعبادته عز وجل عندها بما يرسمه لهم من الطواف عندها فكأنه
 قيل : إن السعي بين هذين الجبلين من شعائر الله ومن أعلام دينه ، وقد
 شرعه الله تبارك وتعالى لأمة محمد ﷺ كما شرعه لخليله إبراهيم عليه السلام
 من قبل فهو من المناسك التي أراها الله تبارك وتعالى لإبراهيم إذ دعاه بقوله :
 ﴿وَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا﴾ ولما كان السعي بين الصفا والمروة لا يعتبر من شعائر الله إلا
 في حج أو عمرة فلذلك أوضح الله تبارك وتعالى ذلك حيث قال : ﴿فَمَنْ
 حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ والحج في اللغة هو
 القصد إلى شيء معظم وفي الاصطلاح الشرعي هو أفعال وأقوال مخصوصة
 تؤدي في زمان مخصوص ، والحج هو أحد أركان الإسلام ، وأما العمرة فهي في
 اللغة الزيارة ، وفي الاصطلاح زيارة البيت الحرام على صفة مخصوصة ،
 ومعنى : ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ﴾ أي قصد البيت الحرام للحج ، وقوله : ﴿أَوْ
 اعْتَمَرَ﴾ أي أو زار البيت الحرام لأداء العمرة ، وقوله عز وجل : ﴿فَلَا جُنَاحَ
 عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ أي فلا تتحرّجوا يا من كنتم تتحرّجون في السعي بين
 الصفا والمروة ، فإن السعي بين الصفا والمروة من شعائر الله التي شرعها
 لعباده ليزدلفوا بها إليه جلّ وعلاً . وقد أعلن رسول الله ﷺ أن السعي بين
 الصفا والمروة من مناسك الحج وبين ذلك بفعله وقوله ﷺ ، فقد روى مسلم

في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما في صفة حجة رسول الله ﷺ قال : حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن فرمّل ثلاثا ومشى أربعاً ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام فقرأ ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ فصلى ركعتين فجعل المقام بينه وبين البيت ، ثم رجع إلى الركن فاستلمه ، ثم خرج من الباب إلى الصفا فلما دنا من الصفا قرأ : ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ أبداً بما بدأ الله به ، فبدأ بالصفا فرقي عليه حتى رأى البيت فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره ، وقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ثم دعا بين ذلك ، قال مثل هذا ثلاث مرات ، ثم نزل إلى المروة حتى إذا انصبّت قدماء في بطن الوادي سعى ، حتى إذا صعدتا مشى حتى أتى المروة ، ففعل على المروة كما فعل على الصفا . الحديث . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم﴾ قال ابن جرير رحمه الله في تفسيره : إن معنى ذلك : ومن تطوع بالحج والعمرة بعد قضاء حجته الواجبة عليه فإن الله شاكر له على تطوعه له بما تطوّع به من ذلك ابتغاء وجهه فمجازيه به ، عليم بما قصد وأراد بتطوّعه بما تطوّع به ، وإنما قلنا : إن الصواب في معنى قوله : ﴿فمن تطوع خيراً﴾ هو ما وصفنا دون قول من زعم أنه معنيّ به : فمن تطوع بالسعي والطواف بين الصفا والمروة ، لأن الساعي بينهما لا يكون متطوعاً بالسعي بينهما إلا في حج تطوّع أو عمرة تطوّع . اهـ .

قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ .

بعد أن بين الله تبارك وتعالى في مقامات سابقة من هذه السورة المباركة أن أهل الكتاب يكتُمون الحق وهم يعرفونه محذرا من سلوك طريقهم في هذا السبيل حيث قال في الآية الثانية والأربعين من سورة البقرة : ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ويقول في الآية السادسة والسبعين من هذه السورة : ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَا بِعِضْهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ويقول في الآية الأربعين بعد المائة من نفس السورة : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ويقول في الآية السادسة والأربعين بعد المائة منها : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وبعد أن عرّف الله تبارك وتعالى المسلمين بنعمة الله تعالى عليهم إذ أرسل لهم أفضل رسله ، وخاتم أنبيائه محمدا ﷺ ، وأمرهم بالصبر على ما يصيبهم ، وبين لهم فضل الصابرين ، وربط بين شريعة محمد ﷺ وملة إبراهيم بتعريفهم أن السعي بين الصفا والمروة من شعائر الله في الحج أو العمرة ، وهما من المناسك التي أراها الله تعالى لإبراهيم عليه السلام ولمحمد ﷺ دعوة إبراهيم عليه السلام القائل : ﴿وَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا﴾ حذر المسلمين أشد التحذير من أن يسلكوا مسلك أهل الكتاب في كتمان شيء من العلم ، وأن من يكتُم شيئا من العلم والبيّنات والهدى التي بيّنها الله تعالى في الكتاب

يستحق لعنة الله من أي لون كان أو من أي جنس ، حتى ولو كان متميماً للإسلام لأن المفروض على المسلمين أن يحذروا أشدّ الحذر مما وقع فيه اليهود والنصارى من كتمان الحق بعد أن علموا أنّ الله لعنهم على كتمانهم الحق ، ولذلك قال هنا : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ أي إن كل من كتم الحق من دين الله الذي يجب بثه ونشره لمسيس الحاجة إليه وقد بيّنه الله في كتابه أو بيّنه رسول الله ﷺ مما لا غنى للمسلمين عن معرفته ليسلكوا به صراط الله المستقيم ، ولا ينحرفوا عن المنهج القويم فإن الله تبارك وتعالى ينزل لعنته على هؤلاء الكائمين للحق بعدما عرفوه ويطردهم من رحمته ، ويحلّ بهم سخطه ، كما أن الله تبارك وتعالى يجعل لعنة اللاعنين من الملائكة والمؤمنين على هؤلاء الذين يكتُمون ما أنزل الله من البينات والهدى من بعد ما بينه للناس في الكتاب . ولذلك أكّد الله تبارك وتعالى هذا التحذير من كتمان العلم في الآية الرابعة والسبعين بعد المائة وفي الآية الخامسة والسبعين بعد المائة من هذه السورة المباركة حيث قال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يَكْلِمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار ﴿وقد روى البخاري في صحيحه من طريق الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إن الناس يقولون : أكثر أبو هريرة ، ولولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثاً ثم يتلو : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ﴾ إلى قوله : ﴿الرَّحِيمِ﴾ ، إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصَّفْقُ بالأسواق ، وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العملُ في أموالهم ، وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ بشبع بطنه ، ويحضر ما لا يحضرون ، ويحفظ ما لا يحفظون . وقد روى

أبوداود والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والبيهقي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة» . ولا شك أن هذا الوعيد لا يشمل من علم من حال سائله أنه غير مدرك لما يسمع من العلم ، وأنه ربما يحمل الكلام على غير محمله ، ويذهب به في غير مذهبه ، فلم يحدثه خوف أن يكون حديثه له فتنة ، قال البخاري في صحيحه : باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقعوا في أشد منه ، حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن الأسود قال : قال لي ابن الزبير كانت عائشة تسرّ إليك كثيرا ، فما حدثتك في الكعبة ؟ قلت : قالت لي : قال النبي ﷺ : «يا عائشة لولا قومك حديثٌ عهدهم» قال ابن الزبير : بكفر ، «لنقضت الكعبة فجعلت لها بابين ، باب يدخل الناس ، وباب يخرجون» ففعله ابن الزبير . ثم قال البخاري : باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا وقال عليّ : حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله . وقد ثبت أن عمر رضي الله عنه أراد أن يخطب بمنى خطبة للتحذير من بعض الأمور الخطيرة فأشار عليه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بتأجيل إلقتها حتى يصل إلى المدينة النبوية وذكر عبد الرحمن رضي الله عنه لعمر رضي الله عنه أن الموسم يجمع رعاة الناس وغوغاءهم وأنهم ربما لا يفهمون ما يقول عمر رضي الله عنه فيحملون كلامه على غير محمله ، ولكن المدينة إنما يكون حوله الفقهاء وأشراف الناس فيعي أهل العلم مقالته ، فقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنت أقرئ رجالا من المهاجرين ، منهم عبد الرحمن بن عوف ، فبينما أنا في منزله بمنى وهو عند عمر بن الخطاب في آخر حجة حجّها ، إذ رجع إليّ عبد الرحمن ، فقال : لو رأيت رجلا أتى أمير المؤمنين اليوم فقال : يا أمير

المؤمنين هل لك في فلان يقول لو قد مات عمر لقد بايعت فلانا ، فوالله ما كانت بيعة أبي بكر إلا فلتة فتمّت ، فغضب عمر ثم قال : إني إن شاء الله لقائم العشية في الناس فمحذرهم هؤلاء الذين يريدون أن يغضبوهم أمورهم ، قال عبد الرحمن : فقلت : يا أمير المؤمنين لا تفعل ، فإن الموسم يجمع رعاك الناس وغوغاءهم ، فإنهم هم الذين يغلبون على قربك حين تقوم في الناس ، وأنا أخشى أن تقوم فتقول مقالة يطيرها عنك كل مطير ، وأن لا يعوها ، وأن لا يضعوها على مواضعها ، فأهل حتى تقدم المدينة ، فإنها دار الهجرة والسنة ، فتخلص بأهل الفقه وأشرف الناس فتقول ما قلت متمكنا ، فيعي أهل العلم مقالتك ، ويضعونها على مواضعها ، فقال عمر : أما والله إن شاء الله لأقومن بذلك أول مقام أقومه بالمدينة . الحديث . وقوله عز وجل : ﴿إِلا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّوْا فَاُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي إلا الذين رجعوا إلى الله وندموا على كتمان العلم وأصلحوا الذي كانوا أفسدوه كما أصلحوا سرائرهم ونياتهم ، ويبنوا للناس ما كانوا يكتُمونه فإن الله تبارك وتعالى يتوب عليهم ويغفر لهم خطاياهم ، ويبدل سيئاتهم حسنات ، لأن الله هو التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ، فإن الله تبارك وتعالى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات وهو أرحم الراحمين ، فمن تاب تاب الله عليه ، على حد قوله عز وجل : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فمهما كانت معاصي الإنسان وسيئاته فإن عفو الله أكبر منها ، ولذلك لما قال رجل في رجل كان كثير المعاصي : والله لا يغفر الله لفلان ، فأحبط الله عمل المتألي عليه وغفر ذنوب العاصي ، فقد روى مسلم في صحيحه عن جندب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدّث «أن رجلا قال : والله لا يغفر الله لفلان ، وإن الله تعالى قال : من ذا الذي يتألى عليّ أن لا أعفر لفلان ، فإني قد

غفرت لفلان وأحببت عملك» أو كما قال . وقوله عز وجل : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ هذا بيان للتنبيه على أن من كفر بالله ولم يتب إلى الله عز وجل من كفره ، واستمر على كفره بالله ورسله إلى أن مات على ذلك فإنه مستحق للعنة الله ومستحق لأن تلعنه الملائكة ، ويلعنه الناس كلهم ، وقوله عز وجل : ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أي مستقرين في لعنة الله حتى يدخلوا نار جهنم ، ومهما صرخوا في النار واستغاثوا فلن يخفف عنهم من عذابها ، وتأتيهم لعنة الله ولعنة ملائكته ولعنة المؤمنين والكافرين كما قال عز وجل : ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ وكما قال عز وجل : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ وهذا دليل من الأدلة الكثيرة القاطعة بأن من مات على الكفر فهو من أهل النار المخلدين فيها المستحقين للعنة الله الدائمة الأبدية وأنهم لا توبة لهم بحال كما قال عز وجل : ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّوْءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبتُّ الآن ولا الذين يموتون وهم كفَّار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً ، هذا وقد نقل غير واحد من أهل العلم أنه لا خلاف بين علماء الإسلام في جواز لعن الكفار غير المعيّنين ، وقال ابن العربي رحمه الله : إن لعن العصاة المعيّنين لا يجوز اتفاقاً اهـ . أما لعن الكفار المعيّنين في الدنيا وكذلك العصاة من غير الكفار فإنه لا ينبغي لعنهم لجواز أن يختم الله لهم بخير ، وأما العصاة غير المعيّنين ممن يرتكب جرائم معينة فإنه يجوز لعنه لقول رسول الله ﷺ : «لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده» . على أنه ينبغي للمسلم أن لا يكون

لَعَانَا ، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا ينبغي لصديق أن يكون لَعَانَا » ، كما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن اللعّانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة » . فلا ينبغي لمسلم أن يلعن إلا من لعنه الله عز وجل وقد حذر رسول الله ﷺ أشد التحذير من لعن المؤمن فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي زيد ثابت ابن الضحاك الأنصاري وهو من أهل بيعة الرضوان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من حلف على يمين بملء غير الإسلام كاذبا متعمدا فهو كما قال ، ومن قتل نفسه بشيء عُدَّ به يوم القيامة ، وليس على رجل نذرٌ فيما لا يملكه ، ولعنُ المؤمن كقتله » .

قال تعالى : ﴿وإلَهِكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ * إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴿

هذه هي الدعوى الكبرى وبرهانها الكبير، وقد كان الكلام من أول هذه السورة المباركة عن أقسام المكلفين من عباد الله حيث بين أنهم ثلاثة أقسام : مؤمنون وكافرون صرحاء بالكفر، ومنافقون . ثم دعا الناس جميعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له وأقام الدليل على وجوب عبادته وحده بأنه خلقهم وخلق الذين من قبلهم وأنه جعل لهم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لهم ونهاهم عن عبادة الأصنام والأوثان ، وتحذاهم بالقرآن ، وأنذر من كفر بالنار وبشر من آمن بالجنة ولفت انتباههم بما ضرب لهم من أمثال ، ثم ساق قصة خلق الإنسان وما تحدثت به الملائكة ، وبين بعض ما منحه لآدم عليه السلام من علوم ومعارف ، وذكر قصة إبليس عدو الإنسان ، وما ترتب على ذلك من إهباط آدم وزوجه حواء وإبليس إلى الأرض ، وتحذير آدم وذريته من إبليس لعنه الله ، ثم بيان أحوال بني إسرائيل ومواقفهم من أنبياء الله ورسله ومعاداتهم لسيد المرسلين محمد ﷺ الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، ثم نبّه المسلمين إلى نعمته الكبرى بإرساله محمدا ﷺ الداعي إلى ملة إبراهيم عليه السلام رافع القواعد من البيت الحرام ، الذي أراه الله المناسك وعرفه المشاعر التي منها الصفا والمروة ، ثم شدّد النكير على من يكتم ما أنزل الله من البينات والهدى الذي بيّنه الله للناس في الكتاب وأعلم خلقه بأن من مات على الكفر فهو من أهل النار

الخالدين فيها ، بدأ من هذا المقام في هذه السورة المباركة في توجيه الخطاب إلى جميع المكلفين من جميع الأجناس معلنا كلمة التوحيد التي لا يحل لأحد أن يكتتمها لأنها الحقيقة الكبرى التي من أجلها خلق الله السموات والأرض وما بث فيها من دابة ، ومن أجلها خلق الإنس والجن وأقام سوق الجنة والنار ، فقال : ﴿وَالْهَكَمَ إِلَهَ وَاحِدَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على جملتين : الأولى ﴿وَالْهَكَمَ إِلَهَ وَاحِدَ﴾ والجملة الثانية ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ومعنى الجملة الأولى : أي ومعبودكم الحق الذي يستحق وحده أن يُعبد وأن تُصَرَفَ لوجهه الكريم جميع ألوان العبادة ، وسائر أنواع المناسك ، وأن يُبذل له أقصى غاية الحب مع أقصى غاية الخوف والذل ، وأن تأله القلوب ، وتتولاه بوجه النفوس لأنه ربها وباريها ووليها ورازقها ، وأصل التأله التعبد ومنه قول رؤبة بن العجاج :

لله در الغانيات المـدّه سبّـخن واسترجعن من تألهي

أي من تعبدي وطلبي الله بعملي ، والله تبارك وتعالى يتأله الخلق إليه في حوائجهم ، ويتضرعون إليه عند شدائدهم ، ولما كانت هذه الجملة وهي قوله عز وجل : ﴿وَالْهَكَمَ إِلَهَ وَاحِدَ﴾ إثبات مجرد أتبعه بالجملة الثانية وهي قوله عز وجل : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ المشتملة على نفي جميع من يستحق أن يكون إلها وإثبات الإلهية لله وحده بطريق الحصر ، قال ابن أبي العزّ الحنفي شارح العقيدة الطحاوية في قول الطحاوي رحمه الله : (ولا إله غيره) هذه كلمة التوحيد التي دعت إليها الرسل كلّهم كما تقدم ذكره ، وإثبات التوحيد بهذه الكلمة باعتبار النفي والإثبات المقتضي للحصر فإن الإثبات المجرد قد يتطرق إليه الاحتمال ، ولهذا - والله أعلم - لما قال تعالى : ﴿وَالْهَكَمَ إِلَهَ وَاحِدَ﴾ قال بعده ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ فإنه قد ينخطر ببال أحدٍ خاطر شيطاني : هب أنّ إلها واحد فليغيرنا إله غيره ، فقال تعالى :

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ . اهـ وإنما كانت لا إله إلا الله هي كلمة التوحيد لأنها تقتضي نفى جميع ما يعبد من دون الله وإثبات الإلهية لله وحده ، وقد شهد الله تبارك وتعالى لنفسه بهذا التوحيد وشهدت به له ملائكته الكرام وأنبيأؤه ورسله وأولو العلم حيث يقول عز وجل : ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ وأوجب الله تبارك وتعالى معرفة معنى لا إله إلا الله حيث قال : ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ وأخبر رسول الله ﷺ أنّ من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة وأن الله تعالى حرّم النار على من قال : لا إله إلا الله ، يعني موقنا بمعناها ومات على ذلك ، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عُثْبَانَ بْنِ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَتَّبِعِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ» ، كما روى البخاري ومسلم من حديث أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : «مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ» . وكلمة التوحيد تقتضي من العبد إخلاص التوحيد لله والإيمان بأنه لا شريك له في ربوبيته وألوهيته وأسمائه الحسنی وصفاته العلی وأنّ على العبد أن يثبت لله جميع ما أثبتّه الله تعالى لنفسه أو أثبتّه له رسوله من غير تحريف ولا تكيف ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تأويل ولا تشبيه وأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، ولما كان توحيد الله عز وجل بهذه المثابة أتبع الله تبارك وتعالى وجوب توحيده بالآية التي اشتملت على البراهين القاطعة الدالة على أنه الإله الواحد الذي خلق كل شيء وأحكمه وأتقنه فقال عز وجل : ﴿إِنْ فِي خَلْقِ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ

يعقلون ﴿ وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على كتاب الكون الذي لا ينتهي صفحاته ، والتي أودع الله تعالى في كل صفحة من صفحاته ما لا ينتهي من أدلة وحدانيته ، التي لو أفنى جميع الباحثين أعمارهم في أنحاء الدنيا إلى يوم القيامة ما انتهوا من دراسة هذه الصفحات التي احتواها كتاب الكون ، والتي تدور كلها على إثبات أن الذي صنعها إله واحد ، هو الحي القيوم الرحمن الرحيم الذي يقول : ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم ﴾ ، وقد ذكر الله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة سبعة أنواع من أدلة وحدانيته ، الأول منها : هو خلق السموات والأرض ، والثاني : اختلاف الليل والنهار ، والثالث : الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، والرابع : ما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، والخامس : ما بثه الله عز وجل فيها من كل دابة ، والسادس : تصريف الرياح ، والسابع : السحاب المستخر بين السماء والأرض ، وقد اشتمل كل نوع من أنواع هذه الأدلة على دقائق من العلم لا حد لها ولا حصر ، وقد ذكر الفخر الرازي في تفسير هذه الآية فصولا طويلة ، ومسائل كثيرة في شرح هذه الدلائل التي يستدل بها على وجوده سبحانه أولا وعلى توحيده وبرأته عن الأضداد والأنداد ثانيا ، والمقصود من السموات في قوله عز وجل : ﴿ إن في خلق السموات ﴾ ما يشمل السماء المبنية التي جعلها الله تبارك وتعالى سقفا محفوظا ، وأسكنها ملائكته الكرام ويشمل سائر الجهات العليا التي فيها الكواكب ، ولا شك أن مدار النظر والفكر يكفي فيه التفكير في الكواكب التي خلقها الله عز وجل بحيث تبصرها العيون مع الانتفاع العظيم بها في شئون الأرض مع البعد الشاسع بينها وأبرز هذه الكواكب هي الشمس والقمر وبينهما عطارد والزهرة وفوق هذه الأربعة المريخ ثم المشتري ثم زحل ، وتسمى الكواكب السبعة

السيارة، وقد ميّز الله تعالى كل كوكب منها بلونه وطبعه وفلكه، وقد عرف الناس صفرة عطارد وبياض الزهرة وحمرة المريخ ودُرِّيَّة المشتري وكمودة زحل، وجعل السلطان الظاهر للشمس، إذا ظهرت لم يبد منها كوكب، وجعل كل واحد منها يسير في فلكه الذي لم يختل توازنه منذ خلقه الله من دهور طويلة وأحقاب بعيدة، وجعلها عز وجل على مقادير معينة من السرعة والبطء وجعلها مختلفة في جهات الحركات فبعضها من المشرق إلى المغرب، وبعضها من المغرب إلى المشرق، وبعضها شمالية وبعضها جنوبية كما قال الشاعر:

أيها المنكح الثريا سهيلا عمرك الله كيف يجتمعان
هي شامية إذا ما استقرت وسهيل إذا استقر يمانى
فهذا الترتيب العجيب في تركيب هذه الأفلاك والكواكب وائتلاف حركاتها برهان ساطع على أنها صنع الحكيم العليم وأنها لم تكن كذلك جزافا وخبط عشواء، ولو قال قائل: إن بناء عاليا وقصرا مشيدا وجد من غير موجد بل انضم التراب والماء من تلقاء أنفسهما ثم تولدت منهما لَبَنَات ثم تركبت اللبنات من نفسها قصرا مشيدا، لحكم الناس على من يدعي ذلك بالجنون، فثبت بالدليل العقلي القطعي أن هذه الكواكب صنع فاطر السموات والأرض الذي أتقن صنعته على حد قوله عز وجل: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ وقد أدرك العلماء والعوام في جميع عصور التاريخ أنه لا غنى للإنسان عن معرفة حساب الشهور والسنين وقد نصب الله تبارك وتعالى لذلك الحساب الشمس والقمر كما قال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وقد أدرك الناس كلهم على اختلاف مللهم ونحلهم وأوطانهم منافع الشمس والقمر،

وما جعل الله عز وجل لهما من أثر في حياة الناس ومعايشهم وقد ربطوا بين المد والجزر في البحار وبين ضوء القمر، فسبحان الذي أودع في كل كوكب من هذه الكواكب هذه الطبيعة، واختصه بما اختصه به من المقدار والوضع والشكل والطبع والصفة التي تشهد بأنها من تدبير الحكيم العليم السميع البصير الذي لا يعجزه شيء ولا يفوته شيء، وأنه الإله الحق الذي لا إله غيره ولا معبود بحق سواه، الذي أمسك هذه الكواكب في الفضاء وأجراها في فلكها على هذا النظام البديع ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده، إنه كان حليماً غفوراً﴾.

أما الاستدلال على وحدانية الله عز وجل وبراءته من الأنداد والشركاء بِخَلْقِ الأرض فذلك لأن الله عز وجل هيأها ومهّدها وأقام فيها جميع أسباب العيش للإنسان في جميع أعصاره وأمصاره وأقطاره، وأرساها بالجبال الشواحق التي جعلها خزائن لخيرات يتتفع بها الإنسان من المعادن الجامدة والسائلة، وما أنبت في الأرض من النباتات التي يعيش بها الإنسان وما يحتاجه من الحيوان وغيره، وهذه الأرض مع اتساع رقعتها وتباين تضاريسها كأنها قطعة واحدة خلقت لإنسان واحد ومع ذلك يعيش عليها «بلايين» البشر ويجدون حوائجهم فيها وقد هيأ لهم مع أغذيتهم فيها أدويتهم وأكسيتهم، وقد لفت الله تبارك وتعالى انتباه الناس إلى أدلة ألوهيته وربوبيته وأنه لا إله غيره ولا رب سواه بما يبصرونه في الأرض حيث يقول : ﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يُسقى بماء واحد ونفّضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ فمهما شرقت أو غربت أو اتجهت شمالاً أو جنوباً فستجد الشواهد الظاهرة المعلنّة أن الأرض صنع الحكيم العليم الذي لا شريك له ولا رب سواه، والنوع الثاني من أدلة التوحيد التي اشتملت عليها

هذه الآية الكريمة هو اختلاف الليل والنهار ومعنى اختلاف الليل والنهار هو تعاقبهما ومجيء كل واحد منهما خلف الآخر من أول الدنيا وإلى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها مع اختلافهما في الطول والقصر والنور والظلمة والزيادة والنقصان بحسب الأزمنة، كما أنهما يختلفان بحسب الأمكنة. قال الفخر الرازي رحمه الله في تفسيره: فكل ساعة عينتها فتلك الساعة في موضع من الأرض صبح وفي موضع آخر ظهر وفي موضع ثالث عصر وفي رابع مغرب وفي خامس عشاء وهلم جرا، هذا إذا اعتبرنا البلاد المختلفة في الطول، أما البلاد المختلفة في العرض فكل بلد يكون عرضه الشمالي أكثر كانت أيامه الصيفية أطول ولياليه الصيفية أقصر، وأيامه الشتوية بالضد من ذلك فهذه الأحوال المختلفة في الأيام والليالي بحسب اختلاف أطوال البلدان وعرضها أمرٌ مختلف عجيب، ولقد ذكر الله تعالى أمر الليل والنهار في كتابه في عدة مواضع فقال في بيان كونه مالك الملك: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ وقال في القصص: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَضِيَاءٌ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تَبْصُرُونَ * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وفي الروم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ﴾ وفي لقمان: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ وفي الملائكة: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ وفي يس: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمُ الْمُظْلَمُونَ﴾ وفي الزمر: ﴿يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ

وسخّر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ﴿ وفي حم غافر: ﴿ الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً ﴿ وفي عم: ﴿ وجعلنا الليل لباساً * وجعلنا النهار معاشاً ﴿ والآيات من هذا الجنس كثيرة وتحقيق الكلام أن يقال: إن اختلاف أحوال الليل والنهار يدل على الصانع من وجوه: الأول، أن اختلاف أحوال الليل والنهار مرتبط بحركات الشمس وهي من الآيات العظام، الثاني ما يحصل بسبب طول الأيام تارة وطول الليالي أخرى من اختلاف الفصول وهو الربيع والصيف والخريف والشتاء وهو من الآيات العظام، الثالث أن انتظام أحوال العباد بسبب طلب الكسب والمعيشة في الأيام وطلب النوم والراحة في الليالي من الآيات العظام، الرابع أن كون الليل والنهار متعاونين على تحصيل مصالح الخلق مع ما بينهما من التضاد والتنافي من الآيات العظام؛ فإن مقتضى التضاد بين الشيئين أن يتفاسدا لا أن يتعاونوا على تحصيل المصالح، الخامس أن إقبال الخلق في أول الليل على النوم يشبه موت الخلائق أولاً عند النفخة الأولى في الصور ويقظتهم عند طلوع الشمس شبيهة بعود الحياة إليهم عند النفخة الثانية، وهذا أيضاً من الآيات العظام المنتبهة على الآيات العظام، السادس أن انشقاق ظلمة الليل بظهور الصبح المستطيل، فيه من الآيات العظام، كأنه جدول ماء صاف يسيل في بحر كدرٍ بحيث لا يتكدر الصافي بالكدر ولا الكدر بالصافي، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿ فالق الإصباح وجعل الليل سكناً ﴿، السابع أن تقدير الليل والنهار بالمقدار المعتدل الموافق للمصالح من الآيات العظام كما بينا أن في الموضع الذي يكون القطب على سمت الرأس تكون السنة ستة أشهر فيها نهاراً وستة أشهر ليلاً وهناك لا يتم النضج ولا يصلح المسكن لحيوان ولا يتهياً فيه شيء من أسباب المعيشة. اهـ ولا شك أن ما ذكره الفخر الرازي رحمه الله مع عظيم فائدته، وما لفت به انتباه الناس إلى بعض أسرار الكون في

اختلاف الليل والنهار إلا أن صفحات هذا السفر الإلهي من آيات الله في اختلاف الليل والنهار لا تستطيع الوفاء بها السطور الكثار ولا آلاف الأسفار فلله في الليل والنهار آيات لا يحصيها العد ولا يحيط بها أحد غير الخالق العظيم الذي أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً. وأما النوع الثالث من أدلة التوحيد التي اشتملت عليها هذه الآية العظيمة فهو ما ذكره الله عز وجل بقوله: ﴿وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ﴾ والفلك بضم الفاء يستعمل مفرداً بمعنى السفينة ويستعمل جمعاً بمعنى السفن فإذا أريد به المفرد كان مذكراً كقوله تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ وإذا أريد به الجمع كان مؤنثاً كقوله عز وجل: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَكِ وَجَرِينَ بِهِمْ﴾ ويعرف الفرق بين المفرد والجمع بالسياق، وضمة الفاء في المفرد كضمة القاف من قفل، أما ضمة الفاء في الجمع فهي كضمة الحاء في حمر. أما الْفَلَكَ بفتح الفاء واللام فهو مدار النجوم وهو موج مكفوف تجري فيه الشمس والقمر والنجوم، والمراد بالبحر في قوله عز وجل: ﴿وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ هو المياه الواسعة الغزيرة كالمحيطات والأنهار الكبار، وقوله عز وجل: ﴿بِمَا يَنْفَع النَّاسَ﴾ أي بما يعود على بني آدم بالمنافع العظيمة والمصالح الكثيرة من التجارة والتنقل بين القارات، ووجه الاستدلال على وحدانية الله عز وجل بجريان الفلك في البحر بما ينفع الناس، أنك لو ألقيت مسباراً في البحر غاص إلى أعماقه وقد علّم الله عز وجل نوحاً عليه السلام أن يصنع الفلك ليركب فيه هو والمؤمنون وأن يحمل معه من كل زوجين اثنين فصار نوح عليه السلام يهيم المسامير العظام والأخشاب، وبدأ يصنع السفينة ولم يكن أحد قد عرفها قبل ذلك فسخر منه المشركون ولما أرسل الله الطوفان نجى نوحاً والذين آمنوا معه، وكانت تجري بهم في موج كالجبال وهي مصنوعة من الخشب والمسامير على حد قوله تبارك

وتعالى : ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾
والدُّسُر جمع دِسَار وهو المسار، فصارت السفن الشبيهة بالجبال تمشي على
متن الماء ويرسل الله عز وجل الرياح فتدفعها فوق الماء وتسوقها، كما قال عز
وجل : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ أي ومن دلائل ألوهيته
وربوبيته وقدرته هذه السفن التي تجري في البحر كأنها جبال، وكما قال عز
وجل : ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ ومن المعلوم أن الله عز
وجل خص كل قطر من أقطار الدنيا المتباعدة بمزايا وأشياء معينة لا توجد
في القطر الآخر وكان الناس في كل بلد قد يحتاجون إلى ما في البلد الآخر وقد
يفصل بينهم وبين الجهات التي يحتاجون إلى حاصلاتها البحار الشاسعة
والمحيطات العظيمة كالمحيط الهادي والمحيط الأطلسي والبحر الأبيض
والبحر الأحمر والمحيط الهندي وغيرها وكان لا سبيل إلى الوصول إليها إلا
بهذه السفن التي أرشدهم الله عز وجل إليها، مع ما في البحار من المنافع
العظيمة كما قال عز وجل : ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٍ سَائِغٌ
شْرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمَنْ كُلَّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حُلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا
وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَاقِرٌ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ . وكما قال عز
وجل : ﴿يَخْرِجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ﴾ أما الدليل الرابع فهو ما أنزل الله من
السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وقد ساق الله تبارك وتعالى هذا
الدليل العظيم في مواضع من كتابه للاستدلال على وحدانيته وقدرته على
بعث الموتى وأشار إلى أنه يرسل الرياح فتثير سحابا وأنه يسوق الماء إلى الأرض
الجُرْز وهي الميئة المرتفعة كرهوس الجبال فينزل عليها هذا الماء فيحييها بعد
موتها، والناس يبصرون السحابة فوق رؤوسهم تحمل «ملايين» الأطنان من
الماء ثم ينزله الله بقدر كما قال عز وجل : ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ
الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ وكما قال عز

وجل : ﴿والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشربا به بلدة ميثًا كذلك تخرجون﴾ وقد جعل الله عز وجل من الماء كل شيء حي . وأما الدليل الخامس فهو ما نشر الله عز وجل في الأرض من أصناف الدواب والحيوانات من كل زوجين اثنين لعلكم تذكرون . وأما الدليل السادس فهو تصريح الرياح وهو تقليبها فتارة تكون شمالية وتارة تكون جنوبية وتارة تكون شرقية وتارة تكون غربية وأحيانا تكون بين مهيين من هذه المهاب فبالشرقية تسمى الصبا وهي التي نصر بها رسول الله ﷺ وتهب من مطلع الشمس عند استواء الليل والنهار، وتسمى القبول أيضا والغربية تسمى الدبور وهي التي أهلك الله بها عادًا، والشمال وهي التي تهب من ناحية القطب الشمالي والجنوب وهي التي تقابلها وما بين هذه المهاب تسمى النكباء وقد صرّفها الله كذلك حيث تجمي حارة وباردة ورخاء وعاصفة، وقد تأتي مبشرات كما تأتي مهلكات ولا شك أن الماء والهواء آيتان ظاهرتان في الدلالة على الحكيم الخبير، ولو حبس الهواء عن الإنسان لحظات لمات، كما أنه لا يستغني عن الماء أبدا ولذلك لم يجعل الله عز وجل لأحد سلطانا على الهواء سواه تعالى وقد جعله الله لطيفا يتخلل الأشياء الدقيقة فضلا منه وإحسانا . أما الدليل السابع فهو السحاب المسخر بين السماء والأرض وتسخير هو تحريكه حيث شاء الله عز وجل ، ولما كان طبع الماء ثقيلا يقتضي النزول كان بقاءه في الجو من الآيات البينات .

قال تعالى : ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ، ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أنّ القوّة لله جميعا وأنّ الله شديد العذاب ﴾ إذ تبرّأ الذين اتّبعوا من الذين اتّبعوا ورأوا العذاب وتقطّعت بهم الأسباب ﴾ وقال الذين اتّبعوا لو أنّ لنا كرة فنتبرّأ منهم كما تبرّأوا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار. ﴿

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى الآية السابقة التي وصفتها بأنها تضمنت كتاب الكون الذي لا تنتهي صفحاته الشاهدة بأن الله ربّ كل شيء وسيده ومليكه ، وقد ذيلها بقوله عز وجلّ : ﴿لآيات لقوم يعقلون﴾ . مما يؤكد أنّ من لم ينتفع بهذه الأدلة الكونية المشاهدة في جميع مشارق الأرض ومغاربها أنه لا عقل له حتى ولو كان في نظر الناس من أذكى الخلق وأعقلهم ، لأنّ العقل الذي لا يعقل صاحبه من إلقاء نفسه في النار، ولا يحجزه عن غيّه وضلاله فهو عقل بهيمي ينحطّ عن كثير من الحيوانات العجماوات التي تعرف ما يضرها فتجتنبه وتعرف ما ينفعها فتقبل عليه ولذلك وصف الله تبارك وتعالى هؤلاء الغواة بأنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلا حيث يقول : ﴿ولقد ذرأنا لجهنّم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون﴾ . وكما قال عز وجلّ : ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾ وقد ضرب الله تبارك وتعالى في هذا المقام الكريم من سورة البقرة مثلا من أمثلة انحراف بعض الناس عن صراط الله المستقيم وتعلقهم بأنداد وشركاء الله عز وجل حتى صاروا يحبونهم حبا يعادل حبّهم لله رب السموات والأرض مع أنّ العاقل لا

يرضى أبداً أن يساوي في حبه بين من أوجده من العدم، ومنحه كل النعم
وبين مخلوق ضعيف لا يملك له نفعاً، ولا يدفع عنه ضرراً، ولا شك أن
الإنسان السوي يعرف لذي النعمة نعمته، والإنسان أسير الإحسان كما قال
الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهمو فطالما استعبد الإنسان إحسان
فكيف يليق بعادل أن يعادل في حبه الله الحي القيوم ذي الجلال والإكرام
أحداً من الخلق مهما كان ونحن نعلم علم اليقين أن محمداً رسول الله ﷺ قد
جعل الله سبباً لمنافع لنا في ديننا ودنيانا لا تحصى وأنه أفضل خلق الله وأكرم
عباد الله وأعظم البشر نفعاً للبشر بل حتى للحيوانات العجماوات التي كان
يوصي بالإحسان إليها ﷺ ومع ذلك كله لا يجوز أبداً أن نجعل حبه في
قلوبنا كحبنا لله عز وجل الذي تفضل علينا به، كما أننا نحب أبا بكر وعمر
وعثمان وعلياً وسائر أصحاب رسول الله ﷺ ونحب أنفسنا وأبناءنا وبلادنا
ومع ذلك لا يجوز أن نساوي بين حبنا لرسول الله ﷺ وحب أحد من هؤلاء
الذين نحبتهم وقد نفديهم بأنفسنا ولذلك لما ذكر عمر رضي الله عنه لرسول
الله ﷺ أنه يحبه أكثر من كل شيء إلا من نفسه فأخبره رسول الله ﷺ أنه لن
يؤمن حتى يحب رسول الله ﷺ أكثر من حبه لنفسه فقد روى البخاري في
صحيحه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ:
لأنت يا رسول الله أحب إليّ من كل شيء إلا نفسي فقال: «والذي نفسي بيده
حتى أكون أحب إليك من نفسك»، فقال له عمر رضي الله عنه: فإنك الآن
والله أحب إليّ من نفسي، فقال: «الآن يا عمر». وقد روى البخاري ومسلم
من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى
أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»، كما روى البخاري ومسلم
من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث من كنّ فيه

وجد حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار . ولا شك أن حب العبد لربه يجب أن يكون فوق حبه للنبي ﷺ وفوق حبه لأصحاب رسول الله ﷺ وفوق حبه لنفسه ولولده ووالده والناس أجمعين ، على أن محبة العبد لربه ليست في معنى محبة العبد لغير الله فإن المحبة التي يستحقها الله عز وجل هي محبة العبودية المستلزمة للذل والخضوع والتعظيم وكمال الطاعة وإيثاره على غيره ، فمن سوى فيها بين الله وبين أحد من خلقه فقد اتخذ نداء الله ومن جعل شيئا من هذه المحبة بهذا المعنى لغير الله فقد أشرك بالله ، محبوب المؤمنين الذي يحبونه ويخافونه ، وإذا تحققت محبة الله في قلب العبد أشرقت فيه أنوار السعادة ، وإذا ذكر الله خاليا فاضت عيناه ، فانتظم في سلك السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله . وقوله عز وجل : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا ﴾ أي وبعض الناس يجعل الله عز وجل أمثالا ونظراء وشركاء فيرتكبون بذلك أعظم الجرائم وأكبر الكبائر كما جاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » . وقوله عز وجل : ﴿ يحبونهم كحب الله ﴾ أي يساوونهم بالله في المحبة والتعظيم ، ولذلك يندمون يوم القيامة على ذلك أشد الندم فيقولون لأننادهم وهم في جهنم : ﴿ تالله إن كُنا لفي ضلال مبين ﴾ إذ نسويكم برب العالمين ﴿ وقوله عز وجل : ﴿ والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ أي والذين آمنوا قد أخلصوا المحبة لله ولم يشركوا به فيها أحدا ولم يذهب منها شيء لغير الله بخلاف هؤلاء المشركين الذين يفرقون ويعثرون هذه المحبة بين الله وبين خلقه ، ولذلك كانت محبة المؤمنين لله أشد من محبة المشركين لله لأن محبة المؤمنين خالصة ومحبة المشركين مشتركة ولا شك أن المحبة الخالصة أشد

من المحبة المشتركة ، ولذلك حَمَلَتْ هذه المحبة الخالصة امرأة فرعون رضي الله عنها على طلب القرب من الله في جنات النعيم حيث قالت : ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ وقد جعلها الله عز وجل قدوة ومثلاً لكل مؤمن إلى يوم القيامة حيث قال عز وجل : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ وحذّر الله عز وجل المؤمنين أن يكون آبائهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو أزواجهم أو عشيرتهم أو أموالهم أو تجارتهم أو مساكنهم أحب إليهم من الله ورسوله حيث يقول عز وجل : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ ولا شك أن محبة رسول الله ﷺ الواردة في هذه الآية الكريمة ليست بمعنى المحبة الواجبة لله عز وجل على عبده ، وقد جعل الله عز وجل علامة محبة الله تبارك وتعالى أن يطيع العبد رسول الله ﷺ حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ قل أطيعوا الله والرسول فإن تولَّوْا فإن الله لا يحب الكافرين ﴿ فمحبة العبد لله عز وجل خاصة به وهي محبة العابد للمعبود ولذلك كان صرف شيء منها لغير الله من مَلِكٍ أو نَبِيٍّ أو غيرهما شركاً أكبر يخرج من الملة ويصير صاحبه به مرتداً عن الإسلام لو كان قد أسلم ، وقد أنكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مرات كثيرة تفسير من فسّر قوله تبارك وتعالى : ﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ أي كحُبِّ المؤمنين لله وبين أنه متناقض حيث قال رحمه الله : هذا يناقض أن يكون المؤمنون أشدَّ حبّاً لله من المشركين لأربابهم فتبين ضعف هذا القول وثبت أن المؤمنين يحبون الله أكثر من محبة المشركين لله ولآلهتهم ، لأن أولئك أشركوا في

المحبة والمؤمنون أخلصوها كلّها لله . وقال أيضا : والمقصود أن الشيء إذا انقسم ووقعت فيه الشركة نقص ما يحصل لكل واحد ، فإذا كان جميعه لواحد كان أكمل ، فلهذا كان حبّ المؤمنين الموحّدين المخلصين له أكمل ، وقال أيضا : فمن أحبّ مخلوقا مثل ما يحبّ الله فهو مشرك ، ويجب الفرق بين الحبّ في الله والحب مع الله . اهـ . وقوله عز وجل : ﴿ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أنّ القوة لله جميعا وأنّ الله شديد العذاب﴾ أي ولو يعاين هؤلاء الذين أشركوا مع الله غيره في المحبة ما أعدّ الله لهم من العذاب والعقوبة في نار جهنم لما أشركوا معه غيره لأنهم لو عاينوا ذلك لعلموا أن القهر والسلطان والحكم لله وحده ، وأن هؤلاء الأنداد لا يملكون لهم نفعا ولا يدفعون عنهم ضرا بل يتبرأ بعضهم من بعض يوم القيامة ويلعن بعضهم بعضا ولذلك قال بعدها : ﴿إذ تبرأ الذين اتّبَعوا من الذي اتّبَعوا ورأوا العذاب وتقطّعت بهم الأسباب﴾ أي إذ تنصل المتبوعون من أتباعهم وأنكروا إضلالهم ، وقد عاينوا عذاب الله ، وانقطعت بهم الحيل والحبال ، ولا شك أن بعض المعبودين لم يرض بأن يعبد من دون الله كالملائكة والمسيح ابن مريم ، أما من كان قد رضي من هؤلاء المتبوعين بأن يعبد من دون الله واستساغ أن يكون طاغوتا ، فهو مع عابديه حصب جهنم ، كما قال عز وجل : ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾ ثم قال : ﴿إن الذين سبقتم مننا الحسنی أولئك عنها مبعدون﴾ وقد ذكر الله عز وجل صورا من تبرؤ المعبودين من عابديهم يوم القيامة ، حيث تبرأت الملائكة من عابديهم كما قال عز وجل : ﴿تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون﴾ أي إنما كانوا يعبدون أهواءهم ، وقال : ﴿سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون﴾ وقال عز وجل في تبرؤ الشيطان من أتباعه : ﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر إنّ الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم

وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمُضِرِّكُمْ وما أنتم بمُضِرِّخِي إني كفرت بما أشركتمون من قبل ، إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴿١٠﴾ . وقوله عز وجل : ﴿١١﴾ وقال البذين اتبعوا لو أن لنا كرة ففتبراً منهم كما تبراء منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴿١٢﴾ أي وقال التابعون : يا ليت لنا رجعة إلى الحياة الدنيا لتتبرأ من هؤلاء المتبوعين كما تبراء منا ، حيث علموا أنه لا ينفع الظالمين معذرتهم في الآخرة وأن الدنيا هي دار العمل وقد أخبر الله عز وجل عن أمثال هؤلاء أنهم لو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ، وكما أراهم شدة عذابه أراهم أعمالهم حسرات وندامات وهم خالدون مخلّدون في نار جهنم . نعوذ بالله من خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ * إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ .

هذا هو النداء الثاني للإنسانية كلها في كتاب الله عز وجل ، وكان النداء الأول لهم حيث أمرهم بأن يعبدوا الله وحده الذي خلقهم وخلق الذين من قبلهم من الملائكة والجن وغيرهما ، الذي جعل لهم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لهم ، وفي هذا النداء الثاني لهم يأمرهم بالانتفاع بالحلال الطيب الذي أوجده لهم في الأرض ، وأن يلتزموا حدود الله فيه ، فلا يقربوا شيئا مما حرمه الله عليهم منه ، وأشعرهم بأن الشيطان يحرص على تزيين المحرمات لهم ، ويدعوهم إلى السوء والفحشاء وأن يفتروا على الله ما لا علم لهم به بسبب عداوة الشيطان لهم ، وقد عرفت عداوته الظاهرة لأبيهم آدم عليه السلام ، وقد أمر الله تبارك وتعالى الناس في هذا المقام بأن يأكلوا مما في الأرض حلالا طيبا حيث يقول : ﴿ يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ﴾ والأمر هنا يشمل الوجوب والندب والإباحة فقد يكون الأكل واجبا على الإنسان وذلك إذا كان لا غنى له عنه لقيام بنيته ، وقد يكون الأكل مندوبا ومستحبا إذا كان مع ضيف ونحوه ، وقد يكون مباحا وهو ما سوى الواجب والمندوب مما أباحه الله عز وجل للإنسان ، وفي توجيه الخطاب للناس بالأكل مما في الأرض ليلفت انتباههم إلى جليل نعمه عليهم ، وكما أنه قد تقرر في الآيتين السابقتين أنه لا إله إلا الله وأنه وحده له الخلق فإنه يقرر هنا أنه وحده له الأمر فلا يجوز لأحد أن يحلل شيئا أو يحرم شيئا من تلقاء نفسه وإنما الذي يحلل ويحرم هو رب العالمين ، الذي يعلم الطيب من الطعام أو غيره فيحلّه ويعلم الخبيث من الطعام أو

غيره فيحرمه ، والحلال هو المأذون في تناوله شرعا وضده الحرام وهو الممنوع من تناوله شرعا ، والأصل في المأكولات الحلّ ، فما لم يرد تحريمه من الشرع فهو مباح بالإذن العام وهو قوله عز وجل هنا : ﴿كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ والتقييد هنا بالحلال الطيب التحذير من الحرام الخبيث ، وكلّ ما علّم ضرره على الإنسان فهو حرام كما أن كلّ ما علّم خبثه فهو حرام كذلك ، ولذلك جاء في القاعدة العامة التي بعث الله بها رسوله محمدا ﷺ أنه يحلّ الطيبات ويحرم الخبائث كما قال عز وجل : ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ وقوله عز وجل : ﴿طَيِّبًا﴾ أي مستطابا في نفسه غير ضار للأبدان ولا للعقول ، ولا يشترط في الطيب أن يكون مُسْتَلَذًا فإن الإنسان قد يلعق الصبر وهو لا لذة فيه لكنه طيب كثير المنافع و(مِنْ) في قوله عز وجل : ﴿مِمَّا فِي الْأَرْضِ﴾ للإشعار بجليل عطائه وكثرة البركات التي وضعها الله عز وجل في الأرض وأنهم لن يأكلوا إلا بعض ما أخرجهم الله عز وجل لهم من الأرض كما أشار الله عز وجل إلى ذلك بقوله في خلق الأرض في سورة فصلت : ﴿وَبَارِكْ فِيهَا وَقَدَّرْ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ وما يصيب بعض الناس أحيانا من الجوع فهو بسبب ذنوبهم ، أو لرفع درجاتهم ، وقد حرص الشيطان على صرف الإنسان عن طريق الرشد فزين له الخبائث والمحرمات ، كما زين لبعض الناس تحريم ما أحل الله فصار بعضهم كبني عامر بن صعصعة يجرمون على أنفسهم في الحج أن يأكلوا الودك أو يلبسوا شيئا من ملابسهم التي كانوا يلبسونها خارج الحرم ، وكانوا يطوفون بالبيت عراة ، الرجال والنساء ، إذا لم يجدوا شيئا من الملابس من أهل الحرم كما روى مسلم في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : كانت المرأة تطوف

بالبيت وهي عريانة فتقول : من يعيرني تطوفا تجعله على فرجها وتقول :
 اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدا منه فلا أحله
 فنزلت هذه الآية : ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ اهـ . كما كانت
 العرب تحرم بعض الأنعام من الإبل والبقر والغنم وتجعلها لأصنامها ، وكان
 الشيطان قد لعب بهم في ذلك كله حتى حرّموا ما أحل الله وأحلوا ما حرم الله
 ولذلك روى مسلم في صحيحه من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه عن
 رسول الله ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى : إنّ كلّ مال منحتة عبادي فهو لهم
 حلال » - وفي هذا الحديث - : « وإني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم
 الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرّمت عليهم ما أحللت لهم » . وقد نذّر
 الله تبارك وتعالى بمن حرّم ما أحله الله أو أحل ما حرّمه الله حيث يقول :
 ﴿ وقالوا هذه أنعام وحرث حِجْرٌ لا يَطْعُمُهَا إلا من نشاء بزعمهم وأنعام
 حرّمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بها
 كانوا يفترون ﴾ وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرّم على
 أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم ، إنه حكيم عليم *
 قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفّها بغير علم وحرّموا ما رزقهم الله افتراء على
 الله ، قد ضلّوا وما كانوا مهتدين ﴿ ووبّخ الذين كانوا يطوفون بالبيت عراة
 ويحرمون بعض الطيبات من الرزق ، وعرفهم أنهم منقادون في هذا لإبليس
 عدوهم وعدو أبيهم آدم عليه السلام وفي ذلك يقول : ﴿ يا بني آدم لا
 يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما
 سوءاتهما ، إنه يراكم هو وقييله من حيث لا ترونهم ، إنا جعلنا الشياطين أولياء
 للذين لا يؤمنون ﴾ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ،
 قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون * قل أمر ربي
 بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين ، كما

بدأكم تعودون* فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة ، إنهم اتخذوا
 الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون* يا بني آدم خذوا
 زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين* قل
 من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين
 آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون
 * قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق
 وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون* وفي
 هذا المقام الكريم من سورة البقرة يوصي الناس بالأكل من الطيب الحلال
 ويحذرهم من عدوهم إبليس الذي يعمل على صدهم عن سبيل الله بتحريم
 الحلال وتحليل الحرام فيقول : ﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو
 مبين ﴾ أي ولا تستجيبوا له ولا تنقادوا إليه فيما يدعوكم إليه من معصية الله
 ومخالفة أمره ، ولا تغتروا بما يزينه لكم من الفحشاء والمنكر ولا تغفوا أثره فإنه
 لا يجر إلا إلى النار ، فمن كان له عقل فإنه لا يمشي وراء العدو الذي أظهر
 العداوة للجنس البشري من لدن آدم ، وتعهد بإفساد ذرية آدم وأنه سيأتيهم
 من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيائهم وعن شمائلهم ، وأنه سيزين لهم في
 الأرض ويغويهم ، وقد أكد الله تبارك وتعالى هذا المعنى وحذر من اتباع
 خطوات الشيطان العدو المبين وهي حبائله وخطراته ووساوسه وتزييناته
 وأعماله في مواضع كثيرة من كتابه الكريم حيث قال في سورة البقرة أيضا :
 ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ،
 والله واسع عليم ﴾ . وقال في سورة النساء : ﴿ ويريد الشيطان أن يضلهم
 ضلالا بعيدا ﴾ . وقال في سورة المائدة : ﴿ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم
 العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل
 أنتم متتهون ﴾ . وقال في سورة النور : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات

الشیطان ، ومن يتبع خطوات الشیطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنکر ﴿ وقال في سورة القصص : ﴿ إنه عدو مضلّ مبين ﴾ وقال في سورة فاطر : ﴿ إن الشیطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ وقد أكد هذا التحذیر كذلك في هذا المقام حيث يقول : ﴿ إنما يأمرکم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ أي إنما يحضّکم الشیطان ويطلب منكم ارتکاب المعاصي التي تجلب لكم ما یسوءکم في الدنيا والآخرة ، وتوقعکم في الحزن الذي ینبغي للعاقل أن لا یوقع نفسه فيه من عقوبة الله وسخطه وغضبه كما يحضّکم على ارتکاب الفحشاء ، وعلى أن تفتروا على الله الکذب ، وقد ساقها الله تبارک وتعالی بطریق التأكيد بـ «إنما» لإعلامهم أن الشیطان لا يأمر بخیر أبدا ، وأصل السوء هو ما یعود على صاحبه بما یسوء وجهه ویصیبه بالهم والحزن والضرر والمراد به المعاصي والسيئات التي تضر مرتکبها ، والفحشاء هي المستبشع من کبائر المعاصي والجرائم والسيئات كالزنا ومنع الزکاة وشرب الخمر وأکل الربا وسائر الموبقات ، وعطف الفحشاء على السوء من عطف الخاص على العام ، وقد أشرت في تفسیر قوله تعالی : ﴿ من کان عدواً لله وملائکته ورسله وجبریل ومیکال ﴾ إلى أن عطف الخاص على العام إنما یكون لمزیة في الخاص حيث یفید الاهتمام به ، وقد جاء في کتاب الله تعالی عطف الخاص على العام وعطف العام على الخاص کثیرا کقوله تعالی : ﴿ وینهی عن الفحشاء والمنکر والبغی ﴾ وقوله : ﴿ ومن يتبع خطوات الشیطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنکر ﴾ وقوله تعالی : ﴿ فیهما فاکهة ونخل ورمان ﴾ ، وکقوله عز وجل : ﴿ قل إنما حرّم ربّی الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغی بغير الحق ﴾ الآية . وقوله عز وجل : ﴿ وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ أي وأن تفتروا على الله الکذب جهلا وسفاهة وضلالة . وقد أشار رسول الله ﷺ إلى طریق

الحذر من اتباع خطوات الشيطان بأن الله جعل لكل إنسان قرينا من الملائكة وقرينا من الشياطين، وأن الخواطر الرحمانية الحاضرة على الخير هي خواطر ملكية وأن الخواطر الباعثة على الشر هي خواطر شيطانية، فعلى العاقل الحريص على سعادة نفسه في العاجلة والآجلة أن يتبع داعي الخير وأن يعصي داعي الشر، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة»، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وإياي، ولكن الله أعاني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير»، وقال الترمذي حدثنا هنادنا أبو الأحوص عن عطاء بن السائب عن مرة الهمداني عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة فأما لمة الشيطان فيإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فيإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم». ثم قرأ ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾ الآية. هذا حديث حسن صحيح غريب.

قال تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً، صم بكم عمي فهم لا يعقلون* يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون* إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطرّ غير باغٍ ولا عاد فلا إثم عليه ، إن الله غفور رحيم* .

بعد أن ذكر الله عز وجل في الآية الخامسة والستين بعد المائة ما يفيد أن بعض الناس يتخذ من دون الله أندادا، وأشار في الآية الثامنة والستين بعد المائة وفي الآية التاسعة والستين بعد المائة إلى أن بعض الناس أحلوا ما حرم الله وحرموا ما أحل الله مما شرحت في تفسير هاتين الآيتين الكريمتين ذكر الله عز وجل هنا في هذا المقام الكريم أن هؤلاء الكفار لا يتبعون في شركهم بالله أو تحريمهم ما أحل الله أو تحليلهم ما حرم الله دليلا يستدلون به أو برهانا يبنون عليه دينهم سوى التقليد الأعمى لأبائهم الجاهلين الضالين، وأنهم لا يلتفتون لدعاة الهدى مهما جاءوا بالبينات، لأن حجاب هذا التقليد الأعمى يحول بينهم وبين قبول الحق مهما اتضحت براهينه وسطعت حُجُجُهُ، فقال عز وجل : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي وإذا قال لهم رسول الله ﷺ أو قال لهم أحد الهداة المهديين من دعاة الحق : اتبعوا القرآن والهدى الذي أنزله الله على رسوله محمد ﷺ ودعوا هذه الأصنام والأنداد ولا تحلوا إلا ما أحل الله ولا تحرموا إلا ما حرم الله . وقوله عز وجل : ﴿قَالُوا: بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أي أجابوا دعاة الهدى بأنهم لن يتبعوا ما جاء به الرسول ﷺ وإنما يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم، فوبخهم رب العزة جل وعلا على هذا السلوك المزري المستغرق في الضلال حيث قال : ﴿أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا

يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴿ أي أيقنفون آثار آبائهم ويقلّدونهم هذا التقليد دون أدنى تبصر لمعرفة منزلة آبائهم في الوعي والإدراك حتى ولو كان هؤلاء الآباء أجهل من دوابهم التي يركبونها ويحملون عليها متاعهم وحتى لو كانوا صما بكما عميا لا يهتدون سبيلا ، فالعاقل إنما يقلّد آباءه لو كانوا معروفين بالهدى والرشاد ، كما ذكر يوسف الصديق عليه السلام لصاحبِ السجن حيث قال : ﴿ واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴾ فإن مثل هؤلاء الأئمة العظماء حقيق أن يُتَّبَعُوا ، أما الآباء الجهلة الذين لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون لصواب فإن من يقلّدهم لا يقل جهالة عن البيغاء التي تحكي الصوت الذي تسمعه وهي لا تعي منه شيئاً ، وقد ندّد الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم بمن يردّ الهدى الذي يجيء به المرسلون مستمسكا بتقليد آبائه الجاهلين حيث يقول في سورة المائدة : ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون ﴾ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا : حَسْبُنَا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ﴾ . وقال تبارك وتعالى في سورة لقمان : ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، أولئكَ كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾ . وقال عز وجل في سورة الزخرف : ﴿ أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون ﴾ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ قال أولئكَ جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذّبين ﴾ . وقوله عز وجل : ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً ، صم بكم عمي فهم لا يعقلون ﴾ هذا مثل شبه الله عز

وجل فيه واعظ الكفار وداعيتهم إلى اتباع ما أنزل الله بالراعي الذي ينق أي يصوت بالإبل أو بالغنم أو البقر التي يرعاها فلا تسمع إلا دعاءه ونداءه ولا تفهم ما يقول ، كأنه قيل : مثلك يا محمد أو يا داعي الحق ومثل الذين كفروا كمثل الناقع والمنعوق به من البهائم التي لا تفهم ، والنعيق هو زجر الغنم والصياح بها قال الأخطل :

انعق بضأنك يا جرير فإنما منتك نفسك في الخلاء ضلالا
وكما شبه الله تعالى الكفار بالبهائم التي لا تفهم من راعيها عندما ينق بها
إلا سماع صوته بالدعاء والنداء شبههم كذلك بالصم الذين انسدت خروق
مسامعهم فصاروا لا يسمعون ، وبالبكم الذين لا ينطقون ولا يفهمون
وبالعمي الذين لا يبصرون ، ولا شك أن من كان بهذه المثابة من الناس كان
أبعد عن العقل من البهائم وسائر العجماوات . وقوله عز وجل : ﴿يا أيها
الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾ في
هذا المقام الكريم ينادي الله تبارك وتعالى المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ﷺ
ويأمرهم بأن يأكلوا من طيبات رزق الله ويشكروه ، وكان قد نادى الناس في
الآية الثامنة والستين بعد المائة بأن يأكلوا مما في الأرض حلالا طيبا ، فيكون
الأمر بالأكل من الطيبات هنا تأكيداً للأمر بالأكل من الطيبات هناك وإنما
خصّ المؤمنين بالذكر هنا للفت انتباههم إلى الأثر الكبير للأطعمة الطيبة أو
للأطعمة الخبيثة على النفس الإنسانية إذ أن أكل الحلال الطيب من أكبر
العون على طاعة الله وطاعة رسول الله ﷺ وأن اللقمة من الحرام يقذفها
الرجل في جوفه قد تحول بينه وبين قبول دعائه وعمله الصالح دهرًا طويلا
ولذلك حرص أصحاب رسول الله ﷺ على طيب مطاعمهم ، وحذروا أشدّ
الحذر من تناول طعام محرّم أو فيه شبهة ، فقد روى البخاري من حديث
عائشة رضي الله عنها قالت : كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه غلام يخرج

له الخراج ، وكان أبو بكر يأكل من خراجة فجاء يوماً بشيء فأكل منه أبو بكر فقال له الغلام : تدري ما هذا؟ فقال أبو بكر : وما هو؟ فقال : كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية وما أحسن الكهانة إلا أني خدعته ، فلقيني فأعطاني لذلك هذا الذي أكلت منه ، فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شيء في بطنه اهـ وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أثر الحلال الطيب في صلاح القلب فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الحلال بين وإن الحرام بين ، وبينهما مشبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب» ، ففي هذا الحديث العظيم إشارة إلى أن الحلال يؤثر في القلب صلاحاً ، وأن الحرام يؤثر في القلب فساداً ، وأن ترك المشبهات التي يتردد الإنسان بين طيبتها أو خبيثتها فيجتنبها ويتعد عنها مخافة أن تكون خبيثة من أعظم ما يحمي الإنسان من الوقوع في المهالك ، ولذلك ترك رسول الله ﷺ التمرة التي وجدها ملقاة على الأرض فلم يأكلها خشية أن تكون من تمر الصدقة وقد حرّم الله تعالى على أهل بيت النبي ﷺ الصدقات ، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ وجد ثمرة في الطريق فقال : «لولا أني أخاف أن تكون من الصدقة لأكلتها» . وقد نبّه رسول الله ﷺ الناس ولفت انتباههم إلى أن الله تعالى ذكر آيتين في كتابه الكريم يأمر في إحداهما المرسلين بالأكل من الطيبات وأن يعملوا صالحاً ويأمر في الثانية عامة المؤمنين بالأكل من الطيبات وأن يعملوا صالحاً وفي ذلك إشعار بأن العمل الصالح إنما يقبل ممن يقتصر في طعامه على الحلال

الطيب ، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا ، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ : ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ وَقَالَ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ ، أَشْعَثُ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ : يَا رَبِّ يَا رَبِّ ، وَمَطْعَمَهُ حَرَامٌ ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنْتَى يَسْتَجَابُ لَذَلِكَ» . وفي هذا الحديث تهديد بأن الله لا يستجيب دعاء من كان مطعمه حراما أو مشربه حراما أو ملبسه حراما ، أو غذي بالحرام ، وقوله عز وجل : ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي وجدّوا لكل نعمة من نعم الله عز وجل عليكم شكرا له على كل نعمة متجددة فاحمدوه على كل أكلة تأكلونها أو شربة تشربونها وأثنوا على الله بما هو أهله على النعم التي رزقكم وطيبها لكم ، إن كنتم حريصين على تخلص أنفسكم من النار بدوام إخلاص العبادة لله وحده فكلوا مما أباح لكم من الطيبات التي حلّ لها وطيبها لكم ولا تتبعوا خطوات الشيطان الذي يدعوكم لتحريم ما أحل الله لكم . وقوله عز وجل : ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ في هذا بيان لأنواع من المحرمات التي حرمها الله عز وجل وأولها الميتة وهي مات من الحيوان من غير تذكية أي ذبح شرعي وسواء كانت منخقة أو موقوذة أو متردية أو نطيحة أو عدا عليها السبع ، وثانيها الدّم يعني المسفوح السائل بدليل قوله : ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ في آية الأنعام ، وثالثها لحم الخنزير وهو يشمل شحمه ولحمه ، وتخصيص اللحم بالذكر إشارة لمعجزة علمية لا يعرفها العرب إذ قد ثبت بالتشريح للخنزير تداخل شحمه في لحمه مع احتوائه على الدودة الشريطية بنسبة عالية لا توجد في أي نوع من الحيوانات سواه مع قذارته التي تفوق كل أنواع الكلاب ، ورابعها ما ذبح لغير الله عز

وجل ، وأصل الإهلال رفع الصوت بالذكر وكانوا يرفعون أصواتهم بذكر أصنامهم وأوثانهم عند ذبح القرابين لهم ثم صار يستعمل في كل ذبح حتى ولو لم يرفع الذابح صوته ، وقد وصف الله عز وجل لحم الخنزير بأنه رجس ووصف ما ذبح لغير الله بأنه فسق ، وقوله عز وجل : ﴿ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أي فمن أُلْجِئته الضرورة لأكل شيء من هذه المحرمات لبقاء مهجته وإمساك حياته بالقدر الذي يدفع عنه المضرة فلا إثم ولا حرج عليه ما دام غير باغ أي بأن يأكل فوق حاجته الضرورية أو أن يأكلها شهوة وتلذذاً ، وما دام غير عاد بأن يجد مندوحة عن هذه المحرمات ، إن الله غفور رحيم يتجاوز عن معاصي العاصين ولا يؤاخذ عباده بما وقعوا فيه مكرهين مضطرين ، وهذا من كمال الشريعة وشمولها ، وقد أكد الله تبارك وتعالى هذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية في مواضع من كتابه الكريم حيث قال في سورة المائدة : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكَ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فَسْقٌ ﴾ وقال في سورة الأنعام : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجْسٌ أَوْ فَسْقًا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنْ رَبُّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وقال في سورة النحل : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ إنما حُرِّمَ عليكم الميتة والدَّمُ ولحم الخنزير وما أُهْلَ لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم ﴿ وقد نهى رسول الله ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السباع وذي مخلب من الطير ، وأباح ميتة البحر والجراد أما ميتة البحر فلحديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال في البحر : « هو الطَّهْور ماؤه الحَلَّ ميتته » . وقد أخرجه الأربعة وابن أبي شيبة واللفظ له وصححه ابن

خزيمة والترمذي . وأما ميتة الجراد فلحديث ابن أبي أوفى الذي أخرجه البخاري ومسلم قال : غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل معه الجراد . أما ما أخرجه أحمد وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «أحلت لنا ميتتان ودمان فأما الميتتان فالجراد والحيوت وأما الدمان فالكبد والطحال» . فهو حديث ضعيف لأنه من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف .

قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يَكْلَمُهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ * أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة ، فما أصبرهم على النار* ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق ، وإنّ الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد . ﴿

قد ذكرت في تفسير الآية التاسعة والخمسين بعد المائة من هذه السورة المباركة أن الله تبارك وتعالى ذكر في مقامات من هذه السورة أن أهل الكتاب يكتُمون الحق وهم يعرفونه محدّرا من سلوك طريقهم في هذا السبيل ، وأنه حدّر المسلمين في هذه الآية المباركة أعني الآية التاسعة والخمسين بعد المائة أشد التحذير من أن يسلكوا مسلك أهل الكتاب فيكتموا شيئا من العلم والبيّنات والهدى التي بيّنها الله في القرآن وأن من كتم شيئا من ذلك استحق لعنة الله ولعنة اللاعنين من الملائكة والمؤمنين إلا من تاب وأصلح ويّتن ، وقد أكّد الله تبارك وتعالى هنا هذا التحذير مرة أخرى لشدة خطورته وسوء عاقبته فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يَكْلَمُهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقد وصف الله تبارك وتعالى هؤلاء هنا بأنهم يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب وأنهم يشترون به ثمنا قليلا ، ورّتب على هذين الوصفين أربع عقوبات : الأولى أنهم ما يأكلون في بطونهم إلا النار ، والثانية أنهم لا يكلمهم الله يوم القيامة ، والثالثة أن الله لا يزكيهم ، والرابعة قوله : ﴿ولهم عذاب أليم﴾ ولا شك أن كل وعيد في كتاب الله عز وجل بلفظ عام على معصية من المعاصي فإنه يعم جميع مرتكبي هذه المعصية من أي جنس ومن أي لون ولا سيما إذا لم يكن قد ثبت سبب صحيح لنزول الآية أو ورد عن

رسول الله ﷺ تخصيص عمومها بحديث صحيح عن رسول الله ﷺ وحتى لو صحّ خبر عن رسول الله ﷺ أو عن أحد الصحابة في سبب نزول الآية الواردة بلفظ عام ولم يرد عن رسول الله ﷺ تخصيص عمومها فإن القاعدة الأصولية المعتبرة عند أهل العلم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وبهذا يكون الوعيد الوارد في هذه الآية الكريمة شاملاً لأهل الكتاب ولعلماء المسلمين ممن يكتم الحق المبين في كتاب الله أو في سنة رسوله ﷺ ولذلك قال أبو ذر رضي الله عنه في قوله تبارك وتعالى: ﴿والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾ مع أن صدر الآية في ذكر سوء سلوك الأحرار والرهبان لكنه قال رضي الله عنه: هي فينا وفيهم، والذي حمّله رضي الله عنه على ذلك هو عموم اللفظ الوارد فيها فقد روى البخاري في صحيحه من طريق زيد بن وهب قال: مررت على أبي ذر رضي الله عنه بالربذة، فقلت: ما أنزلك بهذه الأرض؟ قال: كنا بالشام، فقرأت: ﴿والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾ قال معاوية: ما هذه فينا، ما هذه إلا في أهل الكتاب، قال: قلت: إنها لفينا وفيهم. اهـ وقوله عز وجل هنا: ﴿ويشترون به ثمناً قليلاً﴾ أي يأخذون ثمنًا تافهاً من حطام الدنيا في مقابلة كتمان الهدى الذي بينه الله في الكتاب، إما رشوة أو محافظة على منصب أو جاه لابقاء له ولا دوام، وليس الوعيد بالعقوبات الأربع الواردة في هذه الآية مشروطاً بهذه المقايضة الخاسرة بل هذا الوعيد ثابت للذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب حتى ولو لم يشتروا شيئاً ولو لم يحصلوا على حطام الدنيا الفانية، فإن المقصود هنا هو تحريم الكتمان وهو الذي سيق الكلام من أجله، أما الصفة الثانية وهي قوله: ﴿ويشترون به ثمناً قليلاً﴾ فهو بيان لخسة البدل الذي أخذوه في نظير الحق العظيم الذي ضيّعوه وكتّموه، فهو تهجين لهم على قبيح فعلهم مع ما

يترتب على معاقبتهم بجعل ما أكلوه نارا في بطونهم . وقوله عز وجل : ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ أي هؤلاء السفهاء الذين يكتمون هدى الله ويشترون به ثمنا قليلا ما يجلبون لأنفسهم إلا أن يملأ الله بطونهم نارا يوم القيامة ، وقال ابن جرير في تفسير هذه الآية : كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾ . معناه ما يأكلون في بطونهم إلا ما يوردهم النار بأكلهم ، فاستغنى بذكر النار وفهم السامعين معنى الكلام عن ذكر ما يوردهم أو يدخلهم . اهـ

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : وفي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ : «إِنَّ الَّذِي يَأْكُلُ أَوْ يَشْرَبُ فِي آتِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ إِنَّمَا يَجْرَحُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ» . اهـ وقوله عز وجل : ﴿وَلَا يَكْلَمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ هذه هي العقوبة الثانية التي توعد الله بها من كتم الهدى ، ولا شك أن أهل السنة والجماعة يشبتون صفة الكلام لله عز وجل على الوجه الذي يليق برب العزة والجلال ، ومن كلامه تبارك وتعالى القرآن الذي سمعه جبريل من الله عز وجل وألقاه على رسول الله محمد ﷺ ، وقد قال الله عز وجل : ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ . وكما أشار الله عز وجل إلى أنه يسلم على المؤمنين في الجنة بكلام يسمعون به فيسعدون به سعادة فوق سعادتهم بنعيم الجنة حيث يقول جل وعلا : ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ﴾ هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون * لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون * سلامٌ قولاً من ربِّ رحيم﴾ وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ

فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك فيقول : هل رضيتم ؟
 فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك ؟
 فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يا رب وأي شيء أفضل من
 ذلك ؟ فيقول : أحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا . اهـ ولما
 كان كلام الله تبارك وتعالى لأهل الجنة كلام تحية ورحمة وتكريم فإنه عز وجل
 يحرم من هذا الكلام أعداءه فلا يكلمهم بما يدخل عليهم سرورا وتكريما ،
 ولذلك كان كلام الله عز وجل لموسى عليه السلام من أعلى درجات التكريم
 حتى وصف موسى عليه السلام بأنه كليم الله كما قال عز وجل : ﴿ تِلْكَ
 الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾
 وكما قال عز وجل : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ ولذلك جاء في حديث
 الشفاعة الذي أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه
 أن رسول الله ﷺ قال : « يأتون موسى فيقولون : يا موسى أنت رسول الله
 اصطفاك الله برسالاته وبتكليمه على الناس ، اشفع لنا إلى ربك » .
 الحديث . وإذا كان كلام الرب جل وعلا تكريما لأوليائه فإنه يحرم منه من
 غضب عليهم ولذلك قال في هذا المقام الكريم في الذين يكتمون الحق الذي
 بيّنه الله في الكتاب ولا يتوبون ولا يبينون ولا يصلحون قال : ﴿ وَلَا يَكَلِّمُهُمُ
 اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ولا شك أن الكلام المنفي هنا هو ما كان لتكريمهم أما ما
 كان لتئيسهم من رحمته ولتوبيخهم على كفرهم به فإنه غير مراد في هذا المقام
 الكريم ، ولما كان يوم القيامة يوما طويلا وفيه مقامات كثيرة فإنه تعرض
 مقامات يوبّخ الله فيها الكافرين ، وتعرض مقامات لا يكلمهم وقد أشار الله
 تبارك وتعالى إلى بعض هذه المقامات حيث يقول : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا
 شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عَدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ :
 اخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ * إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ

لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين * فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري
وكتتم منهم تضحكون * إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون ﴿ أما
العقوبة الثالثة فهي قوله عز وجل : ﴿ ولا يزيهم ﴾ أي لا يثني عليهم ولا
يمدحهم بل يلعنهم ويمقتهم ، أما العقوبة الرابعة فهي ما أعده الله لهم في
نار جهنم بقوله عز وجل : ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ أي ولهم عقاب مؤلم موجه .
وهذه العقوبات قد ذكرها الله عز وجل في سورة آل عمران وأعدها للذين
يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا حيث يقول عز وجل : ﴿ إن الذين
يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا
يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزيهم ولهم عذاب أليم ﴾ وقد
توعد رسول الله ﷺ على بعض المعاصي بهذه العقوبات ، فقد روى مسلم في
صحيحه من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاثة لا
يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزيهم ولهم عذاب أليم » قال :
فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرار ، قال أبو ذر : خابوا وخسروا ، من هم يا
رسول الله ؟ قال : « المسبيل ، والمنان ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب » . وفي
رواية له : « المسبل إزاره وثوبه أسفل من الكعنين للخيلاء » . اهـ وأهل السنة
والجماعة يعتبرون مثل هذه الآية الكريمة وهذا الحديث الشريف إن وردت
على معصية دون الكفر ، من نصوص الوعيد ، فبعضهم يجريها على ظاهرها
تحذيرا وتخويفا كقوله عز وجل في قاتل المؤمن عمدا بغير حق : ﴿ ومن يقتل
مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا
عظيما ﴾ وكقول رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح : « لا يزني الزاني حين
يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر
حين يشربها وهو مؤمن ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه أبصارهم
فيها حين ينتهبها وهو مؤمن » . وبعض أهل العلم يفسرون مثل هذه

النصوص فيقولون في قوله عز وجل في قاتل المؤمن عمدا: ﴿فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما﴾ أي إن جازاه بعدله فعل به ذلك وقد يتفضل عليه بفضله فيعفو عنه لقوله عز وجل: ﴿إن الله لا يغفر أن يُشركَ به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ فجميع المعاصي التي لا يحكم بكفر صاحبها خاضعة لمشيئة الله إن شاء غفر وإن شاء عذب، وإن يعذب فبعده وإن يغفر فبفضله، ويقولون في قول رسول الله ﷺ: «لا يزنى الزاني حين يزنى وهو مؤمن». الحديث. أي وهو كامل الإيمان فإن المعاصي تنقص الإيمان حتى يُخشى ذهابه، وهذا من فضل الله وتوفيقه لأهل السنة والجماعة حيث لم يضربوا بعض النصوص ببعض بخلاف أهل الأهواء المنحرفين عن مذهب أهل السنة والجماعة الذين يكفرون المؤمنين بالذنوب التي دون الشرك، أو يرجئون فيزعمون أنه لا تضر مع الإيمان معصية مهما كانت. عصمنا الله بفضله عن جميع مذاهب أهل الزيغ والأهواء. وقوله عز وجل: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار﴾ أي إن هؤلاء الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا الذين توعدهم الله بالعقوبات الأربع المذكورة قد رضوا بتحصيل الضلالة بدل الهدى والرشاد ورضوا بعذاب الله بدل مغفرته فما أشد صبرهم على نار جهنم، وليس المراد إثبات صبر لهم بل المراد التعجيب من جرأتهم على ارتكاب ما يدخلهم نار جهنم التي لا يصبر أحد على حر نار الدنيا التي خفت كثيرا عن نار جهنم، لكنهم عندما يُدْعَوْنَ في نار جهنم دَعَا ويصرخون ويستغيثون فَيُأْسُونَ من رحمة الله ويقال لهم: ﴿اضلَوْها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ وقوله عز وجل: ﴿ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد﴾ أي ذلك الذي قصصت عليكم حق لا مرية فيه لأن الله نزل القرآن

على محمد ﷺ حقا وصدقا وجميع ما فيه حق وصدق وإن الذين يكفرون به
مختلفون متناقضون واقعون في شقاق وتناقض عميق حيث وصفه بعضهم
بأنه شعر ووصفه بعضهم بأنه سحر ووصفه بعضهم بأنه كهانة ووصف
بعضهم رسول الله ﷺ بأنه مُعَلَّم مجنون ، وقد أطبق الناس على أن المجنون لا
يقبل التعليم .

قال تعالى : ﴿ليس البر أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكنّ البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ .

ما تقدم من أول السورة الكريمة إلى هذا المقام الكريم كان فى أصول الدين ، وبيان اختلاف الناس فيه وتقرير الحنيفية ملة إبراهيم وتأكيد أن محمدا رسول الله ﷺ مبعوث بملة إبراهيم عليه السلام وأن من ادعى أنه يتبع إبراهيم خليل الرحمن ثم يكفر بمحمد عليه الصلاة والسلام هو فى شقاق بعيد شرع هنا يقرر الأحكام الشرعية التفصيلية التى تنظم المجتمع المستمسك بها أحسن تنظيم وتربط بين أفرادها بأوثق رباط فى جميع الشؤون الاجتماعية والجنائية والاقتصادية وأحكام الصيام والحج والقتال وشرب الخمر وأحكام النكاح والطلاق والرضاع والحضانة وعدة المتوفى عنها زوجها وأحكام خطبة النكاح وطلاق المرأة قبل الميسيس وماذا يجب لها حينئذ مع بيان أحوالها ، والتأكيد على المحافظة على الصلوات الخمس فى السلم والحرب ، إلى غير ذلك من الأحكام التى تقيم المجتمع المثالى المشرق المستنير ، مما لم يخطر على بال أفلاطون وغيره من الفلاسفة أن يفكروا فى أن يروا ظلاً لمثل هذا المجتمع المتمدّن الراقي ، ولست بمقارن بين تعاليم الإسلام وتعاليم أفلاطون وأرسطو وغيرهما من فلاسفة الإغريق وغيرهم لأن الفرق بينهما كالفرق بين الثرى والثريا وعلى حد قول الشاعر:

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل هذا السيف أمضى من العصا
وهذه الآية الكريمة التى بدأ الله عز وجل بها هذه التشريعات المشرقة توجّه

الناس عموماً والمسلمين خصوصاً إلى وجوب الاستمساك بشريعة محمد رسول الله ﷺ ونبذ حثالة أفكار اليهود والنصارى المتناقضة الذين لا يعرفون من الدين المحرف إلا القشور، ويستمسكون بأمور تناقض مقاصد دين المرسلين ويظنون أن الشيء الذي شرع أو اخترع في وقت من الأوقات التي تناسبه يجب أن يكون مناسباً لجميع الأوقات مع أن الذي شرعه أو اخترعه لم يُردّ بقاءه وتأييده، ومن ذلك استمساك اليهود بالصلاة إلى بيت المقدس واستمساك النصارى بالصلاة إلى المشرق، فبدأ الله عز وجل هذه الآية العظيمة ببيان أن المشرق والمغرب ليس طاعة في ذاته، فجميع الجهات لله عز وجل ولا فضل لجهة على جهة وإنما الفضل في اتباع أوامر الله، فحيث أمر الله عز وجل فالبر في طاعة أمره وحيث نهى الله عز وجل فالبر في الانتهاء عما نهى الله عنه، وقد اشتملت هذه الآية المباركة على أصول الدين وقواعد السلوك التي لا عز ولا سعادة إلا بالاستمساك بها وقوله عز وجل: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾ أي ليست التقوى والصدق في الدين تولية الوجوه جهة المشرق أو جهة المغرب، ولفظ البر إذا أطلق في الكتاب والسنة صار مرادفاً لمسمى الدين ولمسمى الإيمان ولمسمى التقوى، وعطف التقوى على البر في قوله عز وجل: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ ليس من باب العطف بين المتغايرين بل من باب العطف بين المترادفين كما في قول نوح عليه السلام: ﴿أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون﴾ فكل عبادة لله عز وجل وكل تقوى لله عز وجل وكل طاعة لله عز وجل ولرسوله هي من البر، وكل عمل صالح يمكن أن يوصف بأنه من البر كما قال رسول الله ﷺ البر حسن الخلق، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث النّوّاس بن سَمْعَانَ رضي الله عنه قال سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس». وكذلك

إذا أطلق لفظ البرّ فإنه يتناول جميع ما أمر الله عز وجل به ، وقد جعل الله تبارك وتعالى البرّ هو التقوى في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى ﴾ . وقوله عز وجل : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ هذه خمسة من أركان الإيمان الستة ، أما الركن السادس من أركان الإيمان وهو الإيمان بالقدر فقد أشار إليه رب العزة ذو الجلال في نفس هذه الآية الكريمة بقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ وذلك لأن الذي يحمل المؤمن على الصبر في هذه المواطن هو الرضى بالقضاء والقدر ، كما اشتملت هذه الآية الكريمة على ركنين من أركان الإسلام وهما إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وقد أفرد الصيام والحج في مقام قريب في هذه السورة المباركة كما سيجيء قريباً بدءاً من الآية الثالثة والثمانين بعد المائة ، وقد جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ في صورة رجل ليعلم المسلمين أركان الإيمان والإسلام على طريقة السؤال والجواب لتركيّز هذه الأركان في نفوس المؤمنين لما علّم في علم التربية والنفس أن طريقة المحاورّة والسؤال والجواب من أعظم أسباب تثبيت المعلومات في النفس الإنسانية وتركيزها ، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يوماً بارزاً للناس إذ أتاه رجل يمشي فقال : يا رسول الله ما الإيمان؟ قال : « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه وتؤمن بالبعث الآخر » ، قال : يا رسول الله ما الإسلام؟ قال : « أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان » قال : يا رسول الله ما الإحسان؟ قال : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . قال : يا رسول الله متى الساعة؟ قال : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، ولكن سأحدثك عن أشراطها ، إذا ولدت المرأة ربها فذاك من أشراطها ، وإذا كان الحفاة العراة رءوس الناس فذاك من

أشراطها، في خمس لا يعلمهن إلا الله : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ ثم انصرف الرجل فقال : «ردّوا على» فأخذوا ليردّوا فلم يروا شيئا، فقال : «هذا جبريل جاء ليعلّم الناس دينهم». وفي لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «سلوني»، فهابوه، فجاء رجل فجلس عند ركبتيه فقال : يا رسول الله ما الإسلام؟ قال : «لا تشرك بالله شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان»، قال : صدقت، قال : يا رسول الله ما الإيمان؟ قال : «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث وتؤمن بالقدر كلّ»، قال : صدقت . . الحديث . كما روى مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : بينا نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام قال : «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا»، قال : صدقت، فعجبنا له يسأله ويصدّقه، قال : فأخبرني عن الإيمان . قال : «أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»، قال : صدقت، قال : فأخبرني عن الإحسان، قال : «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، قال : فأخبرني عن الساعة . قال : «ما المسئول عنها بأعلم من السائل»، قال : فأخبرني عن أماراتها، قال : «أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان». قال : ثم انطلق، فلبثت مليا ثم قال لي : «يا عمر أتدري من السائل؟» قلت : الله ورسوله أعلم، قال : «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم». وقوله عز وجل :

﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِنْ آمَنَ بِاللّٰهِ﴾ الآية ، قال ابن جرير رحمه الله : فإن قال قائل : فكيف قيل ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِنْ آمَنَ بِاللّٰهِ﴾ وقد علمت أن (البرّ) فعلٌ و(مَنْ) اسمٌ فكيف يكون الفعل هو الإنسان؟ قيل : إن معنى ذلك غير ما توهمته ، وإنما معناه : وَلَكِنَّ الْبِرَّ بِرٌّ مَنْ آمَنَ بِاللّٰهِ واليوم الآخر فوضع (مَنْ) موضع الفعل اكتفاء بدلالته ودلالة صلته التي هي له صفة من الفعل المحذوف كما تفعله العرب فتضع الأسماء موضع أفعالها التي هي بها مشهورة ، فتقول : الجودُ حاتمٌ ، والشجاعة عنتره ، وإنما الجود حاتمٌ والشجاعة عنتره . ومعناها : الجود جود حاتم فتستغني بذكر حاتم إذ كان معروفاً بالجود عن إعادة ذكر الجود بعد الذي قد ذكرته ، فتضعه موضع جوده لدلالة الكلام على ما حذفته ، استغناء بما ذكرته عما لم تذكره كما قيل : ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ والمعنى : أهل القرية ، وكما قال الشاعر وهو ذو الحِرْقِ الطَّهَوِي :

حسبتَ بُغَامَ راحلتي عناقًا وما هي ويب غيركَ بالعناق

يريد : بغام عناق أو صوت عناق ، كما يقال : حسبت صياحي أخاك ، يعني به حسبت صياحي صياح أخيك . وقد يجوز أن يكون معنى الكلام : وَلَكِنَّ الْبَارَّ مَنْ آمَنَ بِاللّٰهِ فيكون (البر) مصدرا وضع موضع الاسم اهـ . والمراد بالكتاب في الآية ما يشمل جميع الكتب المنزلة من الله على رسله حتى ختمت بأشرفها وهو القرآن المهيمن على ما قبله من الكتب الذي انتهى إليه كل خير واشتمل على كل سعادة في الدنيا والآخرة ونسخ الله به كل ما سواه من الكتب قبله ، وقوله : ﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾ يشمل وجوب الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين لما ذكرته في تفسير الآية الحادية والستين من هذه السورة الكريمة بأن كلَّ رسول نبي فمن آمن بجميع الأنبياء فقد آمن بجميع المرسلين ، وقوله عز وجل : ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى الْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ أي وبذل المال وهو له محبٌ وهو عليه حريص

فأنفقه على أقاربه المحتاجين وعلى اليتامى وهم من مات آباؤهم وهم دون البلوغ ، وعلى المساكين وهم الذين لا يجدون شيئاً أو يجدون ما لا يكفيهم في قوتهم وكسوتهم وسكناهم . وقد تقدم مزيد بيان لذلك في تفسير الآية الثالثة والثمانين من هذه السورة المباركة . والمراد بابن السبيل الغريب المنقطع عن أهله وماله وهو المسافر المجتاز فيُعْطَى من المال ما يوصله إلى بلده وماله ، وإنما سمي بابن السبيل أي ابن الطريق ، لملازمته السير على الطريق كأن الطريق ولدته ، والمراد بالسائلين في الآية الكريمة هم الذين يسألون الناس ويطلبون منهم مدد يد العون لهم ولا يلزم المعطي أن يتحرى عنهم قبل إعطائهم وقد حذر الله تبارك وتعالى من زجرهم ونهرهم حيث قال عز وجل : ﴿وَأَمَّا السَّائِلُ فَلَا تَنْهَرْ﴾ والمراد بالرقاب في قوله عز وجل : ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ أي وفي تحرير العبيد والإماء وفي مساعدة المكاتبين في دين كتابتهم ، وفي هذا لفت انتباه الناس إلى أن دين الإسلام قد وضع للناس أعلى درجات التكافل الاجتماعي ، فله الحمد والمنة . وقد أشار الله تبارك وتعالى بقوله : ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ إلى أن الذي يبذل المال وهو له محب ليس كالذي يبذل المال وهو غير محب له لسبب من الأسباب كأن يكون المال رديئاً كحشف التمر وشيخه ونحوه مما لو عرض عليه ما أخذه إلا أن يغمض فيه ، أو أن يكون سفيهاً لا يعرف قدر المال أو مبذراً ينثر يمينا وشمالاً بدون وعي ، وبهذا يلفت الإسلام انتباه الناس إلى أنه ينبغي لهم المحافظة على أموالهم ومعرفة فضل الله عليهم فيها فلا ينفقونها إلا فيما يعود عليهم بالخير في دينهم ودنياهم حتى وصف الله عز وجل المال بأنه قوام الحياة حيث يقول : ﴿وَلَا تَوْتُوا السَّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ وقد وصف الكعبة البيت الحرام بنفس هذا الوصف حيث قال : ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ ولذلك وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يتصدق وهو صحيح شحيح بأن

صدقته أعظم أجرا، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجرا؟ قال: «أن تصدق وأنت صحيح شحيح تحشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان». اهـ وليس هذا حضا على الشح فإن الشح مهلك كما قال عز وجل: ﴿وَمَنْ يُوقْ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ كما روى مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»، إذ المقصود من قول رسول الله ﷺ: «أن تصدق وأنت صحيح شحيح» هو أن من كان بهذه المثابة كان بذله للمال دليلا على حرصه على الخير والنفقة في هذا الوجه الذي بذل فيه وأنه استطاع أن يقاوم من نفسه دواعي الحرص وتغلب عليها فلذلك كان أعظم أجرا، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن البررة يحبون المال ويبدلون أغلاه عند أنفسهم في مرضاة الله وفي المواضع التي أمرهم الله عز وجل بالإنفاق فيها حيث يقول: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * يُوفُونَ بِالْأَنْذَرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لَوَجْهَ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ وقال عز وجل: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾ وقد روى البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث أنس رضي الله عنه قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس: فلما نزلت: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾ قال أبو طلحة: يا رسول الله، إن الله يقول:

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالي إليّ بئرحاء، وإنها صدقة لله أرجو برّها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال النبي ﷺ: «بخ بخ ذاك مالٌ رابح ذاك مالٌ رابح، وقد سمعتُ، وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين» فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه. كما جاء في الصحيحين من حديث عمر رضي الله عنه أنه قال يا رسول الله لم أصب مالا قط هو أنفس عندي من سهمي الذي هو بخير فما تأمرني به؟ قال: «احبس الأصل وسبّل الثمرة». ولذلك أخبر رسول الله ﷺ أن أفضل الرقاب التي يحررها الإنسان ويفكّها من قيد الرّق هي أغلاها ثمنًا وأنفسها عند أهلها فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ: أيّ العمل أفضل؟ قال: «إيمانٌ بالله، وجهاد في سبيله»، قال: قلت: فأيّ الرقاب أفضل؟ قال: «أغلاها ثمنًا، وأنفسها عند أهلها»، قلت: فإن لم أفعل؟ قال: «تُعِينُ صانعاً أو تصنع لأخرق». قلت: فإن لم أفعل؟ قال: «تدعُ الناس من الشر فإنها صدقة تصدّق بها على نفسك». وقوله عز وجل: ﴿وَأَقَامِ الصَّلَاةَ وَآتِ الزَّكَاةَ﴾ أي وأدّى الصلاة وأتم أفعالها في أوقاتها بركوعها وسجودها وخشوعها على الوجه الذي بيّنه رسول الله ﷺ بقوله وفعله. والزكاة هنا تحتل أن يراد بها تطهير النفس من أدناس الشرك والمعاصي والأخلاق الرذيلة على حد قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ وقد خاب من دسّاها ﴿وقوله تعالى في سورة فُصِّلَتْ وهي مكية: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون﴾ وكما ذكر الله عز وجل من قول موسى عليه السلام لفرعون لعنه الله: ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾ وتحتل أن يراد بالزكاة هنا زكاة المال، ويكون قوله عز وجل قبل ذلك في نفس هذه الآية: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ إما لبيان

بعض مصارفها قبل ذكرها في الآية أو أن المقصود هو التطوع والبر والصلة لهؤلاء المذكورين ، ولا شك أن ذوي القربى واليتامى إذا كانوا فقراء ولا تجب نفقتهم على الإنسان فإن إعطاءهم من مال الزكاة أكبر فضلا وأعظم أجرا .

وقوله عز وجل : ﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾ أي وأهل البر كذلك هم الذين إذا عاهدوا الله أو عاهدوا أحداً من خلقه ، يوفون بعهدهم ويتمونه على ما عاهدوا عليه من عاهدوه ، وقد أثنى الله تبارك وتعالى على المؤمنين في مواضع كثيرة من كتابه الكريم ووصفهم بأنهم يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق كما وسم المنافقين والكافرين الفاسقين فجعل أول صفاتهم أنهم ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، وقد جعل رسول الله ﷺ من صفات المنافق أنه إذا عاهد غدر ، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «أربعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالصًا وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا ، إِذَا أُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ» . وقوله عز وجل : ﴿والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس﴾ فيه لفت انتباه لمنزلة الصابرين المؤمنين بقضاء الله وقدره المحتسين ما يصيبهم عند الله عز وجل ، وقد جاء هذا التنبيه بنصب الصابرين على المدح ، وقطعهم في الإعراب عما قبلهم ، وهذا شبيه بقوله عز وجل في الإشعار بعلو منزلة المصلين : ﴿لَكِنَّ الرَّاكِعِينَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ ، وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ، وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ، وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فقد كان نسق الكلام أن يقال : والمقيمون الصلاة ، بالرفع عطفًا على قوله : ﴿والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾ فقطع النسق ونصب المقيمين الصلاة على المدح والاختصاص . وكذلك هنا كان مقتضى النسق أن يقال : والصابرون في

البأساء والضراء وحين البأس بالرفع عطفًا على قوله : ﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾ فلما قطع النسق ونصبه على المدح عُرف أن المقصود هو لفت الانتباه إلى علو منزلة الصابرين في هذه المواطن الثلاثة وهي البأساء والضراء وحين البأس . قال الراغب : ولما كان الصبر من وجهٍ مبدأً للفضائل ومن وجهٍ جامعا للفضائل إذ لا فضيلة إلا وللصبر فيها أثر بليغ غير إعرابه تنبيهًا على هذا المقصود اهـ . والبأساء هي الفقر أو الجوع أو الحاجة ، والضراء المرض والوجع ، ومعنى : ﴿وحين البأس﴾ أي ووقت شدة القتال في الحرب في سبيل الله وعند لقاء العدو . وقوله عز وجل : ﴿أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾ أي هؤلاء المتصفون بهذه الصفات هم الذين صدقوا الله في إيمانهم ، وطابقت أقوالهم أفعالهم وهم المتقون حقًا وصدقًا لا من ولى وجهه قبل المشرق والمغرب وهو يخالف أمر الله عز وجل في القبلة التي أمر الله عز وجل بها ، وينقض عهد الله من بعد ميثاقه ، وقد ختم الله تبارك وتعالى هذه الآية الكريمة العظيمة بهذين الوصفين الجليلين وهما الصدق والتقوى التي أكد الله عز وجل في مواضع من كتابه الكريم أن المتصفين بهما هم المفلحون الفائزون وأشار في قصة الثلاثة الذين خُلّفوا وتاب الله عليهم إلى ذلك بقوله : ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ وبين أن العاقبة الحسنَى للمتقين حيث يقول : ﴿والعاقبة للمتقوى﴾ ويقول : ﴿والعاقبة للمتقين﴾ ويقول : ﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً﴾ ولذلك لوحظ أن الله قَصَرَ هُدى كتابه الكريم على المتقين حيث قال في مطلع سورة البقرة : ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾ وكما أنه ختم آية البرّ هنا بقوله : ﴿وأولئك هم المتقون﴾ ختم تشريع القصاص بقوله : ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون﴾ وقال في ختام تشريع الوصية : ﴿حقًا على المتقين﴾ وقال في تذييل الآية الأولى في تشريع الصيام :

﴿لعلكم تتقون﴾ كما قال في ختام تشريع الصيام : ﴿كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾ وهكذا يبين الله عز وجل أن المقصود من تشريع الأحكام هو تربية النفس على تقوى الله عز وجل لتفوز بعز الدنيا وسعادة الآخرة ، قال ابن تيمية رحمه الله عن آية البر : وهذه الآية عظيمة جليلة القدر ، من أعظم آي القرآن وأجمعه لأمر الدين اهـ وقال القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة : قال علماؤنا : هذه آية عظيمة من أمهات الأحكام لأنها تضمنت ست عشرة قاعدة : الإيمان بالله وبأسماؤه وصفاته ، والنشر والخشر والميزان والصراف والحوض والشفاعة والجنة والنار والملائكة والكتب المنزلة وأنها حق من عند الله ، والنبين ، وإنفاق المال فيما يعن من الواجب والمندوب وإيصال القرابة وترك قطعهم ، وتفقد اليتيم وعدم إهماله ، والمساكين كذلك ومراعاة ابن السبيل والسؤال وفك الرقاب والمحافظة على الصلاة وإيتاء الزكاة والوفاء بالعهود والصبر في الشدائد ، وكل قاعدة من هذه القواعد تحتاج إلى كتاب اهـ .

قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ، فمن عُفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداءً إليه بإحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم * ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون ﴾ .

كانت بنو اسرائيل إذا قتل لهم قتيل لم يكن لهم حق في الدية ويقتصون من القاتل ، وكانت بعض القبائل العربية إذا قُتل لهم قتيل لا يرضون بقتل قاتله فقط بل يتجاوزون حد القصاص فيقتلون بدل المرأة رجلاً وبدل الرجل رجلين أو أكثر وبدل العبد حراً ولا يرضون بالمثالة والقصاص فبين الله تبارك وتعالى هنا أنه شرع لهم القصاص وخفف عنهم الإصر الذي كان على من قبلهم فشرع لولي القتل أن يتجاوز عن القصاص ويقبل الدية ويعفو عن قتل القاتل ، كما حذرهم منبغي أهل الجاهلية الذين كانوا يقتلون بدل المرأة رجلاً وبدل الرجل أكثر من رجل وبدل العبد حراً فقال عز وجل : ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى﴾ الآية والخطاب هنا وإن كان موجهاً لعموم المؤمنين الذين يكونون مجتمع الرحمة والعدل فإن المقصود بالخطاب هو الحاكم الشرعي والسلطان لأنه هو الذي عليه تنفيذ أحكام الشريعة إذ لا يجوز قطعاً لمن قتل له قتيل أن يقتل القاتل إلا بعد الحكم الشرعي على القاتل بالقتل وبعد أن يقدم ولي أمر المسلمين القاتل لأولياء القتل ويمكنهم من قتله معروفاً لهم أن لهم الحق في قتله بقتيلهم الذي قتله وأن لهم الحق أيضاً في العفو وأن يأخذوا الدية ، وليس لهم سوى ذلك ، ولذلك جعل الله تبارك وتعالى أعتى الناس وأبغضهم عند الله من قتل غير قاتله أي من قتل رجلاً وهو غير القاتل الذي قتل قتيله ، فقد روى البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : «أبغض الناس إلى

الله ثلاثة : ملحدٌ في الحرم ، ومبتغٍ في الإسلام سنة الجاهلية ومُطْلَب دم امرئٍ بغير حق ليهريق دمه . كما روى ابن حبان في صحيحه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « وإن أعتى الناس على الله ثلاثة : من قتل في حرم الله ، أو قتل غير قاتله أو قتل لذحل الجاهلية » ومعنى قوله في الحديث : « أو قتل غير قاتله » أي أو سفك دم إنسان لم يقتل له قتيلا وإنما الذي قتل هو غيره حيث كان أهل الجاهلية لا يكتفون بقتل القاتل وإنما يقتلون معه بعض أقاربه البراء من الجريمة بل كانوا يأخذون الجار بجاره والحليف بحليفه ، ولذلك جاء النص الكريم في هذا المقام ببيان أنه لا يجوز أن يقتل بالحر أكثر من حر ولا أن يقتل بالمرأة أكثر من امرأة ولا أن يقتل بالعبد أكثر من العبد الذي قتله حيث قال عز وجل : ﴿ الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ﴾ وليس في هذا النص نفي لقتل العبد بالحر ، أو الحر بالعبد ، ولا لقتل الرجل بالمرأة أو المرأة بالرجل فالآية الكريمة إنما جاءت مُبَيِّنَةً لحكم النوع إذا قتل نوعه فبينت حُكم الحرِّ إذا قتل حرا ، والعبد إذا قتل عبدا ، والأنثى إذا قتلت أنثى ، ولم تتعرض لأحد النوعين إذا قتل الآخر ، وهي محكمة وفيها إجمال بينه الله عز وجل بما كتبه في التوراة بقوله عز وجل : ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ﴾ وهي وإن كانت في شرع مَنْ قبلنا فقد بَيَّنَّهَا النبي ﷺ بسنته التي تقرر أنها كذلك شَرَعْنَا لَنَا حيث قَتَلَ الْيَهُودِيُّ الذي قَتَلَ الْمَرْأَةَ فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن جاريةً وُجِدَ رَأْسُهَا قد رُضَّ بين حجرين ، فسألوها : من صنع بك هذا ؟ فلان ؟ فلان ؟ حتى ذكروا يهوديا ، فأومأت برأسها ، فَأَخَذَ الْيَهُودِيُّ فَأَقَرَّ ، فأمر رسول الله ﷺ أن يُرَضَّ رَأْسُهُ بين حجرين . ولا شك عند أهل العلم أن شرع من قبلنا إذا ورد في شرعنا نسخه فلا يكون شرعا لنا بالإجماع ، وإذا ورد في شرعنا ما يقرر أنه شرع لنا كان شرعا لنا بالإجماع ،

وإنما اختلف أهل العلم في شرع من قبلنا إذا لم يرد دليل من شرعنا بإثباته أو نفيه فهل يكون شرعا لنا؟ وقتل النفس بالنفس قد تقرر في شرعنا في نصوص كثيرة منها حديث الصحيحين المتقدم في قتل اليهودي قصاصا لقتله الجارية، كما روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة» وليس معنى قوله عز وجل: ﴿كتب عليكم القصاص﴾ أي أنه فرض فرضا لازما لا يجوز تركه بل المراد أنه إذا رُفِعَ إلى الحاكم الشرعي وقضى بالقصاص وأصرّ أولياء القتيل على تنفيذ القصاص وجب وتحتّم على ولي الأمر أن ينفذه، فإذا رضي أولياء القتيل بالعفو وأخذ الدية بدل القصاص فلهم ذلك شرعا وإلى هذا يشير قوله عز وجل في نفس هذه الآية: ﴿فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيفٌ من ربكم ورحمةٌ﴾ وبهذا التخفيف وضع الله عز وجل عنا الإصر الذي كان على أهل الكتاب من قبلنا، وقد روى البخاري في صحيحه من طريق مجاهد قال: سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول: كان في بني إسرائيل القصاص ولم تكن فيهم الدية فقال الله تعالى لهذه الأمة: ﴿كتب عليكم القصاص في القتلى الحرّ بالحرّ والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفي له من أخيه شيء﴾ فالعفو أن يقبل الدية في العمد ﴿فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان﴾ يتبع بالمعروف ويؤدي بإحسان ﴿ذلك تخفيف من ربكم ورحمة﴾ مما كتب على من كان قبلكم ﴿فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم﴾ قتل بعد قبول الدية اهـ وأصل القصاص مأخوذ من قصّ الأثر وهو أتباعه ومنه القاصّ لأنه يتبع الآثار والأخبار، كأن القاتل سلك طريقا من القتل فقصّ أثره فيها ونقّذ فيه ما نقّذ في القتيل، ولذلك يُقْتَصُّ من

القاتل على وجه المماثلة إذ هي المعنى التام للقصاص ، ولذلك يُقْتَصُّ في الجروح التي تتأني فيها المماثلة وكذلك الأعضاء كما قال عز وجل : ﴿ وَالْعَيْنَ بِالْأَنفِ وَالْأَنفَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ وقد أكد رسول الله ﷺ أن هذا الحكم صار شرعا لنا فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أنس رضي الله عنه أن الرِّبَّيع بنت النضر عمته كسرت ثنية جارية فطلبوا إليها العفو فأبوا فعرضوا الأرض فأبوا ، فاتوا رسول الله ﷺ فأبوا إلا القصاص ، فأمر رسول الله ﷺ بالقصاص ، فقال أنس بن النضر : يا رسول الله أتُكسر ثنية الربيع ؟ لا ، والذي بعثك بالحق لا تُكسر ثنيتهما ، فقال رسول الله ﷺ : « يا أنس كتاب الله القصاص » فرضي القوم فعفوا ، فقال رسول الله ﷺ : « إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةِ » وقوله عز وجل : ﴿ فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾ أي فإذا عفا أحد ورثة القاتل وأوليائه عن القاتل وتركوا القصاص ورضوا بالدية سقط القصاص ووجب على القاتل دفع الدية بإحسان ، وتنكير (شيء) في قوله : ﴿ فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴾ يفيد سقوط القصاص بالعفو عن بعضه ومن بعض الورثة فمتى عفا أحد من الورثة عن القصاص من القاتل سقط القصاص ولو لم يرض الباقون من الورثة ، ولا شك أن هذا من فضل الله ورحمته وتخفيفه على أمة محمد ﷺ وقد اعتبرت الشريعة الإسلامية العفو عن القصاص من الصدقات التي يُتَقَرَّبُ بها إلى الله عز وجل ولذلك قال عز وجل : ﴿ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ﴾ . وفي التعبير بقوله : ﴿ مِنْ أَخِيهِ ﴾ إيذان بأن القتل لا يقطع أخوة الإيمان ، وهو من أدلة أهل السنة والجماعة على أن قاتل العمد لا يخرج من الإسلام ولا يكون مرتدا بهذه الجريمة النكراء التي ذكر رسول الله ﷺ أنها أول ما يُقْضَى بين الناس فيه يوم القيامة فقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن

مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء» لكن الله تبارك وتعالى بين في موضعين من كتابه الكريم أنه لا يغفر أن يُشْرَكَ به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء حيث قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ حيث قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وقال عز وجل : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلّالاً بعيداً ﴿وقوله عز وجل : ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره : رحم الله هذه الأمة وأطعمهم الدية ولم تحل لأحد قبلهم فكان أهل التوراة إنما هو القصاص وعَفُو ليس بينهم أَرْشٌ ، وكان أهل الإنجيل إنما هو عَفُو أَمْرُوا بِهِ ، وجعل لهذه الأمة القصاص والعفو والأرش اهـ وقوله عز وجل : ﴿فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي فمن اعتدى من أولياء القتيل على القاتل بعد قبول الدية ولو من بعض الورثة فهذا المعتدي عقوبة عند الله يوم القيامة مؤلمة موجعة . وكذلك من اعتدى من أولياء القتيل وتجاوز ما شرع الله من القصاص فقتل غير القاتل كما كان يفعل أهل الجاهلية فإن الله يعذبه يوم القيامة عذاباً مؤلماً موجعاً . وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي ولكم في مشروعية القصاص حياة يا ذوي العقول لكي تعرفوا فضل الله عليكم فتأتمروا بأمره وتنتهوا عما نهاكم عنه وتقفوا عند حدوده التي شرعها لكم لتفوزوا بعز الدنيا وسعادة الآخرة ومرضاة الله . والمراد بالقصاص هنا ما يعم القصاص في النفس والقصاص في الأعضاء والجروح ، فإن من أراد قتل شخص ثم تذكر أنه إن قَتَلَهُ أَخَذَ وَقُتِلَ مكانه واقتُصَّ منه ارتدع عن القتل فكان ذلك الحكم سبباً لحياته وحياة من كان قد عزم على قتله ، وكذلك من أراد قطع عضو من أخيه أو جرحه وتذكر أنه سَيُقْتَصُّ منه إن فعل ذلك ارتدع كذلك فكان سلامة له ولأخيه ، ولذلك

نكّر الحياة حيث قال : ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ ليدلّ على أن في هذا الحكم نوعاً من الحياة عظيماً لا يبلغه الوصف ، وكون القصاص وهو قتل القاتل حياةً بياناً لمحاسن هذا الحكم المذكور على وجه بلغ ذروة البلاغة حيث جعل الشيء وهو القصاص محلاً لضده وهو الحياة ، قال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية : اتفق علماء البيان على أن هذه الآية في الإيجاز مع جمع المعنى بالغة إلى أعلى الدرجات ؛ وذلك لأن العرب عبّروا عن هذا المعنى بألفاظ كثيرة كقولهم : قَتَلَ البعض إحياءً للجميع ، وقول آخرين : أكثروا القتل ليقل القتل ، وأجود الألفاظ المنقولة عنهم في هذا الباب قولهم : القتل أنفى للقتل ، ثم إنّ لفظ القرآن أفصح من هذا ، وبيان التّفاوت من وجوه : (أحدها) أن قوله : ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ أخصر من الكل ، لأن قوله : «ولكم» لا يدخل في هذا الباب إذ لا بد في الجميع من تقدير ذلك ، لأن قول القائل : قَتَلَ البعض إحياءً للجميع ، لا بد فيه من تقدير مثله وكذلك في قولهم : القتل أنفى للقتل ، فإذا تأملت علمت أن قوله : ﴿في القصاص حياة﴾ أشد اختصاراً من قولهم : القتل أنفى للقتل (وثانيها) أن قولهم : القتل أنفى للقتل ظاهره يقتضي كون الشيء سبباً لانتفاء نفسه وهو محال ، وقوله : في القصاص حياة ، ليس كذلك ، لأن المذكور هو نوع من القتل وهو القصاص ، ثم ما جعله سبباً لمطلق الحياة لأنه ذكر الحياة منكّرة بل جعله سبباً لنوع من أنواع الحياة (وثالثها) أن قولهم : القتل أنفى للقتل ، فيه تكرار للفظ القتل وليس قوله : ﴿في القصاص حياة﴾ كذلك (ورابعها) أن قول القائل : القتل أنفى للقتل لا يفيد إلا الردع عن القتل وقوله : ﴿في القصاص حياة﴾ يفيد الردع عن القتل وعن الجرح وغيرها فهو أجمع للفوائد (وخامسها) أن نفي القتل مطلوب تبعاً من حيث إنه يتضمن حصول الحياة وأما الآية فإنها دالّة على حصول الحياة وهو مقصود أصلي فكان هذا أولى

(وسادسها) أن القتل ظلما قتل مع أنه لا يكون نافيا للقتل بل هو سبب
لزيادة القتل ، إنما النافي لوقوع القتل هو القتل المخصوص وهو القصاص ،
فظاهر قولهم باطل ، أما الآية فهي صحيحة ظاهرا وتقديرا ، فظهر التفاوت
بين الآية وبين كلام العرب اهـ .

قال تعالى : ﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين﴾ فمن بدّله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدّلونه ، إنّ الله سميع عليم * فمن خاف من موصٍ جنفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه ، إنّ الله غفور رحيم ﴿

هذا بيان لحكم آخر من الأحكام الشرعية التي ينظم بها الإسلام تصرفات الإنسان في أمواله على وجه يرضي أرحم الراحمين ، ويدفع عن الإنسان أضرار الجنف والإثم ويربط بين المسلم وذوي قرباه برباط من الحب والعدل ، بعد أن أشار في آية البر إلى أن من أعظم أماراته إيتاء المال على حبه ذوي القربى ، وبعد أن أشار في آية القصاص إلى أن المال قد يكون بديل النفس ، وقوله عز وجل : ﴿كتب عليكم﴾ أي فرض عليكم أيها المؤمنون ومعنى : ﴿إذا حضر أحدكم الموت﴾ أي إذا نزل بواحد منكم مقدّمات الموت التي يحسّ بها أنه على وشك فراق الحياة الدنيا والانتقال إلى الدار الآخرة ، وقد تقدم نحوه في قوله عز وجل : ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت﴾ وقد قال الشاعر:

يا أيها الراكب المزجي مطيته سائل بني أسد ما هذه الصّوت
وقل لهم بادروا بالعدر والتمسوا قولاً يبرّكم إنني أنا الموت
وكما قال عنتره :

وإن الموت طوع يدي إذا ما وصلت بنانها بالهندوان
يريد أنه إذا قبض بيده على سيفه الهندواني يعني المصنوع في الهند حضر الموت أعداءه فكأن الموت في يده ، وقوله عز وجل : ﴿إن ترك خيراً﴾ أي إن خلف مالا . والتعبير بالخير عن المال إشعار بأنه نعمة جليلة من الله عز وجل وفيه ردّ على من زعم الزهادة وترك أسباب اكتساب المال ، وقد يضطره الحال

إلى السؤال الذي أخبر رسول الله ﷺ أنه يأتي في وجه صاحبه كدوحا يوم القيامة فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى وليس في وجهه مُزعة لحم » كما روى أبو داود والنسائي والترمذي وقال : حديث حسن صحيح ، من رواية سَمُرَة بن جُنْدُب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إنما المسائل كُدُوحٌ يكدح بها الرجل وجهه ، فمن شاء أبقي على وجهه ومن شاء ترك » الحديث ، وقد سمى القرآن الكريم المال خيرا في مواضع شتى حيث يقول الله عز وجل : ﴿ وما تنفقوا من خير فلا أنفسكم ، وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ، وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ وقال عن موسى عليه السلام : ﴿ فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال : ربّ إني لما أنزلت إليّ من خير فقير ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ وإنه لحبّ الخير لشديد ﴾ وليس معنى ذلك أن الإنسان يجعل جمع المال كلّ همه ، بل عليه أن يسأل الله عز وجل أن لا يجعل الدنيا كلّ همه ولا مبلغ علمه ، وأن يقول : ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . وقوله عز وجل : ﴿ الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف ﴾ أي فرض عليكم الوصية فهي مرفوعة على أنها نائب الفاعل وحذفت التاء من « كتب » لأن الوصية ليست مؤنثا حقيقيا فيجوز إلحاق التاء وحذفها في مثل هذا التركيب ، والفاعل في الأصل هنا هو الله عز وجل : أي كتب الله عليكم الوصية ، ويجوز أن تكون الوصية مرفوعة على أنها مبتدأ وخبره للوالدين وتكون الجملة في موضع رفع بـ « كُتِبَ » كما تقول : قيل عبد الله قائم فقولك : عبد الله قائم ، جملة من مبتدأ وخبر وهي في موضع رفع بـ « كُتِبَ » . وأصل الوصية عبارة عن كل شيء يؤمر بفعله ويُعهد به في الحياة وبعد الموت ثم خصصها العرف بما يُعهد بفعله وتنفيذه بعد الموت ، ومن هذا الاستعمال الخاص الشرعي للوصية هذه

الآية الكريمة التي صارت تعرف بآية الوصية ، وليس في القرآن الكريم ذكر
 للوصية إلا في هذه الآية الكريمة وفي سورة النساء في قوله عز وجل : ﴿ من
 بعد وصية ﴾ وفي سورة المائدة : ﴿ إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية ﴾
 وقوله عز وجل : ﴿ للوالدين والأقربين ﴾ أي للوالدين والأولاد وغيرهم من
 ذوي القرابة . وقوله عز وجل : ﴿ بالمعروف ﴾ أي بطريقة جميلة خالية عن
 شوائب القطيعة . قال الفخر الرازي : أما قوله : ﴿ بالمعروف ﴾ فيحتمل أن
 يكون المراد منه قدر ما يوصي به ويحتمل أن يكون المراد منه تمييز من يوصي له
 من الأقربين ممن لا يوصي لأن كلا الوجهين يدخل في المعروف فكأنه تعالى
 أمره في الوصية أن يسلك الطريق الجميلة ، فإذا فاضل بينهم فبالمعروف ،
 وإذا سَوَّى فكمثل ، وإذا حرم البعض فكمثل لأنه لو حرم الفقير وأوصى
 للغني لم يكن ذلك معروفاً ولو سَوَّى بين الوالدين مع عظم حقهما وبين بني
 العم لم يكن معروفاً ، ولو أوصى لأولاد الجد البعيد مع حضور الإخوة لم يكن
 ما يأتيه معروفاً ، فالله تعالى كلّفه الوصية على طريقة جميلة خالية عن شوائب
 الإيجاش ، وذلك من باب ما يعلم بالعادة فليس لأحد أن يقول : لو كانت
 الوصية واجبة لم يشترط تعالى فيه هذا الشرط الذي لم يمكن الوقوف عليه ، لما
 بيّنّا اهـ وقوله تعالى : ﴿ حقاً على المتقين ﴾ أي ثبت ذلك ثبوتاً ، وتخصيص
 المتقين بهذا لأنهم هم أهل هدى القرآن الكريم كما تقدم وقد علم بالإجماع أن
 جميع الواجبات وسائر التكاليف هي عامة في حق المتقين وغيرهم ، والظاهر
 أن هذه الآية الكريمة الدالة على وجوب الوصية نزلت قبل آيات الموارث
 التي حدّدت لكل ذي حق من الورثة حقه ، يأخذه حتماً من غير وصية ولا
 تحمّل منّة الموصي حيث يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ يوصيكم الله في أولادكم
 للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كنّ نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن
 كانت واحدة فلها النصف ، ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان

له ولدٌ، فإن لم يكن له ولدٌ وورثه أبواه فلائمه الثلث، فإن كان له إخوة فلائمه السادس، من بعد وصية يوصي بها أو دين، وأبناؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا، فريضة من الله، إن الله كان عليهما حكيمًا* ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولدٌ، فإن كان لهن ولدٌ فلكم الرُّبُع مما تركن، من بعد وصية يوصين بها أو دين، ولهن الرُّبُع مما تركتم إن لم يكن لكم ولدٌ، فإن كان لكم ولدٌ فلهن الثُّمْنُ مما تركتم، من بعد وصية توصون بها أو دين، وإن كان رجل يورثُ كلالةً أو امرأةً وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السادس، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث، من بعد وصية يُوصى بها أو دين غير مُضَارٍّ، وصية من الله، والله عليمٌ حلِيمٌ ﴿وكما قال عز وجل: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِي الْكِلَالَةِ، إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك، وهو يرثها إن لم يكن لها ولدٌ، فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك، وإن كانوا إخوة رجالا ونساءً فللذكر مثل حظ الأنثيين، يبيّن الله لكم أن تضلُّوا، والله بكل شيء عليم﴾ والمراد بمن يورث كلالة في قوله تعالى: ﴿وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت﴾ يعني من الأم فقط ولذلك تتساوى فيه المرأة والرجل ولا يزيدون عن الثلث من التركة. والمراد بالكلالة في قوله تعالى: ﴿قل الله يفتيكم في الكلالة﴾ فالمراد بالأخت فيها أو الأخ ما كانا شقيقين أو لأب. وقد بين الله تبارك وتعالى أنه لا يجوز لأحد من الورثة أن يستأثر بشيء من الميراث دون سائر الورثة مهما كان فلا تختص البنت بما يحتاجه النساء ولا يختص الرجل بما يحتاجه الرجال من سيف أو غيره حيث يقول عز وجل: ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قلّ منه أو كثر، نصيبا مفروضا﴾ وقد رفع الإسلام — بوجوب الوصية للوالدين والأقربين ثم بآيات المواريث — ما كان يصيب المرأة من ظلم في الجاهلية حيث كانت

تورث ولا تَرث ويختص الرجال بالمال بدعوى أن المال لمن يحمي الذَّمار ويدافع عن القبيلة، فله الحمد والمنة. ولما نزلت آيات الموارث التي سقتها قال رسول الله ﷺ: «لا وصية لوارث». فقد روى الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح، من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله قد أعطى لكل ذي حقَّ حقه فلا وصية لوارث». وقد تفضل الله تبارك وتعالى فجعل للإنسان حقاً أن يوصي لغير الوارثين من أقاربه بما لا يزيد على الثلث من ماله طُغْمَةً من الله عز وجل له وتطبيقاً لخواطر ذوي قرباه وصلة لرحمهم، ولذلك لو أوصى لغير ذوي قرباه وحرَمَ ذوي القربى صحت وصيته وكان مسيئاً كما أكَّد ذلك عامة أهل العلم، وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: لو غَضَّ الناس من الثلث إلى الرَّبْع، فقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: لو غَضَّ الناس إلى الرَّبْع لأن رسول الله ﷺ قال: «الثلث والثلث كثير أو كبير». وابن عباس رضي الله عنهما يشير بذلك إلى ما قاله رسول الله ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فقد روى البخاري في صحيحه من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: جاء النبي ﷺ يعودني وأنا بمكة وهو يكره أن يموت بالأرض التي هاجر منها، قال: «يرحم الله ابن عفرَاء»، قلت: يا رسول الله أوصي بمالي كله؟ قال: «لا» قلت: فالشطر؟ قال: «لا» قلت: الثلث؟ قال: «فالثلث، والثلث كثير، إنك أن تَدَعَ ورثتك أغنياء خير من أن تَدَعهم عالةً يتكفَّفون الناس في أيديهم، وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة حتى اللقمة التي ترفعها إلى في امرأتك، وعسى الله أن يرفعك فينتفع بك ناسٌ، ويُضَرَّ بك آخرون». ولم يكن له يومئذ إلا ابنة، وفي لفظ للبخاري من حديث سعد رضي الله عنه قال: مرضت فعادني النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله ادع الله أن لا يرَدِّي على عقبي. قال: «لعل الله يرفعك وينفع بك

ناسًا». قلت : أريد أن أوصي وإنما لي ابنة ، قلت : أوصي بالنصف ؟ قال :
 «النصف كثير» ، قلت : فالثالث ؟ قال : «الثالث والثالث كثير أو كبير» قال :
 فأوصى الناس بالثالث وجاز ذلك لهم . أما مسلم رحمه الله فقد أخرج هذا
 الحديث بعدة ألفاظ ، منها : قال : عادني رسول الله ﷺ في حجة الوداع من
 وجع أشقيت منه على الموت ، فقلت : يا رسول الله بلغني ما ترى من الوجع
 وأنا ذو مال ولا يرثني إلا ابنة لي واحدة ، أفأتصدق بثلثي مالي ؟ قال : «لا» .
 قال : قلت : أفأتصدق بشطره ؟ قال : «لا ، الثالث ، والثالث كثير ، إنك أن
 تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس» . الحديث .
 وقول رسول الله ﷺ في حديث الصحيحين هذا لسعد رضي الله عنه : «وعسى
 الله أن يرفعك فينتفع بك ناس ويضر بك آخرون» . معجزة من معجزات
 رسول الله ﷺ مما أطلعه الله عليه من غيب فإن سعدا رضي الله عنه لم يمت
 حتى فتح الله على يديه العراق وبلاداً من أرض فارس فرفع الله به أقواما
 دخلوا في الإسلام على يديه ، وضرّ به آخرين قتلهم على الكفر واستولى على
 بلادهم ، وطال عمره وبقي بعد جماعات كثيرة من أصحابه ، فكان كما أخبر
 رسول الله ﷺ . وفي قوله في حديث البخاري : فأوصى الناس بالثالث وجاز
 ذلك لهم ، دليل على أن وجوب الوصية قد نسخ ، وأن الأمر صار على
 الاستحباب . أما ما رواه البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله
 عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «ما حق امرئ مسلم له شيء يريد أن يوصي فيه
 يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده» فإن قوله في لفظ الحديث : «يريد أن
 يوصي فيه» يشعر بأن المقصود الاستحباب لا الإيجاب لأنه علّقه بإرادة
 الشخص ورغبته . أما إذا كان على الشخص دين أو حق لله تعالى وأولياؤه لا
 يعرفون ذلك فإنه يجب عليه أن يكتب وصية بذلك مخافة أن يبادره الموت قبل
 أداء ما عليه من الحق ، وقد يؤدي عدم تحرير وصية به إلى ضياعه وعدم الوفاء

به فيعرض نفسه لعقوبة الله يوم القيامة . وقوله عز وجل : ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي فمن حَرَفَ وغير الإيصاء من شاهد أو كاتب أو غيرهما بعدما علم نص الوصية فإنما عقوبته عند الله عز وجل الذي يجازي كل عامل بما عمل وهو السميع العليم . وقوله عز وجل : ﴿ فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أي فإذا علم الوصي أن الموصي مال عن الحق خطأ أو عمدا بأن زاد على الثلث أو وصَّى لوارث أو خصَّ بوصيته عملا من أعمال الإثم التي يجرمها الشرع فعُدل في الوصية بما يتلاءم مع الوجه الشرعي فلا إثم عليه ولا حرج .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ، وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

هذا بيان لحكم آخر من هذه الأحكام العظيمة التي تربي النفس الإنسانية أحسن تربية ، فتزكّيها ، وتطهرها ، وتنمي فيها مسالك الخير ، وتضيّق مسالك الشيطان ، حيث نادى الله تبارك وتعالى المؤمنين في هذا المقام من سورة البقرة وأعلمهم أنه فرض عليهم الصيام كما فرضه على مَنْ قبلهم مِنْ أُمَمِ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ لِيَسْلُكُوا سَبِيلَ الْمُتَّقِينَ حيث يقول عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ وقد جعل الله تبارك وتعالى الصيام أحد أركان الإسلام الخمسة التي بينها رسول الله ﷺ في حديث جبريل من رواية عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند مسلم ومن رواية أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري ومسلم كما سقت نصه في تفسير الآية السابعة والسبعين بعد المائة . وكما روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان » . وأصل الصيام في اللغة هو الإمساك عن الشيء والكف عنه ، ومنه قوله عز وجل في قصة مريم : ﴿ فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا ﴾ أي إمساكا عن الكلام ، بدليل قوله بعد ذلك : ﴿ فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنْسِيًّا ﴾ ويقال : صام النهار ، إذا اعتدل وقام قائم الظهيرة ، ومنه قول امرئ القيس :
فدعها وسَلِّ الهمَّ عنها بجسرة ذمولٍ إذا صام النهار ، وهَجَّرَا

وقال شاعر آخر:

حتى إذا صام النهار واعتدل وسال للشمس لُعَابٌ فَنَزَلَ
ويقال : صامت الريح إذا ركدت ، وصامت الخيل إذا قامت على غير
اعتلاف ، ومنه قول النابغة :

خيل صيَّامٌ وخيلٌ غير صائمة تحت العَجَاجِ وأخرى تَعْلِكُ اللُّجْمَا
ومَصَّامُ الفرس موقفه ، ومصام الشمس حيث تستوي في منتصف النهار ،
ومَصَّامُ النجم مكانه الذي يُرى فيه كأنه ثابت ، ومنه قول امرئ القيس :

كَأَنَّ الثَّرِيَا عُلِّقَتْ فِي مَصَامِيهَا بِأَمْرَاسٍ كَتَّانٍ إِلَى صَمٍّ جَنْدَلٍ
والصوم في الاصطلاح الشرعي هو الإمساك من طلوع الفجر إلى غروب
الشمس عن المفطرات حال العلم بكونه صائماً مع اقتران النية . وقوله تبارك
وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِكُمْ ﴾ أي يا معشر من آمن بالله ورسوله ودخل في دين الإسلام : فَرَضَ
عليكم الصيام كما فرض على من كان قبلكم من أُمَمِ الأنبياء السابقين ، ولما
لم يثبت بحديث صحيح عن رسول الله ﷺ أَن عين فريضة الصيام التي
فرضت علينا هي عين فريضة الصيام التي فرضت على الأُمَمِ السابقة ، ولما
كان تشبيه شيء بشيء لا يلزم منه أنها متشابهان من كل الوجوه فإنه لا يلزم
من تشبيه صومنا بصومهم أن يكون صومهم مختصاً برمضان أو بصيام شهر
في السنة ، والمقصود من إيراد هذا التشبيه هو بيان أن إيجاب الصوم شرع الله
على الأنبياء والأُمَمِ من لدن آدم إلى عهد محمد ﷺ ، وبهذا يسهل الصوم على
المسلمين لأن النفس من طبيعتها أن يسهل عليها ما علمت أنها غير مختصة
بحمله ، على حد قول الخنساء :

ولولا كثرة الباكين حـولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما ييكيّن مثل أخي ولكن أسلّي النفس عنه بالتأسّي

فالشرائع متفقة في الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر والملائكة ، ولكنها تختلف في شرعتها ومنهاجها كما قال عز وجل : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ فالصلاة فرضت على جميع أمم الأنبياء لكنها ليست عند جميع الأنبياء خمس صلوات كما هو الحال لأمة محمد ﷺ ولذلك لما أخبر رسول الله ﷺ موسى عليه السلام ليلة الإسراء بأن الله فرض عليه وعلى أمته خمسين صلاة قال له موسى عليه السلام : (إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم وإني والله قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك) الحديث . على أن قوله تعالى : ﴿ كما كتب على الذين من قبلكم ﴾ إذا اعتبرت (ما) مصدرية يكون تقديره كَتَبَا كَكْتَبَهُ على الذين من قبلكم فيكون التشبيه في أصل الفرض لا في وصفه . وقوله عز وجل : ﴿ لعلكم تتقون ﴾ بيان لحكمة الصوم وأنه يورث التقوى لما فيه من انكسار الشهوة وانقباع الهوى حيث أثره الظاهر في كسر شهوة البطن والفرج والردع عن الأشر والبَطَر والفواحش ، مع ما فيه من زكاة النفوس وطهارتها وتنقية الجسم من الأخلاط الرديئة والفضلات المضرة والشحوم الزائدة التي ينبغي أن يتخلص منها الجسم ، وقد أقر بجليل فوائد الصيام أمم من أطباء المسلمين وغيرهم في سائر الأعصار ، ولذلك وصف رسول الله ﷺ الصيام بأنه جُنَّة كما وصفه بأنه له وِجَاءٌ والجُنَّة هي الوقاية التي يتقي بها الإنسان المخاطر ويصون بها نفسه ، كما يستتر المقاتل بالمِجَنَّة وهي التُّرْس الذي يتترس به من أعدائه ، والوِجَاء يؤول بصاحبه إلى تمكنه من قمع شهوة نفسه ، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « الصيام جُنَّة ، فلا يَرْفُثْ ولا يَجْهَلْ وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل : إني صائم مرتين ، والذي نفسي بيده لخلوفُ فم الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك يترك طعامه وشرابه

وشهوته من أجلي ، الصيام لي وأنا أجزي به والحسنة بعشر أمثالها» . كما روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿أياماً معدودات﴾ أي أياماً قلائل ، والمقصود بهذه الأيام القلائل المعدودات هي شهر رمضان ، والتعبير بكونها معدودات للإشعار بتيسيرها وتسهيلها وأنها يمكن ضبطها ، وقد جرت عادة التشريع في الإسلام على مراعاة إعداد الأنفس لاستقباله ، كما شرعت الصلاة ركعتين ركعتين ثم أقرت في السفر وزيدت في الحضر ، وكذلك الصيام فقد كان رسول الله ﷺ في السنة الأولى من الهجرة قد حتم صوم يوم عاشوراء وأمر به ، فلما فرض رمضان في السنة الثانية للهجرة صار صيام يوم عاشوراء تطوعاً ، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قدم المدينة فوجد اليهود صياماً يوم عاشوراء فقال لهم رسول الله ﷺ : «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟» فقالوا : هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه وغرق فرعون وقومه ، فصامه موسى شكراً فنحن نصومه ، فقال رسول الله ﷺ : «فنحن أحق وأولى بموسى منكم» فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصيامه . كما روى مسلم من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يأمر بصيام يوم عاشوراء ، ويحثنا عليه ، ويتعاهدنا عنده ، فلما فرض رمضان لم يأمرنا ولم ينهنا عنه ، ولم يتعاهدنا عنده . اهـ ولما فرض رمضان جعل الصيام من بعد صلاة العشاء أو النوم ولو بعد المغرب إلى غروب الشمس لكنه وسّع فيه وأذن للصائم إذا رغب في الفطر أن يفطر ويطعم عن كل يوم مسكيناً على سبيل الحتم والإلزام مع ترغيب المسلمين بأن الصيام خير لهم ، وكان المقصود بذلك هو تعريف المسلمين بنعمة الله عليهم

إذا جعل لهم الصيام من طلوع الفجر إلى غروب الشمس وهو التشريع المستقر إلى يوم القيامة، وقوله عز وجل: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي فمن كان منكم أيها المسلمون مريضاً في رمضان أو مسافراً فإن الله تبارك وتعالى رفع عنه المشقة بسبب مرضه أو سفره فرتخص له في أن يفطر وقت مرضه في رمضان أو وقت سفره فيه، وعليه — إذا زال عنه المرض أو إذا حضر المسافر وزالت عنه علة السفر — أن يقضي بعدة ذلك من أيام في غير رمضان ولا فدية عليه. وقوله عز وجل: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامَ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ، وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي وأما الصحيح المقيم الذي يطبق الصيام فإنه يجب عليه الصيام وجوباً مطلقاً فإن شاء صام وإن شاء أفطر ولزمه عن كل يوم يفطره من رمضان فدية هي إطعام مسكين، فإن أطعم عن كل يوم أكثر من مسكين فهو خير له، وإن صام فهو أفضل من الإطعام. وكون بعض الواجب المخير أفضل من بعض لا إشكال فيه عند أهل العلم كما في خصال كفارة اليمين حيث أوجب الله تبارك وتعالى على من وجبت عليه كفارة يمين أن يُخَيَّرَ بين إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة، ولا شك أن تحرير الرقبة أفضل من إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم، وقد ذهب عامة أصحاب رسول الله ﷺ عدا ابن عباس رضي الله عنهما إلى أن قوله تبارك وتعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامَ مَسْكِينٍ﴾ منسوخ بقوله عز وجل: ﴿شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي ليست بمنسوخة بل هي مخصوصة بالشيخ الكبير والفاني والمرأة الكبيرة ممن يشق عليه الصيام فإنه يفطر ويطعم عن كل يوم مسكيناً. وكان يقرأ هذه الآية: ﴿يُطَوَّقُونَهُ﴾ أي يُكَلِّفُونَهُ إِطَاقَتَهُ، وعلى تفسير ابن عباس يمكن أن يكون

الكلام على تقدير «لا» في قوله عز وجل : ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾ أي وعلى الذين لا يطيقونه ، والعرب قد تحذف الحرف وهو مراد ، أو قد تذكره وهو غير مراد لعلم السامع بالمراد ، كقوله تبارك وتعالى : ﴿قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف﴾ أي قالوا : تالله لا تفتأ تذكر يوسف ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى﴾ أي ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن لا يؤتوا أولي القربى ، ومنه قول امرئ القيس :
فقلت يمين الله أبرح قاعدا وإن قطعوا رأسي لديك وأوصالي
أي لا أبرح قاعدا ، لأن العرب لا يستعملون : فتى وبرح إلا منفية فإذا جاءت بغير حرف النفي علم قطعا أنه مراد . ومثال زيادة (لا) وهي غير مرادة قوله تعالى : ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله﴾ أي ليعلم أهل الكتاب . ويكون الحذف أو زيادة الحرف لقصد بلاغي ، قال البخاري في صحيحه : باب ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية﴾ قال ابن عمر وسلمة بن الأكوع : نسختها ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون﴾ .
وقال ابن نُمير : حدثنا الأعمش حدثنا عمرو بن مرة حدثنا ابن أبي ليلى حدثنا أصحاب محمد ﷺ : نزل رمضان فشقّ عليهم فكان من أطعم كل يوم مسكينا ترك الصوم ممن يطيقه ، ورخص لهم في ذلك فنسختها ﴿وأن تصوموا خير لكم﴾ فأمروا بالصوم . حدثنا عيَّاش حدثنا عبد الأعلى حدثنا عُبيد الله عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قرأ ﴿فدية طعام مساكين﴾ قال : هي منسوخة . وأخرج مسلم من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ كان من أراد أن يفطر ويفتدي حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها .

قال تعالى : ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون﴾ .

هذا هو الطَّور الثاني من أطوار الصوم وهو إيجاب صوم شهر رمضان على التعيين ونسخ ما كان من التخيير في وجوبه بين الصيام والإطعام ، وقد ذكرت في تفسير قوله عز وجل في الآية السابقة : ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ أن عامة أصحاب رسول الله ﷺ ما عدا ابن عباس رضي الله عنهما قد ذهبوا إلى أن قوله تعالى : ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ منسوخ بقوله تبارك وتعالى : ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ وأنه تعيّن على كل صحيح مقيم من المسلمين المكلفين صيام ما يشهده من شهر رمضان ، وبذلك سقط إيجاب الصوم على التخيير وثبت التعيين ، وحتى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقرر عدم إيجابه على التخيير كذلك وإنما يجب على التعيين إلا في حق الشيخ الفاني الكبير والمرأة الفانية الكبيرة ، على أن عامة أهل العلم كذلك مع ابن عباس رضي الله عنهما في حق الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة ، ولذلك ثبت أن أنس بن مالك رضي الله عنه لما صار في عَشْر المائة من عمره كان يفطر رمضان ويطعم عن كل يوم مسكينا ، فقد قال ابن كثير رحمه الله : قال البخاري : وأما الشيخ الكبير إذا لم يطق الصيام فقد أطعم أنس بعد ما كَبِرَ عاما أو عامين عن كل يوم مسكينا : خبزاً ولحماً ، وأفطر ، وهذا الذي علّقه البخاري قد أسنده الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده فقال : حدثنا عبد الله بن معاذ حدثنا أبي حدثنا عمران عن أيوب بن

أبي تيممة قال : ضعف أنس عن الصوم فصنع جفنة من ثريد ، فدعا ثلاثين مسكينا فأطعمهم ، ورواه عَبْدُ بنُ حُمَيْدٍ عن روح بن عباد عن عمران وهو ابن جرير عن أيوب به ، ورواه عبد أيضا من حديث ستة من أصحاب أنس عن أنس بمعناه اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ أي الأيام المعدودات هن شهر رمضان ، قال ابن جرير رحمه الله في تفسيره : وقد بينت فيما مضى أن «شهر» مرفوع على قوله : ﴿أياما معدودات﴾ هن شهر رمضان وجائز أن يكون رفعه بمعنى : ذلك شهر رمضان وبمعنى : كتب عليكم شهر رمضان اهـ وشهر رمضان علمٌ جنس مركب تركيبا إضافيا وكذا باقي أسماء الشهور من حيث علم الجنس . وكانت ربيعة تطلق اسم رجب على شهر رمضان فهو رجب ربيعة ، أما مُضَرٌ فكانوا يسمونه شهر رمضان ولذلك لما خطب رسول الله ﷺ في حجته قال في ذكر الأشهر الحرم : «ورجب مُضَرٌ الذي بين جمادى وشعبان» كما رواه البخاري ومسلم من حديث أبي بكرة رضي الله عنه ، وإنما قال ذلك للاحتراز مما تطلقه ربيعة على شهر رمضان إذ تسميه رجا . وقوله عز وجل : ﴿الذي أنزل فيه القرآن﴾ مدح من الله عز وجل وثناء على شهر الصيام من بين سائر الشهور حيث اختاره الله عز وجل من بينهن لإنزال القرآن العظيم والذكر الحكيم . ومعنى إنزال القرآن فيه أن الله بدأ بإنزال القرآن على نبيه ﷺ في هذا الشهر المبارك كما يقول القائل : جاء الشتاء ، لأول يوم منه أي ابتداء دخول الشتاء ، لا أن الشتاء جاء كله في وقت حديثك عن دخوله . ولم يثبت خبر صحيح مرفوع مُسْنَدٌ إلى رسول الله ﷺ بأن القرآن نزل جملة واحدة إلى سماء الدنيا ثم نجمه جبريل على رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة . وقد ألف مفتي الديار السعودية السابق الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله رسالة لبيان بطلان القول بأن القرآن نزل جملة إلى السماء الدنيا وأن جبريل نجمه على رسول الله ﷺ في

ثلاث وعشرين سنة وبيّن رحمه الله أن هذا القول دسيسة اعتزالية لإنكار أن يكون الله تبارك وتعالى تكلم بالقرآن لأن المعتزلة عن الحق ينكرون إثبات صفة الكلام لله عز وجل ، وإن تعجب فعجب لعدم تفتن كثير من العلماء لهذه الدسيسة الاعتزالية ، ومن العجيب كذلك أن القرطبي رحمه الله قال في مقدمة تفسيره : وذكر أبو بكر الأنباري في كتاب الردّ أن الله تعالى أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا ثم فرّق على النبي ﷺ في عشرين سنة . ثم قال القرطبي في تفسير هذه الآية : قوله تعالى : ﴿الذي أنزل فيه القرآن﴾ نصّ في أن القرآن نزل في شهر رمضان ، وهو يبين قوله عز وجل : ﴿حم﴾ والكتاب المبين * إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴿يعني ليلة القدر﴾ ، ولقوله : ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ وفي هذا دليل على أن ليلة القدر إنما تكون في رمضان لا في غيره . ثم قال القرطبي رحمه الله وعفا عنا وعنه : ولا خلاف أن القرآن أنزل من اللوح المحفوظ ليلة القدر - على ما بيناه - جملة واحدة فوُضِعَ في بيت العزة في سماء الدنيا ، ثم كان جبريل ﷺ ينزل به نجماً نجماً في الأوامر والنواهي والأسباب وذلك في عشرين سنة ، وقال ابن عباس : أنزل القرآن من اللوح المحفوظ جملة واحدة إلى الكتبة في سماء الدنيا ثم نزل به جبريل عليه السلام نجوماً - يعني الآية والآيتين - في أوقات مختلفة في إحدى وعشرين سنة ثم قال القرطبي رحمه الله في تفسير قوله عز وجل : ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ وقال الشعبي : المعنى : إنا ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر ، وقيل بل نزل به جبريل عليه السلام جملة واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا إلى بيت العزة ، وأملاه جبريل على السفارة ثم كان جبريل يُنزلُه على النبي ﷺ نجوماً نجوماً ، وكان بين أوله وآخره ثلاث وعشرون سنة قاله ابن عباس وقد تقدم في سورة البقرة ، وحكى المازدي عن ابن عباس قال : نزل القرآن في شهر رمضان وفي ليلة القدر في ليلة مباركة ، جملة واحدة من عند الله من اللوح المحفوظ إلى

السفرة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا، فَنَجَّمَتْهُ السفرة الكرام الكاتبون على جبريل عشرين سنة، وَنَجَّمَهُ جبريل على النبي ﷺ عشرين سنة، قال ابن العربي: وهذا باطل، ليس بين جبريل وبين الله واسطة ولا بين جبريل ومحمد عليهما السلام واسطة. اهـ وبهذا يتضح التناقض بين دعوى الإجماع التي أوردها في تفسير قوله تعالى: ﴿الذي أنزل فيه القرآن﴾ وبين قَوْلَةِ الحق التي فتح الله تعالى بها على القاضي أبي بكر بن العربي رحمه الله وأجزل مثوبته، ولتشريف الله تبارك وتعالى لهذا الشهر المبارك بابتداء إنزال القرآن فيه كان جبريل عليه السلام ينزل كل ليلة في رمضان يعرض عليه رسول الله ﷺ القرآن، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث ابن عباس، رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، وأجود ما يكون في رمضان، لأن جبريل كان يلقاه في كل ليلة في شهر رمضان حتى ينسلخ، يَعْرِضُ عليه رسولُ الله ﷺ القرآن، فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة اهـ ولذلك عُني المسلمون بكثرة قراءة القرآن في شهر رمضان حتى صار يسمّى شهر القرآن. وقوله عز وجل: ﴿هَدَى لِلنَّاسِ﴾ أي هاديا للناس من الضلالة. وقوله: ﴿وبينات من الهدى والفرقان﴾ أي وآيات واضحات جليات مما يهدي إلى الرشد في شئون المعاش والمعاد ويفرق بين الحق والباطل. وقد وَعَتَ الجن هذه الحقيقة عندما سمعت القرآن فقالوا كما ذكر الله عز وجل عنهم: ﴿إنا سمعنا قرآنا عجبا﴾ يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً وقوله عز وجل: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ أي فمن كان منكم أيها المسلمون المكلفون مقيما غير مسافر صحيحا غير مريض في شهر رمضان فيتحتّم عليه الصوم، وقد انعقد إجماع علماء المسلمين على أن الحيض والنفاس يمنعان المرأة من الصوم والصلاة لكنها تقضي ما يفوتها من صوم رمضان دون الصلاة، فقد روى البخاري ومسلم في

صحيحهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ في قصة قوله ﷺ : «إنكن ناقصات عقل ودين» . وفيه : «أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟» قلن : بلى . قال : «فذلكن من نقصان عقلها ، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟» قلن : بلى ، قال : «فذلكن من نقصان دينها» . وقد روى البخاري ومسلم من طريق معاذة قالت : سألت عائشة فقلت : ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ قالت : كان يصيبنا ذلك مع رسول الله ﷺ فنؤمر بقضاء الصوم ، ولا نؤمر بقضاء الصلاة . وقوله عز وجل : ﴿ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾ أي ومن كان مصاباً بمرض يشق معه الصوم أو يؤخر بُرأه أو كان على جناح سفر ، والمقصود بالسفر هنا ما تتغير به الأحكام الشرعية وهو ثمانية وأربعون ميلاً وهي أربعة بُرْد وهي ستة عشر فرسخاً ، وفي البخاري : وكان ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم يقضران ويُفطران في أربعة بُرْد وهي ستة عشر فرسخاً . ولما كانت هذه الآية الكريمة ناسخة للطور الأول من أطوار الصيام ، كان قوله عز وجل : ﴿ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾ ليس لتكرار قوله في الآية السابقة : ﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام﴾ لأنه لو خلا منه هذا المقام ربما توهم متوهم أن هذا الحكم نسخ مع الآية التي نسخ حكمها وهي قوله عز وجل : ﴿أياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ الآية ، وقوله عز وجل : ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ أي يحب الله عز وجل أن يسر عليكم في ما يشرعه لكم من الأحكام ويكره أن يعسر ويشدد عليكم فيما يشرعه لكم من الأحكام لأنكم أمة النبي الذي بعثه الله بالتيسير ولم يبعثه بالتعسير ووصفه بقوله : ﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ والمراد بالإرادة هنا هي

الإرادة الشرعية لا الكونية القدرية التي بمعنى المشيئة ، فإن إرادة الله عز وجل تكون شرعية بمعنى المحبة وتكون كونية قدرية بمعنى المشيئة ، والإرادة الكونية لا تتخلف أبدا فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وهي ملازمة للأمر الكوني على حد قوله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ والأمر الشرعي ملازم للإرادة الشرعية فلا يأمر الله عز وجل إلا بما يحب ولا ينهى إلا عما يكره تبارك وتعالى ولذلك قال عز وجل : ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ وقال عز وجل : ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ يَرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ هو القاعدة الأساسية للتشريع الإسلامي فمَبْنَاهُ على التيسير بحمد الله ومنته ولذلك ما خَيْرَ رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، وكان يكره التنطع والتشدد فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحدا من أصحابه في بعض أمره قال : « بشروا ولا تنفروا ، ويسروا ولا تعسروا » . كما روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يسروا ولا تعسروا ، وسكنوا ولا تنفروا » كما روى البخاري ومسلم من طريق ابن أبي بردة قال : بعث النبي ﷺ جده أبا موسى ومعاذا إلى اليمن فقال : « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا ، وتطاوعا ولا تختلفا » . كما روى مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا : « اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ » . كما روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إِنَّ الدِّينَ يَسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ » . كما روى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : ما خَيْرَ رسول الله ﷺ بين

أمرين أحدهما أيسر من الآخر إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه . اهـ وكيف لا يكون كذلك وقد سباه الله الرؤوف الرحيم ﷺ . وقوله عز وجل : ﴿وَلِتَكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ أي إنما رخص الله عز وجل لكم في الإفطار في شهر الصوم للمرض أو السفر ونحوهما من الأعذار لأنه يحب التيسير عليكم ، وإنما أمركم بالقضاء لتكملوا وتتموا عدة شهركم . وقوله عز وجل : ﴿وَلِتَكْبِرُوا لِلَّهِ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ولتذكروا الله عز وجل وتقولوا : الله أكبر، عند انقضاء عبادتكم وشهر صومكم ولتشكروا الله الذي وفقكم للصيام والعبادة التي يورثكم بها جنات النعيم . وقد نبه الله تعالى المسلمين إلى ذكره وشكره عند قيامهم بأداء شعائرتهم وعبادتهم حيث يقول : ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَاسِكُكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ ولذلك كان رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم يكبرون دبر الصلوات فقد روى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنت أعرف انقضاء صلاة رسول الله ﷺ بالتكبير.

قال تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ * أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةُ الصَّيَامِ الرَّفَثِ إِلَى نِسَائِكُمْ ، هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ، عَلَّمَ اللَّهُ أَنْتُمْ كَتَمْتُمْ تُخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتَمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ، وَلَا تَبَاشَرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ، تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا ، كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿

هذا هو الطَّوْرُ الثالث والأخير من أطوار الصيام الذي استقر عليه حال الصوم في الإسلام ، وقد ذكر الله تبارك وتعالى آية الدعاء متخللة بين آيات الصيام لإرشاد المؤمنين الصائمين إلى الحرص على الدعاء والاجتهاد فيه عند إكمال عدة الصوم وعند كل فطر ، قال ابن كثير في تفسيره : وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام إرشاد إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة بل وعند كل فطر ، كما رواه الإمام أبو داود الطيالسي في مسنده : حدثنا أبو محمد المليكي عن عمرو هو ابن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «للسائم عند إفطاره دعوة مستجابة» فكان عبد الله بن عمرو إذا أفطر دعا أهله وولده ودعا . وقال أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه في سننه : حدثنا هشام بن عمار أخبرنا الوليد بن مسلم عن إسحاق بن عبد الله المدني عن عبيد الله بن أبي مليكة عن عبد الله بن عمرو قال : قال النبي ﷺ : «إن للسائم عند فطره دعوة ما تُردّ» . قال عبيد الله بن أبي مليكة : سمعت عبد الله بن عمرو يقول إذا أفطر : اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن تغفر لي . وفي مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي والنسائي وابن ماجه

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «ثلاثة لا تُردّ دعوتهم الإمام العادل ، والصائم حتى يفطر ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة وتُفتح لها أبواب السماء ويقول : بعزتي لأنصرنك ولو بعد حين» اهـ وقوله عز وجل : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ أي وإذا استفهم منك المؤمنون عن ربهم فعرفهم بأني قريب منهم بعلمي لا يحتاج من يدعوني ويسألني إلى وسطاء أو شفعاء أو صراخ ورفع صوت ، وإني أشاهد حركاتكم وسكناتكم فادعوني تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول في أية ساعة شئتم ما دمتم في مكان كريم فإنني أستجيب دعاءكم وأعطيكُم مسألتكم وليكن توسلكم بالاستجابة لديني والانقياد لأمري فإنكم إن أفردتموني بالعبادة وطلبتُم كلِّ حوائجكم مني رشدتم واهتديتم . وقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن قيس أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير فقال رسول الله ﷺ : «يا أيها الناس ازْبَعُوا على أنفسكم ، إنكم لا تدعون أصمّ ولا غائبا ، إنكم تدعون سميعا بصيرا وهو معكم ، والذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته» . قال أبو موسى : وأنا خلفه أقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، في نفسي ، فقال : «يا عبد الله بن قيس ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟» فقلت : بلى يا رسول الله . قال : «لا حول ولا قوة إلا بالله» وقد أرشد رسول الله ﷺ المسلمين أن يطلبوا من الله حوائجهم وهم واثقون في رحمته وجوده ، فقد روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إذا دعا أحدكم فلا يقل : اللهم اغفر لي إن شئت ، ارحمني إن شئت ، ارزقني إن شئت ، وليعزم مسألته ، إنه يفعل ما يشاء ولا مُكرهَ له» كما روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إذا دعا أحدكم فلا يقل :

اللهم اغفر لي إن شئت ، ولكن ليغزِم ، وليُعْظَم الرغبة فإن الله لا يتعاضمه شيء أعطاه» كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «يقول الله تعالى : أنا عند ظنّ عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم» . وقوله عز وجل : ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ الآية ، هذه هي الآية الكريمة التي ختم الله بها أحكام الصوم في الإسلام ، وقرر الطَّوْر الثالث والأخير من أطواره ، وهو نسخ ما كان في الطَّوْر الأول والثاني من أطوار الصيام حيث كان وقت الفطر من غروب الشمس إلى صلاة العشاء أو النوم قبلها ، فكان من صلى العشاء حرم عليه الأكل والشرب وسائر المفطرات إلى غروب شمس اليوم الثاني وكذلك من نام قبل صلاة العشاء يحرم عليه بمجرد النوم الأكل أو الشرب أو قربان النساء إلى غروب شمس اليوم الثاني ، وكان المقصود من ذلك التشريع هو تدريب المسلمين على الصبر وتعريفهم بفضل الله عليهم إذا نسَخَ هذا الحكم وجعل وقت الإمساك من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، قال البخاري في صحيحه : باب قول الله جلّ ذكره : ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ حدثنا عُبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء رضي الله عنه قال : كان أصحاب محمد ﷺ إذا كان الرجل صائماً فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي ، وإن قيس بن صِرْمة الأنصاري كان صائماً ، فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال لها : أعندك طعام؟ قالت : لا ، ولكن أنطلق فأطلبُ لك ، وكان يومه يعمل ، فغلبته عيناه ، فجاءته امرأته فلما رآته قالت : خيبة لك ، فلما انتصف النهار غُشيَ عليه ، فذَكَرَ ذلك للنبي

ﷺ فنزلت هذه الآية : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةُ الصِّيَامِ الرَّفَثِ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ ففرحوا بها فرحا شديدا ، ونزلت : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ ﴾ . هذا لفظ حديث البراء الذي أورده البخاري رحمه الله في كتاب الصوم من صحيحه من طريق أبي إسحاق عن البراء ، وأورده في التفسير من طريق أبي إسحاق أيضا قال : سمعت البراء رضي الله عنه : لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله ، وكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله : ﴿ عَلَّمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةُ الصِّيَامِ الرَّفَثِ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ أي أباح لكم أيها المسلمون الذين كتب عليكم الصيام قُرْبَانَ زَوَاجَاتِكُمْ فِي لَيْلَةِ الصِّيَامِ ، والليلة تطلق على الوقت من غروب الشمس إلى طلوع الفجر الصادق ، والمراد بالرفث هنا مقارفة الرجل أهله وَغَشْيَانَهَا ، وقوله عز وجل : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ أي نساؤكم سِتْرٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ سِتْرٌ لَهُنَّ ، وهذا كناية عن صعوبة الصبر عنهن مع شدة مخالطتهن بما جبل الله عليه الرجل مع المرأة من الغريزة الجنسية ، حيث يصير كل واحد منهما بالنسبة للآخر لباسا له لاعتناقهما واشتغال كل منهما على صاحبه كما يشتمل الثوب على لابسِه ، قال النابغة الجعدي :

إِذَا مَا الضَّجِيعُ ثَنَى عِطْفَهَا تَدَاعَتْ فَكَانَتْ عَلَيْهِ لِبَاسَا
واللباس قد يطلق بمعنى السكن كما قال عز وجل : ﴿ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ أي سكنا ، على حد قوله تبارك وتعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصَرًا ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ كأنه عز وجل يقول : هن سكن لكم وأنتم سكن هن ، وقوله عز

وجل : ﴿ علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم ﴾ أي علم الله عز وجل ما كان يحدث بالليل بينكم وبين نسائكم من تزوين أنفسكم لكم حبّ وقاع نسائكم ، كما أُثِرَ أن بعض الصحابة رضي الله عنهم جاء إلى بيته قبل العشاء فأراد امرأته فقالت : إني قد نمت ، فظن أنها تعتل وواقعها ، وقد تفضل الله تبارك وتعالى فسجّل في كتابه الكريم توبته عليهم ، وعفوه عنهم ، ورُبّت ضارة نافعة ، وقوله عز وجل : ﴿ فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم ﴾ أي فقد أبحث لكم قربان نسائكم الآن فباشروهن متى شئتم من ليلة الصيام ، وأصل المباشرة إلزاق البشرة بالبشرة أي الجلد بالجلد وهو كناية عن مقارفة الرجل حليلته ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وابتغوا ما كتب الله لكم ﴾ أي ولتكن رغبتكم طلب الأولاد ، قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره : وقوله : ﴿ وابتغوا ما كتب الله لكم ﴾ قال أبو هريرة وابن عباس وأنس وشُرَيْح القاضي ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطاء والربيع بن أنس والسُّدِّيّ وزيد بن أسلم والحكم بن عُثَيِّبة ومقاتل بن حيان والحسن البصري والضحاك وقتادة وغيرهم : يعني الولد اهـ . وقوله عز وجل : ﴿ وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ﴾ أي وقد أبحث لكم سائر المفطرات فمتى أردتم الأكل أو الشرب في أية ساعة من ليلة الصيام فكلوا واشربوا إلى طلوع الفجر فإذا طلع الفجر فأمسكوا عن سائر المفطرات إلى غروب الشمس . قال البخاري في صحيحه في كتاب الصوم : باب قول الله تعالى : ﴿ وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ﴾ فيه البراء عن النبي ﷺ ، ثم ساق بسنده إلى عديّ بن حاتم رضي الله عنه قال : لما نزلت : ﴿ حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود ﴾ عَمَدْتُ إلى عِقَالٍ أسود وإلى عِقَالٍ أبيض فجعلتهما تحت وسادتي ، فجعلت

أنظر في الليل فلا يستبين لي فغَدَوْتُ على رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك فقال : «إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار» . ثم ساق البخاري رحمه الله بسنده إلى سهل بن سعد رضي الله عنه قال : أنزلت : ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾ ولم ينزل ﴿من الفجر﴾ فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود ولم يزل يأكل حتى يتبين له رؤيتهما فأنزل الله بعدُ : ﴿من الفجر﴾ فعلموا أنه إنما يعني الليل والنهار . كما ساق البخاري في كتاب التفسير من صحيحه بسنده إلى عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود؟ أهما الخيطان؟ قال : «إنك لعريض القفا إن أبصرت الخيطين» ثم قال : «لا، بل هو سوادُ الليل وبياض النهار» وفي لفظ للبخاري من طريق الشعبي عن عدي قال : أخذ عدي عقلا أبيض وعقلا أسود حتى كان بعض الليل نظر فلم يستبينَا، فلما أصبح قال : يا رسول الله جعلت تحت وصادتي عقالين . قال : «إِنَّ وَسَادَكَ إِذَا لَعْرِضُ أَنْ كَانَ الْخِيطُ الْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ تَحْتَ وَسَادَتِكَ» . وقوله عز وجل : ﴿ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد﴾ أي ولا تقربوا نساءكم وقت اعتكافكم وإقامتكم في المساجد . والاعتكاف في اللغة الملازمة ، وفي الشرع الإقامة في المسجد وقتا مخصوصا التماسا لمرضاة الله عز وجل . وقد استنبط العلماء من ذكر الاعتكاف في آخر أحكام الصيام في القرآن الكريم ، ومن اعتكاف رسول الله ﷺ في العشر الأواخر من رمضان أنهم يذكرون أحكام الاعتكاف بعد أحكام الصيام في كتبهم . وقوله عز وجل : ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾ أي هذه الأحكام التي فصلتها لكم عن الصيام هي مراسيم وضعها الله عز وجل لخير دنياكم وأخراكم وقد بينت لكم ما حرّمته عليكم في وقت الصيام فلا تنتهكوها ولا تبدّلوا أو تحرفوا منها شيئا وحافظوا عليها . وقوله : ﴿كذلك

يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون ﴿ أي كما بين الله هذه الحدود يبين جميع ما
يحتاجه الناس ليفوزوا بتقوى الله لينالوا عز الدنيا وسعادة الآخرة حيث
يسلكون الصراط المستقيم والمنهج القويم .

قال تعالى : ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتُدلّوا بها إلى الحَكَمِ لتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ * يسألونك عن الأهلّة قل هي مواقيت للناس والحج ، وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البرّ من اتقى ، وأتوا البيوت من أبوابها ، واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ .

بعد أن ذكر الله تبارك تعالى في ختام المسك من أحكام الصيام والاعتكاف أنه يبين آياته للناس ليسلك المستمسكون بها سبيل التقوى ، ويندرجوا في سلك المتقين ، شرع هنا يضع لهم قواعد المعاملات وأساس المعاوضات حيث يقول : ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتُدّلّوا بها إلى الحَكَمِ لتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال القاضي أبو بكر بن العربي في كتابه أحكام القرآن : هذه الآية من قواعد المعاملات ، وأساسُ المعاوضات يَنْبَنِي عليها وهي أربعة : هذه الآية ، وقوله تعالى : ﴿وأحلّ الله البيع وحرم الربا﴾ وأحاديث الغرر ، واعتبار المقاصد والمصالح اهـ وقوله عز وجل : ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ يشمل أكل الإنسان مال غيره بالباطل ، كما يشمل أكل الإنسان مال نفسه في غير ما أباح الله عز وجل ، كأن يشتري بها لحم خنزير ليأكله أو خمرا ليشربه . ولا شك أن المقصود الأصلى هو الأول بدليل قوله عز وجل في نفس هذه الآية : ﴿وتُدّلّوا بها إلى الحَكَمِ لتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ومعنى : ﴿ولا تأكلوا﴾ أي ولا تأخذوا ولا تتعاطوا ، لكن لما كان المقصود من أخذ المال هو التمتع به في شهوتي البطن والفرج التي شرع الصيام لقمعهما قال تعالى : ﴿ولا تأكلوا﴾ فخص شهوة البطن لأنها المثيرة لشهوة الفرج . وقوله عز وجل : ﴿ولا تأكلوا أموالكم﴾ بإضافة الأموال إليهم مع أنها أموال غيرهم وأن المقصود الأول : لا يأكل بعضكم مال بعض ، لأن الأصل في المسلم أنه

أخو المسلم ، وعليه المحافظة على ماله كما يحافظ على مال نفسه ، كما قال رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَّى» . ومثل هذا التعبير في هذا المقام الكريم قوله عز وجل في سورة النساء : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ، وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ وكما قال عز وجل في سورة النور : ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ فقوله في آية سورة النساء : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي لا يقتل بعضكم بعضا . وقوله تعالى في سورة النور : ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي فليسلم بعضكم على بعض . ومعنى قوله : ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ أي بما لا يحل شرعا ولا يفيد مقصودا لأن الشرع نهى عنه وحرّم تعاطيه ، كالنهب والغصب والخداع والقمار والرشوة وكلّ ما لم تَطِبْ به نفس صاحبه ، أو حرّمته الشريعة وإن رضي بذلك مالكه كمهر البغيّ وحُلوان الكاهن وأثمان الخمر والخنازير ، وقد ذكرت في تفسير قوله عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أن أكل الحلال الطيب من أكبر العون على طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ وأن اللقمة من الحرام يقذفها الرجل في جوفه قد تحول بينه وبين قبول دعائه وعمله الصالح دهرًا طويلا ، وأشارت إلى أن الحلال يؤثر في القلب صلاحا وأن الحرام يؤثر في القلب فسادا ، وقوله عز وجل : ﴿وَتُذَلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي ولا تُذَلُّوا ولا تحاجّوا ولا تخاصموا ولا ترفعوا دعاوى باطلة إلى الحكام لتقتطعوا قطعة من أموال الناس ظلما وأنتم تعلمون في قرارة نفوسكم أنكم ظالمون آثمون . وبهذا كأنه يقول لهم : لا تجمعوا بين

أكل المال بالباطل وبين الإدلاء إلى الحكام بالحجج الباطلة، يقال: أدلى الرجل بحجته أو بالأمر الذي يرجو الغلبة به تشبيهاً بالذي يرسل الدلو في البئر ليستخرج الماء، يقال: أدلى دلوه أي أرسلها في البئر. وفي الآية الكريمة إشعار بأن من ادّعى عند الحاكم بدعوى وهو يعلم أنه كاذب في دعواه فحكم الحاكم بما ادّعاه على خصمه فإن حكم الحاكم هذا لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً ولا وزر على القاضي الذي حكم في هذه القضية ما دام قد قضى بما ظهر له من الأدلة التي قد يكون فيها شهادة زور؛ لأن القاضي لا يعلم الغيب، ولا يعلم الباطن إلا الظاهر الباطن علام الغيوب. وقد حذر رسول الله ﷺ هؤلاء الذين يدلون بقضاياهم إلى الحكام ليأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم حتى ولو كان القاضي محمداً رسول الله ﷺ الذي يقضي على ما يظهر له ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عز وجل عليه، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه، فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار» كما روى مسلم من طريق علقمة بن وائل عن أبيه قال: جاء رجل من حضرموت ورجل من كندة إلى النبي ﷺ فقال الحضرمي: يا رسول الله إن هذا غلبني على أرض لي، فقال الكندي: هي أرضي وفي يدي، ليس له فيها حق، فقال النبي ﷺ للحضرمي: «ألك بينة؟» قال: لا. قال: «فلك يمينه» قال: يا رسول الله إن الرجل فاجرٌ، لا يبالي على ما حلف عليه، وليس يتورع من شيء، قال: «ليس لك منه إلا ذلك» فانطلق ليحلف، فقال رسول الله ﷺ لما أدبر: «لئن حلف على ماله ليأكله ظلماً لَيَلْقَيْنَ الله وهو عنه مُعْرِضٌ». وقد روى مسلم كذلك من حديث أبي ذر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ

يقول : « من ادعى ما ليس له فليس منا ، ولْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » . وقوله عز وجل : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتٌ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ لم يرد في خبر صحيح ثابت كيفية سؤالهم رسول الله ﷺ عن الأهلة وهل كان عن فوائدها أو كان عن حقيقتها؟ وظاهر الجواب في الآية أنه كان عن منافعها وفوائدها ، فإن كان السؤال عن حقيقتها كان الجواب من الأسلوب البلاغي المعروف بأسلوب الحكيم ، لأن السؤال عن حقيقتها وذاتها قليل الجدوى بالنسبة لعامة البشر كما لو سألك سائل عن تكوين شجرة من الشجر فتجيبه ببيان فوائدها ومنافعها لتلفت انتباهه بأن هذا هو الذي ينبغي أن يسأل عنه ، وقد لفت الفخر الرازي رحمه الله الانتباه إلى أن سؤالهم رسول الله ﷺ ورد في القرآن الكريم في أربعة عشر موضعا قال : ثمانية منها في سورة البقرة ، وأولها : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ وثانيها هذه الآية ثم الستة الباقية بعد في سورة البقرة فالمجموع ثمانية في هذه السورة ، والتاسع قوله تعالى في سورة المائدة : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ ﴾ والعاشر في سورة الأنفال ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ والحادي عشر في بني إسرائيل ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ والثاني عشر في الكهف ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ ﴾ والثالث عشر في طه ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ ﴾ والرابع عشر في النازعات ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ ﴾ وهذه الأسئلة ترتيب عجيب : اثنان منها في الأولى في شرح المبدأ فالأول قوله : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي ﴾ وهذا سؤال عن الذات ، والثاني قوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ ﴾ وهذا سؤال عن صفة الخلاقية والحكمة في جعل الهلال على هذا الوجه ، واثنان منها في الآخرة في شرح المعاد أحدهما قوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ ﴾ والثاني قوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسَاهَا ﴾ ونظير هذا أنه ورد في القرآن سورتان أولهما ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ إحداهما في النصف الأول وهي السورة الرابعة من سور النصف الأول فإن

أولاهما الفاتحة وثانيتهما البقرة وثالثتها آل عمران ورابعتها النساء ، وثانيتهما في النصف الثاني من القرآن وهي أيضا ، السورة الرابعة من سور النصف الثاني ، أولاهما مريم ، وثانيتهما طه وثالثتها الأنبياء ورابعتها الحج ، ثم ﴿يا أيها الناس﴾ التي في النصف الأول تشتمل على شرح المبدأ فقال : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ و﴿يا أيها الناس﴾ التي في النصف الثاني تشتمل على شرح المعاد فقال : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾ فسبحان من له في هذا القرآن أسرار خفية ، وحكم مطوية لا يعرفها إلا الخواص من عباده اهـ والأهلة جمع هلال ، ولا شك أن القمر في أول ليلة من الشهر يسمى هلالاً وإنما جمع وهو واحد في الحقيقة من حيث كونه هلالاً واحداً في شهر غير كونه هلالاً في سائر الشهور ، ومعنى قوله : ﴿هي مواقيت للناس والحج﴾ أي هذه الأهلة ليعرف الناس بها مواقيت شهر الصوم وانتهائه وعدد نسايتهم ، وأجال ديونهم ومعاملاتهم ، ومدة الحمل والرضاع والحج ، إلى غير ذلك من مصالح العباد التي لا تحصى وكمعرفة الأشهر الحرم التي لا يحل القتال فيها . وتخصيص الحج هنا بالذكر مع أنه داخل في عموم اللفظ الأول لأن أهل الجاهلية كانوا يحجون بالعدد ويبدلون الشهور ويصيرون إلى النسيء ، فنص الله تبارك وتعالى على الحج هنا لإبطال أعمال أهل الجاهلية في الحج وجعله مقروناً بالأهلة ، كما ربط رسول الله ﷺ الصيام برؤية الهلال حيث قال ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غمَّ عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين» . هذا وقد جعل الله تبارك وتعالى الزمان مقدراً من أربعة أوجه وهي السنة والشهر واليوم والساعة ، فالسنة عبارة عن الزمان الحاصل من حركة الشمس من نقطة معينة من الفلك بحركتها الحاصلة عن خلاف حركة الفلك إلى أن تعود إلى تلك النقطة

بعينها ، والشهر عبارة عن حركة القمر من نقطة معينة من فلكه الخاص إلى أن يعود إلى تلك النقطة . وأما اليوم بليته فهو من مفارقة الشمس أفق المشرق وعَوْدُها إليه من الغداة . وأما الساعة فهي جزء من أربعة وعشرين جزءاً من اليوم بليته . ولا شك أن معرفة المواقيت بالهلال أيسر على جميع الأمم من معرفتها بالشمس ، إلا ما كان مرتبطاً بالشمس كمواقيت الصلاة التي تتكرر كل يوم وليلة خمس مرات . وقوله عز وجل : ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ هو نظير قوله عز وجل : ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ الآية . وقد تقدم بيان ذلك . قال البخاري في صحيحه : باب قوله : ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء قال : كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره فأنزل الله : ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ وقد ساقه البخاري في الحج من طريق شعبة عن أبي إسحاق عن البراء رضي الله عنه قال : نزلت هذه الآية فينا ، كانت الأنصار إذا حجّوا فجاءوا لم يدخلوا من قِبَلِ أبواب بيوتهم ولكن من ظهورها ، فجاء رجل من الأنصار فدخل من قِبَلِ بابه ، فكأنه عُبِّرَ بذلك ، فنزلت : ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ هذا وفي قوله عز وجل : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى ﴾ وقوله في نفس الآية : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ تأكيد لبيان أن تقوى الله عز وجل سبب للفلاح والفوز والسعادة في الدنيا والآخرة وأن مدار الأحكام الشرعية على تربية النفوس عليها لتحصيل مَعِيَّةِ الله عز وجل الخاصة بالتأييد والعون والنصر والتوفيق كما قال عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ جعلنا الله بفضله منهم .

قال تعالى : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ * واقتلوهم حيث ثقتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم، والفتنة أشد من القتل، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم، كذلك جزاء الكافرين * فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم ﴿

بعد أن أكد الله تبارك وتعالى الأمر بتقواه وبين أن تقواه عز وجل سبب لفلاح المتقين أمر في هذا المقام الكريم بأعلى درجات التقوى وأشد سبلها وأشقها على النفس الإنسانية وهو قتال المشركين وجهادهم لإعلاء كلمة الله الذي يستجلب لهم معية الله بنصرهم وتأييدهم كما قال عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ وقد مرّ تشريع الجهاد بأطوار ثلاثة بعدد الأطوار التي مرّ بها تشريع الصيام، حيث كان القتال ممنوعاً في أول الإسلام قبل الهجرة، وبعد أن صار للمسلمين دولة في المدينة أُذِن لهم بقتال من قاتلوهم وأخرجوهم من ديارهم، ثم أمروا بالقتال حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، إذ بعد تمامبيعة العقبة الثانية قال العباس بن نضلة رضي الله عنه لرسول الله ﷺ ليلتها : والذي بعثك بالحق إن شئت لَنَمِيلَنَّ على أهل منى غداً بأسيا فنا، فقال رسول الله ﷺ : «لم نؤمر بذلك» كما جاء في حديث كعب بن مالك الذي أخرجه ابن إسحاق بسند صحيح، وكان كثير من المسلمين يتمنون أن يأذن الله لهم في قتال أعدائهم، وإلى ذلك يشير الله تبارك وتعالى في محكم كتابه حيث يقول في سورة القتال : ﴿ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة﴾ أي يأذن الله لنا فيها بقتال الكفار بدليل قوله : ﴿فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت

فأولى لهم * طاعةٌ وقولٌ معروفٌ فإذا عَزَمَ الأمرُ فلو صدَقوا اللهَ لكان خيرا لهم * . وكان المشركون لا يفتأون يصدون عن سبيل الله ويؤذون أولياءه ، حتى قتلوا سُمَيَّةَ أم عمار وزوجها ياسرا رضي الله عنهم ، فلما مكَّن الله تعالى لرسوله محمد ﷺ وللمسلمين بالمدينة أذن الله تعالى لهم في قتال أعدائهم حيث يقول : ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خَوَّانٍ كفورٍ ﴾ * أذن للذين يُقَاتِلُونَ بأنهم ظَلَمُوا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أُخْرِجُوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربُّنا الله ولولا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * . قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري في كتاب المغازي : قال الزهري : أوَّل آية نزلت في القتال كما أخبرني عروة عن عائشة : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ﴾ أخرجہ النسائي وإسناده صحيح اهـ ولا شك أن شرعية القتال في الإسلام ليست بِدَعَا في شرائع الرسل عليهم الصلاة والسلام ولا في أنظمة الأمم ، بل كانت شريعة الإسلام في هذا الباب وغيره أرحم الشرائع وأكملها وأتقنها وأحسنها ؛ إذ كانت تنهى عن قتل النساء والصبيان والشيوخ المسنين وتنهى عن الغدر والتمثيل بجثث الأعداء ، وقد حاول بعض أعداء الإسلام من اليهود والنصارى والملاحدة أن يُلبَّسوا على بعض الأغرار بأن الإسلام إنما انتشر بالسيف ، فقال بعض الناس من المنتسبين للعلم : إن القتال في الإسلام للدفاع فقط ، وتغافلوا عن الآيات الكثيرة والأحاديث الصحيحة الثابتة في أن الجهاد الحق إنما هو ما كان لإعلاء كلمة الله ، ونسي هؤلاء أو تناسوا أن الشرائع السماوية السابقة كلّها متّفقة على الجهاد لإعلاء كلمة الله ، وأنها ما كانت تُبيحُ الأُسر إلا بعد التقتيل الشديد في أعداء الله ، وإلى ذلك يشير قوله عز وجل : ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أَسْرَى حَتَّى يُبْخِنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي حتى يبالغ في قتل الكفار ويوسعهم

جراحة إلى أن تَغْلُظ الأرض من دمائهم وجثثهم ، وفي الإصحاح العشرين من سفر التثنية في الفقرة العاشرة إلى السادسة عشرة من التوراة التي بيد اليهود والنصارى يقول : حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكلّ الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ، ويُستَعَبَد لك ، وإن لم تُسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الربّ إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحدّ السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكلّ ما في المدينة كلّ غنيمتها ، فتغنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الربّ إلهك ، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا ، التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا ، وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الربّ إلهك نصيبا فلا تَسْتَبِق منها نَسَمَةً ما اهر على أن اليهود والنصارى لعنهم الله لم يقفوا في هذا الباب عند حدود ما كان قد شرع لهم على ألسنة أنبيائهم ، بل كانوا لا يتركون حيّاً يمشي على الأرض في المدن والقرى التي يحاربونها ، وما محاكم التفتيش التي أقامها النصارى ضد مسلمي الأندلس ولا مذابح اليهود للمسلمين في فلسطين ولبنان بخافية على أحد مع الفارق العظيم بين معاملة أهل الإسلام لمن يكون تحت أيديهم من الكفار من الرحمة والإحسان وبين معاملة هؤلاء الضالين . وقوله عز وجل : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي وحاربوا ابتغاء مرضاة الله الذين يحاربونكم من الكفار ولا تتجاوزوا قتالهم فلا تمثّلوا بجثثهم ولا تغدروا ولا تقتلوا صغيرا ولا امرأة ولا شيخا مُسنّاً من لا همّ لهم بقتالكم ، ولا يكن لكم قصد في قتال من تقتلونهم سوى إخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام ، ولذلك روى مسلم في صحيحه من حديث سليمان بن بُرَيْدة عن أبيه بريدة قال : كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله

وبمن معه من المسلمين خيرا، ثم قال : «اغزوا باسم الله في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تَغْلُوا ولا تَغْدِرُوا ، ولا تَمَثَّلُوا ، ولا تقتلوا وليدا ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادْعُهُمْ إلى ثلاث خصال فإِيتَهُنَّ أجابوك إليها فاقْبَلْ منهم وكُفَّ عنهم : ادْعُهُمْ إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، فإن أبَوْا فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ولا يكون لهم في الغنيمة والفِيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبَوْا فاسأَلهم الجزية ، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم ، فإن هم أبَوْا فاستعن بالله وقاتلهم ، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تفعل ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك ، فإنكم أن تُخْفِرُوا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تُخْفِرُوا ذمة الله وذمة رسوله ، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تُنزِلَهُمْ على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا» كما روى البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ رأى امرأة مقتولة في بعض مغازيه فأنكر قتل النساء والصبيان . وقوله عز وجل : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي إنَّ الله يُبْغِضُ الظَّالِمِينَ من أي جنس ومن أي لون لأنه حرَّم الظلم على نفسه وجعله بين عباده محرَّما ، وقوله عز وجل : ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وحيث أصبتم مَقَاتِلَهُمْ وتمكَّنتم من قتلهم ، واحرصوا على تطهير مكة شرفها الله من المشركين النَّجَس ، ولستم بظالمين لهم لأنكم أحق ببيت الله وحرمة منهم وقد أخرجوا المهاجرين منه وأبعدوهم عن ديارهم . وقوله عز وجل : ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي وإصرار المشركين على الكفر بالله والصدِّ عن سبيله ، وتعذيبهم لمن يتمكنون منه من المسلمين ليرجع عن دين الإسلام أبلغ

وأشد وأعظم وأطم من قتل هؤلاء المشركين . وقوله عز وجل : ﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم﴾ أي ولا تبدؤوا المشركين بالقتال في مكة ببلد الله الحرام حتى يبدؤوا هم في قتالكم فإن شرعوا في قتالكم عند المسجد الحرام فاحرصوا على قتلهم واجتثاث جذورهم ، وفي قوله : ﴿فإن قاتلوكم فاقتلوهم﴾ ولم يقل : فقاتلوهم . لإفادة أن من بدأ بالقتال في مكة يجب قتله لانتهاكه حرم الله الذي حرّمه يوم خلق السموات والأرض ، ولذلك قال عز وجل هنا : ﴿كذلك جزاء الكافرين﴾ وهو يفيد أن من بدأ بالقتال في حرم مكة صار مرتدّا عن دين الإسلام واستحق القتل لو كان في الأصل منتسبا للإسلام لأن قوله : ﴿فاقتلوهم﴾ مُرتَّب على بدئهم بالقتال عند المسجد الحرام لا على كفرهم الأصلي إذ لو كان على كفرهم الأصلي ما اشترط فيه ، وقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة : «إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يُغصّد شوكه ، ولا يُنفّر صيده ، ولا يُلْقَطُ لُقْطته إلا من عرفها ، ولا يُخْتَلَى خلاها» فقال العباس : يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لِقِنينهم ولبيوتهم؟ فقال : «إلا الإذخر» كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي شريح العدوي رضي الله عنه أنه قال لعمر بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة : ائذن لي أيها الأمير أحدثك قولاً قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح ، سمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلم به ، حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : «إن مكة حرّمها الله ولم يحرمها الناس ، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ، ولا يغصّد بها شجرة ، فإن أخذ ترخص لقتال رسول الله ﷺ فقولوا له : إن الله أذن لرسوله ﷺ ولم يأذن لكم ،

وإنما أذن لي ساعة من نهار وقد عادت حُرْمَتُهَا اليوم كحرمتها بالأمس ،
وُلِّيْلَغُ الشاهدُ الغائبُ « فقل لأبي شُرَيْح : ما قال لك عمرو؟ قال : أنا أعلم
بذلك منك يا أبا شُرَيْح ، إنَّ الحَرَمَ لا يُعِيدُ عاصيا ، ولا فارًّا بدم ، ولا فارًّا
بِخَرْبَةٍ . اهـ وقوله عز وجل : ﴿ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أي فإن تركوا
القتال في الحرم ودخلوا في دين الإسلام وأنابوا إلى الله فإن الله يغفر ذنوبهم ولو
كانوا قد قتلوا المسلمين في حرم الله لأن الله تعالى لا يَتَعَاظَمُهُ ذَنْبٌ أَنْ يَغْفِرَهُ
لمن تاب وآمن ثم اهتدى .

قال تعالى : ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين * وأنفقوا في سبيل الله ولا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

بعد أن أمر الله عز وجل بالجهاد في سبيله وملاحقة أعدائه أينما ثقفوا وبين أن فتنة الإنسان عن دين الإسلام أعظم من قتله وأشد خطراً وأكثر ضرراً ، وحذر من القتال عند المسجد الحرام وأن من قاتل المسلمين عند المسجد الحرام وجب قتله ، وأن من تاب تاب الله عليه ، كرر الله تبارك وتعالى هنا الأمر بقتال الكفار إلى غاية هي انقضاء فتنهم ، وأن تكون كلمة الله هي العليا ، حيث يقول عز وجل : ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله﴾ ولا شك أن تكرير الأمر بالجهاد في سبيل الله للقضاء على فتنة المشركين الصادقين عن شريعة الله وحتى تكون كلمة الله هي العليا يقضي بأن الجهاد ذروة سنام الدين ، وقد وصفه رسول الله ﷺ بذلك ، فقد روى أحمد والنسائي وابن ماجه والترمذي وقال : حديث حسن صحيح ، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟» قلت : بلى يا رسول الله ، قال : «رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد» . وقد ذكر الله تبارك وتعالى فضل الجهاد في سبيله وأمر به في مواضع كثيرة من كتابه الكريم حيث يقول في سورة الأنفال : ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾ وقال عز وجل في سورة التوبة : ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وقال عز وجل : ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم

بأن لهم الجنة، يُقاتِلون في سبيل الله فيقتُلون ويُقتَلون وغداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ومَنْ أَوْفَى بعَهده من الله ، فاستبشروا بِبَيْعكم الذي بَايَعْتُمْ به ، وذلك هو الفوز العظيم ﴿ في آيات كثيرة ، وأخبر رسول الله ﷺ أن عمل المجاهد في سبيل الله هو أعظم الأعمال ، فقد روى البخاري من حديث أنس رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله دُلّني على عمل يعدل الجهاد ، قال : « لا أجده » ثم قال : « هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفترّ ، وتصوم ولا تُفطر ؟ » فقال : ومن يستطيع ذلك ؟ . ورواه مسلم بلفظ : قال : قيل يا رسول الله ما يعدل الجهاد في سبيل الله ؟ قال : « لا تستطيعونه » فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً ، كل ذلك يقول : « لا تستطيعونه » ثم قال : « مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يَفُتْرُ من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد في سبيل الله » ، وقد أوضح رسول الله ﷺ أن فضل الجهاد في سبيل الله إنما يكون لمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليُذَكَّرَ ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، وفي رواية : يقاتل شجاعةً ويقاتل حَمِيَّةً ، وفي رواية : يقاتل غضباً فمن في سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » وقوله عز وجل : ﴿ فَإِنْ ائْتَمَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ أي فإن انتهى المشركون عن شركهم وعن فتنتهم للمسلمين وصدّهم عن سبيل الله ، وصارت كلمة الله هي العليا ، فلا عدوان عليهم أي فلا تقتاتلوهم ، قال ابن كثير رحمه الله : والمراد بالعدوان ههنا المعاقبة والمقاتلة كقوله : ﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ ﴾ وقوله : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ اهـ وقال البخاري في صحيحه : باب قوله

﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ ثم ساق بسنده عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما : أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس ضيِّعُوا وأنت ابن عمر وصاحب النبي ﷺ فما يمنعك أن تخرج؟ فقال: يمنعني أن الله حرَّم دم أخي، فقالا: ألم يقل الله: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾؟ فقال: قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله. وفي رواية للبخاري من طريق نافع أن رجلا أتى ابن عمر فقال: يا أبا عبد الرحمن ما حملك على أن تحجَّ عاما وتعتمر عاما وتترك الجهاد في سبيل الله عز وجل وقد علمت ما رغب الله فيه؟ قال: يا ابن أخي، بني الإسلام على خمس: إيمان بالله ورسوله، والصلوات الخمس، وصيام رمضان، وأداء الزكاة، وحج البيت، قال: يا أبا عبد الرحمن ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوها بينهما فإن بَغَتْ إحداها على الأخرى فقاتلوا التي تَبْغِي حتى تَفِيءَ إلى أمر الله﴾، ﴿قاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ قال: قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ، وكان الإسلام قليلا، فكان الرجل يُقْتَلُ في دينه، إما قتلوه، وإما يُعَذَّبونه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة. قال: فما قولك في علي وعثمان؟ قال: أمَّا عثمان فكان الله عفا عنه وأما أنتم فكرهتم أن يعفو الله عنه، وأما عليّ فابن عم رسول الله ﷺ، وختنه، وأشار بيده فقال: بيته حيث ترون. اهـ وقوله تعالى: ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحُرُماتِ قِصَاصٌ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾ هذا تأكيد لحُرمة الشهر الحرام والبلد الحرام وحُرمة الإحرام، وأنه يجب على المسلمين ألا يبدؤوا المشركين بقتال عند المسجد الحرام أو وهم في حالة الإحرام أو في الشهر الحرام، فإذا بدأهم المشركون بقتال في الشهر الحرام، أو في البلد الحرام أو في حالة الإحرام

فإنهم يجوز لهم الردّ عليهم بالمثل ولا إثم عليهم في ذلك ولا حرج ، ولذلك أخرج أحمد بسند صحيح من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام إلا أن يُغزى . . الحديث ، قال ابن كثير رحمه الله : ولهذا لما بلغ النبي ﷺ وهو مخيم بالحديبية أن عثمان قُتل وكان قد بعثه في رسالة إلى المشركين بايع أصحابه وكانوا ألفا وأربعمائة تحت الشجرة على قتال المشركين ، فلما بلغه أن عثمان لم يقتل كفّ عن ذلك وجنح إلى المسالمة والمصالحة فكان ما كان ، وكذلك لما فرغ من قتال هوازن يوم حُنين وتحصّن فلّهم بالطائف عدل إليها فحاصرها ودخل ذو القعدة وهو محاصر لها بالمنجنيق واستمر عليها إلى كمال أربعين يوما ، كما ثبت في الصحيحين عن أنس ، فلما كثر القتل في أصحابه انصرف عنها ولم تُفتَح ثم كرّ راجعا إلى مكة واعتمر من الجعرانة حيث قسم غنائم حنين وكانت عمرته هذه في ذي القعدة أيضا عام ثمان ، صلوات الله وسلامه عليه اهـ وفي قوله عز وجل : ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ إشعار بوجوب العدل حتى مع المشركين وهو تأكيد لقوله تبارك وتعالى في أول آية من آيات القتال في هذا المقام : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ وتسمية معاقبة المعتدي والقصاص منه بمقدار اعتدائه اعتداءً مع أنه حق وصواب وعدل جاء على طريقة الأسلوب البلاغي المعروف في علم البديع باسم المشاكلة على حد قول الشاعر :

قالوا اقترخ شيئا نُجِدْ لك طَبْخَه قلتُ اطْبُخُوا لي جُبَّةً وقميصا
فبدل أن يقول : خيطوا لي جبة وقميصا قال : اطبخوا لي ، مشاكلة لقولهم : نُجِدْ لك طَبْخَه . قال أهل العلم : ومن ذلك قوله تبارك وتعالى : ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ وقوله عز وجل : ﴿وإن عاقبتُم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ وقال القاضي أبو بكر بن العربي في أحكام القرآن : والذي أقول

فيه : إنّ الثاني كالأول في المعنى واللفظ ، لأن معنى الاعتداء في اللغة مجاوزة الحدّ ، وكلا المغنّين موجود في الأول والثاني وإنما اختلف المتعلّق من الأمر والنهي ، فالأول منهّي عنه ، والثاني مأمور به ، وتعلّق الأمر والنهي لا يغيّر الحقائق ولا يقلب المعاني بل إنه يُكسِبُ ما تعلّق به الأمر وَصَفَ الطاعة والحُسن ، ويكسب ما تعلّق به النهي وصف المعصية والقبح ، وكلا الفعلين مجاوزة الحدّ ، وكلا الفعلين يسوء الواقع به ، وأحدهما حق والآخر باطل اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ ترغيب للمسلمين في الثبات على تقوى الله عز وجل التي تجلب لهم النصر من الله ، وترهيب لهم من الاعتداء على المشركين بغير الحق الذي أمرهم الله عز وجل به فيهم . وقوله عز وجل : ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾ أي وابذلوا أيها المسلمون من أموالكم في طريق نشر دين الله وأعطوا المجاهدين من أموالكم لإعلاء كلمة الله ، ولا تُقَصِّروا في ذلك فَتُهْلِكُوا أَنْفُسَكُمْ ، لأن ترك الجهاد أو عدم إعانة المجاهدين يمكن لأعدائكم فيتسلطون عليكم ويذّلونكم ويهلكونكم فتكونون أنتم السبب في إهلاك أنفسكم . قال البخاري في صحيحه في كتاب التفسير: باب قوله : ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾ التهلكة والهلاك واحد . حدثني إسحاق حدثنا النضر حدثنا شعبة عن سليمان قال : سمعت أبا وائل عن حذيفة : ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ قال : نزلت في النفقة . قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح الباري في قوله : نزلت في النفقة ، أي في ترك النفقة في سبيل الله عز وجل وهذا الذي قاله حذيفة جاء مفسراً في حديث أبي أيوب الذي أخرجه مسلم والنسائي وأبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم من طريق أسلم بن عمران قال : كنا بالقسطنطينية فخرج صفّ عظيم من الروم فحمل رجل من

المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم ثم رجع مُقْبِلًا ، فصاح الناس :
سبحان الله ، ألقى بيده إلى التهلكة ، فقال أبو أيوب : أيها الناس إنكم
تُؤَوِّلُونَ هذه الآية على هذا التأويل ، وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار ،
إنّا لما أعزّ الله دينه وكثُر ناصروه قلنا بيننا سرًا : إنّ أموالنا قد ضاعت ، فلو أنّا
أقمنا فيها وأصلحنا ما ضاع منها؟ فأنزل الله هذه الآية فكانت التهلكة هي
الإقامة التي أردناها ، وصحّ عن ابن عباس وجماعة من التابعين نحو ذلك في
تأويل الآية . اهـ وقد روى البخاري ومسلم من حديث زيد بن خالد رضي
الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «من جهّز غازيا فقد غزا» . الحديث . وفي
تذييل هذه الآية الكريمة بقوله عز وجل : ﴿وأحسنوا إن الله يحب
المحسنين﴾ إرشاد للمسلمين بأن يجمعوا في سلوكهم بين تقوى الله وبين
الإحسان الذي هو أعلى مقامات الطاعة حتى في قتالهم لأعدائهم ليفوزوا بها
وعدهم الله عز وجل في قوله : ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾
وقد روى مسلم من حديث أبي يعلى شَدَّاد بن أَوْس رضي الله عنه أن رسول
الله ﷺ قال : «إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلَةَ
وإذا ذبحتم فأحسنوا الذَّبْحَةَ ، وَلْيُحَدِّدْ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلْيُرْخِ ذَبِيحَتَهُ» .
نسأل الله أن يجعلنا من المتقين المحسنين ، والحمد لله رب العالمين .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٧
سورة الفاتحة وأسمائها	٨
الفاتحة أعظم سور القرآن	٨
الرقية بالفاتحة	٩
لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب	١٠
معنى : الحمد لله رب العالمين والنسبة بين الحمد والشكر	١١
وَهُمْ من زعم أن الحمد هو الثناء باللسان وحده	١٢
افتتاح خمس سور من القرآن العظيم بالحمد	١٣
معنى : «الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ»	١٦
معنى : «مالك يوم الدين»	١٨
معنى : «إياك نعبد وإياك نستعين»	١٩
تحقيق : «إياك نعبد وإياك نستعين» يعصم من مذهب الجبرية	
والمعتزلة القدرية	٢٠
معنى : «اهدنا الصراط المستقيم»	٢٠

- التوسل إلى الله بين يدي الدعاء بأسمائه وصفاته وتمجيده ٢١
- تعريف المنعم عليهم ودخول أبي بكر وعمر وعثمان وعلي فيهم
- دخولاً أولياً ٢١
- لم يوصف بالصدقية من أمة محمد ﷺ غير أبي بكر رضي الله عنه . ٢١
- معنى: «غير المغضوب عليهم ولا الضالين» ٢٢

تفسير سورة البقرة

- لماذا سميت سورة البقرة؟ وفضلها ٢٥
- الكلام على «آلَم» والحروف المفارقة في أوائل بعض السور وبعض
- التنبيهات في ذلك ٢٦
- معنى: «ذلك الكتاب» ٢٨
- معنى: «لا ريب فيه» ٢٩
- هداية البيان وهداية التوفيق ٢٩
- معنى: «هدى للمتقين» ٣٠
- تقسيم الناس إلى ثلاثة أقسام وبيان صفات المتقين ٣٠
- معنى: «أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون» ٣٢
- وصف القسم الثاني من الناس وهم من أعلنوا الكفر وعلم الله أنهم
- يموتون كافرين ٣٣
- معنى: «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة» ٣٤
- عرض الفتن على القلوب، لماذا جمع القلوب والأبصار ووجد
- السمع ٣٥

- وصف القسم الثالث من أقسام الناس وهم المنافقون في قوله عز وجل : «ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر» الآية ٣٨
- معنى قوله عز وجل : «يخادعون الله والذين آمنوا» الآية ٣٩
- معنى قوله عز وجل : «في قلوبهم مرض» الآية ٤١
- معنى : «وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض» الآيتين ٤١
- معنى : «وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس» الآية ٤٢
- معنى : «وإذا خلوا إلى شياطينهم» الآيات الثلاث ٤٤
- تفسير قوله عز وجل : «الله يستهزئ بهم» ٤٥
- معنى : «اشتروا الضلالة بالهدى» ٤٧
- ضرب الله للمنافقين مثلاً نارياً ومثلاً مائئياً ٤٩
- فوائد ضرب الأمثال في القرآن الكريم ٥٢
- تفسير قوله تعالى : «يا أيها الناس اعبدوا ربكم» الآيتين ٥٥
- الإقرار بربوبية الله مركز في النفوس ٥٦
- إرسال الرسل وإنزال الكتب لتحقيق أنه لا إله إلا الله ٥٨
- الدليل في الأنفس والآفاق على أنه لا إله إلا الله ٥٩
- معنى : «فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون» ٦٠
- تفسير قوله : «وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا» الآيتين وتقرير النبوة والرسل ومناسبة معجزة كل نبي لما برع فيه قومه ٦١
- القرآن هو المعجزة الكبرى والآية العظمى لمحمد ﷺ ٦٢
- لم يُنقل عن أحد من العرب أنه حاول معارضة القرآن ٦٥
- تفسير قوله تعالى : «وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات» الآية ... ٦٧

- تفسير: «إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة» الآيتين ٧٣
- الحكمة في ضرب المثل بالبعوضة فما فوقها ٧٤
- إثبات صفة الحياء لله عز وجل وقاعدة أهل السنة والجماعة في
إثبات الأسماء والصفات ٧٤
- معنى: الهداية والإضلال ٧٦
- تفسير قوله عز وجل: «كيف تكفرون بالله» الآيتين ٧٩
- ما احتواه الجسم الإنساني من براهين الألوهية لله وحده ٨١
- قوله تعالى: «وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة»
الآية وبيان حقيقة الملائكة ووظائفهم ٨٥
- لم يثبت في خبر صحيح تسمية الحاكم خليفة الله ولا تسمية ذرية آدم
خلفاء الله في الأرض ٨٩
- قوله تعالى: «وعلم آدم الأسماء كلها» الآيات الثلاث ٩١
- آدم هو أبو البشر وأبو الناس كلهم ٩٢
- تقريع الذين يقولون على الله بغير علم ٩٣
- قوله تعالى: «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم» الآية ٩٦
- الحكمة في تكرير هذه القصة في سبع سور من القرآن ٩٧
- إبليس لم يكن من الملائكة ٩٩
- قوله تعالى: «وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة» إلى آخر
الآيات الأربع ١٠١
- ليس في القرآن ولا في السنة ما يدل على أن هذه الوسوسة من
إبليس لآدم كانت في الجنة ١٠٢

- ١٠٤ الجنة التي أخرج منها آدم
- في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة دليل صريح على أن آدم خلق خارج الجنة ١٠٦
- قوله تعالى: «يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي» الآيات الأربع ١٠٧
- معنى: إسرائيل والحكمة في مناداة هؤلاء بأنهم بنوه ١٠٨
- في قوله تعالى: «واركعوا مع الراكعين» حض على الجماعة ١١١
- قوله تعالى: «أتأمرون الناس بالبر» الآيات الثلاث ١١٣
- الظن قد يستعمل بمعنى اليقين وشواهد ١١٧
- قوله تعالى: «يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم» الآيتين. معنى كون القرآن متشابها مثاني ١١٩
- معنى: «وأنى فضلتكم على العالمين» ١٢١
- الشَّفاعة في اللغة وفي الشريعة ١٢٢
- قوله تعالى: «وإذ نجيناكم من آل فرعون» الآيتين ١٢٥
- معنى: «وإذ نجيناكم من آل فرعون» ١٢٦
- لا يستحب العرب استعمال كلمة آل مع المجاهيل وغير المشهورين ١٢٧
- قوله تعالى: «وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة» الآيات الثلاث ١٣٢
- قوله تعالى: «وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم» الآيات الثلاث ١٣٨
- توبة الله على من قُتِلَ من عُبَاد العجل وتابوا إلى الله ١٣٩
- المؤمنون يرون ربهم يوم القيامة ١٤٣
- الرد على من نفى رؤية الله يوم القيامة ١٤٤

- قوله تعالى: «وظللنا عليكم الغمام» الآيات الأربع ١٤٦
- نَزَلَ وَأَنْزَلَ يَأْتِيَانِ بِمَعْنَى وَاحِدٍ وَالرَّدُّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ جَبْرِيلَ تَلْقَى
- القرآن من اللوح المحفوظ ١٤٧
- قوله تعالى: «وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد» الآيتين . ١٥٣
- قوله تعالى: «وإذ أخذنا ميثاقكم» الآيات الأربع ١٥٩
- قوله تعالى: «وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم» الآيات السبع .. ١٦٥
- قوله تعالى: «ثم قست قلوبكم من بعد ذلك» الآيتين ١٧١
- الشواهد على تحريف اليهود للتوراة من واقع أسفارهم ١٧٥
- قوله تعالى: «وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا» الآيات الأربع ١٧٧
- قوله تعالى: «وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة» الآيات الثلاث ١٨٧
- قوله تعالى: «وإذا أخذنا ميثاق بني إسرائيل» الآية ١٩٣
- قوله تعالى: «وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم» الآيات
- الثلاث ١٩٩
- قوله تعالى: «ولقد آتينا موسى الكتاب وقفيناً من بعده بالرسول»
- الآيتين ٢٠٥
- قوله تعالى: «ولما جاءهم كتاب من عند الله» الآيات الثلاث كان
- اليهود يبشرون العرب بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه ... ٢١١
- لم يزل في كتب العهد القديم بعض صفات رسول الله ﷺ وشواهد
- ذلك من أسفارهم ٢١٢
- قوله تعالى: «ولقد جاءكم موسى بالبينات» الآيات الخمس ٢١٧
- معنى قوله تعالى: «قل من كان عدواً لجبريل» الآيات الخمس ٢٢٣

- معنى قوله تعالى: «واتبعوا ما تتلو الشياطين» الآيتين ٢٢٩
- معنى قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا» الآيات
الخمس ٢٣٥
- تعريف النسخ وأمثلة له ٢٣٨
- معنى قوله تعالى: «وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ» الآيتين ٢٤١
- قصة إسلام سلمان رضي الله عنه ٢٤٢
- معنى قوله تعالى: «وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو
نصارى» الآيتين. وفيه صورة واضحة لعنصرية اليهود التلمودية ٢٤٦
- معنى قوله تعالى: «وقالت اليهود ليست النصارى على شيء»
الآيات الثلاث ٢٥١
- معنى قوله تعالى: «وقالوا اتخذ الله ولداً» الآيات الأربع ٢٥٧
- قوله تعالى: «ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم»
الآيات الأربع ٢٦٢
- قوله تعالى: «وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ» الآيتين ٢٦٧
- مقام إبراهيم وحكمة بقاءه ٢٧١
- معنى قوله تعالى: «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا» الآيات
الثلاث ٢٧٣
- قصة بناء البيت الحرام ٢٧٤
- معنى قوله تعالى: «ربنا وابعث فيهم رسولا منهم» الآيات الأربع .. ٢٧٩
- حصر النبوات بعد إبراهيم في ذريته ٢٨٠
- معنى قوله تعالى: «أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ» الآيتين ٢٨٥

- قوله تعالى : «قالوا كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا» الآيات الثلاث ٢٩١
- معنى قوله تعالى : «صبغة الله» الآيتين ٢٩٧
- الناس محتاجون بالضرورة إلى الشريعة السماوية ٢٩٨
- معنى قوله تعالى : «أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب» الآيتين ٣٠٢
- معنى قوله تعالى : «سيقول السفهاء من الناس» الآيات الثلاث وقصة القبلة ٣٠٧
- قوله تعالى : «ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك» الآيات الست ٣١٣
- علماء أهل الكتاب يعرفون أن محمدًا هو رسول الله كما يعرفون أبناءهم ٣١٥
- الحكمة في تكرير الأمر بالتوجه إلى البيت الحرام ثلاث مرات في هذا المقام ٣١٦
- قوله تعالى : «كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا» الآية ٣١٨
- شريعة الإسلام أوفى من سائر الأنظمة بحاجات الأمم والشعوب .. ٣٢٠
- قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة» الآيات الأربع ٣٢٤
- حياة الشهداء ٣٢٧
- معنى قوله تعالى : «إن الصفا والمروة من شعائر الله» الآية ٢٣٩
- قوله تعالى : «إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى» الآية ٣٣٤

- معنى قوله تعالى: «والهكم إله واحد» الآيتين . الدعوى الكبرى
 وبرهانها الكبير ٣٤٠
- ذَكَرَ الله تبارك وتعالى في هذا المقام سبعة أنواع من براهين ألوهيته
 وتوحيده ٣٤٣
- معنى قوله تعالى: «ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا» الآيات
 الثلاث ٣٥١
- قوله تعالى: «يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً»
 الآيتين ٣٥٧
- قوله تعالى: «وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا
 عليه آبائنا» الآيات الأربع ٣٦٣
- قوله تعالى: «إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب» الآيات
 الثلاث ٣٧٠
- تفسير قوله تعالى: «ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق
 والمغرب» الآية ٣٧٧
- تضمنت آية البر هذه ست عشرة قاعدة كل قاعدة منها تحتاج إلى
 كتاب ٣٨٧
- قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى»
 الآيتين ٣٨٨
- قوله تعالى: «كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت» الآيات الثلاث ٣٩٥
- قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام» الآيتين ٤٠٢
- قوله تعالى: «شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن» الآية ٤٠٨

- لم يثبت خبر صحيح مسند إلى رسول الله ﷺ بأن القرآن نزل جملة واحدة إلى سماء الدنيا ثم نجمه جبريل على النبي ﷺ في ثلاث وعشرين سنة وقد ألف مفتي الديار السعودية السابق الشيخ محمد بن إبراهيم لبيان بطلان قول من قال ذلك رسالة مطبوعة . ٤٠٩
- قوله تعالى: «وإذا سألك عبادي عني فإني قريب» الآيتين .
- لكل صائم دعوة مستجابة ٤١٥
- قوله تعالى: «ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام» الآيتين ٤٢٢
- ذكر القرآن الكريم سؤالهم رسول الله ﷺ في أربعة عشر موضعا بترتيب عجيب منها ثمانية في سورة البقرة ٤٢٥
- معنى قوله تعالى: «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا» الآيات الثلاث ٤٢٨
- شرعية القتال في الإسلام ليست بدعا في شرائع الرسل عليهم الصلاة والسلام ٤٢٩
- أمثلة من نصوص التوراة التي بيد اليهود والنصارى ٤٣٠
- معنى قوله تعالى: «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله» الآيات الثلاث ٤٣٤
- تأكيد حرمة الشهر الحرام والبلد الحرام والإحرام ٤٣٦
- إرشاد المسلمين إلى أن يجمعوا في سلوكهم بين التقوى والإحسان ٤٣٩